الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
الرقم التسلسلي : .....
رقم التسجيل : .....

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

النخبة والسلطة في بجاية الحفصية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الأوسط

إعداد الطالب :
بريكة مسعود

إشراف الدكتور
عمارة علاوة

أعضاء لجنة المناقشة	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
الرئيس	أد . بوبة مجاني	أستاذة التعليم العالي	جامعة منتوري- قسنطينة-
المقرر والمشرف	د . عمارة علاوة	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر
العضو	د . يوسف عابد	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر
العضو	د . عبيد بوداود	أستاذ محاضر	جامعة معسكر

السنة الجامعية : 1429-1430هـ/2008-2009

المقـــــدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم و صل اللهم وسلم على نبيك الكريم وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وصحبه الغر الميامين.

استهوى موضوع علاقة السلطة السياسية بصفوة المجتمع في التاريخ الإسلامي الوسيط الكثير من الدارسين، وتحديدا علاقة السلطة بنخبها الفقهية والصوفية، وكان من نتائج تدخل السلطة وممثليها في المؤسسات والأجهزة الدينية والإدارية والعسكرية المُشَكلة من شخصيات مختارة لممارسة الرقابة نحوها حدوث نوعا من الوصاية عليها مما أنتج صراعا بين الطرفين حتى وإن كان خفيا في بعض المرات.

لم ينج المغرب الإسلامي من ذلك التصادم، ولعل ذلك له ما يبرره من الاختلاف المذهبي تارة والعقدي والسياسي أحيانا أخرى، كما أن الاحتكاك الدائم بين الأنظمة السياسية وصفوة المجتمع ونخبه بكل أصنافها جعلت هذه العلاقة تتأرجح بين الود والمعاداة على اختلاف حدتها بحكم طبيعة المكان والزمان والسلطة القائمة، إضافة إلى نوع النخب المتعامل معها سواء داخل أنظمة الحكم أو من خارجها.

حاولت الكثير من الأبحاث والدراسات معالجة هذه العلاقة وفهمها في العصر الوسيط في إطار مفهوم السياسة والتاريخ الإسلامي العام، أو من خلال مؤسسات التربية والتعليم في الإسلام وعلاقتها بالغرب المسيحي أو كنماذج لبعض النخب العلمية التي عرفها الشرق الإسلامي من أمثال كتابات George Makdisi[1]، وكذلك دراسة النخب العلمية والعسكرية ودورها في مصر المملوكية والتي اختص فيها Carl Petry[2]، وكان للأندلس ودور نخبها الثقافية في الغرب الإسلامي وحواضره ومنها بجاية النصيب من خلال أبحاث Dominique Urvoy[3]، وبعض من الدراسات المغاربية[4]، وأبحاثا محلية ركزت على علاقة السلطة بالفقهاء من جهة والصوفية من جهة ثانية

---

(1) George Makdisi : *History and Politics in Eleventh-Century Baghdad* (Collected Studies Series, No 336) Hardcover, Mar 1991.
- Id.,:Rise of Colleges : *Institutions of Learning in Islam and the West*, Hardcover , Aug 1981.
-Id.,:*Religion, Law & Learning in Classical Islam* (Collected Studies Series Cs347),Hardcover, Oct 1991.
-Id.,: *Ibn Qudama's Censure of Speculative Theology: An Edition and translation of Ibn Qudama's Tahrim an-Nazar fi kutub ahl al-kalam*, with introduction and notes; a Contribution to Islamic religious History, Hardcover – 1962.
- Id.,: *The Rise of Humanism in Classical Islam and the Christian West*, Scotland: Edinburgh, University Press, 1990.
- Id.,: « Ibn 'Aqil et la résurgence de l'Islam traditionaliste au X^e siècle (V^e siècle de l'Hégire », *Arabica*, Volume 12, Number 2, 1965 , p. 200-204.

(2) Carl Petry : *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages : Social Autonomy and Political Adversity in Mamluk Egypt*, Princeton University Press (Princeton Studies in the Near East) 1982.
- Id.,: "The Military Institution and Innovation in the Late Mamluk Period," *The Cambridge History of Egypt* 1,(Cambridge, 1998).

(3) Dominique Urvoy : *Pensers d'al-Andalus. La vie intellectuelle à Cordoue et Séville au temps des empires berbères (fin XI^e siècle-début XIII^e siècle)*, Paris, Flammarion, 1990 .
-Id.,: « La structurations du monde des ulémas à Bougie au VII^e -XIII^e siècle», *Studia Islamica*, XIII (1979), p, 87-107.

(4) من هذه الدراسات نذكر على سبيل المثال : عمر بن حمادي : **الفقهاء في عصر المرابطين**، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس، 1987.

- حسين بن عبد الله : **علاقة العلماء بالسلطة الحفصية في إفريقية في العهد الحفصي**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس، 1987.

وحاولت فهمها في الإطار السياسي العام[1]، كنماذج من النخب المؤثرة في المجتمع والفاعلة فيه، مع قلة الدراسات حول بقية القوى المؤثرة كالنخب الإدارية، والتجارية، والعسكرية، والريفية[2]، هذه الأصناف من النخب وإن بدت لأول وهلة أنها جزء من السلطة إلا أنها كثيرا ما دخلت في مواجهة معها لتضارب مصالحهما.

جل الدراسات تناولت الكيانات السياسية بصفة عامة وعواصم هذه الدول المتعاقبة على بلاد المغرب، أما المدن وخاصة بالمغرب الأوسط والأدنى فلم تنل حظها من الدراسة في الفترة الحفصية على أهميتها إما لصعوبة الدراسة حولها أو إهمالا وتناسيا وتفضيلا للبحث في تاريخ الحاضرة تونس رغم أن البعض من هذه المدن واكبتها أو ضاهتها في بعض الأحيان من الناحية السياسية والحضارية كمدينة قفصة وباجة وبسكرة وقسنطينة وأهمها على الإطلاق مدينة بجاية التي عدت ثانية بعد عاصمة الحفصيين فنازعتها السلطان ونازلتها في الرفعة والتي كانت أقل حظا من حيث الدراسات، فنالت الأبحاث حول الحفصيين عموما والجهة الشرقية بشكل خاص النصيب الأكبر من الجانب السياسي والحضاري[3]، في حين شحت في الجهة الغربية التي كان لها الدور البارز في هذه الفترة بمدن عدت عواصما للسلطنة الحفصية الغربية في كثير من الحالات كبجاية وقسنطينة.

- إبراهيم القادري بوتشيش : **المغرب والأندلس في عصر المرابطين : المجتمع، الذهنيات، الأولياء**، ط 2، المغرب : منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تيطوان، 2004.

- نللي سلامة العامري، **الولاية والمجتمع : مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي**، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس.

([1]) الطاهر بونابي : **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين/ 12 و13 الميلاديين**، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2004.

- لخضر بولطيف : فقهاء **المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي (510-668 هـ/1116-1269)** رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2002.

- عبيد بوداود : **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين 7 و9 : دراسة في التاريخ السوسيو- ثقافي-**، دار الغرب، وهران.

- صابرة خطيف : **فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية (633-791هـ/1235-1388م)**، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2004.

- آمال لدرع : **الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني (633-962 هـ/1231-1555م)** رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 1426-1427 هـ/ 2005-2006 م.

([2]) من هذه الدراسات التي اختصت بالقبائل في العهد الحفصي : محمد السعيد : **القبائل الهلالية والسليمية وعلاقاتها بالدولة الحفصية**، تونس، 1987.

- محمد حسن : **القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط**، دار الرياح، تونس، 1986.

- Radhi Daghfous : « Hilaliens et pouvoir politique en Ifriqiya», *Mélanges de l'Ecole française de Rome* ,2003, p. 491-501.

([3]) من هذه الدراسات : جميلة بنت محمد بن ساسي : **الحياة الاجتماعية في تونس من خلال فتاوى البرزلي**، رسالة بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة، جامعة الزيتونة، تونس، 1420-1421هـ/1999-2000م.

- أحمد الطويلي : **مراكز الثقافة والتعليم بمدينة تونس في العهد الحفصي (الجوامع والمدارس والمكتبات)**، تونس، 2000 (دون دار الطبع)

محمد الحبيب بن خوجة : **الحياة الثقافية بإفريقية صدر الدولة الحفصية**، بحث مرقون، مكتبة جامعة الزيتونة، تحت رقم : 18599وكذلك 18754.

لعب موقع بجاية بمحوريته ومركزيته المحلية والجهوية في آن واحد في أن جعلها تحتل المرتبة الثانية بعد تونس وفي الكثير من الأحيان أن تتفوق وتصبح عاصمة للسلطنة الحفصية الغربية مستقطبة للكثير من النخب المتعددة التخصصات والمتنوعة الانتماءات صانعة لنفسها مجالا جغرافيا متميزا وفضاءا سياسيا وعلميا واسعا ونشاطا اقتصاديا حيويا، فشكل لها ذلك كينونة خاصة حسب المصادر بين حفص يولونها اهتماماتهم ضمانا لوحدة تراب الدولة.

رغم هذه الأهمية إلا أن الدراسات التي تناولت بجاية على قلتها مقارنة بتونس بحثت الجانب السياسي في مضمونه العام[1]، وبعض الأبحاث الجادة في غالبيتها عن الحياة الثقافية والاقتصادية الاجتماعية، والتي وإن كانت قليلة فإنها كشفت لنا موروثا بجائيا زاخرا[2]، مما استدعى إكمال تلك الأعمال بالكشف عن علاقة النخب التي صنعت ديناميكية وحيوية العاصمة الثانية للحفصيين وعلاقتهم بالسلطة في مجال جغرافي واسع امتد على كثير من أراضي المغرب الأوسط وفترة زمنية معتبرة فاقت 280 سنة ميلادية لأن طبيعة الموضوع تطلب مني البحث في كامل الفترة لأنها كل متكامل لا يمكن تقسيمه زمنيا، فالسلطة القائمة واحدة والنخب متعددة جغرافيا وتخصصا بلغت 255 شخصية فقهية وصوفية وإدارية وعسكرية وتجارية لتفادي الإقصاء والعمل بشمولية. جاء إذا هذا البحث الموسوم بـ "**النخبة والسلطة في بجاية الحفصية**" من 626-912هـ/1229-1509م[3]، كمحاولة لفهم هذه العلاقة في ظل نقص الدراسات التي تناولت النخب البجائية التي تنوعت تخصصاتها العلمية والوظيفية وعلاقاتها بالحفصيين بشكل كلي وتركيزها على الفقهاء[4]، أو عينات ونماذج من نخب كان لها الأثر البارز ببجاية بصفة

- عبد العزيز الدولاتي : **مدينة تونس في العهد الحفصي**، تعريب، محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتي، دار سراس، تونس، 1981.

([1]) من هذه الأبحاث التي تعرضت لبجاية سياسيا في الإطار العام للدولة الحفصية نذكر : روبار برونشفيك : **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 10 إلى القرن 13م**، ترجمة حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

- محمد العروسي، المطوي : **السلطنة الحفصية : تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**،: دار الغرب الإسلامي، بيروت (1406هـ/1986م).

- الصالح بن أحمد : **بجاية في العهد الحفصي (628-748هـ/1230-1347م)**، بحث في المنهجية لدبلوم الدراسات المعمقة، جامعة قسنطينة،(1378هـ/1978م).

- Charles Féraud : *Histoire de Bougie*, rééd. Bouchènes, 2001.

([2]) سأتناول أهمها في عرض الدراسات وأشير إلى البعض الآخر هنا مثل :

-Dominique Valérian: : *Bougie, port maghrébin du XI^e au XVI^e*, mémoire de DEA, Université de Paris 1, 1993-1994.

- Laura Balleto:« Bougie nei manuali toscani di mercatura del due --trecento», *Italia et Algeria,* Milano, 1982, p. 81-95..

وبعضها عن فقهاء وأدباء وشعراء بجاية من بينها :

-Cherbonnea : «Aicha Poète de Bougie au VII^e siècle de l'hégrie», *Revue Africaine,*19 (1859), p. 34.

([3]) لم ألحق هذا التاريخ بعنوان الرسالة لأنني أعتقد أن مصطلح "الحفصية" يفهم منه فترة حكمهم ببجاية منذ دخولهم لها إلى غاية سقوطها في يد الإسبان، فاستغنيت عن ذكر التاريخ، ولكي لا يقع اللبس دونته في المقدمة.

([4]) شأن دراسة : حسين بن عبد الله : **علاقة العلماء بالسلطة الحفصية في إفريقية في العهد الحفصي**.

- Salah Baizig:« Individu ordinaire et pouvoir religieux à Bidjaya à l'époque médiévale : typologie des comportements», *séminaire Hammamet*, 4-6 mai, Tunis, 2000.

- Dominique, Urvoy: *op. cit.*, p. 78-107.

عامة[1]، والبعض منها في ثنايا بعض الدراسات[2]، فالهدف من الدراسة ينصب بالخصوص في تحديد طبيعة علاقة الصفوة البجائية بالسلطة الحفصية والعوامل المتحكمة في طبيعة هذه العلاقة وما نتج عنها من محاولات بجاية المتكررة في الانفصال عن المركز وصناعة قرارها بنفسها والتطلع إلى تكوين كيان سياسي مستقل بكامل الجهة الغربية لتوفرها على الدعائم والإمكانات اللازمة لذلك، وأشير إلى أن الدراسة شملت الفترة التي خضعت فيها بجاية إلى النفوذ المريني.

اعتبرت بجاية على غرار نظيراتها من المدن الحفصية على أنها موروثا موحديا شرعيا للحفصيين والذين تولوا إمارتها ممثلين للسلطة المركزية، على رأسهم والي بجاية والموظفين الكبار الذين أشرفوا على إدارتها، كما شهدت بحكم عوامل عدة تدفقا للفقهاء والصوفية من مختلف المناطق والبلدان، ومجالا جغرافيا توزعت عليه الكثير من القبائل العربية والبربرية، لذلك فقد تمحورت إشكالية الدراسة في فهم طبيعة النظام السياسي الحفصي وهل كان لموروثه الموحدي بمرجعياته العقدية والمذهبية دورا في توجيه علاقة النخبة البجائية بالسلطة على نمط معين وسياق محدد؟ وإن لم تكن كذلك فما هي الأسس التي إنبنت عليها هذه العلاقة ونتائجها؟

بحكم أن ولاة بجاية كانوا يعينون من تونس للإشراف على المدينة وما يتبعها في فترة زمنية عرفت فيها نشاطا ثقافيا مميزا وحركة اقتصادية دؤوبة بفعل نخبها على اختلاف تخصصاتهم، فما هي المعايير المعتبرة في تنصيب هؤلاء الأمراء؟ هل كان الانتماء للبيت الحفصي شرطا دائما في التولية أم لا؟ هل استطاعت الأسرة الحفصية من الفرع البجائي النشأة تقلد الولاية؟ وما موقف النخبة منها؟ هل اقتصرت النخبة البجائية على الفقهاء فقط؟ هل أثر العامل السياسي الذي مثلته السلطة في الفضاء العلمي وكيف؟ وقد حاولت السلطة احتواء النخب الفقهية من خلال الجهاز الديني ودمجهم في منظومتها الوظيفية، من خلال المؤسسات الدينية والتعليمية والقضائية، فهل وفقت في توجيه السلطة العلمية لخدمة مشروعها السياسي؟ وما هي معايير التعيين في الوظائف؟ كيف كان تعامل السلطة مع المعارضة ومصيرها؟

كثيرا ما كانت النخب الإدارية والعسكرية أداة السلطة لبسط نفوذها وتمثيل سياستها وتنفيذ قراراتها في المدن الحفصية ضمانا لتبعيتها، وكان التجار الكبار مخزونها الذي تعتمد عليه ماليا، فهل كانت النخبة الإدارية من ة المحلية؟ ألم يساهم ا لية؟ ألم يساهم الاختلاف الجغرافي والتعدد السياسي لتلك النخب في خلخلة الأوضاع الإدارية؟ وهل ساهمت هذه الفئة خاصة من الحجاب الأندلسيين في صناعة القرار السياسي البجائي وتكريس انفصالها عن تونس؟ ما موقع العنصر المحلي من الوظائف الإدارية والعسكرية؟ هل حافظ شيوخ الموحدين على نفوذهم الإداري والعسكري؟ هل الجاه هو السبب الفاعل الذي جعل التجار الكبار يساهمون في صناعة ملك بجاية؟

---

(1) Salah Baizig :« L'élite andalouse à Tunis et à Bougie et le pouvoir hafside», *Mélanges de l'Ecole française de Rome*,(2003), p. 523-542.

(2) كعلاقة بعض صوفية بجاية بالسلطة الحفصية في دراسة : الطاهر بونابي : **المرجع السابق**، ص 195-209.

- وعن علاقة بعض القبائل البجائية بالمدينة الحضرية أنظر : بعيزيق : «الاندماج القبلي في مجتمع المدينة : مثال قبيلة زواوة ومدينة بجاية في العهد الحفصي»، **المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية**، 127، (2004)، ص115-136.

عرفت بجاية الحفصية أزمة سياسية ساهم فيها طلاب العرش من الأمراء الحفصيين وكرستها الدول المجاورة بتحرشاتها المستمرة مما نتج عنها أزمة على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي. فهل كانت تلك الظروف مناخا ملائما لبروز المعارضة المكشوفة التي مثلها شيوخ القبائل، والهادئة التي كان المتصوفة روادها؟ وإلى أي مدى ساهم شيوخ القبائل في تغذية الصراع المحلي-المحلي والمحلي-الجهوي؟ وهل كانت النخب تتوسط للسلطة لاحتواء المعارضة؟ وما مصير الموروث الموحدي ببجاية؟

من أهم الأبحاث التي مست موضوع البحث بشكل مباشر أو غير مباشر واستفدت منها بدرجات متفاوتة دراسة روبار برونشفيك Robert Brunschvig « **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 10 إلى القرن 13م**»[1]، والذي ساعده تكوينه باللغة العربية ومزاولته التدريس بتونس للتخصص في تلك الحقبة من تاريخ المغرب الإسلامي، فجاءت أطروحة الدكتوراه التي تعرض فيها إلى الشق السياسي الحفصي البجائي ممثلا في الولاة وعلاقتهم بالحاضرة، وقد أعطى بعض التبريرات التي يمكن التعليق عليها فيما يخص موقف ثورة بعض الولاة على المركز وإعلانهم الاستقلال، مركزا على تأثير البجائيين على الطبقة السياسية وربطها بالعقلية البربرية التي تأبى الخضوع، مبرءًا السلطة من تلك الممارسات ومدى إسهامها فيها، فكان خير مدافع عنها. كنا أنه تناول الجانب الحضاري ببجاية، وقد وضح صورة التعليم والقضاء بها مجردا من علاقته بالسلطة السياسية وكيفية إشرافها على تلك الأجهزة إلا من باب سلطة التعيين، وقد خدمت هذه الدراسة موضوعي بشكل كبير، إلا أن شموليتها لكل تراب السلطنة الحفصية جعل الباحث يطلق بعض الأحكام العامة على كل الحواضر والتي اختلفت فيما بينها في كثير من الأشياء وفي مقدمتها موقفها من الموروث الموحدي. ونجمل القول أنه يمكن للباحثين تقسيم أطروحته وتناول المدن والأقاليم التي أتى عليها بإشاراته أحيانا وتفصيلاته في أخرى لتكون بحثا مستقلا أكثر دقة خاصة الجانب الحضاري منه.

و أنجز حول بجاية الباحث التونسي صالح بعيزيق رسالة دكتوراه دولة بعنوان « **بجاية في العهد الحفصي : دراسة اجتماعية واقتصادية**»[2]، كتكملة لرسالة الماجستير حول « **الحياة الثقافية في بجاية في العهد الحفصي**»[3]، تناول الجانب السياسي والحضاري للمدينة معتمدا على الإحصائيات إلا أنه كان قاصرا في الإلمام بولاة بجاية مقتصرا على البعض منهم، وحدوث خلط بين الولاة والحجاب، وقد مس الجانب الاجتماعي في موضوعه دراستي بشكل مباشر في بعض المواضع، عند تناوله لعلاقة التجار بالسلطة ودور المال في صناعة الجاه، مركزا على الطوائف بشكل أقل من خلال النماذج التي ارتكز فيها على التي ارتكز فيها على الغبريني، لكن اقتصاره على «**عنوان الدراية**» جعل بحثه ينحصر في القرن 7هـ/13م مما جعل النتائج يشوبها بعض

([1]) نشرت لأول مرة بعنوان : *La Berbérie orientale sous les Hafsides (Des origines à la fin du XV^e siècle)* «**بلاد البربر الشرقية في العهد الحفصي (من النشأة إلى نهاية القرن الخامس عشر)**»، نشر الجزء الأول من معهد الدراسات الشرقية بالجزائر سنة 1940، ثم الجزء الثاني سنة 1947.

([2]) منشورات كلية الآداب، جامعة تونس، تونس، 2006.

([3]) رسالة ماجستير، كلية 9 أفريل، تونس، 1988.

الغموض لتركيزه على فترة قصيرة من حكم الحفصيين ببجاية، فكان بحثي إكمالا للقرنين المتبقين مع البحث عن النخب الأخرى التي عرفتها بجاية خارج عنوان الدراية وهي كثيرة والتي لم يأت عليها الغبريني، علما أن العلاقة بين السلطة السياسية والعلمية تطورت كرنولوجيا خلال الفترة التي قاربت الثلاثة قرون، عموما أقول أن دراسة بعيزيق ساعدتني في قراءة النصوص المصدرية وتحليلها بطريقة أفادت بشكل كبير البحث.

حاولت الدراسة التي أنجزها محمد الشريف سيدي موسى والموسومة بـ " **الحياة الفكرية في بجاية ما بين القرنين 7و10 الهجريين الموافق للقرن 13و16 الميلاديين**"[1]، تناول فيها الجانب الحضاري ببجاية معرفا بالمؤسسات التعليمية ومعرجا على التدريس وجل الذين تقلدوا هذه الوظيفة ببجاية في الفصل الثالث ثم قسم العلوم التي نبغ فيها فقهاء وشيوخ بجاية على الفصول الثلاث المتبقية (العلوم اللسانية، الاجتماعية، الطبيعية).

وفق في الإلمام بالنخب العلمية التي كانت ببجاية بمختلف تخصصاتها من البجائيين أصلا أو من المهاجرين إليها بتناوله لحياتهم العلمية والوظائف التي باشروها ورحلاتهم نحو بلاد المشرق والأندلس، وقد سهل لي مهمة إعادة جمع تلك التراجم وإحصائها لاستنتاج تشكل الفضاء العلمي البجائي ورسم علاقة تلك النخب بالسلطة من خلال الجهاز الديني.

غلبت التراجم على دراسته مما جعل البحث يغلب عليه الجانب الوصفي رغم توفر المادة العلمية وإسهاب الباحث في التعريف بكل من حل ببجاية دون إعطاء مبررات لذلك الاستقطاب وتفسير أسباب التفوق البجائي وقوة العطاء العلمي وفهم إذا كان ذلك نتاج اندماج العنصر المحلي مع النخب المستقطبة أم إبداع منفصل بكينونته المحلية، فحاولت من خلال نقاط الالتقاء مع دراسته إكمال ذلك النقص باستخدام الإحصائيات وتفكيك الأرقام والتعليق عليها لمعرفة مدى تأثير العامل السياسي في تشكل الفضاء العلمي.

آخر الأبحاث التي لها علاقة بموضوعي أطروحة الدكتوراه عن بجاية في الفترة الحفصية للباحث الفرنسي دومينيك فالريون Dominique Valérian الموسومة بـ"*Bougie, port maghrébin 1067-1510*"[2]، تناول فيها بالدراسة دور بجاية التجاري في البحر المتوسط وعلاقاتها، وقد تعرض قبل ذلك إلى الأهمية الإستراتيجية لبجاية وتشكل الفضاء السياسي بهوية مستقلة في إطار حفصي مما شجعها على الاستقلال، وقد أفادني عند تعرضه لدور نماذج من النخب في سياسية بجاية مركزا على أعيان المدينة كممثلين للمجتمع الحضري وشيوخ القبائل كممثلين للنظام القبلي ومظاهر دعمهم للسلطة وخروجهم عنها والعوامل التي تحكمت في ذلك، لكن غلب على تفسيره الجانب المادي وجعل «الإقطاعات» أو المصالح المادية هي الأساس في صناعة مواقف شيوخ القبائل التابعة للفضاء البجائي وبنى علاقتها بالسلطة الحفصية بالمدينة على مدى العطاء المقدم للمشيخة، في حين أنني وجدت أن بعضهم لم تحركه المصلحة ووقوفه إلى جانب تلك السلطة في مراحل ضعفها رغم الإغراءات المقدمة من بعض السلطات السياسية الخارجية.

([1]) محمد الشريف سيدي موسى : **الحياة الفكرية في بجاية ما بين القرنين 7و10 الهجريين الموافق للقرن 13و16 الميلاديين**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2002.

([2]) *Ecole française de Rome, 2006.*

لقد حاولت بقدر المستطاع الاستفادة من المناهج الحديثة، وقبل جمع المادة الخبرية المتصلة بالموضوع بشكل مباشر عرجت على قراءة كتب التراث الأدبي والسياسي، وكتب الاجتماع والسياسة الغربية والتي مكنتني من عقد مقاربة بين مفهوم النخبة عند كل من الاتجاهين، ليسهل تحديد مقاييس النخبوية وتبويبها، وساعدتني كتابات الفكر السياسي خاصة مؤلفات رضوان السيد في بلورة العلاقة بين السلطة السياسية والسلطة العلمية في التاريخ الإسلامي.

ثم انتقلت بعدها إلى جمع المادة التي تعددت بين الأحداث السياسية والعسكرية، ورصد وإحصاء من النصوص المصدرية تراجم كل النخب بمختلف أصنافها وتخصصاتها وحصرها في جداول ثم توزيعها على القرون الثلاثة محل الدراسة، ليتم اختيار النخبويين منهم بعد تحديد معايير ذلك الانتقاء بالمقارنة مع ما جاء في الفصل التمهيدي حول مقاييس النخبوية، ثم التعرف على أصولهم الجغرافية والإثنية وتتبع نشاطهم ورحلاتهم ووظائفهم ، محاولا تحليل الإحصاءات والأرقام والأشكال البيانية واستخراج الظواهر الملفتة للنظر وتعليلها، لفهم تحركات النخبة البجائية لإيجاد تبريرات موضوعية لدينامية الحراك السياسي والعلمي الذي تميز به الفضاء البجائي الواسع، و لم يكن ذلك سهلا في ظل الفراغ الكبير في تراجم القرن (9هـ/14م) باستثناء النخب العسكرية والقلة من الإدارية التي أوردتها لم يخل من مجموع حوالي 255 شخصية لم نتعرف إلا على 44 شخصية بنسبة 17,25%، ويعود ذلك لغياب كتب الفهارس والتراجم التي تعد مصدر تراجم الفقهاء والصوفية مقارنة بالقرن 7هـ/13م، مما جعل هذه الطريقة تأخذ مني وقتا طويلا وجهدا مضاعفا لأقف على المجموع السابق، ولا أدعي أنني ألممت بكل النخب إلا أنني أتيت على جلها وأهمها.

وعلى نفس النهج سيرت في إحصاء الولاة الذين تعاقبوا على بجاية طيلة الفترة الحفصية والذين وصل عددهم إلى 32 واليا مستندا على التاريخ السياسي للسلطنة الحفصية فيما يخص الشق البجائي لفهم علاقتها بالمركز، ومدى إسهامات الولاة في تركيز سلطة الدولة، وتطلب مني ذلك تفكيك الأحداث السياسية الشاملة لفهم علاقة السلطة السياسية بالسلطة العلمية الحضرية الممثلة في الفقهاء والصوفية والنخبة الريفية. ثن عرجت على دارسة المادة المجموعة بتوزيعها على الفصول ودراستها على ضوء مناهج متعددة جمعت بين الإحصاء والتركيب وتحليل الأرقام واستنطاقها وقراءة الإشارات القليلة التي ألمحت إليها بعض المصادر في ظل افتقارنا لنصوص صريحة تخدم الموضوع بشكل مباشر.

وقد اعترضتني الكثير من الصعوبات في تخريج المادة الخبرية وصياغتها، وأهمها أن جل الأخبار التي تحويها المصادر بأنواعها عن بجاية الحفصية غلب عليها الجانب السياسي وغياب شبه تام للشق الحضاري، مما جعلني أبحث في ثنايا النصوص وبين الأسطر محاولا إيجاد الشق المفقود وإعادة صياغة النصوص لاكتشاف الحلقة المفقودة.

غياب نصوصا مصدرية صريحة تخدم موضوع علاقة السلطة بالنخبة لطبيعة الكتابة التاريخية البلاطية الموجهة في أغلب الأحيان لخدمة السلاطين والأمراء، هذه الرقابة السياسية إن صح التعبير جعلت أغلب الكتابات تشيد بالحفصيين وإنجازاتهم، دون التعريج على المحن التي تعرضت لها النخب التي لم تساير التيار، ويتجاوز على سبيل المثال الغبريني وابن القنفد لبعض ما تعرض له الفقهاء بحجة أن المقام لا يسمح بسردها أو أنه لا فائدة من ذكرها

ليصل لنا النص مبتورا فحاولت البحث عن الحلقة المفقودة بإعادة تفكيك النصوص وبنائها من جديد للوصول إلى النتائج، فكان المنهج التحليلي ملاذي في ذلك.

اضطراب المصادر في تاريخ وفاة الكثير من هذه النخب والبعض منها مبتور من الزمن، مما استدعى قراءة تراجم تلاميذه أو أساتذته، كما أن كتب الطبقات والتراجم أبخست الكثير من الفقهاء والصوفية حقهم في التعريف بهم على أهميتهم، كما أنه ليس من السهل تحديد الأصول الجغرافية للنخب الدخيلة على بجاية لغياب المعلومات عنها من جهة ولكثرتها من وجهة أخرى، وساهم في هذا التدافع نحوها موقعها الذي يعد همزة وصل بين المشرق والمغرب، ولتجاوز هذه الإشكالية فقد اعتبرت كل من كان بجائي المولد والنشأة ومن استقر بها من المهاجرين إليها عنصرا بجائيا بشرط أن يكون من الصفوة.

تعاملت تلف المصادر لإثراء البحث والتوصل إلى الإجابة على الإشكاليات المطروحة، فاستخدمت كتب التراجم والطبقات والتاريخ وكتب الفقه والنوازل والجغرافية والرحلة، ومصادر التراث السياسي والآداب السلطانية، وفي مجملها خدمت الدراسة بشكل متفاوت على صعوبة التعامل معها خاصة وأن المادة العلمية التي تغطي الفترة الحفصية ببجاية متفرقة وفي بعض فتراتها غير منتظمة، وقد شكلت المصادر الأدبية عائقا للدراسة بسبب فقداننا للوثائق الرسمية الخاصة بتولية الموظفين في مختلف المناصب وأرشيف القضاء التي تعد مصادر أصلية تخدم الموضوع بشكل بارز، وتدل الإشارات الواردة خاصة عند الغبريني وغيره عن وجودها ببجاية، وأن القضاة كانوا يحتفظون بسجلات عقود الزواج، كما أن ديوان البحر كان يمتلك عقود البيع والشراء بأنواعها، وقد اختلفت الاستفادة منها بحسب المادة الخبرية التي قدمتها هذه المصادر، وتطلبت طبيعة الموضوع إعادة قراءتها لمرات لفهم طبيعة العلاقة بين النخبة والسلطة.

شكلت **كتب التراجم والطبقات** أهمية جليلة لدراسة موضوع النخبة والسلطة ببجاية الحفصية لتتبعه حياة الفقهاء والمتصوفة خلال الفترة المدروسة، ورغم تركيزها على حياتهم العلمية ورحلاتهم ووظائفهم إلا أن الكثير من الإشارات في مضمون هذه التراجم كشفت عن طبيعة تلك العلاقة، خاصة إذا أكملت بأنواع أخرى من الكتابات لتفي الدراسة حقها، وقد رتبتها حسب أهميتها

يعد كتاب أبي العباس الغبريني (ت 704 هـ/1304م)**"عنوان الدراية الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"**[1]، أهم مصدر في كتب التراجم عدت إليه في جل فصول البحث لطبيعة المادة الخبرية التي وردت فيه، فقد استفدت من 96 ترجمة أوردها في كتابه من مجموع 108 خلال القرن7هـ/13م) جلهم من الفقهاء والمتصوفة والأدباء والشعراء من بجاية أصلا ومن الوافدين عليها من المغرب الأوسط وافريقية والمغرب الأقصى والأندلس وبلاد المشرق، وتتبع موقفهم من السلطة من خلال الوظائف التي عرضت عليهم والمناصب التي شغلوها، وكيفيات تعاملهم معها، وتحديد انتماءاتهم الجغرافية وأصولهم الإثنية، وتعرفنا من خلاله على الصراع بين الأندلسيين والبجائيين خاصة على التعليم، وكانت المادة المتصلة بالموضوع مباشرة شحيحة مما جعلنا نضطر إلى

([1]) تحقيق وتقديم عمار الطالبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971.

إعادة قراءة النصوص وتركيبها من جديد، وإعطاء كرامات ومناقب المتصوفة بعدها السياسي خاصة وأنها كثيرة، والتي رواها وهو مؤمن بها ومعتقدا فيها لمحاولة تحديد موقفهم بدقة من السلطة الحفصية. لم يتناول ما تعرض له الفقهاء من المحن والأذى على يد أمراء بني حفص وموظفيهم الكبار، ولعل قرابته من الأمير أبي زكريا بن أبي إسحاق ثم أبي البقاء خالد ومكانته بينهما عاملا أثر في كتاباته على أهميتها، أطنب في تراجم بعض الشخصيات التي دخلت بجاية و لم تمكث بها إلا فترة قصيرة بحكم صوفيتها وهو ما وافق توجهه، وكمثال على ذلك ترجمته للصوفي أبي الحسن الحرالي (ت 638هـ/ 1241م) التي تجاوزت 12 صفحة جلها كرامات، في حين لم تتعد ترجمة الفقيه ناصر الدين المشدالي (ت731هـ/1330م) نصف الصفحة على شهرته وذياع صيته.

ورغم أن كتاب ابن القنفذ القسنطيني (ت 810هـ/1407م) الموسوم بـ **"أنس الفقير وعز الحقير"**[1]، خصصه صاحبه للتعريف بأبي مدين شعيب (ت 594هـ/1198م) إلا أنه عرج على تلاميذ الشيخ وأتباعه، وأفادني في الموضوع في التعريف بشخصيات صوفية بجائية على قلتها إلا أن المادة التي يقدمها دقيقة جدا من خلال ترجمته لجده أبي يعقوب يوسف الملاري (ت 717هـ/1318م) ودوره في الوساطات والعلاقات بين الحفصيين ببجاية وقسنطينة وعرج بالحديث على مواقف السلطة من بعض صوفية بجاية، وإن كان لم يصرح بها إلا أنها تفهم من ثنايا النصوص الواردة عنده بحكم أنه كان أحد رجالات النظام الحفصي بقسنطينة.

يعود الفضل لمصدر مشرقي في الترجمة لكثير من فقهاء وأدباء وشعراء بجاية في القرن (9هـ/15م)، فجاء كتاب «**الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**"[2] لشمس الدين السخاوي (ت 902 هـ/ 1545م)، زاخرا بالذين التقى بهم بمصر وببلاد الشام والحجاز معتمدا على الرواية الشفوية لتلاميذه البجائيين عن شيوخهم خاصة الزواويين والمشداليين، أو ترجمه لبعض شيوخه وأساتذته ذوي الأصول البجائية والذين استقروا ببلاد المشرق، و لم يستثن بالتعريف حتى تلاميذه البجائيين الذين تفوقوا وحصلوا على المشيخة بالمدينة المنورة والقاهرة، ورغم أن الكثير منها لا يتعدى بعض الأسطر إلا أنه أفادني في التعرف على الفضاء العلمي البجائي ببلاد المشرق من خلال الوظائف الدينية والإدارية التي أسندت لهم، وقد أمكن لنا من التعرف على أسرة عبد القوي التي استقرت بمكة والمدينة ومنهم رقية بنت عبد القوي (ت 774هـ/1382م) التي أجازته.

أما كتاب **"نيل الإبتهاج بتطريز الديباج"**[3] لأحمد بابا التنبكتي (ت 1036 هـ/1626م) ، والذي يعد ذيلا للديباج المذهب لابن فرحون (ت 799هـ/1369م) فيعد موسوعة ضخمة لتراجم فقهاء المالكية، و قد استفدت منه في ترجمة لفقهاء المذهب المالكي ببجاية وصوفيتها وينقل التنبكتي عن مصادر معروفة وأخرى في حكم المفقود ويصرح بها عند ترجمته للشخصية مما أضفى المصداقية على عمله.

---

(1) تحقيق أدولف فور ومحمد الفاسي، الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب،1965، وهي طبعة حجرية. واعتمدت على نسخة جديدة : تحقيق نجاح عوض صيام، : دار المقطم، القاهرة، 1422- 2002.

(2) دار مكتبة الحياة، بيروت، (د ت).

(3) تحقيق : علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1423هـ/ 2004.

جاءت السيرة الذاتية لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ/1405م) التي تضمنها "**كتاب العبر**" والتي طبعت مستقلة بعنوان "**التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا**"[1]، للتعريف بحياته العلمية و السياسية, مليئة بكثير من الأحداث والتي كان صانعا للبعض منها ببجاية، وكانت الاستفادة من رحلته في ترجمته لشيوخه من البجائيين أو من الذين حطوا بالمدينة أثناء دخول السلطان أبي عنان المريني وحضور مجالسهم العلمية، كما أبرز من خلالها دوره السياسي والتعليمي من خلال تقلده الحجابة ببجاية للأمير أبي عبد الله وإدارة شؤونها ما يقارب السنة, ومشاركا في حياتها العلمية كخطيب و إمام بجامع القصبة، ووسيطا ناجحا لاستمالة شيوخ القبائل، فكانت أخباره مادة علمية كشفت الغطاء عن العلاقة بين القيادات القبلية والسلطة الحفصية.

ويمكننا أن نصنف "**سبك المقال في فك العقال**"[2] لعبد الواحد ابن الطواح التونسي (حيا 718هـ/1318م) ، مع كتب التراجم للتعريف الذي قدمه للشيوخ الذين قرأ عليهم وبعض من سمع عنهم معتمدا على الرواية الشفوية، كما أننا نستطيع أن نضعه مع الفهارس والبرامج لأنه يتضمن شيوخه ورحلاته العلمية وما درسه من العلوم والكتب وما حصل عليه من الإجازات، جاء كتابه ترجمة لستة وعشرين من الفقهاء و المتصوفة وعلى صغر تراجمهم إلا أن القيمة العلمية للمادة التي تحتويها غطت ذلك النقص, وقد تفرد بذكر بعض الأخبار عن بجاية أثناء حلوله بها سنة 695هـ/1295م، وفي ثنايا الكثير من التراجم أخبارا انفرد بها عن غيره من المصادر، وأبرز الصراع بين الأسرة الحفصية على حكم المدينة وأثره على الحياة الثقافية وعلى النخب خاصة الصوفية الذين تعاطف معهم ومال إلى تأييدهم، وقد سمحت له إقامته ببجاية الإطلاع على أحوالها السياسية والأخلاقية التي عان منها المجتمع البجائي جراء انتشار الفساد مشيرا إلى تعاطي الشباب للحشيش والخمور وقصور السلطة في محاربة تلك الظواهر، وأشار إلى المحاباة في تقلد المناصب وظلم الحجاب، ومعانته مع السلطة وبعض المتآمرين معها وسوء عاقبته بسجنه ومحنته في بجاية، وأفاد بلقائه لناصر الدين المشدالي وأبي العباس الغبريني ووصف دروسه وطبيعة الطلبة الذين كانوا يرتادونها بالجامع الأعظم ومناقشتهم، وكانت له زيارة ثانية لبجاية سنة 710هـ/1310م لكنه لا يذكر إلا لقائه بأبي علي الصنهاجي.

وأخذ هذا النوع من المصادر عند بعض المؤلفين طابع الموسوعية في التراجم التي تناولتها بشكل مفصل وقد أفادتني كثيرا لأنها احتوت على بعض الإشارات التي استطعت منها الولوج إلى بعض التخريجات لفهم النصوص وأهمها كتاب "**الإحاطة في أخبار غرناطة**"[3] لابن الخطيب (ت 776هـ/1374م) ، الذي خصه لذكر أعلام غرناطة الأصليين أو الوافدين عليها وأكمله سنة 772هـ/1370م, وقد استفدت منه في ترجمته لفقهاء بجاية من الذين دخلوا مدينته أو من الغرناطيين الذين حطوا الرحال بها وتقلدوا الوظائف لدى الحفصيين أمثال : إبراهيم ابن الحاج النميري (ت 768هـ/1366م) ودوره في الكتابة لأمرائهم، وساعد في فهم العلاقة بين النخبة الإدارية والسلطة في بعض التراجم التي توسع في الحديث عنها وعن ما جرى لها جراء مواقفها المعادية للسلطة من أفواههم

([1]) تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1425هـ/ 2004م.

([2]) تحقيق : محمد مسعود جبران، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

([3]) تحقيق : محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1339هـ/1973.

مما زاد في مصداقية النصوص التي أوردها. تتميز كتاباته بالإلمام بشخصية المترجم، فيأتي على التعريف بمشيختها ورحلاتها ووظائفها والتدقيق في مسيرتها خاصة الذين التقى بهم وصاحبهم على شاكلة منصور بن علي الزواوي الذي أفاض في الحديث عن حياته رواية عنه بعد أن لقيه بغرناطة.

نفس الشأن لموسوعة **"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"**[1] لأبي العباس المقري (ت1041هـ/1631م)، والذي انتهى من تأليفه سنة 1028هـ/1618م، ورغم أن أغلب الكتاب جاء في معظمه لتدوين سيرة عائلته خاصة جده محمد أبي عبد الله المقري إلا أنه أفاد الدراسة في كثير من مواضعها، في معرض حديثه عن النخب التي هاجرت من الأندلس واستقرار البعض منها ببجاية بالتعرف على أسباب توطنها وتآليفها والمناصب التي تقلدتها ودور بجاية في صقل مواهبها وأسباب استقطاب المركز لها كأبي مطرف بن عميرة (ت658هـ/1259م) وأبي الحسن الحرالي وابن الأبار وغيرهم، وأثر هذه الفئة في إثراء الحياة الفكرية ببجاية، وأتى على شيوخ جده نقلا عن رحلته المسماة "ك لأ لي في سلوك الأماني" والتي أثنى فيها على مدرسيه البجائيين الذين سمع منهم أثناء ارتحاله في طلب العلم ببجاية أو بتلمسان، ورغم أنه لم يوفيهم حقهم إلا أنه أبرز وزنهم العلمي بالمغرب الأوسط كأبي عمران المشدالي وغيرهم من أهل عصره.

تضمنت **كتب التاريخ** الأحداث السياسية والعسكرية وطغت على هذا النوع من المصادر الحدثية، وقد أخذت أهمية جمة في البحث بحكم رصدها للحدث التاريخي ببجاية في الفترة محل الدراسة، والذي كان هرم السلطة من الأمير وكبار الموظفين الجزء الأكبر في صنعه وشكل الفقهاء والمتصوفة طرفا فاعلا فيه لفهم الأدوار التي أنيطت بالفئة الإدارية وعلاقتها بالسلطة العلمية ودور القيادات العسكرية في تركيز السلطة، وقد كنت ملزما بالعودة إلى هذه المصنفات في كل مرة تعلق الأمر الحديث عن السلطة الحفصية في شقها السياسي العسكري بدرجة أولى، والعائق الذي وقف أمامي مع هذا النوع هو الفراغ الذي نجده في بعض فترات الدراسة مما يصعب علينا فهم الكثير من الأمور، ففي حين يقدم ابن خلدون مادة ثرية طوال القرنين 7و8هـ/13و14م تقل الأخبار في القرن (9هـ/15م) رغم أن الزركشي غطى بعضها إلى غاية 882هـ/1477م، وأهمها مستندا على ترتيبها الحولي :كتاب**"العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"**[2]، لعبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1405م) ، والذي قربه الزمني من الأحداث التي سبقته ومعاصرته لبعضها في أن يأتي الجزء 6 و7 من تاريخه زاخرا بالمادة الخبرية عن بجاية الحفصية، فأفاد بشكل جلي قل نظيره بين مؤرخي تلك الفترة في ترصد دور الموظفين الكبار خاصة الحجاب والكتاب وصاحب الأشغال في إدارة بجاية ومآل الهيمنة الفردية لبعض الأندلسيين على هذه المناصب والكشف عن الصراع الذي دار مع شيوخ الموحدين والتسابق للتحكم في زمام البلاط البجائي وأثر الوشايات والسعايات في إقصاء الكثير من الموظفين والفقهاء وإبعادهم، وفهم دور العنصر المحلي في تسيير الشؤون الإدارية والعسكرية للمدينة، ويمكن من خلاله التعرف على علاقة القيادات

([1]) تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1986م.

([2]) تحقيق : خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/ 2001.

العسكرية بولاة بجاية ولماذا انتقلت زعامة الجيش الحفصي ببجاية من شيوخ الموحدين إلى الموالي؟ وكيفيات انفصال بجاية عن تونس وأسباب ذلك؟ كما ساعدنا في رصد إحصائي لولاة بجاية طوال قرنين من تاريخها وتحديد ئيي نخبة وعوا م بة وعواما من هؤلاء الولاة، وأفادني كذلك في فهم علاقة السلطة بشيوخ القبائل ومدى مساهمتهم في تكريس العداء مع تونس ومع الدول المجاورة ولجوء السلطة إلى الوجوه النخبوية كوسيط لها لاستمالة تلك القيادات من الشيوخ، كما أشار إلى دور بعض التجار الكبار بأموالهم في صناعة ملك أمراء بجائيين أعلنوا تمردهم عن الحاضرة بحثا عن الجاه واستغلال رجال البلاط لنفوذهم لممارسة التجارة.

ورغم أن كتاب **"الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية"**[1] لابن قنفد القسنطيني (ت 810هـ/1408م) كتابة تاريخية موجهة لأن صاحبه أهداه للسلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز (796-839هـ/1394-1434م) للإشادة بتاريخ بني حفص، إلا أن المعلومات التي أوردها إلى غاية 806هـ/1403م تميزت بالدقة خاصة وأن كثير منها لم يأت عليها ابن خلدون، وساعده على ذلك اضطلاعه على الوثائق الرسمية للأسرة الحفصية بحكم أن عائلته كنت مقربة إلى هذه السلطة بقسنطينة، خدم الموضوع في بعض مراحله بالتعريف ببعض فقهاء بجاية وقضاؤهم العلمي وفي التعريف ببعض إنجازات أمراء بني حفص ببجاية وتقريبهم للمتصوفة، ومن ثنايا الأحداث السياسية التي أتى عليها نستنتج ما كان يدور في جهاز الحكم خاصة الجانب الإداري، وتفرد بالترجمة للكاتب أبي القاسم أحمد بن سعيد (ت 693هـ/1293م) الذي شغل ديوان الكتابة ببجاية ثم بتونس.

تكمن أهمية **"تاريخ الدولتين"**[2] للزركشي (ت بعد 894هـ/1488م) في أنه مكمل لكتاب العبر والفارسية، فقد ملأ الفراغ السياسي للدولة الحفصية إلى غاية 882هـ/1478م تاريخ توقف تأليفه رغم إختصاره للأحداث التي انتهج فيها طريقة التاريخ الحولي، ينقل عن المصدرين السابقين، أفادني في رصد بعض الأحداث السياسية والعسكرية التي تفرد بها عن المصدرين السابقين وفي تتبع مسيرة بعض الفقهاء البجائيين بالمدينة وبالحاضرة في محضر سلاطين بني حفص كابن الغماز وابن سيد الناس وأبي مهدي عيسى الغبريني وغيره، رغم الأخطاء الواردة في تاريخ وفيات البعض منهم وفي بعض الأحداث مقارنة مع المصادر الأخرى، ويبدو من كتابه أنه كان من رجال الدولة أو من المقربين من النظام السياسي الحفصي مما أضفى على تاريخه طابع الرسمية،عن الملا عن العلاقة بين النخب والسلطة بشكل مباشر، كما ألمح في بعض المواضع على قلتها بإشارات لها دلالتها عن علاقة بعض الموظفين خاصة القضاة بأمراء بني حفص في خضم تاريخه السياسي وموقف الفقهاء من السيطرة المرينية على بجاية، وأهم ما خدم به تاريخ الدولتين البحث حديثه بنوع من التفصيل عن دور القادة العسكريين من الموالي خلال القرن 9هـ/15م، حيث قام بتغطية نشاطهم في ضرب المعارضة من طلاب العرش من البيت الحفصي أو من المتربصين بالمدينة من الدول المجاورة بولاء قل نظيره عند غيرهم من القادة، وأورد بعض الإشارات ساعدت في استقراء علاقة شيوخ القبائل بالحفصيين أثناء القرن 9هـ/15م.

([1]) تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

([2]) تحقيق : محمد ماضور، ط 2، المكتبة العتيقة، تونس، 1996.

تناول "**عنوان الأخبار فيما مر على بجاية**"[1]، لأبي علي إبراهيم المريني (ق10هـ/16م) الذي ترجم شارل فيرو جزء منه بالعنوان المدون في الهامش في المجلة الإفريقية الفترة السابقة للاحتلال الإسباني لبجاية بشكل مقتضب لأن النص في مضمونه يتحدث عن سقوط المدينة سنة 915هـ/1519م، إلا أنه يتعرض لجزء من تاريخ بجاية السياسي عشية الاحتلال ويخبرنا عن الصراع الذي كان قائما بين بجاية وقسنطينة ونجاح الوالي البجائي في إخضاع هذه الأخيرة وضمها، كما يتعرض في بعض الهوامش إلى تمرد القبائل البربرية والعربية على السلطة الحفصية بالمدينتين.

عدت لكتب **الجغرافيا والرحلات** المعاصرة للفترة الحفصية التي يتقدمها كتاب "**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**"[2] لابن فضل الله العمري (ت794هـ/1391م)، الذي بدأ في تأليفه سنة 738هـ/1337م، أبرز فيه أهمية بجاية لسلاطين بني حفص التي عدوها ثانية بعد تونس، أفادني في التعرف على التركيبة الهرمية للدولة الحفصية في شقها الإداري وتعداده لكبار رجال الدولة ترتيبا، حتى تعرض لأجور القضاة والكتاب وحالتهم المادية، وما يزيد روايته مصداقية أنه يصرح بمصادر معلوماته فقد نقل أخبار بجاية السياسية عن الفقيه أبي الروح عيسى الزواوي (ت 743هـ/1342م) وعن الإمام أبي عبد الله محمد ابن القوبع (ت 738هـ/1337م)، معرفا بالفرق المكونة للجيش الحفصي، وينقل عن ابن سعيد صاحب " المغرب في حلى المغرب". أما "**الروض المعطار في خبر الأقطار**"[3] لعبد المنعم الحميري (القرن 8 هـ/14م) فيدخل مع المعاجم، وقد أفاد في وصف بجاية ناقلا عن من سبقه كصاحب الإستبصار والإدريسي والبكري.

لكتب الرحلة أهمية خاصة كون أصحابها شهود عيان على الأحداث التي روها لنا وفي دقة الوصف الذي قدموه للمدن التي زاروها، إلا أنهم سجلوا لنا إشارات سياسية على قلتها و تعرضوا لظواهر اجتماعية وثقافية ناهيك عن الوصف العمراني للمدينة وموقعها الذي كثيرا ما كان يركز عليه الرحالقر المألوفة مور غير المألوفة أينما حلوا، وزار بجاية الكثير من الرحالة في الفترة الحفصية وتفاوتت الاستفادة منهم في موضوع الدراسة؛ وفي مقدمتها "**الرحلة المغربية**"[4] لمحمد العبدري (ق7هـ/13م)، الذي خرج في رحلته من المغرب الأقصى قاصدا الحج، فدخل بجاية سنة 680هـ/1298م، ورغم وصفه الدقيق للمدينة وإعجابه بها بشكل لم نجده في المدن الأخرى إلا أنه كان متحاملا عليها كبقية مناطق المغرب الأوسط التي زارها رغم أنه لم يمكث بها سوى ليلتين في مرحلة الذهاب، إلا أنه قدم معلومات جيدة عن الحركة الثقافية بها من خلال الترجمة التي قدمها للفقهاء الذين التقى بهم وسمع منهم كأبي عبد الله صالح الكناني (ت 699هـ/1299م) الذي قرأ عليه ذهابا ثم أيابا سنة691هـ/1291م، والفقيه ناصر الدين المشدالي (ت731هـ/1330م) الذي التقى به في جمادى الثانية من نفس العام أثناء عودته بقرية

---

(1) Charles Féraud : «Conquête de Bougie par Les Espagnols d`après un manuscrit arabe d`Abou Ali Ibrahim el-Merini», *Revue Africaine,*°12, (1968), p. 245-274.

(2) تحقيق : حمزة أبو العباس، المجمع الثقافي للإمارات، أبو ظبي، 2002.

(3) تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984

(4) **ما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق**، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب، الجزائر، (دت)، طبع بعنوان: **الرحلة المغربية**.

مدلاة ورغم إعجابه به وتتبعه منه إلا أنه رماه بقلة الحفظ وضعف الرواية، وتبقى الرحلة المغربية مصدرا مهما للدراسة في جوانبها الثقافية والعمرانية.

وزارها الرحالة خالد البلوي (ق 8 هـ/14م) الذي وشحها في رحلته المسومة "**تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**"[1]، فدخلها في طريق الذهاب نحو المشرق سنة 736هـ/1336م ثم أثناء عودته 740هـ/1340م، وقد استفدت من وصفه لقصور بجاية مبديا إعجابه الشديد بها، وسياسة واليها أبي زكريا بن أبي يحيي (حكم 720-747هـ/1320-1346م) وتعامله مع النخب العلمية المارة أو الزائرة للمدينة ووصف الإستقبال الذي خص به في القصبة، كما ترجم لبعض الفقهاء الذين التقى بهم.

ورغم أن رواية حسن الوزان (ت بعد 957 هـ/1550م) في "**وصف إفريقيا**"[2] متأخرة إلا أن قربه من الفترة الحفصية ببجاية ودخوله سنة 1516م إليها قادما من المغرب الأقصى مكننا من معرفة ديمغرافية المدينة وتوسعها وأثر الهجرات الخارجية على نموها وأثر الثراء المادي في توتر العلاقة مع البادية، كما أنه تتبع تطور الإدارة الحفصية بتغير صلاحيات بعض الموظفين وأفول بعض الوظائف وظهور أخرى جديدة وتقلص نفوذ بعض رجال الدولة كالحجاب الذين فقدوا هيبتهم وحددت صلاحياتهم.

إضافة لهؤلاء فقد عدت لرحلة عبد الباسط المالطي[3] (ت 920هـ/1514م) الذي زار بلاد المغرب قادما من مصر فدخل بجاية في ذي القعدة 868هـ/جويلية 1464 ثم في طريق الأياب ربيع الثاني 871هـ/ أكتوبر 1466م، وكذلك الرحالة القلصادي[4] (ت891هـ/1486م).

---

(1) تحقيق : الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، الإمارات العربية والمغرب، (دت).

(2) ترجمة : محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

(3) **الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم** : معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرنكفورت، ألمانيا ، 1414- 1994.

(4) **تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب**، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، (طبع بعنوان : **رحلة القلصادي**).

الفصل الأول

النخبة والسلطة بين الرؤية التراثية والتنظير السوسيولوجي الغربي

أولا :

النخبة مقاربة بين الرؤية السوسيولوجية الغربية والتراث الإسلامي

1- المفهوم الوظيفي والتنظير السوسيولوجي الغربي للنخبة

2-أهل الحل والعقد وعاءا تراثيا نخبويا أم نموذجا قاصرا؟

ثانيا :

النخبة والسلطة من خلال الآداب السلطانية (مرايا الملوك)

1-السلطة بالمفهوم التراثي

2-النخبة والسلطة في الأدب السلطاني صراع أم تعايش؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : النخبة مقاربة بين الرؤية السوسيولوجية الغربية والرؤية التراثية

قد يتبادر كإشكالية أولية لماذا تم توظيفي لمصطلح النخبة؟ ألا يوجد في تراثنا ما يناسبه للدلالة على الفئة المشمولة بالدراسة في موضوعي هذا، خاصة وأن الكتابة التاريخية في العصر الوسيط والموروث الإسلامي لم يعرف شيوع مثل هذا المصطلح في ظل تناول المصادر لمدلولات كأهل الحل والعقد، الفقهاء، أهل الشورى، الخاصة، الشيوخ، أهل الاختيار، أصحاب الخطط، أهل الجاه ...الخ ، لكل منها مدلوله الخاص ولا يفي الغرض من الدراسة فعلى سبيل المثال كلمة الخاصة للتميز عن العامة اجتماعيا، والفقهاء للتفرد العلمي، وأصحاب الجاه والشيوخ في إشارة إلى السلطة،كما أنني سأورد استعمالات المصطلح في بعض المصادر التاريخية لأكشف توظيفه في مناحي كثيرة وعدم غرابته عن الكتابة التاريخية في العصر الوسيط بصفة كلية، يضاف إلى ذلك أن الكثير من الدارسين والكتاب لم يمانعوا من استعمال المصطلحات إذا كانت تفي بالغرض المقصود منها مع عدم تشويه المعنى"... الألفاظ إذا عبرت تعبيرا دقيقا عن المراد منها وجب علينا اقتباسها..."[1]، كما أنه لا يوجد بحسب قراءتي لمصطلح يشمل كل النخب التي سأدرسها بصفة وافية أصلح وأفيد منه.

1- المفهوم الوظيفي والتنظير السوسيولوجي الغربي للنخبة :

دلالة النخبة في اللغة العربية تفيد الاصطفاء والاختيار و الأفضلية تمييزا عن غيرها خاصة العامة منهم[2]، على أساس صفة النقاوة والخيرية[3]، فقد وقع الإجماع بين اللغويين على معنى الاختيار والأفضلية[4].

ارتبط موضوع النخبة أو الصفوة بعلم الاجتماع السياسي عند علماء الغرب في العصر الحديث، و لم يتم توظيف المصطلح إلا في أواخر القرن 19م في الدراسات السياسية والاجتماعية بأوربا، ليتوسع استعماله في أمريكا لدراسة النخب السياسية[5]، فما مفهومه عند علماء الاجتماع والسياسة الغربيين ؟ وهل لهذا المصطلح دلالة ومعنى في تراثيات

---

(1) محي الدين عطية : «حول التراث و العلوم السياسية»، **مجلة المسلم المعاصر**، عدد 44 شوال ذو القعدة ، 1405 هـ، جويلية ، أوت سبتمبر 1985، ص 94 .

(2) ولفهم تلك الفروق أنظر مفهوم الخاصة و العامة كطبقة اجتماعية بخصائصها المتعددة عند : موفق سالم نوري : **العامة والسلطة في بغداد**، دار الكتاب الثقافي، الأردن، 2003، ص19-48،

وللتفصيل في مفهوم العامة بشكل أدق من ناحية الضبط الشرائحي والدلالي أنظر : دلال لواتي : **عامة القيروان في العصر الأغلبي (184-296هـ/ 800- 909م)**، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2002، ص91-119.

(3) تنطق كلمة النُخبة بضم النون وإسكان الخاء، إلا أن ابن منظور فضل نطقها لغويا بضم النون ونصب الخاء نخب بمعنى انتخب الشيء أي اختاره، والنخبة ما اختاره منه، ونخبة القوم خيارهم واشتق منه الانتخاب بمعنى الاختيار والانتقاء والمنتخبون من الناس المنتقون، يراجع : ابن منظور : **لسان العرب** ، مادة نخب ، تحقيق : عبد الستار أحمد الفرج، دار صادر ، بيروت، 1992، ج1، ص 752.

جمعها نُخب، ونُخبة القوم خيارهم محمد بن أبي بكر الرازي : **مختار الصحاح** ، تحقيق محمود خاطر بك ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1401 هـ/ 1981 ، ص 650.

(4) ينظر : مبارك بن محمد الجزري : **النهاية في غريب الأثر**، تحقيق طاهر أحمد الطناحي، المكتبة العلمية ، بيروت، 1979،ج 5، ص 30.

(5) محمد السويدي : **علم الاجتماع السياسي ميدانه و قضاياه** ، ديوان المطبوعات، الجامعية، الجزائر، (دت)، ص 61 .

الفكر السياسي الإسلامي؟ وما مدى مصداقيته وصلاحيته في الفترة التي هي محل الدراسة؟ وهل من دواع موضوعية وعلمية لتوظيفي له ؟

هناك صعوبة في ضبط مفهوم دقيق للنخبة نظرا لاختلاف معايير تصنيف النخب التي يبنى عليها تحديد المفهوم بين علماء الاجتماع والسياسة الغربيين، الذين حاولوا التأسيس لنظرية اجتماعية وسياسية مركزين على النخب السياسة في ظل أقلية حاكمة محتكرة لأهم المناصب السياسية والاجتماعية...وأغلبية محكومة وليس لها صلة بصنع القرار السياسي، فارتبط مدلولها بالسلطة وعلاقتها بالمجتمع نتيجة الصراع بين الأيدلوجيات التي ظهرت في أوروبا، خصوصا بين الليبرالية والاشتراكية، فمن منطلق ماركسي تخضع لجدلية وحتمية تاريخية بناء على أساس كيفية توزيع الثروة وأصل المجتمع لتكون الطبقة النافذة فيه المسيطرة سياسيا، لذلك ظهرت عدة نظريات اجتماعية واتجاهات اختلفت فيما بينها في إعطاء مفهوم موحد للنخبة السياسية باختلاف منطلقاتها الفكرية ومعاييرها في التصنيف كما يأتي :

الاتجاه التنظيمي يمثله جيناتوموسكا *Geaneto Mosca* عرف النخبة[1] بأنها أقلية من الأشخاص الذين يمسكون بالسلطة في المجتمع[2] فهي أقلية حاكمة في وجود أكثرية محكومة، تسيطر الأقلية على الأغلبية بشرط"قوة تنظيم الأولى ووجود دافع واحد وهدف واحد "[3]، فالقوة تسمح لها بالسيطرة في وجود تنظيم وعلاقات بين أفراد النخبة سواء كانت مصلحيه علمية أو حتى قرابية للوصول إلى وحدة وقوة التنظيم، فالقوة و القدرة العلمية تكسبها سهولة السيطرة على الأغلبية التي تفتقد إلى هذه العناصر يضاف لها "الامتيازات الاقتصادية"[4].

فموسكا يركز على قدرة هذه الأقلية على تنظيم نفسها وربط علاقات متينة فيما بينها في حين تفتقد الأغلبية لهذه الخاصية التنظيمية، فقوة التنظيم هي الدافع والهدف الواحد للوقوف في وجه الأقلية ورضا الجماهير هي مقومات النخبة السياسية عند موسكا، مصنفا الحكومات على أساس طبيعة النخب الدينية أو العسكرية أو الفكرية التي تحكمها .

أما رو بارت ميشلز *Robert Michels* فقد ركز في دراسته على الأحزاب السياسية والنقابات خاصة الإشتراكية[5]، إلى أن الفئة القليلة المتحكمة فيها سببها قوة تنظيمها و طاعة الجماهير لها واستعمالها للقوة لإخضاع الأكثرية، معتبرا الحزب الإشتراكي الألماني نموذجا لما توصل إليه من نتائج "القانون الحديدي

---

(1) من خلال كتابه الموسوم : ***Histoire des doctrines politiques, éd. originale en italien 1933, éd.franç avec Gaston*** *BOUTHOUL, Paris, 1966.*

(2) السويدي : **المرجع السابق**، ص 63 .

(3) إبراهيم أبراش : **علم الاجتماع السياسي**، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، 1988 ، ص 116 .

(4) السويدي : **المرجع السابق**، ص 64 .

(5) استعمل مصطلح الأوليغارشية *Oligarchy* وشرح نظريته من خلال مؤلفه الموسوم " في سوسولوجيا الأحزاب السياسية " سنة 1911 ركز في دراسته على الأحزاب السياسية معتبرا الأنظمة الديكتاتورية نموذجا ونشر له كذلك : ***Les partis politiques.Essai sur les tendances oligarchiques des démocratie politiques*** *(éd. originale en italien 1911)..*

أنظره : **المرجع نفسه** ، ص 70 – 71 .

للأوليجاركية"[1]، بسبب تحكمها الإداري، رغم أن هذه التنظيمات الحزبية تعتنق أيديولوجيات تقوم على المساواة وتكافؤ الفرص الديمقراطية إلا أنها تلزم بفرض قوانينها وأرائها لتضمن البقاء و السيطرة على رأس التنظيم[2].

الاتجاه السيكولوجي يتزعمه العالم الإيطالي فلفريدو باريتو *Vilfredo Pareto*[3]، يعرف النخبة على أنها "جميع الأشخاص الذين يظهرون نوعا من الاستعدادات العالية في ميدانهم"[4]، بشرط تفوقهم على غيرهم من أفراد المجتمع وتميزهم بخصال لا تتوفر عند الآخرين، لهم صفات رفيعة تمنحهم القوة و السلطة[5] من خلال ما سماه "بمباراة الحياة"[6]، يقاس تفوقهم بالدرجات في مختلف تخصصاتهم والذين يحصلون على أعلى الدرجات هم المشكلون لنخبة المجتمع المؤهلين لقيادته سياسيا و اجتماعيا دون حاجتهم إلى الجماهير، نخبة داخل السلطة الحاكمة وأخرى خارجها[7]، على اعتبار أن النخبة ليست فعل وراثي بل يمكن لأي فرد في المجتمع أن يكون نخبة إذا تفوق ومن ثمة فهي حصيلة ما أطلق عليه بـ"الخصائص الإنسانية عبر التاريخ"[8]، فباريتو يركز على الاستعدادات والقدرات الذاتية للشخص و التي تؤهله لتقلد المناصب، ومجيبا عن الإشكال الذي طرحه في دراسته من يحكم المجتمع السياسي؟ ليخلص إلى أنها النخبة.

الاتجاه الاقتصادي يقوده جيمس بيرنهام الذي يرى أن الصفوة التي تحكم المجتمع تغيرت من فئة إدارية أشرفت على شؤونه في القرن التاسع عشر لتتحول إلى نخبة مالكة لوسائل الإنتاج في القرن العشرين أو ما عبر عنه بمقولته "استبدال المنظمين أو الإداريين بالملاك"[9]، وهي النظرة الماركسية للاقتصاد التي انتقدت فيها الطبقة الرأسمالية بجمعها للثروة لتكون قوة تسلطية على بقية المجتمع، واشترط برنهام أن تكون نخبة سياسية قائدة إذا أردنا أن نحدد الطبقة

---

(1) السويدي : **المرجع السابق**، ص 70 .

(2) **المرجع نفسه** ، الصفحة نفسها.

(3) من إصداراته :

***Traité de sociologie générale**, éd. originale en italien Florence,1916.Trad Franc .Payot, Lausanne, Paris, 1917-1919.*

أنظر عنه : جماعي : **المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية** ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية (دت)، ص 155.

(4) السويدي : **المرجع السابق** ، ص 62 – 63 .

(5) **المرجع نفسه** ، ص 63 .

(6) أبراش : **المرجع السابق** ، ص 115 .

(7) يرى أن المحصلين على أكثر من 10 درجات هم المتفوقون و لكن هؤلاء ينقسمون بدورهم إلى طبقة المتفوقين جدا الذين ينشط بهم العمل السياسي داخل السلطة و الآخرون خارجها (غير حاكمة) يمكن أن يصلوا إلى مرتبة النخبة الحاكمة بفعل التغير الاجتماعي الدائم.

(8) السويدي : **المرجع السابق**، ص 71.

(9) **المرجع نفسه** ، ص 72 .

الحاكمة فعلينا أن نبحث عن الطبقة التي تحصل على أعلى الدخول[1]، وسيطرتها على أدوات الإنتاج وتحكمها فيه بصفة كلية[2].

الاتجاه النظامي تمثله المدرسة الأمريكية من ر اسة مجتمع المؤسساتي في و م أ-، خلص رايت ميلز *R- Mills* إلى أن النخبة هي محصلة"للبناء المؤسساتي في الدولة"[3]، تمتلك القدرة من خلال مؤسساتها وشركاتها الضخمة، نتيجة النظام العام السائد مشكلة نخبة ضاغطة وموجهة للسياسة يحكمها منطق التحالفات مع جماعات النفوذ، يتداولون على المناصب في الوظائف المتميزة في المجتمع والسلطة[4]، تربطهم علاقات إما مصلحيه، مالية أو حتى نفسية من خلال تفكيرهم، واجتماعية بالمصاهرة والقرابة لتكون "نخبة القوة، سياسية، اجتماعية، اقتصادية وعسكرية" وهي صانعة القرار، ويعود الفضل إلى ميلز في وضع البذور الأولى لعلم إجتماع القوة وتوجيهه لصالحها "*Sociology of the Power*"[5].

نخلص إلى أن أسباب اختلاف مفاهيم النخبة يعود إلى ظروف وخلفيات تاريخية لكل مدرسة، سواءً في إيطاليا بمرجعيات إستبدادية حزبية أو في فرنسا بعد قضائها على النظام الملكي والإنفتاح تدريجيا على الديمقراطية في ظل إنتشار الأفكار الاقتصادية والسياسية الماركسية والليبرالية، وفي الولايات المتحدة لنفوذ أصحاب المؤسسات الكبرى.

رغم هذا الاختلاف مع وجود تعريفات أخرى حددت مفهوم النخبة بشكل يعتبر أكثر دقة[6]، إلا أن جوهرها يقوم على أسس تتصف بها النخبة بين النظريات الحديثة، فكلها أجمعت على أن النخبة أقلية نافذة متفوقة توفرت فيها شروط (القوة المالية ،النفوذ، التنظيم، العلاقات، الثقافة، الذكاء) تخضع لها الأكثرية وتنفذ قراراتها لكن هذا لا يعني تجانسها الكلي بل في باطنها عرفت النخبة السياسية خصوصا الحاكمة منها صراعا داخليا حول القيادة[7].

فالنخبة إذا أقلية متميزة في المجتمع مؤثرة فيه بفضل قوتها، صانعة ومتخذة القرارات "أوتيت حظا من المعرفة النظرية والعلمية والخبرة التاريخية، أصبحت بها قادرة على قيادة المجتمع والدولة وإنتاج أشكال الثقافة المنوعة، وهي عقل المجتمع تدبر شؤونه وترعى مصالحه وتدافع عنه، في ظل وجود بناء هرمي للنخب داخل المجتمع[8]، تنقسم إلى

---

(1) السويدي : **المرجع السابق**، ص 72.

(2) يرى بيرنهام أن طبقة الإداريين تتحكم في الرأسماليين من خلال على أدوات الإنتاج و توزيعه ووقوعها في وجههم لتشرف هي على الاقتصاد و السياسة و هو بذلك متأثرا بماركس معتبرا التحكم السياسي يجلب القوة الاقتصادية ، للتفصيل يراجع ، فوزي خليل : **دور أهل الحل والعقد في النموذج الإسلامي لنظام الحكم**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1969، ص 206 – 207 .

(3) أبراش : **المرجع السابق**، ص 117 ، وكذلك : **المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية**، ص 155 .

(4) السويدي : **المرجع السابق**، ص 73.

(5) **المرجع نفسه**، ص65.

(6) مثل دراسة : Pierre Bourdieu, ***La noblesse d'Etat***, Minuit, Paris, 1989.

(7) أبراش : **المرجع السابق**، ص144.

(8) وهي قراءة عالم الاجتماع بوتومور Bottomore في كتابه " الصفوة و المجتمع" *Elites and Society,Watts, London, 1964,* (trans. Franc. Paris, 1967)

نخبة عسكرية، دينية، زراعية، صناعية، يمكن لها أن تصبح نخب سياسة إذا وصلت إلى السلطة، وتصنف النخب إلى أربع أصناف[1] :

النخبة السياسية المباشرة للعمل داخل السلطة، النخبة المكملة لها في مجالات الحياة المختلفة، اقتصادية، عسكرية، علمية، ونخبة مهمتها الإشراف على الشؤون الدينية والاجتماعية و النفسية وهم : الكهنة، المثقفون، الفلاسفة، ونخبة مكملة في ميدان الفن والكتابة[2]. إذا أخذنا بعين الاعتبار شمولية التعريف الذي خرج من النمط السياسي للصفوة ليعرفها من منظور أنها جماعة من الأفراد معروفة اجتماعيا ذات خصائص عقلية أو وضع إداري نافذ أو قوة عسكرية وأخلاقية[3]، لتحصل على رجة كبيرة من السيطرة والنفوذ والهيبة فتصبح بهذه الشروط نخبة.

2- أهل الحل والعقد وعاءا تراثيا نخبويا أم نموذجا قاصرا ؟

لاشك أن هناك اختلافا بين مفكري الإسلام حديثا حول ما مدى صلاحية أو مصداقية استعمال المصطلحات الحديثة للتعبير عن الفكر السياسي الإسلامي وما مدى قدرتها على استيعاب ذلك الموروث الضخم؟ وهل يمكن لمفاهيم هذا الموروث التعبير عن أفكار العصر في ظل الزخم المعرفي المتراكم وفي ظل سرعة انتقال العلوم[4] ؟، علما أن الكثير من المؤسسات التي تعبر عنها قد زالت فما فائدة استعمال الحسبة، أهل الشورى أهل الاختيار، أهل الحل

الذي ميز فيه بين الأقلية الحاكمة والنخبة المتقلدة للوظائف – نخبة المجتمع– تنحدر منها النخبة الوسطى التي تدخل برأيه في صراع ضد الطبقة السياسية للوصول إلى ممارسة السلطة ، أنظر : **المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية** ، ص 156.

(1) هناك عدة قراءات لأصناف النخب التي ظهرت في العصر الحديث بأوربا و أهمها ما ذهب إليه ماكس فيبر حيث أورد النخب التقليدية و يقصد بها الدينية ، النخب المالكة للعقارات ورؤوس الأموال ، النخب الكاريزمية ذات الميزات الروحية الخارقة و العسكرية داخل الجيش المؤثرة على الحياة السياسية ، النخبة المثقفة القادرة على الإبداع في الجانب العلمي ، علماء ، أدباء و منظرين ، النخبة التكنوقراطية (الوظائف الإدارية) ، يراجع : السويدي : **علم الاجتماع السياسي ميدانه و قضاياه** ، ص 73-78 ، أبراش : **علم الاجتماع السياسي**، ص 146-164 .

كما أشير إلى نخب أخرى شكلها العصر الوسيط في أوربا خاصة الاقتصادية كالتجار، الحرفيون الإقطاعيون والنبلاء.

(2) فوزي خليل : **المرجع السابق**، ص 144.

(3) **المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية**، ص 155، خليل أحمد خليل : **المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع**, دار الحداثة للطباعة والنشر, بيروت,1994، ص222 -226.

(4)حول هذا الموضوع هناك رأيان، فالموقف الأول يرى أصحابه ضرورة التخلص من هذه المصطلحات بدعوى عدم مسايرتها لعالم الأفكار وضعف قدرتها على استيعاب العلوم وزوال المفاهيم المعبر عنها واعتبروها في تاريخ الأفكار , والرأي الثاني أوعز القصور إلى أهل اللغة لألفاظ وا ستبدلها بألخرى من غير بيئتها تفقد المعنى جوهره و تؤدي لاحقا إلى تها تفقد المعنى جوهره وتؤدي لاحقا إلى التخلي عن الموروث كلية بدعوى عدم ملاءمته للعصر وهو ضرب للقرآن والسنة واللغة والفكر الإسلامي ويفتح المجال لتغريب الألفاظ والتبعية في الفكر , ينظر ما كتب في الموضوع عند كل من : حسن حنفي: **التراث والتجديد** , المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة 1980, طه جابر العلواني : **إصلاح الفكر الإسلامي** ،إصدارات المعهد العالمي دار الهدى للطباعة والنشر ، عين مليلة ، الجزائر (د ت) ، ص76-77.

وبرأيي أنه من باب المقاربات للألفاظ والمفاهيم وقراءة محتوى المعرفة فإنه يمكن لنا الإجابة عن هذه الإشكالية من خلال توظيف هذه المفاهيم بما يخدم المصلحة في توضيح الأفكار وتحليلها ,وبما يناسب تطور العلوم وانتقال المعرفة دون تشويه التراث أو تغريب الفكر .

و العقد، النخبة ، الفرد ، في غياب الهيكل الذي ينظمها ؟ فهل حقيقة في غياب المؤسسات تتخلى عن المفهوم ؟ وما دلالة النخبة من المفاهيم المذكورة ؟ وما هو المفهوم الأقرب إلى النخبة منها ؟

تزخر كتب الأحكام السلطانية بمعاني كثيرة معبرة عن فئات مختلفة صانعة للقرار أو مشاركة فيه وحتى معارضة له من خلال التجربة التاريخية الإسلامية قُدمت كصفوة المجتمع أمثال أهل الشورى، وأهل الاختيار، الفقهاء، المشايخ، القراء، في نطاق السلطة أو خارجها بتعدد تخصصاتها سواءً علمية، سياسية، عسكرية، صوفية...الخ، هذه الفئات والعناصر المكونة للصفوة في تاريخية المجتمعات الإسلامية هل هي وعاءً صب في أهل الحل والعقد كمدلول مشرقي مثلته المشيخة ببلاد المغرب ؟ ومن هم هؤلاء ؟ وما هي المبررات المقدمة لجعلهم تحت هذا الوعاء ؟ ألم يوجد في تاريخ الإسلام من كان بيده الحل والربط دون أن يكون نخبة ؟ وهل أهل الحل والعقد هم النخبة السياسية المعبرة عنها في النظريات الاجتماعية و السياسية الحديثة وكيف؟

أ- المفهوم الوظيفي لأهل الحل والعقد :

ارتبط مفهوم أهل الحل و العقد[1] من منظور ديني مشرقي أو أعيان الجماعة والمشيخة في المجتمعات القبلية ببلاد المغرب في الآداب السلطانية بفكرة الإمامة[2]، من خلال أهم المؤهلين لاختيار الإمام أو خليفة المسلمين (بمفهوم وظيفي) من خلال مهمتهم، فقد ذكر الماوردي (ت 450هـ/1058م) أن الإمامة تنعقد بصفتين :

---

(1) هنا نشير إلى الدراسة الفقهية التي نال بها الباحث فوزي خليل شهادة الماجستير الموسومة بـ" **دور أهل الحل و العقد في النموذج الإسلامي لنظام الحكم** " التي توصل فيها إلى نتائج حول دور هذه الجماعة في نظام الحكم مقارنة بالدراسات الغربية الحديثة وقد قال باختلاف الكتب السلطانية حول مصطلح أهل الاختيار من أهل الحل و العقد، أهل الشورى، ليظهر إلى أن أهل الحل و العقد أشمل من كل هذه المفاهيم، باعتبار أن من أدوارهم اختيار الإمام لتسند لها مهام أخرى في مجالات كثيرة فكل التسميات السابقة، جزء من أهل الحل والعقد، للتفصيل ينظر : فوزي خليل : **المرجع السابق**، ص 66 – 72.

(2) تعددت المصطلحات لصاحب أعلى منصب في نظام الحكم الإسلامي من الإمام، الخليفة ، أمير المؤمنين، السلطان، وفي الشروط المتوفرة فيه و من يعينه العودة إلى : الجويني : **غياث الأمم في التياث الظلم**، وضع حواشيه خليل منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417 هـ/ 1991م، ص 15، الماوردي : **الأحكام السلطانية و الولايات الدينية** ، تحقيق نبيل عبد الرحمان حياوي، مؤسسة الكتاب الثقافية ، بيروت، ص 65، ابن تيمية : **الخلافة و الملك** ، تحقيق جمال سلامة و محمد عويضة ، شركة الشهاب ، الجزائر (دت) ، عبد الرحمن بن خلدون ، **المقدمة (كتاب العمران)** تحقيق محمد الأسكندراني، دار الكتاب العربي ، بيروت، 2005، ص 185– 219، ابن الأزرق : **بدائع السلك في طبائع الملك** ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس (دت)، ج1، ص 92-95.

وفي اختلاف رأي الفرق فيها أنظر : الشهر ستاني : **الملل و النحل**، تحقيق جميل العطار ، ط2 ، دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت، 2002، ص 118-131 ، و من الدراسات الحديثة أنظر : عبد الكريم الخطيب : **الخلافة و الإمامة ديانة وسياسية**، ط1، دار الفكر العربي، 1963، ص 234-224 ، محمد عزيز نظمي سالم : **الفكر السياسي و الحكم في الإسلام** ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية (دت).

و النتيجة حصول الإجماع بين فقهاء الإسلام على وجوب الإمامة و اعتبروها من أعظم الواجبات التي لا يقوم الدين إلا بها من منطلق أنها " نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين و سياسة الدنيا به "، ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص 185، بينما اختلفوا في طريقة توليته فأهل السنة و الجماعة يرون أنها تتم بالعقد و البيعة في حين أن الشيعة يقولون بالنص ، أنظر : نظمي سالم : **المرجع السابق**. ص 115 – 116.

"أحدهما باختيار أهل الحل والعقد والثاني بعهد الإمام من قبل"[1]، وسماهم في موضوع آخر بأهل الاختيار ليحصر مهمتهم في اختيار إمام المسلمين "أحدهما أهل الاختيار حتى يختاروا إماما للأمة"[2]، وذكرهم أبو يعلى الفراء (ت 458هـ/1065م) بأهل الاجتهاد في حديثه عن وجوب الإمامة "مخاطبا بها طائفتان من الناس إحداهما أهل الاجتهاد ..."[3]، وفي موضع آخر سماهم بأهل الاختيار فقال : أما أهل الاختيار فيعتبر فيهم ثلاثة شروط[4]، منها الرأي السديد والتدبير الصائب السليم[5]، وسماها الماوردي الرأي والحكمة فقال : الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح[6]. إذا الإجماع تم على ثلاث شروط وجب توفرها فيمن يكون منهم وهي: العدالة والعلم والرأي الصائب[7].

نخلص إلى أن أهل الحل والعقد مفهوما شاملا يتعدى المعنى الوظيفي المعروف في التراث والمتمثل في اختيار خليفة المسلمين، لتسند لهم مهمة التشريع واستنباط الأحكام من حيث أنهم فقهاء ومجتهدين وعلماء في تخصصات عدة في الأمور الدينية والدنيوية يشاركون في صنع القرارات والتخطيط لها كلا في تخصصه، سياسيا، اجتماعيا، اقتصاديا وعسكريا، أهل تجربة وتمرس ، فهم وعلم، خبراء في ميدان تخصصاتهم[8]، منهم القضاة، القادة العسكريين، التجار الكبار، هم ممثلو الأمة الذين تدين لهم بالسمع والطاعة واثقة بقدراتهم سواءً كانوا من أهل العلم أو السياسة، الإدارة أو المال.

ب- أصناف أهل الحل والعقد : من الصعب تمييز أصناف هؤلاء لاختلاف مرجعيات ومعايير تحديدهم، وبالعودة إلى تفسير ابن تيمية لأولي الأمر[9]، بقوله أن الحل و ا لعقد يتوزع عون على الأمراء نواب السلطان والقضاة وأمراء

للتفصيل في أقوال أبي بكر الباقلاني وعبد القادر البغدادي و الإمام الجويني في **الإمامة** ينظر : يوسف أيبش : **نصوص الفكر السياسي الإسلامي**، منشورات دار الطليعة، بيروت ، 1966، ص 33 – 50 ، 126-132 ، 271 – 278 .

(1) الماوردي : **المصدر السابق**، ص 65.

(2) **المصدر نفسه**، ص 64.

(3) الفراء : **الأحكام السلطانية** : تحقيق حمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت (دت)، ص 19.

(4) **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها .

(5) **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها ، الجويني **غياث الأمم** : ص 34 – 36 .

(6) الماوردي : **المصدر السابق**، ص 64 .

(7) أجمل محمد أمزيان هذه الشروط بقوله " التي حازت ثقة المجتمع و أصبحت ناطقة باسمه و معبرة عن آماله و مجسدة لطموحه و همومه بما حازته من مؤهلات علمية وأخلاقية ومجتمعية جعلتها في طليعة المجتمع " للتفصيل العودة إلى : محمد أمزيان : «العقد السياسي وضوابط الممارسة السياسية قراءة من منظور فقهي» ، **مجلة التجديد**، تصدر بالجامعة الإسلامية بماليزيا، السنة السادسة ، العدد 12، أوت 2002، ص 61 – 65 ، وللتفصيل أكثر في هذه الشروط العودة إلى : محمود الخالدي : **قواعد نظام الحكم في الإسلام**، مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1991، ص 266 – 267 .

(8) تتوسع أو تضيق الشروط في هؤلاء بما يناسب كل تخصص (القوة الجسمية ، القدرة العلمية ، التمكن من الاختصاص ، الذكاء الفطنة، الذكورة ، الأمانة ، القوامة ... الخ) يراجع : **المرجع السابق** : ص135 –145 .

(9) في قوله تعالى : «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأمر منكم فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**»، سورة النساء الآية 59.

الأجناد وولاة الأموال والكتاب والسعاة على الخراج والصدقات، فصنفهم على أساس وظائفهم سواء في الولاية أو ما يسمى بالإمارة، القضاء والناحية العسكرية (قواد الجند) والاقتصاد (جباية المال) وخطط الدولة (الكتاب والحجاب)، وتحث عنهم القلقشندي (ت 821هـ/1418م) في موضوع البيعة والقائمين عليها من أهل الحل والعقد بقوله "أن يكون المتولي لعقد البيعة أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء وسائر وجوه الناس"[1]، فالعلماء الطبقة العالمة بالدين ومصالح الأمة، والرؤساء يفهم منها الزعامة والقيادة بمختلف انتماءاتها، أما وجوه الناس فهم الأعيان المقدمين على قومهم من شيوخ القبائل وزعماء الأمصار، ليضيف إليهم في موضع أخر المتقلدين لوظائف الدولة الدينية كالقضاء، والسلطانية كالوزراء وزاد عليهم وجوه الدولة وأهل الشورى الذين يعينون ولي الأمر بقوله"العارفين بالنقد من القضاة والعلماء والأمراء ووجوه الناس وأعيان الدولة والوزراء وأهل الخير والصلح وأرباب الرأي والنصح فاستشارهم في ذلك "[2].

هناك من صنف النخبة على أساس قيمتها الرسالية وعظمتها عند الله تعالى ثم بمواهبها الفردية من أنبياء ورسل وصحابة، تلاميذ حواريين فلاسفة علماء وكل من اشتغل بالفكر والقيادة السياسية وغيرها من المواهب والوظائف[3]، ومن خلال هذين التعريفين الذين ذكرهما لابن تيمية والآخر للقلقشندي نخلص إلى أنه يدخل في مفهوم أهل الحل والعقد كلا من :

الفقهاء :

اشترط البعض أن يكونوا فقهاء مجتهدين لعظم مسؤوليتهم في اختيار خليفة المسلمين حتى أن بعض المفسرين فسر أولي الأمر الواردة في الآية بأنهم الفقهاء[4]، يضاف لهم أنهم يتوزعون في وظائف كثيرة في الدولة كالخطط الدينية المختلفة يتصدون فيها للفتية والخطابة وإمامة الصلاة والقضاء، وبالتحقق في شروط المتقلدين لهذه الوظائف نجدها منطبقة على شروط أهل الحل والعقد، فالقاضي وجب أن يكون عالما بالأحكام الشرعية متصفا بالعدالة[5]، حتى أن بعض الخطط السلطانية تفرض ذلك فقد ذكر ابن الأزرق أن من شروط تقلد الحجابة "صحة الرأي والتراهة"[6]، فالحاجب وكاتب الديوان يشترط فيهما العدالة والكفاية لتصح ولايتهما[7]، وعمال الخراج (السعاة) وجب عليهم أن

---

(1) القلقشندي ، **مآثر الأناقة في معالم الخلافة** ، ط2 ، مطبعة حكومة الكويت، 1985، ج 1، ص41.

(2) **المصدر نفسه**، ج 2، ص300.

(3) إبراهيم أبراش : **المرجع السابق**، ص 145.

(4) لمكانة الفقيه في الإسلام ودوره ألف الخطيب البغدادي (ت 462هـ/ 1069م) كتاب" الفقيه والمتفقه" وفيه يعرف الفقه بأنه " معرفة الأحكام الشرعية التي طريقها الاجتهاد "، خصص جزءا من الكتاب أورد فيه أقوال العلماء والمفسرين في شرح الآية 59 من سورة النساء على أنهم الفقهاء، أنظر : الخطيب البغدادي : **كتاب الفقيه والمتفقه**، تحقيق عادل بن يوسف العزازي ,دار ابن الجوزي, الرياض، 1996، ج 1، ص 126- 131-191 وسنتعرض إلى الفقيه ومواصفاته في العناصر اللاحقة من البحث عند تناولي لعلاقة الفقهاء بالسلطة .

(5) ابن أبي الدم : **كتاب أدب القضاة**، تحقيق مصطفى الزحيلي, ط2, دار دمشق ، 1982، ص70 .

(6) ابن الأزرق : **المصدر السابق**، ج1، ص269 .

(7) الماوردي : **المصدر السابق**، ص 293 .

يتصفوا بالأمانة والمقدرة، وتنطبق هذه الشروط كلية على أهل الحل والعقد عموما من الفقهاء[1]، أما عن المجتهدين فتوكل إليهم مهمة التشريع لاستنباط الأحكام الشرعية وترجيح الآراء خاصة فيما لا نص فيه وهؤلاء هم العلماء.

النصحاء وأهل الرأي (المستشارين) :

لا يمكننا حصر الشورى[2] في هيئة وظيفية بقدر ما هي إسداءً للنصيحة وتقديم الرأي الصائب، فقد يقوم بهذه المهمة العلماء وشيوخ القبائل ووجهاء القوم والساعون لخير الأمة وصلاحها من أهل الفضل والصلحاء وأرباب الرأي والنصحاء[3]، فالنصيحة والشورى قد تكون من العلماء وأهل الحكمة، لهم أهلية وصلاحية تقديم الرأي والسديد للحاكم في أمر من الأمور، تختلف الشروط الواجب توفرها فيهم حسب الموضوع المستشار فيه؛ ففي أمور التشريع يستشار الفقهاء، وفي الشؤون العسكرية والاقتصادية وغيرها يستشار أهل الاختصاص كلا في مجاله، فالعناصر المستشارة تدخل في نطاق أهل الحل والعقد لما للشورى من قيمة علما أنها ملزمة بالإجماع.

يضاف إليهم الخبراء من أهل الاختصاص في كل المجالات الذين لا غنى للأمة عنهم كلا حسب مجاله مع توفر شرط العلم بالشيء المستشار فيه من الذين يدركون الأمور ويسبرون غورها ويحيطون بدقائقها[4]، سواءً في مجال الإدارة أو السياسة، الاقتصاد والاجتماع، والرسول (صلى الله عليه وسلم) استشار أصحابه بحثا عن الرأي الصائب والحل الأنجع، وهدفها للمستشير كما أقر ابن رضوان (ت 783هـ/1381م) أنها لقاح العقول ورائد الصواب[5].

القيادات العسكرية :

يطلق عليهم أمراء الأجناد أو السرايا[6]، اعتبرهم بعض المفسرين أنهم الموصفون في القرآن بـ «**أُوْلِي الأَمْرِ**»[7]، صنفوا مع أهل الحل والعقد لقدرتهم على إدراك أمور السلم والحرب ومشاركتهم في وضع القرار العسكري، تتوفر

---

(1) خاصة وأن جل من يستشيرهم صاحب السلطة في أمور السياسة والدين وحتى الحرب من الفقهاء الذين تمكنوا من مختلف العلوم وأسرارها تتحصل لهم ملكة سدادة الرأي والحكمة التي ذكرت في شروط أهل الحل والعقد , وفي موضوع أهل الشورى و من يستشار أنظر : محمود الخالدي : **نظام الشورى في الإسلام**, شركة الشهاب ، الجزائر , 1988، ص113– 116.

(2) عرفت الشورى بأنها " أخذ الرأي الملزم "، **المرجع نفسه**، ص122.

(3) القلنشدي : **المصدر السابق**، ج2، ص 300 .

(4) محمود الخالدي : **المرجع السابق**، ص 178

(5) "وأن من شاور عاقلا أخذ نصف عقله"، ابن رضوان ": **الشهب اللامعة في السياسة النافعة** ، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، 1404هـ/1984م، ص151.

(6) يروى عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيده بن الجراح وأصحابه " أنظر أحمد بن حنبل : **مسند أحمد** , دار إحياء التراث العربي ، (دت) ج 1، ص318.

(7) الآية 83 من سورة النساء قال تعالى : « **وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوْا بِه وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَسُولِ وَ إِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذِينَ يَسْتَنْبِطُونهُ مِنْهُمْ وَلولا فضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحمَتُهُ لاَتَبَعْتُمُ الشَيْطَانَ إِلاَ قَلِيلاً**» فأولو الأمر هنا الأقدر على معرفة أمور الخوف وتقدير أوقات الحرب وهم القادة العسكريين الذين لهم علم بالحروب وظروفها وأسبابها وكل ملابساتها وما ينبغي إفشاؤه أو كتمه من أسرارها وغيره أنظر : القرطبي : **تفسير القرآن** , دار الكتب العلمية ، بيروت , ج5، ص291 , السيوطي : **الدرر المنثور (تفسير القرآن)**, دار الفكر ، (دت) ج2، ص573 , ابن الجوزي : **زاد المسير (تفسير القرآن)**, دار الفكر، (دت)، ص83.

فيهم شروط تخص مجالهم كالعلم ببعض الأحكام الشرعية الخاصة بإمارة الجهاد[1]، والقوة الجسمية والطاعة والأمانة عارفا بخطط الحرب وتدبير أمور الجيش وتسييره[2]، وكلها دالة على الكفاءة والقدرة فأُهلوا ليكونوا كذلك.

يضاف إلى هؤلاء رجال الصوفية باعتبارهم فئة مؤثرة في شريحة كبيرة من المجتمع، صنفوا من أهل الحل والعقد خاصة العلماء المجتهدون منهم، الذين لهم باعا في علوم الشريعة وقد ذكر الألوسي صاحب التفسير[3] الكثير منهم كالسهروردي[4]، فقد حاز الكثير منهم القدرة العلمية والخُلقية فكان تأثيرهم كبيرا في شريحة عريضة من المجتمع الإسلامي علما أن البعض من الفقهاء اعتبروهم من العامة.

نستخلص بعد هذه القراءة للنخبة السياسية عند علماء الغرب ومفهوم أهل الحل والعقد في التراث الإسلامي والمقاربة التي عقدتها بينهما أن نظرية النخبة تقول بانقسام المجتمع إلى فئة قليلة حاكمة وأخرى محكومة، بيدها أداة القهر والنفوذ، التنظيم، الشعور بالقوة، المال والثقافة في ظل أكثرية خاضعة، أما أهل الحل والعقد رغم وجود الفئتين إلا أن العلاقة بينهما ذات بعد عقدي (وجوب الإمامة) فالأمة عن طريق أهل الاختيار تمارس سلطتها الشرعية بالشورى في تعيين من يصلح لقيادتها أو ما يسمى في الاصطلاح الحديث بالسلطة الحاكمة ووجوب طاعتهم من منطلق قرآني (أولي الأمر) لا باستعمال القوة أو النفوذ أو الجاه، وإن كان ذلك يتناقض مع الممارسات الواقعية.

كلا من النخبة السياسية بالمنظور الغربي وأهل الحل والعقد في التراث الإسلامي يمارسان نوعا من الهيمنة على المجتمع وأفراده، من منطلق القوة عند النخبة أومن باب وجوب الطاعة عند أهل الحل والعقد، وبرأيي أن الطاعة دائمة لا تزول بسبب استنادها إلى مرجعية قيمية نابعة من ثوابت شرعية، لكن نفوذ النخبة مؤقت ينقضي بزوال مسببات وجوده لقيامه على الإكراه.

وجود عناصر مشتركة بين النخبة وأهل الحل والعقد فيما يخص شروط القيادة كالمعرفة العلمية في مختلف التخصصات، القدرة على التأثير في الفئة المحكومة رغم اختلاف الأساليب ومصادر القوة، ذات نفوذ في السلطة وهو ما سنراه مع الفقهاء خصوصا.

---

(1) الماوردي : **المصدر السابق**، ص 106.

(2) للتفصيل في آداب الحرب وتعاملات القادة في المعارك يراجع : **المصدر نفسه** ، ص 98 – 100, الفراء : **المصدر السابق**، ص 39-40.

([3]) في تفسيره للآية 38 من سورة العنكبوت في قوله تعالى : « **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّن لَكُم مِن مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ** » أن الصوفية الذين وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد وقالوا بانتفاع المؤمن بإيمانه ولو عند العذاب فهؤلاء يمكن جعلهم من جماعة الحل والربط ، أنظر : **الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**،: دار إحياء التراث العربي بيروت، (دت)، ج 11، ص 191.

(4) هو عمر بن محمد السهروردي من مواليد539هـ/1144م شخصية صوفية تنسب إليه الطريقة الصوفية المسماة بالسهروردية ، توفي سنة 632هـ/1234م، أنظر حياته كاملة عند : عائشة يوسف المناعي : **أبو حفص عمر السهروردي حياته وتصوفه**، دار الثقافة ، الدوحة ، 1991.

وورود مصطلح النخبة في الكثير من المصادر التاريخية ككتب التراجم والطبقات أو التاريخ العام، بمعنى الاختيار والأفضلية والتميز، في الترجمة لكثير من شيوخ العلم في وصف لقدراتهم العلمية وتفوقهم الشرعي، أو عناوين لكتب في العلوم الشرعية، ووردت للدلالة على الصحبة الخيرة الصالحة أو ذكر لأمراء جند أكفاء أو شيوخ وأعيان أسياد في أقوامهم[1].

أورد أبو العباس المقري (ت 1041هـ/1631م) معرفا بالفقيه ابن عرفة (ت 803هـ/1400م)[2] قائلا : "نخبة الزمان ابن عرفة"[3]، وعند حديثه عن أبي الفضل ابن رضوان سماه بـ"الفاضل النخبة"[4] ،واستعمله ابن مرزوق الخطيب (ت 781هـ1379م) في ترجمته لأبي العباس بن حسن التلمساني في حديثه عن إجادته للخط وسمو الأخلاق فقال : "كان هذا الرجل نخبة في عصره في حسن الخط والتصرف فيه مع طلب وأدب ونبل"[5]، وفي ترجمته لأبي إسحاق ابن الحاج النميري (ت 774هـ/1313م) فسماه "الفقيه الإمام الرحالة النخبة"[6] .

وجاء اللفظ كذلك للدلالة على الخيرة من قادة الجيش وفرسانه يتم اختيارهم وانتقائهم بصفتهم الأفضل عن غيرهم عند الطبري (ت610هـ/1213م) قي قوله"بنخبة ألفي رجل ينتخبهم...ينتخب الوجوه والفرسان"[7]، وأورد

---

(1) فقد وصف ابن هلال السجلماسي (ت 903هـ/1497م) أحد الفقهاء في تفرده العلمي والبلاغي ونعته بالزعيم بقوله :

يا نخبة العلماء والفضلاء وبقية الأعلام النبلاء

وبراعة وفصاحة وبلاغة أعيت جميع الفصحاء

ادنوا أقروا أذعنوا لزعميهم فاسحب ذيول العزة القعساء

يراجع في ذلك : ابن القاضي : **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة و الوراقة ، الرباط 1973، ج 1، ص 97- 98 .

(2) هو أبو عبد الله بن عرفة الورغمي الفقيه التونسي ذاع صيته في الفقه المالكي ببلاد المغرب ،أنظر ترجمته عند : ابن فرحون : **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب** ، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1417هـ/ 1996م، ص 419 – 420، ابن الجزري : **غاية النهاية في طبقات القراء** ، نشره : ج برجستراسر ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ج2، ص 243، القرافي : **توشيح الديباج وحلية الابتهاج** ، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، 2004، ص 239، ابن القاضي : **درة الحجال في غرة أسماء الرجال** ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1423 هـ /2002 م ، ص 272، التنبكتي : **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج** ، تحقيق أبو يحي عبد الله الكندري، دار ابن حزم، 2002، ص 361، ابن العماد الحنبلي : **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، دار إحياء التراث العربي، ج7 ، ص 38، محمد بن مخلوف : **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، (دت)، ص 227.

(3) المقري : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1986، ج5، ص 481 .

(4) **المصدر نفسه** ، ج7 ، ص118 .

(5) ابن مرزوق : **المسند الصحيح في مأثر و محاسن مولانا أبي الحسن** ، تحقيق ماريا خسيوس بيغيرا ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، 1981، ص 313 .

(6) **المصدر نفسه**، ص 376 .

(7) الطبري : **تاريخ الأمم و الملوك** ، تحقيق إحسان عباس، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1407 هـ/1986م، ج4 ، ص 388.

ابن كثير (ت 774هـ/1372م) وصفا دقيقا وبإعجاب لكتاب الإمام محي الدين النووي في الفقه الموسوم بـ"المجموع" في قوله "وقد جعله نخبة على ما عن له[كذا]ولا أعرف في كتب الفقه أحسن منه"[1] .

رغم وجود بعض الاختلافات بين النخبة وأهل الحل والعقد خاصة في المفهوم جراء التباين الفكري والفارق الظرفي، إلا أن الاتفاق بين النخبة و أهل الحل و العقد وقع على أن كلا منهما جماعة قوية تحمل مؤهلات في مختلف المجالات سواءً علمية، فنية، حاكمة، قادرة على إيصال رسائلها نافذة في المجتمع تملك القوة الاقتصادية والمالية، تمكنت من تحصيل الجاه بفضل موقعها في السلطة، يشكلون نخبة الأمة من منطلق علمي أو سياسي ليسهل علينا فهم من هم المشمولون بالدراسة من فقهاء، خطباء، أئمة، قضاة، كتاب، حجاب، رجال الصوفية، شيوخ القبائل، قيادات عسكرية، تجار كبار، وهم الذين شملهم مصطلح النخبة سواءً كانوا في السلطة أو خارجها، لهذا تم اختياري لهذا المدلول الأشمل لدراسة كل أصناف النخب البجائية من القرن 7هـ/13م إلى القرن9هـ/15م.

(1) ابن كثير : **البداية و النهاية** ، تحقيق محمد بيومي وآخرون، مكتبة الإيمان، مصر، (دت)، ج13، ص 229 .

ثانيا : النخبة والسلطة من خلال الآداب السلطانية (مرايا الملوك)

لمة التي تناولتها مؤلفة تناولتها مؤلفات الآداب السلطانية بمفهوم الخلافة والإمامة[1]، خاصة وأن أول ما وقع بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وطرح للنقاش من يتولى أمر المسلمين؟، وهم ما أشار إليه الأشعري "أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم اختلافهم في الإمامة"[2]، حرصا منهم على ضرورة تعيين خليفة عليهم، فالسلطة هنا المقصود بها المتقلد لأمور المسلمين سوءً سُمي خليفة، إماما، أميرا للمسلمين للدلالة على من يحكمهم ويتولى أمرهم من ولاة الأمر.

فما هو مفهوم السلطة في تراثيات الفكر السياسي الإسلامي؟ وكيف تناولت هذه المؤلفات علاقة السلطان بالنخب إن كانوا من داخلها من المتقلدين للوظائف الدينية والسلطانية كوزراء حجاب، كتاب، خطباء ، مفتيين أو خارجها من المعارضة أو المحايدين؟ ما طبيعة العلاقة بين ما هو سياسي وفقهي هل هو صراع أم تعايش ولماذا؟ وما هي المرجعيات المحددة لتلك العلاقة؟

1- السلطة (الإمامة) بالمفهوم التراثي[3] :

---

(1) نظرا لتشعب الموضوع و لكثرة ما كتب عنه ودون الخوض فيه لأنه ليس بموضوعنا و لا نوظف إلا ما له علاقة بالدراسة في عنصر السلطة (الإمامة) انطلاقا مما حدث في السقيفة نحيل إلى بعض المصادر التي تناولته : ابن قتيبة : **الإمامة و السياسة**، موفم للنسر ، الجزائر ، ج1، ص 8 و ما بعدها ، و أنظر : المسعودي : **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، موفم للنشر ، الجزائر ، ج2، وتنظيرا لحكم الإمامة وشروط الإمام وواجباتها وأقوال المذاهب الإسلامية في ذلك أنظر : الماوردي : **المصدر السابق**، ص63-82 : الجويني : **المصدر السابق**، ص 42 – 50، الفراء : **المصدر السابق** : ص 19 وما بعدها ، عبد الرحمن ابن خلدون : **المقدمة (كتاب العمران)** ص 184 – 185.

و من الدراسات المعمقة التي تناولت الموضوع في غياب النص (الوحي) أنظر : رضوان السيد : **الأمة و الجماعة و السلطة**، اقرأ للنشر والتوزيع، بيروت ، 1404هـ/ 1984م، ص 10-11،76-100، و لنفس المؤلف أنظر : **الجماعة و المجتمع و الدولة**، دار الكتاب العربي، بيروت، 1997، ج1، ص 26 ، و كذلك أنظر : عبد الجواد ياسين : **السلطة في الإسلام – العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، 1998، ص 33 – 49، 235 و ما بعدها ، والذي رأى أن السلطة يشترك فيها كلا من النص (القرآن والسنة) والتاريخ محاولا فهم من يؤثر في من؟ مبديا قراءة تاريخية من بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الدولة العباسية ومستخلصا أن العقل السلفي محصلة طبيعية لتاريخية السلطة ، للتفصيل العودة إلى : أحمد إبراهيم أبو الشوك : «السلطة في الإسلام – العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ – (قراءة نقدية للكتاب)»، **مجلة التجديد**, العدد11، سنة 1422هـ/2001م، ص215- 216 يراجع كذلك : سعيد بن سعيد : **دولة الخلافة – دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي**, مطبعة دار النشر المغربية, الدار البيضاء، ص 83 –92.

وللتفصيل في الإمامة عند الفرق الإسلامية المختلفة العودة إلى الدراسة التي أنجزها حسين الصديق : **الإنسان والسلطة**, منشورات إتحاد الكتاب العرب, دمشق 2001، ص41-45.

(2) الأشعري : **مقالات المصلين الإسلاميين واختلاف المصلين** ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، بيروت، 1990، ج1ص39.

(3) من الضروري التفريق في اللغة الفرنسية بين كلمة سلطة ***autorité*** بمعنى التصرف والنصح والمساعدة والقدرة , وكلمة ***Pouvoir*** التي تؤدي إلى معنى النفوذ , ينظر : علي أسعد وطفة : «بين السلطة والتسلط» , **جريدة الأسبوع الأدبي**, دمشق, العدد الثالث, السنة الأولى, صيف 1998، وينظر كذلك : فوزي خليل: **المرجع السابق**، ص118-123.

القواميس العربية لا تشير إلا بصورة مقتضبة لهذا اللفظ[1]، أما في الإسلام فالسلطة ارتبطت بمفهوم الإمامة الكبرى، الواجبة شرعا وعقلا الغاية من ورائها حفظ الدين الإسلامي، اعتبرها ابن خلدون واجبة بالعقل لضرورتها للاجتماع البشري معرفا إياها بأنها "نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به" [2]، لها علاقة بنشأة الجماعة للم الشمل ودرأ الانفصال وسنة كونية هدفها حكم البشر بالعدل والقسط[3]، تسند إلى الجماعة دون الفرد لمخافة الظلم والاستبداد في حالة وقوعها في يد شخص ظالم[4]، كما أنه ذهب إلى القول أن السلطة ضرورة اجتماعية للبشر لحمايتهم من الظلم مسميا إياها بالوازع فقال : "إن هذا الاجتماع إذا حصل...فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض"[5] كمقدمة للوصول إلى الملك[6] .

كلا من الماوردي (ت450هـ/1038م) و أبو حامد الغزالي (ت 505هـ/1111م) وابن خلدون (ت 808 هـ/1405م) يرون ضرورة استعمال السلطة لوسائل الإكراه المادي والمعنوي إذا استدعت الضرورة لذلك،و قد عبر عنها ابن خلدون في كثير من المواضع من المقدمة بالقهر لتحقيق الدولة لأهدافها انطلاقا من أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[7]، والمعني بالسلطة هنا الخليفة أو الإمام أو السلطان[8] في المركز وممثلوه في الولايات والأقاليم، من الولاة والأمراء كما سماهم الماوردي وجعلهم من خلفائه"من تكون ولايته في أعمال خاصة وهم أمراء الأقاليم والبلدان"[9].

---

(1) جاءت في لسان العرب "سُلطة" بالضم بمعنى القهر"سَلَطَهُ الله فتسلط عليهم "، مركزا على مفهوم القوة والغلبة و"امرأة سِلطة" كثيرة الصخب و"سِلطة اللسان"أي طويلة، دلالة على التفوق في أم **لسان العرب** : مادة سلط , ج 7ص، 320.

من الأمور، لتشتق منها كلمة (السلطان) بمعنى الوالي وتؤدي معنى"الحجة والبرهان"، وبالتالي فهي تستدعي الإذعان والتسليم، أنظر : الرازي : **المصدر السابق**، مادة سلط ، ج1، ص130.

(2) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص185.

(3) مصداقا لقوله تعالى « **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدةً فَبَعَثَ اللهُ النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ...** » سورة البقرة الآية 213 .

(4) ناقش رضوان السيد هذه الفكرة وتوصل إلى أن القرآن وصف الصراع بين المستكبرين والمستضعفين جدلية في الأمة الواحدة ولنصرة هؤلاء الضعفاء يبعث الله رسله لإحقاق الحق (السلطة العادلة) مستدلا بقوله تعالى « **لَقَد أرسلنا رسلنا بالبينات و أنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ...**» سورة الحديد الآية 25 ، أنظر : **الأمة و الجماعة و السلطة** ، ص 31-33.

(5) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص 49 .

(6) تيسير شيخ الأرض : «علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون» ، **مجلة التراث العربي**، العدد 29 ، السنة الثامنة، صفر 1408هـ/ أكتوبر 1987، ص 160 .

(7) محمد فتحي الدريني : «الفكر السياسي عند الغزال و الماوردي و ابن خلدون»، **مجلة التراث العربي**، العدد 22، جمادى الأول 1406هـ/ يناير1986، ، ص 29 .

(8) دأب ابن خلدون على تسميته إماما تشبيها له بإمام الصلاة و خليفة لخلافته النبي (صلى الله عليه و سلم) في تسيير شؤون الأمة ، أنظر : **المقدمة**، ص 185، أما المتأخرون فأطلقوا عليه السلطان بانقسام الدولة إلى سلطنات و إمارات تتنازع الملك فيما بينها فاضطر أهل الحل العقد إلى عقد البيعة لكل متغلب أو ما يسميها الماوردي بإمارة الاستيلاء ، أنظر : **الأحكام السلطانية**، ص 95 – 97.

(9) **المصدر نفسه** ، ص 82 .

أجمعت مرايا الملوك والمؤلفات الفقهية على أربع شروط في الإمام هي : العدل والورع والعلم وسلامة الحواس واختلفوا في القرشية وإقرار أهل السنة لهذا الشرط[1] وزاد البعض شروطا أخرى مكملة[2]، مكلف بتدبير شؤون الأمة على رأسها حفظ الدين وحراسة الملة وحماية البيضة إلى تعيين ولاة الأمصار والبلدان وله عند الرعية حق الطاعة والنصيحة، يختار أصحاب السيف والقلم لدولته من الوزراء، الحجاب، الكتاب، ويعين القضاة على الأقاليم، ويوصي ولاته بمباشرة هموم الرعية، ويولي الإفتاء لأهل الفتوى من الفقهاء، يؤم الصلوات ويعقد مجالس العلم ويحضر حلق الذكر[3] فكيف نظر أدب الملوك لعلاقة السلطان بأصحاب السيف والقلم من جهة ولعلاقتها بأهل العلم أو السلطة المعرفية من جهة أخرى؟ ومن هم أولو الأمر؟ أهم الفقهاء أم الأمراء ؟.

2- النخبة والسلطة في مرايا الملوك صراع أم تعايش؟

بالرغم من اختلاف التسميات سواءً لملا يلي أو للسلاطين أو أحكاما سلطانية لتبصيرهم ووعظهم أو آدابا في كيفية تعاملهم مع مختلف الشرائح المحكومة إلا أنها كلها موجهة للسلطان[4]، والبعض منها لخاصته، من كتابات ابن المقفع (ت 143هـ/760م) "**كليلة ودمنة**"، الذي حاول فيه إبراز الصراع حول السلطة لإثبات البقاء على لسان الحيوان[5]، إلى"**رسالة الصحابة**" التي قدم فيها نموذجا للدولة القوية، بضبط أجهزتها الإدارية وتحديد مهام أصحاب السلطان من موظفين وأمراء الأقاليم، مقترحا طرق إصلاح الدولة على عهد المنصور العباسي (136-158هـ/753-774م) فالماوردي وبمرجعية أشعرية من خلال"**نصيحة الملوك**"[6] وغيرها من مؤلفاته السلطانية[7]،

---

(1) برر ابن خلدون شرط القرشية وحجيتها الشرعية والعقلية بعصبية قريش و قوة هذا القبيل من العرب، وبزوالها انتفى هذا الشرط ، أنظر : **المصدر السابق**، ص، 188- 190 .

وفي رأينا أن تاريخ المغرب و ابن خلدون أحد مصادره الموثوقة ينطبق عليه هذا التنظير فتاريخه تاريخ القبيلة التي جمعت بين الشوكة و القوة ككتامة وصنهاجة و بنو زيان .

(2) أضاف ابن طباطبا الخوف من الله و العفو عن الذنوب ، الكرم ، الهيبة ، السياسة ، الوفاء بالعهد و الإطلاع على غوامض المملكة أنظر : **الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية**، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، سوريا 1997، ص 23-30، وللتفصيل في هذه الشروط أنظر : الماوردي : **المصدر السابق**، ص 64 .

(3) أنظر مهامه عند : المصدر نفسه، ص 46، الفراء : **المصدر السابق** : ص 27-28 ، ابن طباطبا : **المصدر السابق** ، ص 39-40 .

(4) جل هذه المؤلفات أهديت لسلاطين أو ملوك كما أن بعض أصحابها تقلدوا مناصب في البلاط، فالماوردي ألف " **الأحكام السلطانية**" بطلب من الخليفة العباسي القادر بالله (381- 422 هـ/991-1030م) وتولى القضاء و السفارة في الدولة ،و ابن المقفع قدم " **رسالة الصحابة** " إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، و الطرطوشي أهدى مؤلفه الموسوم بـ " **سراج الملوك** " للوزير الفاطمي المأمون نظام الملك ابن البطائحي، و ابن طباطبا أهدى " **الفخري في الآداب السلطانية** " إلى الموصل فخر الدين عيسى ابن إبراهيم، وابن رضوان ألف "**الشهب اللامعة** " بطلب من السلطان المريني أبي سالم (760-762هـ/1358-1360م).

(5) ابن المقفع : **كليلة و دمنة** ، دار النفيس الجزائر (د ت)، ص 18-55 ، 20 - 61.

(6) الماوردي : **نصيحة الملوك** ، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية، 1988.

(7) مثل: "**أدب الوزير**" و المعروف بـ "**قوانين الوزارة و سياسة الملك** "، صححه حسن الهادي حسن ، ط2 ، مكتبة الخانجي، القاهرة 1414 هـ/ 1994م، و " **أدب الدنيا و الدين** "، حاول الماوردي في ظل سيطرة إمارات الاستيلاء و أمام تسلط البويهيين و السلاجقة

مرورا بالمرادي (ت 489هـ/1095م) والنظرية المغربية في الأدب السلطاني من خلال كتابه "**الإشارة إلى أدب الإمارة**"[1]، ووصولا إلى ابن رضوان المالقي (ت 783هـ/1381) فأبي حمو موسى الزياني (ت 791هـ/1388م) "**واسطة السلوك**"[2]، ملتمسين من تراث الكُتاب والتاريخ الإسلامي والموروث الفارسي والحكم اليونانية كمرجعية لهذا الإنتاج، وإن كان بعض الباحثين لم ير في مرايا الملوك إلا تزلف لهؤلاء الكتاب ليرضى عنهم السلطان ويصلهم بصحبته ويشملهم بعطفه[3].

اختلاف هذه المؤلفات في ترتيب الأولى عند السلطان والضروري للمُلك أهم أصحاب السيف أم القلم؟ وما هي المبررات والحجج التي يقدمها كل طرف للتدليل على موقفه؟ وهل حقيقة أن المقارنة بينهما تعد من قبيل المقابلة بين السياسة والمعرفة ؟.يروى عن الخليفة أبي جعفر المنصور (136-158هـ/ 753-774م) مقولة أوضح فيها مقومات السلطة وركائزها[4]، فذكر اثنين من أصحاب السيف هما صاحبا الشرطة والخراج، وآخران من أهل القلم هما القاضي والكاتب محددا مهام كل واحد من هؤلاء وضرورته للمُلك، ففي حين قدم البعض السيف على القلم لأنه يخدمه فضل آخرون القلم على السيف لأنه حاميه[5]، خصوصا أهل الشريعة والحكمة وشيوخ القبائل والصالحين والزهاد[6]، يصطنعهم السلطان لنفسه لتقوية شوكته، ويستظل بأهل الشريعة وتكريم أهل العلم فيقربهم في المجالس ويجزل لهم العطاء لاستمالة الرعية السامعة والمطيعة لهؤلاء وامتلاكه القدرة على التأثير فيهم، على الرغم من

وضعف الخلافة العباسية تقديم أدوات إصلاحها مستندا إلى نظرية أهل السنة و الجماعة و متأثرا بالعقيدة الأشعرية، يراجع في الموضوع : سعيد بن سعيد : **المرجع السابق**، ص 50 .

(1) المرادي : **كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة** ، تحقيق رضوان السيد، دار الطباعة للنشر و التوزيع ، بيروت ،1989، و للتفصيل في نظريته أنظر : محمد الأمين بلغيث ، **النظرية السياسية عند المرادي و أثرها في المغرب و الأندلس** ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1989، ص 55 وما بعدها .

(2) أبو حمو الزياني : **واسطة السلوك في سياسة الملوك** ، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1279 هـ /1862.

(3) من أمثال ابن المقفع وسهل بن هارون (ت 215 هـ/830م) الذي ألف " **تدبير الملك و السياسة** " و الذي لم يصلنا و صاحب "**الأسد و الغواص** " أنظر : رضوان السيد : **الجماعة و المجتمع و الدولة**، ص 152 – 153 .

(4) قال أبو جعفر المنصور " ما كان أحوجني أن يكون على بابي أربعة هم أركان الملك و لا يصلح الملك إلا بهم ... أحدهم قاضي لا تأخذه في الله لومة لائم و الآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي و الثالث صاحب خراج يستقضي و لا يظلم الرعية ... وصاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة " أنظر : الطرطوشي : **سراج الملوك** ، تحقيق جعفر البياتي، رياض الريس للكتب والنشر ، 1990، ص202 .

(5) فصل ابن خلدون في الموضوع ووضح دور كلا من السيف و القلم في أطوار الدولة فقدم السيف على القلم في مرحلة البداوة ليتضاءل هذا الدور أثناء مرحلة القوة و الاستعلاء، و تقديم صاحب الأمر لأهل القلم لتمجيد إنجازاته و الإشادة بها في طور الضعف يستنجد بأصحاب السيف ثانية لمحاولة استعادة أمجاد دولته ، أنظر : **المقدمة** ، ص 242-243 ، و أنظر للتفصيل : الزواوي بغورة : «مشكلة المعرفة والسلطة في التراث العربي الإسلامي من خلال سيرة ابن خلدون»، **مجلة سيرتا**، ص12، ص75-85.

(6) الطرطوشي : **المصدر السابق**، ص 342 .

أن ابن خلدون يقصيهم من قائمة أهل الحل والعقد[1]، في حين ركز ابن المقفع على ما سماهم بـ"الخاصة"من صحابة السلطان من الكتاب، لتقديم النصح والاستشارة "زينة مجلسه وألسنة رعيته"[2]، محذرا من غدره وخيانته ناصحا بعدم ائتمانه "وإنك لا تأمن أنفة الملوك...ولا تأمن عقوبتهم"[3]، حتى وإن اتصف أصحابه بالأمانة والصدق خوفا على ضياع ملكه على يد من هم حوله وأولهم وزيره ، وينصح المرادي السلطان بإظهار القوة والحزم أمام وزيره والابتعاد عن مظاهر الخوف حتى لا يشك في ضعفه حفاظا على سلطته[4]، خاصة الوزير الذي لا يقل طاعة وسمعا من السلطان عند الرعية[5]، فمن آثر أن يكون من صحبته فإما على حساب حقوق الرعية إرضاءً لصاحب الأمر وفي ذلك فساد لدينه، أو مع الرعية على حساب السلطان وفي ذلك ضياع لدنياه[6]، والالتزام بصفات معينة عند خدمته وإلا فالابتعاد عنه أفضل[7]، ليكون الإجماع واقعا بين مرايا الملوك على ضياع دنيا ودين بطانته، علما أن السلطان في حاجة للسلطة المعرفية لتبرير مواقفه من جهة وحيازة قبولها من ناحية ثانية[8].

لفهم هذه العلاقة اخترت نموذجين اثنين من أصحاب القلم لمحاولة دراسة كيفية تناول الأدب السلطاني لها من خلال السلطة المعرفية التي يمثلها الفقيه نيابة دينية حريصة على مراقبة السلطة في مدى حرصها على الالتزام بالشرع، والنموذج الثاني يمثله الكتاب كجزء منها ولسان حالها فهل كانوا كذلك في كل الحالات؟ وكيف تم التعامل مع النموذجين من قبل السلطان من خلال الواقعة التاريخية والأدب السلطاني؟ وما هي المبررات التي قدمها كلا منهما لإصباغ الشرعية على أعمالهم من داخل هذه السلطة أو خارجها ؟

أ- السلطان والعلماء :

الاختلاف بدأ من تفسير الآية الكريمة : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وأطيعوا الرسول وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ... »[9] فمن هم أولوا الأمر عند أهل السنة والجماعة؟ وهل التباين في تحديدهم هو المنطلق لبداية التجاذب والصراع بين الفئتين؟ أم هناك أسباب أخرى زادت الهوة اتساعا ؟

---

(1) أنظر للتفصيل في الموضوع : عبد السلام الشدادي : **ابن خلدون من منظور أخر**، ترجمة : **محمد الهلالي وبشرى الفكيكي**، دار توبقال للنشر، الدر البيضاء، 2000، ص 35-37.

(2) "**رسالة الصحابة** " نقلا عن محمد عابد الجابري : **العقل السياسي العربي محدداته و تجلياته**، ط4، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000، ص 344 .

(3) ابن المقفع : **الأدب الكبير و الأدب الصغير** ، دار الجيل، بيروت، (دت)، ص 61 .

(4) المرادي : **المصدر السابق**، ص 137 ، و أنظر كذلك: الماوردي : **أدب الوزير**، ص 13-18 .

(5) الطرطوشي : **المصدر السابق** ، ص 224.

(6) ابن المقفع : **المصدر السابق**، ص 39 .

(7) يقدم ابن المقفع نصائح جليلة لمن يدخل في صف صحابة السلطان و خدمته ، و يحذر من غدره وينصح بتحمل كل ما يصدر عنه ، للتفصيل أكثر أنظر : الجابري : **العقل السياسي العربي**، ص 345 .

(8) عبد المجيد الصغير : **الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام**، دار المنتخب العربي، بيروت ، 1415هـ/1994م، ص 86.

(9) سورة النساء الآية 59 .

ذهب البعض إلى القول أنهم الأمراء[1]، وذكر ابن كثير أن الآية شاملة لولاة الأمر من الأمراء والفقهاء من أهل العلم والفتية[2]، لم يطرح الموضوع أي إشكالية في البداية حيث لم يصل إلى هرم السلطة إلا أهل العلم من الفقهاء، لكن سيحدث الشرخ بوصول قيادات عسكرية اعتبرت العلماء فئة تهدد كيانهم إن لم يحتضنوها وهو ما عبر عنه ابن العربي (ت 543هـ/1138م) في مقولته"كان الأمراء قبل هذا اليوم هم العلماء ...ثم فصل الله الأمر بحكمته البالغة...فصار العلماء فريقا والأمراء آخر فتعارضت الأمور"[3]، لتبدأ نواة الفرقة في القرن الأول الهجري مع فئة القراء أو أهل القرآن[4]، تفرغوا للعلم لتلتف حول نفسها كفئة علمية وفقهية بارزة تحظى باحترام كافة المسلمين[5] وباهتمام الخليفة عمر بن الخطاب فجعل من بعضهم أهل مشورته وعينهم على الجيش وفي بعض المناصب الإدارية في الدولة[6]، سرعان ما تحولت إلى العمل السياسي في عهد الخليفة عثمان بن عفان لتقف ضده في النهاية، فيتم الفصل بين قراء موالين لمعاوية بن أبي سفيان وآخرين في صف علي بن أبي طالب[7] لتخرج في الأخير من الصراع واعتبرت ما يحدث قتال حول السلطة[8]، ليشكل هؤلاء سلطة ثانية ذات أبعاد فقهية مرجعيتها الكتاب والسنة فحدث ما ذكره ابن العربي سابقا ولنشهد ما سماه رضوان السيد بـ"المساومات"[9] بين السلطة وعلماء الإسلام في التاريخ الإسلامي، وانقسام العلماء بعد أن لم يستطيعوا فرض أنفسهم كبديل يجمع بين ما هو سياسي وعلمي ليقبل بعضهم المشاركة في السلطة من خلال وظائفها في حين نظر الطرف الثاني للموقف بمنظار التزلف الهدف منه الجري وراء دنيا زائلة، أما الطرف الثالث فقال بضرورة اعتزال كلا منهما مطبقا ما جاء في الأثر"عليك بنفسك"إما قناعة أو مخافة للفتنة.

---

(1) الطبري : **تفسير القرآن**، ج5، ص 93 .

- علما أن الشيعة يفسرون أولي الآمر على أنهم الأئمة المعصومون، يراجع : فوزي خليل، **المرجع السابق**، ص 108-112

(2) ابن كثير : **تفسير القرآن العظيم**، ج 1، ص 507.

وذكر الغزالي في الإحياء أن الأمر لم يكن مشكلا لما كان الخلفاء فقهاء " فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم" أنظر : أبو حامد الغزالي : **إحياء علوم الدين**، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة، 2005، ج1، ص 62.

(3) ابن الأزرق: **المصدر السابق**، ج1 ص 375.

(4) الفئة الحافظة لكتاب الله والمتفقهة فيه خرجوا من المدينة المنورة ، وركنوا لدراسة القرآن والتأمل في معانيه، للتفصيل في هذه الفئة أرجع إلى : رضوان السيد : **الأمة والجماعة والسلطة**، ص 264 .

(5) الجابري : **المرجع السابق**، ص 43.

(6) رضوان السيد : **المرجع السابق**، ص 246 .

(7) علي أو مليل : **السلطة الثقافية والسلطة السياسية** ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط 2، بيروت، 1998، ص 33 .

(8) رضوان السيد : **المرجع السابق**، ص 265 .

(9) **المرجع نفسه**، ص 267 .

في تطور لهذا الانفصال يجر لها لتتوسع في العصر الثاني يراها لتتوسع في العصر الثاني[1]، ليستغني عنهم في النهاية[2]، لتنتهي إلى مجتمع منقسم قمة وقاعدة، أمراء وجند، علماء ورعية، أو كما أطلق عليهم الجابري"خاصة وعامة"[3]، ويبدو أن تداعيات السياسي بالفقهي أوصلتنا إلى إعطاء ثلاث تركيبات لفئات العلماء اتجاه السلطة وهم : الفئة المنضوية تحت لوائها في أجهزتها الإدارية، الفئة الصامتة[4] ، الفئة المعارضة والمحافية لها.

الفئة الأولى وهي بيت القصيد فضلت المشاركة في السلطة وتقلد الوظائف الرسمية لتحقيق أطماع مادية وتحصيل الجاه والحظوة[5]، أو بنوايا الإصلاح عن طريق تقلد الوظائف الدينية، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر رغم أن هذا النهي اعتبره أحد الدارسين دعاية مبطنة لرفض الواقع وصورة من صور تقصير السلطة في أداء واجباتها تجاه الرعية [6]، ودعوها إلى نشر الفقهاء عبر القرى لتعليم الناس دينهم وتبصيرهم بشريعتهم[7]، وإسداء النصيحة لولاة أمرهم وطاعتهم والنهي عن الخروج عنهم والصبر على آذاهم والتريث من السلطان الغشوم بحكم أن "الصبر أولى لما في الحروب من سفك الدماء"[8]،كحق من حقوقهم على الرعية مستدلين بآية طاعة ولي الأمر وبأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالسمع والطاعة في المنشط والمكره في العسر واليسر مهما كان لون الإمام أو جنسه لقوله (صلى الله عليه وسلم) «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا**»[9]، وقدم أصحاب هذا الرأي الإمام أحمد ابن حنبل (ت 241هـ/855م)كنموذج دعا إلى التزام الطاعة وعدم الخروج عن الحاكم درءا للفتنة ورفض اللجوء إلى القوة كوسيلة للتغيير والالتزام بالنصيحة ودعوته إلى إتباع الحق بالتي هي أحسن"رقابة الفقيه تنتهي عند تنبيه الحاكم"[10]، وقرنت طاعته بطاعة الله عز وجل حتى وإن كان جائرا وأعتبرها الفقهاء "فرض على الرعية"[11] وربطوها

---

(1) حسب تسمية الونشريسي ، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب** ، تحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج 2، ص 480 .

(2) يفصل رضوان السيد في هذه الإشكالية ، حيث يرى أن المثقف في القرن الأول الهجري لم تعتبره السلطة لا عدوا ولا صديقا لكن وبمجرد مطالبته الإشراف على الوظائف الدينية لأحقيته بها دون الإدارية اعتبرته معارضا لها أنظر : **الأمة والجماعة والسلطة** ، ص 272 – 273 .

(3) ليصل إلى تقسيم ثنائي في العهد العباسي إلى ثلاث فئات هي الخليفة وحاشيته في البلاط من متقلدي الوظائف الإدارية والدينية ثم زعماء القبائل والأثرياء ثم الرعية (الخليفة ، الخاصة ، العامة) أنظر : الجابري : **المرجع السابق**، ص 332 .

(4) وأقصد بها تلك الفئة التي لم تبدي معارضة ولا ولاءً للسلطة .

(5) الغزالي : **المصدر السابق**، ج1، ص 62 .

(6) عبد الله العروي : **مجمل تاريخ المغرب** ، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، 2000 ، ص 146 .

(7) صابرة خطيف : **المرجع السابق**، ص 54 .

(8) أحمد بن أبي الضياف : **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان** ، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1396هـ/ 1976م، ص 361 .

(9) الحديث رواه أبو داود السجستاني في باب لزوم السنة أنظر : **سنن أبي داود** ، دار إحياء التراث، بيروت، ج 12، ص 358 ، وروي كذلك في باب وجوب طاعة الأمراء عند مسلم والبخاري ولكن بصيغ أخرى.

(10) علي أومليل : **المرجع السابق**، ص45 .

(11) الطرطوشي : **المصدر السابق**، ص 18 .

بفقه المصالح العليا للدين، فالخروج عنه ضياع للملة وأن "عصيان الأئمة يهدم أركان الملة"[1]، ليتم توظيف النص الديني من الكتاب والسنة وأقوال أهل الأثر لخلق طبقة من العلماء يقرؤون هذه النصوص بمقاربات سياسية، فيتم تقريبهم ورعايتهم من قبل السلطة فضلاً على أنهم "الحافظون لحدود الله والناصحون لعباد الله"[2] أكد المرادي على ضرورة اتصافهم بالحزم في سياستهم تجاه السلطان" محافظا عليه ناظر دوامه سائسا له بالحزم"[3]، فإن لم يكن كذلك فهو تابع مذلول ضعيف مسخر لخدمة مصالح السلطة، حتى أن بعض رخين أصحاب السلطان أدلوا بدلوهم في هذه القضية فهذا ابن الشماع (حيا سنة861هـ/1465م) أفرد الباب الخامس من كتابه في وجوب طاعة ولاة الأمر إرضاءً للسلطان الحفصي[4]، أمام هذا التسليم للحاكم بشرعية سلطته نصا فما هو البديل الذي يقدمه هؤلاء العلماء لمحاولة الإصلاح؟

البديل المقدم يرتكز على ضرورة تواجد العالم في وظائف وأجهزة الدولة الرسمية كمحاولة للتخفيف من الفساد وإصلاح شؤون الراعي والرعية، أطلق عليهم ابن حزم بالوجوه يتخذ منهم الكتاب والأطباء والقضاة والأمراء[5] ورجال الحسبة والخطباء وربما الوزراء[6]، فهم أقرب إلى تطبيق الأحكام من غيرهم من خلال هذه الوظائف تؤهلهم بعض المعطيات التي يمتلكونها من تبوأ هذه المكانة فهم الأقدر عليها كما تضمنُ السلطة طاعة الرعية لهم وانقيادها[7]. بسبب كل ذلك سيولي الأدب السلطاني اهتمامه إلى ضرورة تبجيل السلطان للعلماء وتقريبهم لمجلسه لحاجته إليهم، فيُنصح بمجالستهم والاسترشاد بهم ومصاحبتهم "وليس أحد من أهل الدرجات السنية والمراتب العلية أحوج إلى مجالسة العلماء وصحبة الفقهاء.....وسير الحكماء من السلطان" [8]، أما الفقيه السلطان فهو غائب في الفترة محل الدراسة، إلا أن المشكلة لو تكن مطروحة لما وصل هؤلاء إلى مقاليد الحكم لتوظيفهم لسلطتهم المعرفية ذات الطابع الديني في سياسيتهم لرعيتهم.

---

(1) الطرطوشي : **المصدر السابق**، ص 18 .

(2) ابن الأزرق : **المصدر السابق**، ج1، ص170 .

(3) المرادي : **المصدر السابق** ، ص 147 .

(4) أنظر : محمد ابن الشماع : **الأدلة البينة النورانية في مفاخرة الدولة الحفصية** ، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، ط 2، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص 43 – 47 ، علما أن الكتاب ألف سنة 861 هـ/1457 م) للسلطان الحفصي أبي عمرو عثمان (ت897 هـ/ 1488 م) و لا غرابة في طرقه للموضوع إذا علمنا أن المؤرخ " عاش في ظل العصر و تنعم بخيراته فأخذ يلهج بهذه المسرات ناسيا الخطة التي يجب على المؤرخ أن يسلكها " كما عبر عنه محقق الكتاب في مقدمته أنظره، ص 20 .

(5) ابن رضوان : **المصدر السابق**، ص144.

(6) إبراهيم العريني : **الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين**، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض، 1416 هـ / 1995، ص 366 .

(7) يقدم عبد الحليم عويس بعض النماذج من تاريخ الإسلام عن علاقة رجل الدعوة برجل السياسة وتوافقهما فكرا وعملا في أزمنة وأمكنة مختلفة ، للتفصيل يراجع ، عبد الحليم عويس : «يفى الحضارة الإ السياسي والدعوي في سياق الحضارة الإسلامية»، **مجلة** الرسالة، العدد10، ذو الحجة 142، فيفري 2004، ص74-77 .

(8) الطرطوشي : **المصدر السابق**، ص23.

اعتبر صاحب سراج الملوك أنه من العدل النبوي احترام وتقدير العلماء والصلحاء فهم أساس الملك وتمامه "فاتخذ أيها الملك العلماء شعارا والصالحين دثارا"[1]، جامعا بين النصح والدعاء، باستشارتهم في كل أمر من أمور الدين أو الدنيا فهم أهل الحكمة والرأي، مما جعل أبا حمو موسى الزياني يرتبهم في المرتبة الثانية بعد الشرفاء دخولا على السلطان[2]، وفي المرتبة الرابعة عند إخوان الصفا مع الخاصة بعد السلطان فالأشراف وكبار التجار[3]، وصنفهم ابن الأزرق في المرتبة الثانية[4]، معللا هذه المكانة على أن تبجيلهم واجب شرعي واعتياد عموم الأمة في تعظيمهم وإنزالهم منزلتهم[5] التي ذكرها الله في القرآن[6]، والابتعاد عن الطعن فيهم وحاجة الأمراء إليهم لفهم الشريعة وتطبيق حدود الله والسعي في جبر الخلل الواقع[7].

إذا سواءً تحت الإكراه أو بغرض الإصلاح ومراقبة السلطان قناعة بأن لا ولاية عليه إلا من قبل الفقيه كما رأى ابن خلدون[8] وبحزم في موالاة السلطة السياسية القائمة فإن الكثير من أصحاب السلطة العلمية المباشرين لأجهزتها المتعددة تبوؤوا المكانة داخلها ربما لمحاولة إخضاع السلطان للعالم "فالمتبوعون العلماء والسلطان نجدتهم وشوكتهم وقوتهم"[9]، وصبغ القرار السياسي بصبغة دينية لأن الدين أصل والسلطان حارس[10].

كتب المرايا حذرت من السلطان ودعت الذين فضلوا العمل معه الانتباه إلى شره وأعطت طرق التعامل معه لتفادي شره، مركزة على النخبة العلمية وأراها دعوة إن لم تكن لقبول تقلد وظائف السلطة فهي من جهة ثانية قبول بالوضع القائم والسكوت عنه ورفض المواجهة التي لا تحمد عقباها ولا يمكن التنبؤ بعواقبها، والنتيجة تفطن الفقيه إلى ضرورة جعل مسافة بينه وبين السياسي خاصة بعد وضوح الرؤيا في نوايا هذا الأخير باستغلال مكانة رجل العلم وإخضاعه لنسق سياسته لتحقيق مآربه[11].

---

(1) الطرطوشي : **المصدر السابق**، ص، 170 .

(2) أبو حمو الزياني : **المصدر السابق**، ص، 87 .

(3) عمارة علاوة : «مكانة الفكر العقدي في إنتاج العلوم و المعارف في الجزائر الحمادية (395 هـ 547 / 1004 – 1152 م) مقاربة سوسيولوجية»، مجلة **الدراسات العقدية و مقارنة الأديان**، العدد الثاني، شعبان 1426/سبتمبر 2005، ج1، ص 211 .

(4) **بدائع السلك**، ج1، ص 170 .

(5) واضعا آل بيت النبي و الشرفاء من آل بيته في القسم الأول، أنظر نقلا عن بن خلدون: ابن الأزرق : **بدائع السلك**، ج1، ص 371.

(6) في قوله تعالى : « . . . **إنما يخشى الله من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور** » سورة فاطر الآية 28 .

(7) ابن الأزرق :**المصدر السابق** ، ج1 ، ص 224.

(8) **المقدمة** ، ص 224.

(9) الجويني : **المصدر السابق**، ص 169.

(10) الغزالي : **المصدر السابق**، ج1 ، ص 27.

(11) وقد كتب ابن خلدون فصلا في موضوع العلاقة بين السلطان الروحي والسلطان السياسي، يراجع : **شفاء السائل لتهذيب المسائل**، تحقيق : أبو يعرب المرزوقي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1991، ص123-144.

ب- السلطان وفئة الكتاب :

يظهر فضل الكتابة أن الله سبحانه وتعالى نسبها لنفسه في قوله تعالى : «**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**»[1]، اعتبرها الكتابات والتصانيف أساسا لا يستغنى عنها لأي كيان سياسي قائم فهي "صورة الدولة"[2]، ووصفها القلقشندى بأنها صناعة رفيعة وذكر متقلدها بعبارات جزيلة وبين أفضاله على السلاطين والملوك مع علو شأنه وتفضيله على الكثير فهم "يعظمون أصحابها ويقربون كتابها"[3]، وأنها من مكملات الملك وأنها "بهاء السلطان"[4] فقربهم ولاة الأمر ليكونوا ألسنتهم الناطقة عنهم وقدموهم على باقي رجال دولتهم ائتمنوهم على خزائنهم ومن ثم على رعيتهم وعلى مملكتهم ليصبحوا بمرور الوقت "قوام الخليفة...وعمود المملكة"[5].

اشترط نظريا في الكاتب أن يكون من علية القوم وأعيان البلد من أصحاب الحل والعقد [6]، مع فصاحة اللسان وطلاقته[7] ليجزل التعبير فهو لسان حال سلطانه، عارفا باللغة العربية وقواعدها من بيان وبلاغة[8] وقوة الوصف مجيدا للخط ومطلعا على أنواعه وذهب البعض إلى حد البراعة فيه[9]، مع الفصاحة البالغة مدركا لشؤون الملوك وبصيرا بآداب السلاطين، عالما بالكتاب والسنة عارفا بفنون العلم المختلفة لكثرة مخالطته للسلاطين والحديث إليهم ومجالستهم،كما أضاف البعض صفات خلقية كالمروءة والحياء والوقار "يهذب أخلاقه ويصون مروءته"[10]، كاتما لأسرار الدولة وشؤونها[11]، حاضر البديهة بفكر متقد ونير وذكاء حاد لأنه عنوان المملكة[12]، بفضله تفك مشاكلها وتحل معضلاتها و تستبين أمورها، فإن لم تتوفر فيه هذه الشروط فلا يقدم للكتابة[13]، وقد قال الشاعر :

لسان الفتى كاتبه ووجه الفتى حاجبه

وندمانه كله وكل له واجبه[14]

([1]) سورة العلق الآية 5.

([2]) رضوان السيد : **الجماعة والمجتمع والدولة**، ص146.

([3]) القلقشندي : **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ط1، تحقيق يوسف علي طويل، دارالفكر، دمشق، 1987، ج1، ص30 .

([4]) الجهشياري :**كتاب الوزراء والكتاب** ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، 2003 ، ص4.

([5]) الطرطوشي : **المصدر السابق** ، ص224.

([6]) أبو حمو موسى الزياني : **المصدر السابق**، ص 60.

([7]) المرادي : **المصدر السابق**، ص107 .

([8]) ابن خلدو ن : **المصدر السابق**، ص234.

([9]) أبو حمو موسى الزياني : **المصدر السابق** ، ص 60، الماوردي : **نصيحة الملوك** ، ص240 .

([10]) ابن قتيبة : **أدب الكاتب**، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت ، 1419هـ/ 1999م/، ص11.

([11]) المرادي : **المصدر السابق** ، ص60 .

([12]) أبو حمو موسى الزياني : **المصدر السابق** ، ص60 .

([13]) وأفضل ما كتب في هذا الموضوع عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتاب .

([14]) ابن رضوان : **المصدر السابق**، ص211.

يقسم الكتاب إلى كاتب الرسائل وكاتب القاضي والشرطة، وكاتب ديوان الخراج والحسابات وكاتب الجند، وما يهمنا في الموضوع كاتب الرسائل كخطة سلطانية عالية الشأن يختص صاحبها بتدوين ما يصدر عن السلطة من رسائل إلى الدول أو ولاة الأمصار أو قرارات ومراسيم في ديوان الإنشاء ويعلو فضل صاحبه إذا أسند له التوقيع[1]، وجمع بعض الكتاب بين كتابة الرسائل والسيف، وكانت سببا في إيصال أحرين إلى مناصب أرفع كالوزارة وعمل بعضهم سفراء لدولهم لأنهم الأقدر رأيا وحكمة للتوسط بين السلاطين وقد قيل "أرسل حكيما ولا توصه"[2].

حددت مهام الكاتب تجاه السلطان في استشارته والأخذ برأيه في مسائل الحكم لسدادة رأيه وصوابه، رهن إشارة صاحب الأمر يسعى في إطالة عمر مملكته "مغتبطا به محافظا عليه"[3]، ورأى أحد الباحثين أن السلطة لم تحتاج من كتابها لا الشريعة ولا الرأي الصائب بل فقط المعرفة التقنية الدقيقة لشؤون الإدارة والديوان[4]، ليتخذه الكاتب وظيفته كمطية للوصول إلى منصب الوزير أو الحاجب ليجمع بين سلطتي السيف والقلم[5]، خيروا بين الزهد في الدنيا أو الإقبال عليها فاختاروا ظل السلطان طمعا في الجاه[6]، وجريا وراء ملذات السلطة ومغانمها اللامحدودة معلنين الولاء المطلق لرجل السلطة، سخروا أقلامهم في خدمة حكامهم بدل التفكير في أمور الرعية، منطلقين من النص التراثي كمرجعية حاولوا من خلاله إضفاء الشرعية والبحث عن المسوغات التي تبررمو قفهم للخ لزةنحوو السلطة، مما جعل البعض يتهمهم بخداع القراء بنصوص ظاهرها عكس سرائر كتابها، فأعلنوا صراحة نصرتهم للشريعة و لم يكن ولاءهم يوما سوى لسلاطينهم، ووضعوا أنفسهم أوصياء على الأخلاق ولكنهم اتخذوا مناصبهم وسيلة للاستغناء، كرسوا الظلم والاستبداد في حين نادوا في كتاباتهم بالعدل والمساواة[7].

استنجد بهم الفقهاء في محاولة منهم لبناء نص سياسي لتقديمه كنصيحة للسلطان فيما تجاوز فيه من حدود، و لم يكن ذلك صوابا منهم على رأي أحد الدارسين باعتبار أن الكتاب لم يكونوا بسمعة تجعل الفقهاء يستنجدون بهم

([1]) وتسمى بكتابة العلامة وهي صيغة من الصيغ التي تختم بها المراسيم والقرارت السلطانية وهي شعار الدولة توقع في آخر الرسالة بلفظ بليغ ومختصر، أنظر فيها : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص 234، ابن الأحمر : **مستودع العلامة ومستبدع العلامة** ، تحقيق محمد التركي التونسي، محمد بن تاويت الطنجي، كلية الأداب والعلوم السياسية ،جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ص7 .

([2]) يوسف بن إبراهيم العريني : **المرجع السابق**، ص378 .

([3]) ابن المقفع : **الأدب الكبير والأدب الصغير**، ص16.

([4]) في دراسة رضوان السيد على كُتاب الديوان كابن المقفع وسهل بن هارون وصاحب قصة الأسد والغواص في قصصهم الرمزية على لسان الحيوان حيث حاول هؤلاء تقديم النصح من خلال رسائل ضمنية لم تجدي نفعا بدليل سوء مصيرهم ويمثل ابن المقفع نموذجا على ذلك، أنظر : **الجماعة والمجتمع والدولة** ، ص159-161.

([5]) عبد المجيد الصغير: **الفكر الأصولي وإشكالية السلطة في الإسلام**، ص91.

([6]) علي أومليل : **المرجع السابق**، ص69 .

([7]) لجمال التعبير الذي أورده فيهم عبد المجيد الصغير أرتأيت إقتباسه حرفيا بقوله "...تعلن الولاء للشريعة وهي تضمر الولاء للسلطان...تعلن قداسة الأخلاق والقيم وهي تضمر ميكافيلية قاتمة ، تشيد بالعدل و الحرية وهي تكرس مفاهيم الاستبداد المطلق تعلي من شأن الاجتهاد والمشورة ولكنها تجعلها حكرا على رجال السلطة" أنظره : عبدالمجيد الصغير : «إشكالية السلطة والمعرفة في الإسلام-قراءة نقدية في كتاب السلطة الثقافية والسلطة السياسية-»، **مجلة التاريخ العربي**، العدد11، ص 243.

فهم برأيه جماعة تسربلت برداء ثقافي في مظهر سياسي العمل والطموح[1] ويقدم ابن المقفع كنموذج على هؤلاء، فبدل أن يكون كاتبا مواليا لأهل وظيفته فإنه وقع في أحضان السلطة لتحتويه في شباكها[2]، فالكاتب ما هو إلا موظف عند السلطان[3] لا تهمه شرعية السلطة أو طريقة الوصول إليها بقدر ما يهمه أن يكون ثانيا مرتبة بعد سلطانه بهدف التمكن من جاهها ونفوذها جاريا وراء مغانمها ومحصلا لمكانته داخلها مما جعل الجاحظ يسخر منهم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) علي أومليل : **المرجع السابق**، ص33 .

(2) خاصة وأن هذه النصائح قدمت بنوع من الفتور والحذر يصاحبه حتى بعض الخوف من بطش السلطان ويؤيد ما قلناه ما جاء على لسان ابن السماك في مؤلفه الموسوم بـ"رونق التحبير" الذي أهداه إلى السلطان النصري المستعين بالله (ت 810هـ/1407م) بقوله "وكل ما فيه إنما هو بعض مما عند مولانا أيده الله من العلوم والمعارف..." أنظر : نجاة المريني : «وصايا وتوقيعات أندلسية من خلال من خلال مخطوط "رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير» لأبي القاسم محمد بن أبي العلاء بن سماك العاملي، **مجلة التاريخ العربي**، العدد 3، ص227 وما بعدها.

(3) رضوان السيد : الجماعة والمجتمع والدولة ، ص161.

الفصل الثاني

ولاة بجاية ونخبها وتشكل الفضاء السياسي والعلمي للمدينة

أولا :

بجاية من التأسيس إلى قيام الدولة الحفصية

ثانيا :

ولاة بجاية بين الولاء للمركز والرغبة في تشكيل فضاء سياسي مستقل

ثالثا :

النخبة البجائية وتشكل الفضاء العلمي للمدينة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : بجاية من التأسيس إلى قيام الدولة الحفصية

دون الخوض في تاريخ صلداي *Saldae* المدينة الرومانية السابقة أو بجاية الإسلامية[1]، فإن أول من أشار إليها من المصادر الجغرافية ابن حوقل (ت حوالي 371هـ/981م) بأنها من الموانئ التي تفصل بونة عن جزائر بني مزغنة[2]، ثم يذكرها البكري الذي أنهى كتابه سنة 460هـ/1068م كميناء لقلعة بني حماد يسكنه الأندلسيون[3]، ثم نجدها في القرن 6هـ/12م حسب رواية صاحب الاستبصار مرسى كبير تصله السفن من مختلف البلدان[4]، وكذلك عند الإدريسي (ت بعد 1164/560م) واصفا الحركة التجارية النشطة به في قوله « والسفن إليها مقلعة»[5] حتى أصبحت مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد[6].

أما عن أمر التسمية فقد أرجعه بن خلدون إلى القبيلة البربرية التي سكنت الجبل[7]، فكيف تأسست المدينة وتطورت وما أسباب ذلك ومتى؟ وهل كان لأمرائها دور في الحركة الثقافية؟ وكيف تناولتها المصادرالتاريخية؟

تأسيس المدينة :

من القراءات المختلفة للمصادر ومحاولة للمقاربة بين تاريخ القلعة وبجاية يمكن أن نعتبر بناء القلعة الحمادية[8] هو الانطلاقة الحقيقية التي سيرتكز عليه تاريخ بجاية لأنها الرافد الذي سيمدها لاحقا بمقومات النهوض نتيجة

([1]) يمكن التفصيل في ميناء صلداي *Saldae* الرومانية بالعودة إلى :

-Laurent- Charles Féraud : Histoire de Bougie, rééd Bouchènes, 2001, p.35 –42

وقد أصبح لصلداي أهمية إقتصادية في ظل تطور عمراني وتجاري بطيئ ، ينظر: *- Mouloud Gaid: Histoire de Béjaia et de sa région depuis L'antiquité jusqu'à 1954 ,SNED , Alger ,1976,p.51-56.*

([2]) ابن حوقل : **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، 1996، ص 77.

([3]) أبو عبدالله البكري : **المسالك والممالك** ، حققه وراجع فهارسه : جمال طلبة، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 ، ج2 ، ص 242 .

([4]) بقوله " تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم ...وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها " ، أنظر مجهول : **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار** ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ص130.

([5]) الإدريسي : **نزهة المشتاق في إختراق الأفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1994، ج1، ص260 .

([6]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها .

([7]) ابن خلدون : **كتاب العبر(ديوان المبتدأوالخبر.....)** تحقيق : خليل شحادة ، مراجعة : سهيل زكار ، دار الفكر بيروت ، 2000 ، ج6ص 232 ، وفي أمر التسمية أنظر : *Féraud : op.cit .,p.45-47*

([8]) تم بناء القلعة سنة 398هـ/1004م بجبل عجيسة من طرف حماد بن بلكين وعمّرها ونقل إليها سكان المسيلة وحمزة لتصبح العاصمة السياسية والعسكرية ، راجع : ابن خلدون : **العبر** : ج6 ، ص227، أما ياقوت الحموي فيرى أنها بنيت سنة 370هـ/ 980م وهي غير قلعة أبي الطويل أنظر : **معجم البلدان** : ط2، دار صادر، بيروت، 1995، ج4، ص 389- 390 .

وذهب شارل فيرو بالقول أنها بنيت عام 387هـ/ 997م رغم نقله عن بن خلدون في معظم مواضع كتابه : وأنظرها عند : الإدريسي : **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق** ،ج1ص261، *Histoire de Bougie: P.49*

وذكر الحميري أن تعميرها تم بعد تخريب العرب للقيروان وقصدها التجار من كل البلدان ، ويوردها باسم قلعة بني حماد وقلعة أبي طويل، أنظر : الحميري : **الروض المعطار في خبر الأقطار** ، تحقيق : إحسان عباس ، ط 2 ، مكتبة لبنان ، بيروت، 1984، ص469-470 ، وعنها أنظر كذلك : البكري : **المسالك والممالك** ، ج2 ، ص 246، وأنظر: ابن خلدون : **العبر**، ج6 ، ص231- 232، والعودة كذلك إلى : Fèraud :*op.cit., p*:47 -48

التراكمات العلمية والفكرية التي أفرزها تشجيع سلاطين بني حماد للعلم وتقريبهم للفقهاء حتى أصبحت القلعة قبلة الطلاب والتجار في ظل تطور اقتصادي وعمراني كبيرين[1]، وبعد مرور حوالي قرنين من بنائها ستهاجر النخب العلمية والتجارية نحو بجاية التي سيتم تأسيسها بين 457و460هـ/ 1046-1067م، وقد ربطت بعض المصادرسبب بنائها بهزيمة سبيبة[2] فجعلوها سنة 457هـ/1064م كياقوت الحموي [3] وابن الأثير[4]، وهو ما يؤكد أنها بنيت بين التاريخين المذكورين.

أوعز الحميري بناءها نقلا عن صاحب الاستبصار[5] إلى المنصور الحمادي (481-498هـ/1089-1105م)[6] وقدجانب الصواب فالمدينة بنيت من قبل الناصر بن علناس بدليل أن المنصور لم يتول الحكم إلا سنة 481 هـ/1089م بعد بنائها بكثير[7]، فسميت الناصرية نسبة لمؤسسها وانتقل إليها جاعلا منها مستقرا لسكناه سنة461هـ/1068م[8].

---

(1) أجريت الكثير من الأبحاث الأركيولوجية للقلعة لمحاولة معرفة تاريخ وحضارة البيت الحمادي وسلالته نذكر على سبيل المثال أبحاث بول بلونشي، ودراسة Général de Beylie: الموسومة بـ :

La Kalaa des Beni Hammad une capitale berbère de L'Afrique du Nord au XI^e siècle, Paris,Ernest Leroux,1909.

وما قام به بول بلونشي *PauL Blanchet* من أعمال في نفس هذا الاتجاه.

وبمقاربة أثرية ألف رشيد بورويبة : **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1977، وأهم الدراسات الأكاديمية في الموضوع رسالة عمارة علاوة الذي أجاب فيها عن إشكال تركيز النصوص على وجود المدينة والقلعة ليتوصل إلى أن القلعة الحمادية خلفت قلعة الحجارة التي تتحدث عنها السجلات المستنصرية ، للتفصيل ينظر:

Allaoua Amara,:*Pouvoir,économie et société dans le maghreb hammadide(395-457/1004-1152* -نوقشت يوم 4 جويلية 2002 بجامعة السربون(باريس الأولى) وهي في جزئين من774 صفحة ، وألف الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية : تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م**. ترجمة حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، 1992 بيروت.

-*L'art religieux musulman en Algérie*, SNED,Alger,2éme : وفي الفن المعماري الحمادي كتب رشيد بورويبة فصولا ضمن كتابه édition,1983,pp.19-96.

وكتب كذلك ليسيان غولفان عن بعض مدن المغرب الأوسط في الفترة الحمادية :

-Le Maghreb central recherche à l'époque des zirides,recherche d'archéologie et d'histoire.

(2) سبيبة مدينة تقع بالقرب من القيروان، أنظر : الحموي : **المصدر السابق**، ج3، ص 186، وحددت تدقيقا بين القيروان وتبسة، وفيها هزم الجيش الحمادي أمام العرب من زغبة ورياح وسُليم457هـ/1064م ، أنظر : الإدريسي : **المصدر السابق** : ج1، ص 294، البكري : **المصدر السابق**، ج2 ص227 ، الحميري : المصدرالسابق، ص304 ، الحموي : **كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا**، مكتبة المثنى، بغداد، دار الكتاب، اللبناني، بيروت، ص 240 .

وفي أمر المعركة يراجع : ابن عذاري : **البيان المغرب في أخبارالأندلس والمغرب** ، تحقيق ج.س كولان ، ليفي بروفنسال، ط 3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج1، ص 299.

(3) الحموي : **المصدر السابق** ، ج1، ص339 .

(4) ابن الأثير : **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبو الفدا عبد الله القاضي، دارالكتب العلمية، بيروت، 1995،ج8، ص 173- 174.

(5) مجهول : **الإستبصار**، ص128-131.

(6) الحميري : **المصدر السابق** ، ص80-82 .

(7) ياقوت الحموي : **معجم البلدان**، ج1، ص339 .

(8) ابن خلدون : **العبر**، ج6 ، ص 232.

اختلفت المصادر في سبب تشييدها حيث تركز بعضها على ما انجر عن موقعة سبيبة التي هزم فيها الناصر أمام القبائل العربية مما اضطره الابتعاد عن تأثيراتهم خاصة بعد ماجلبوه من خراب للمنطقة[1] واستحالة ترويض القبائل الخارجة عن طاعة السلطة لتعودها على حياة الظعن والاستقلالية ليتم اجتياحهم للجهة الغربية فيقع اختياره على بجاية وهي رواية صاحب الاستبصار[2]، مصادر أخرى أرجعت السبب إلى خيانة رسول تميم بن المعز للناصر للتصالح إثر الهزيمة ليشير هذا الرسول المسمى بابن البعبع على صاحب القلعة بالموقع ليتم منه ملك المهدية عاصمة الزيريين بني أعمامه "فأمر الناصر من ساعتها بالبناء والعمل وسُر بذلك وشكره وعاهده على وزارته"[3]، والراجح أن الناصر أعجبه موقع القلعة كمنطقة تقيه من الخطر الهلالي وكمدينة ساحلية قادرة على تعويض الموارد والخيرات التي كانت تدرها القلعة بتوجيه النشاط التجاري نحو البحر، كما أنه أحس بخطر مجاورة أبناء عمومته من جهة وتهديدات القبائل من جهة ثانية مع تراجع التجارة الداخلية بسبب غياب الأمن[4]، ليحولها إلى عاصمة سنة461هـ/1068م وأقام بها القصوركاللؤلؤة و" ساكنيها عن ساكنيها"[5]، وقد فسر أحد الباحثين الإجراء الأخير من الناصر بهدف الإسراع في بناء المدينة وتشجيع الهجرة إليها[6] فاتسع مجالها الجغرافي وفضاؤها العمراني وأصبح أكثر تطورا في عهد ابنه المنصور الذي أضاف بناء جامع المدينة وتأنق في اختطاط المباني وتشييد القصور وحول لها المياه[7]، فجلبت إليها النخب من مدن المغرب الأوسط والأقصى ووصل إليها تجار المشرق والصحراء تباعا، نشطت بها الحركة العلمية فزارها الطلبة واستقبلت الفقهاء، فهل استمرت كذلك خلال العهد الموحدي؟ وكيف أصبحت سياسيا وعلميا؟

---

(1) وحول إشكالية ما مدى مسؤولية العرب الهلالية في انحطاط حضارة المغرب الوسيط والدراسات التي تناولت الموضوع ، أنظر: عمارة علاوة : «الهجرة الهلالية وإشكالية إنحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط –قراءة في نقاش تاريخي–»، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، العدد الرابع، أكتوبر 2004، ص31-75، والعودة كذلك إلى : محمد حسن : **المدينة والبادية في العهدالحفصي**، جامعة تونس الأولى ، 1999،ج1، ص27- 35 . وأنظر ماكتبته في الموضوع : صباح الشيخلي : «الهلاليون في المغرب»، **المجلة التونسية للعلوم الإجتماعية**، عدد 70-71، 1982.

(2) مجهول : **الإستبصار**، ص 128-131، وأنظر بتفصيل عند : النويري : **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق حسين نصار ، عبدالعزيز الأهواني ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1983، ج24 ، ص222-234.

(3) إبن الأثير : **المصدر السابق**، ج8ص، 374 ، وروى الحموي القصة نفسها : **معجم البلدان**، ج1، ص339.

(4) أضاف على ذلك بعيزيق إستراتيجية الموقع من حيث أنها محمية بجبل أمسيون كما أنه تسكنها قبائل بربرية مستعدة للإنصياع وهو رأي قابل للنقاش ، أرجع إلى : صالح بعيزيق : **بجاية في العهد الحفصي**، ص56.

(5) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص332 ، وأنظرفي ذلك : Féraud: *Op.cit.,p.50*

(6) بعيزيق : **المرجع السابق**، ص51، وعن انجازات المنصور الحمادي وفضله على بجاية أنظر : رشيد مصطفاوي : «بجاية في عهد الحماديين» ، **مجلة الأصالة**، العدد الأول، محرم 1329هـ/مارس 1971م، ص84-87.

(7) أنظر : ابن خلدون : المصدر السابق ، ج6، ص 232، وكذلك : Féraud : *op.cit., p. 54 -58*

بجاية الموحدية :

دخل ابن تومرت[1] لبجاية سنة 511هـ/1117م[2]، أو512هـ/1118م[3] فأظهر بها تدريس العلم والوعظ[4] بمسجد الريحانة[5]، ناكرا على أهل المدينة عيشة الترف وحياة الدعة التي ألفوها على عهد صاحبها العزيز بن الناصر[6] الذي أخرجه منها خوفا من دعوته بعد أن اجتمع له أهل بجاية ليتجه نحو قرية ملالة[7] ويلتقي بعبد المؤمن بن علي (ت 558هـ/1162/م) وقد تناولت المصادرالموحدية هذا اللقاء بنوع من المبالغة لإضفاء الشرعية على المهدي وخليفته من بعده[8] فمكث بها أشهرا حسب رواية المراكشي[9] إلى أن دخلت الجيوش الموحدية بجاية في عام 541هـ/1146م بقيادة عبد المؤمن بن علي[10] وإنهاء حكم الأسرة الحمادية بالمنطقة والتي دامت ست وثمانون سنة.

([1]) محمد بن تومرت من بلاد السوس بالمغرب الأقصى صاحب الدعوة الموحدية بايعه أنصاره في 515هـ/1121 توفي 524هـ1130م ليخلفه عبد المؤمن بن علي، أنظر ترجمته في : ابن القطان المراكشي : **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان** ، تحقيق : محمد علي مكي، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 ، ص123، ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** ، راجعه ، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية ، الرباط،1999ص217-226 ، ابن خلدون : **العبر**: ج6 ، ص301-305 ، عبد الواحد المراكشي : **المعجب في تلخيص أخبارالمغرب**، شرحه واعتنى به، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 1426هـ/2006م، ص136و ما بعدها، ابن مخلوف : **المرجع السابق**، ص144، وأنظر تعريفا مفصلا له عند : بلقاسم فيلالي : **التعليم والدعوة الموحدية (510 – 524 – 1116 – 1129)** ، رسالة ماجستير، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2003 / 2004، ص68-77.

([2]) بن القطان : **المصدر السابق**، ص 766.

([3]) ابن خلدون : **المصدر السابق** ، ج6ص 302.

([4]) عبد الواحد المراكشي : **المصدر السابق** ، ص137.

([5]) رشيدبورويبة : **المرجع السابق**، ص83 .

([6]) أبوبكر بن علي الصنهاجي (البيدق) : **أخبارالمهدي بن تومرت**، تحقيق : عبد الحميدحاجيات، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص31-33، وأنظر : Rachid Bourouiba : *Ibn Tumart* ,SNED, Alger,1982, p. 35-36 العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس تولى عرش الدولة الحمادية بعدأخيه باديس بن منصور وتوفي سنة 515هـ/1121م ، أنظره في : إبن عذارى : **المصدر السابق**، ج1، ص 302 ، وكذلك : الزركشي : **تاريخ الدولتين**، ص5 .

([7]) ملالة قرية تبعد عن بجاية بحوالي 7كلم ، أنظر : ياقوت الحموي : **معجم البلدان**، ج5 ، ص189.

([8]) أنظر بالتفصيل : البيدق : **المصدر السابق**، ص35- 36 ، القطان : **المصدر السابق** ، ص77، ابن أبي زرع : **المصدر السابق**، ص 219 ، المراكشي : **المصدر السابق** ، ص137- 138، لسان الدين بن الخطيب : **الحلل الموشية في الأخبار المراكشية**، تحقيق : البشير الفورتي، مطبعة التقدم الإسلامية ، تونس(دت) ، ص77، عباس بن إبراهيم المراكشي : **الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام** ، ط1، المطبعة الجديدة ، فاس، 1936، ص361 ، وأنظر :

Féraud : *op.cit.*, p.60 , Bourouiba : *op.cit.*,p. 38-42.

([9]) المراكشي : **المصدر السابق**، ص137.

([10]) حول دخول عبد المؤمن لبجاية أنظر : البيدق : **أخبار المهدي بن تومرت**، ص105- 107، ابن أبي زرع : **المصدر السابق**، ص 150-151، ابن الأثير : **المصدر السابق**، ج9، ص372- 373، المراكشي : **المصدر السابق**، ص 152-153 ويؤرخ لفتح بجاية سنة 540هـ/ 1145م، ابن عذارى : **البيان المغرب(القسم الموحدي)** ، تحقيق : محمد ابراهيم الكتاني وأخرون، دارالثقافة للنشر

في ظل تراجع لقوة الموحدية تُحتل المدينة من طرف بني غانية الميورقيين سنة 580هـ/1184م[1] في غياب الوالي الموحدي عنها من بني عبد المؤمن ليبايعهم أهل بجاية، وتولى الخطابة لهم الفقيه الإمام المحدث المتقن كما وصفته المصادر[2] عبدالحق الإشبيلي (ت 582هـ/1186م)[3] ليبسطوا نفوذهم على كامل افريقية، لكن وبمرور عام فقط تعود المدينة إلى الفضاء الموحدي ثم العودة ثانية والسيطرة عليها لمدة سنتين 599-601هـ/1203-1204م ليتم انهاء وجودهم من المنطقة في معركة تاجرا [4] سنة 602هـ/1205م بقيادة الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص.

والتوزيع ، الدارلبيضاء ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1985 ، ص45-46 ، النويري : **المصدر السابق**، ج24 ، ص302- 303، 151، أبو الفدا : **المختصر في أخبار البشر**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص 93، ابن خلدون : **العبر**، ج 6، ص 316 ، الناصري : **المرجع السابق**، ج1، ص120-121 ، التجاني : **رحلة التجاني**، تحقيق : حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب، 2005، ص279-280 ، وكذلك أمبرو سيو هوشي ميراندا : **التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية** ، ترجمة عبد الواحد أكمير، منشورات الزمن ، الرباط، 2004، ص152، عبد الله عنان : **دولة الإسلام في الأندلس** ، ط 2، مكتبة الخانجي ،القاهرة ، 1990، ص 282، عبد الله العروي : **المرجع السابق**، ص155.

([1]) بنو غانية أسرة مرابطية حكمت جزيرة ميورقة من أشهرحكامها علي بن أبي إسحاق الذي سيطر على بجاية ، أنظر أخبارهم عند : ابن عذاري : **المصدر السابق**، ص157-177، ابن الأثير : **الكامل** ، ج10، ص128- المراكشي : **المعجب**، ص195-197، ابن جبير : **رحلة ابن جبير**، تحقيق سامي الدهان، ط 2، دارا لكتاب اللبناني ، دار الكتاب المصري ، 1979، ج1، ص233، خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص325- 329، ، وكذلك : ،129 82، دنون طه وأخرون : **تاريخ المغرب العربي**، ط1، دار المدار الإسلامي، 2004، ص 358.

وكذلك : عبد القادر جاد الرب : «حركة المقاومة للدولة الموحدية حركة بني غانية نموذجا»، **مجلة التاريخ العربي**، العدد 20، ص 175-198.

([2]) المراكشي : **المرجع السابق** ، ص198 .

([3]) هوعبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي (510-582هـ/1116-1186م)، رحل من الأندلس واستوطن بجاية تولى بها الخطابة والقضاء لبني غانية من مؤلفاته في الفقه "الأحكام الكبرى" و "الأحكام الصغرى" ، أنظرترجمته في : ، الضبي : **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** ، تحقيق : روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية ، بيروت ،1997، ص 341 ابن الأبار : **التكملة لكتاب الصلة** ، تحقيق : عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع ، بيروت ، 1995، ج3 ، ص120، ابن الزبير : **صلة الصلة** ، تحقيق ليفي بروفنسال ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ،(دت) القسم الأخير، ص5-6، الغبريني : **عنوان الدراية** ، ص73- 75، ابن فرحون : **الديباج**، ص276- 277، ، ابن شاكر الكتبي : **فوات الوفيات والذيل عليها** ، تحقيق : احسان عباس، دار الثقافة ، بيروت(دت)، ج2 ، ص256-257 ، الذهبي : **سير أعلام النبلاء** ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، ط9، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1413هـ ، ج21 ، ص198-200 ، رابح بونار : «عبد الحق الاشبيلي محدث القرن السادس الهجري» ، **مجلة الأصالة** ، العدد19، ص259-271 . عبد الهادي الحسيسن : «عبد الحق الإشبيلي البجائي الأزدي»، **مجلة دعوة الحق**، عدد 7، السنة 24، 1983، ص 47- 53.

([4]) تاجر من المناطق التابعة لمدينة قابس أنظرها في : الحميري : **المصدر السابق**، ص125.

ازدهرت الحياة الفكرية والعلمية بالمدينة في هذه الفترة، فالغبريني لوحده ترجم لستة من أقطاب الفقه والتصوف استقروا ببجاية في القرن 6هـ/12م وهم : أبو مدين شعيب الغوث (ت 594هـ/1198م) [1]، وأبو علي المسيلي (ق 6هـ/ 12م) [2]، والذي يروي أنه عاش ببجاية ولقي بها تسعين مفتيا دلالة على كثرة الفقهاء بها[3]، والفقيه عبد الحق الإشبيلي والكاتب أبو الفضل بن محشرة (ت 585هـ/1189م)[4] ، والصوفي أبو عبد الله العربي (ق 6هـ/ 12م)[5] والقاضي المتصوف الأديب أبو الطاهر الشريف الحسني (ق 6هـ/12م)[6]، وغيرهم كثير في هذه الفترة اليانعة فكرا والمنتشية علما.

بجاية تحت النفوذ الحفصي :

نظرا للخدمات التي قدمها عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص للدولة في القضاء على بني غانية بإفريقية وحنكته السياسية وتمرسه العسكري يختاره الخليفة الموحدي الناصر سنة 603هـ/1206م واليا على افريقية وما تابعها بعد هذا النصر الذي حققه فقبل بشرط أن يوَلي من يراه الأصلح من رجاله وما يستحكم صلاحها[7] وأن لا تزيد ولايته عن ثلاث سنوات ليكون هذا التعيين بمثابة النواة الأولى لاستقلال بني حفص بافريقية ثم الإنفصال عن الدولة الموحدية عام 625هـ/1228م[8] على عهد الأمير أبي زكريا يحي (626-647هـ/1228-1249م) شجعه

([1]) هو أبو مدين شعيب بن الحسين من أصول أندلسية ، استقر ببجاية عرف بزهده وتصوفه ، استدعاه المنصور الموحدي إلى مراكش لما سمع عن كثرة أتباعه بالمدينة توفي بتلمسان ودفن بالعباد سنة594هـ 1189م ، أنظر ترجمته : التميمي : **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما ويليها من البلاد** ، تحقيق : محمد الشريف، منشورات كلية الأداب، تطوان، المغرب، 2002، ص41-45، الغبريني : **المصدر السابق**، ص55-65 ، الذهبي : **سير أعلام النبلاء** ، ج21 ، ص219-220 ، ابن القاضي : **جذوة الإقتباس**، ج2، ص 531، ابن الطواح : **المصدر السابق**، ص64-67 ، ابن الزيات : **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي** ، تحقيق : أحمد التوفيق، ط 2، كلية الاداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997، ص319- 326، الضبي : **المصدر السابق**، ص125-126، المقري : **نفح الطيب**، ج7ص139، ابن الملقن : **طبقات الأولياء** ، تحقيق : نور الدين شريبان ، ط2 ، 1994 ، ص437-438، الذهبي : **العبر في خبر من غبر** ، تحقيق : صلاح الدين المنجد، ط2 ، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ج4 ، ص275 ، صلاح الدين الصفدي : **الوافي بالوفيات** ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،2002 ، ج14، ص95 ، عبد الحليم محمود : **شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث حياته ومعراجه الى الله** ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت، (دت) .

([2]) هو أبو علي حسن بن علي بن محمد المسيلي، كان يلقب بأبي حامد الصغير له علم بالمنطق، عاش في بجاية ولما دخلها بنو غانية أكرهوه على بيعتهم ، ولي القضاء مكرها ، أنظره في : الغبريني : **المصدر السابق**، ص66-72، التنبكتي : **كفاية المحتاج**، 2002، ص 115-116.

([3]) في مقولته " أدركت ببجاية تسعين مفتيا ما منهم من يعرف الحسن بن علي المسيلي من يكون " الغبريني : **المصدر السابق**، ص69 .

([4]) تراجع ترجمته عند : 84 ، ابن الزبير : **صلة الصلة** : القسم الأخير ، ص 145-146، المراكشي : **الذيل والتكملة** : تحقيق : محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، 1984، السفر الثامن ، القسم الثاني، ص552 ، الغبريني : **المصدر السابق**، ص83، ابن مخلوف : **المرجع السابق**، ص164.

([5]) الغبريني : **المصدر السابق** ، ص80-82 .

([6]) **المصدر نفسه** ، ص76-80.

([7]) ابن خلدون : **المصدرالسابق** ،ج6 ، ص334 .

([8]) المصدرنفسه ، ج6 ، ص381 .

في ذلك ضعف الدولة في لا واستفحال حركة الاسترداد المسيحية في الأندلس وإدعاء بني حفص بشرعية خلافتهم للمشروع الموحدي لفضلهم وسابقتهم فيه ونسبهم العربي الشريف المزعوم[1]، مستغلين ما فعله المأمون الموحدي من إنكار لعصمة المهدي والأمر بلعنه وإذلاله لشيوخ الموحدين[2]، كما أنه على ماذكره ابن خلدون "غير أصول الدعوة وبدل أصول الدولة"[3]. هذه الإجراءات التي أغضبت أنصار المهدي والمتشيعين لدعوته اتخذت كذريعة وحجة لأبي زكريا يحي ليعلن خلع دعوة الموحدين والخروج عن خليفتهم سنة 626هـ/1229م[4] وردّ عماله[5] وسما نفسه بالأمير وبويع البيعة الأولى 627هـ/1230م[6] لتليها البيعة الثانية 634 هـ/1237م[7] وكتابة اسمه على السكة وذكر في الخطبة وتلقب بالأمير[8].

بعد إعلان الاستقلال يتحرك أبو زكريا نحو الغرب لاستخلاص البلاد من بني عبد المومن وتوسيع رقعة الدولة المستجدة ليدخل بجاية سنة 626هـ/1229م[9] ويزيح واليها الموحدي أبي عمران بسهولة[10]، وأرجع أحد الباحثين ذلك ربما لمساعدة أبي عبد الله اللحياني شقيق أبي زكريا الذي كان صاحب الأشغال بها[11]، وربما قد

([1]) أحمد محمد الطوخي : «العلاقات الأندلسية الحفصية»، **نشر ضمن بحوث ندوة الأندلس** ، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1995، ص 65.

([2]) أنظر في ذلك : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6 ، ص381 ، ألفرد بال : **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ترجمة : عبدالرحمن بدوي، ط3 دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص280-281 ، المطوي : **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، دارالغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص 122-123.

([3]) ابن خلدون : **المصدر السابق** ، ج6 ، ص381.

([4]) **المصدرنفسه** ، ج6 ، ص341 .

([5]) **المصدر نفسه** ، ج6 ، ص381 ، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص107.

([6]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص24

([7]) ابن خلدون : **المصدرالسابق** ، ج6 ص 3 ، ابن أبي دينار القيرواني : **المؤنس في أخبار افريقية وتونس**، ط3 ، دار المسيرة للطباعة والنشر، لبنان، مؤسسة سعيدان، تونس، 1993ص155.

([8]) وقيل فيه بهذه المناسبة شعرا مما جاء فيه :

الأصل بالأمير المؤمنينا فأنت بها أحق العالمينا

أنظره عند : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص381.

([9]) **المصدر نفسه**، ج6 ، ص382 ، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص108، إلا أن الزركشي أشكل عليه الأمر وأورد تاريخ 627هـ/1230م ظنا منه أن ضمها تم بعد البيعة، **تاريخ الدولتين**، ص25.

([10]) أرجع ابن خلدون نسب الوالي أبي عمران بن أبي عبد الله إلى أحفاد يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، ودقق ابن قنفذ أنه ولد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580-595هـ/1184- 1199م) وأخوه هو أبو عبد الله والي قسنطينة ، أنظر: ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6 ، ص 38 ، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص108.

بينما ذهب برونشفيك أنه أبا عمران الوارد في عنوان الدراية، **تاريخ افريقية** : الإحالة 5، ج1، ص 51، وترجم له ابن الخطيب باسم موسى بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن أبو عمران وأنه كان والي بجاية ، أنظر : **الإحاطة**، ج 3، ص275 .

([11]) صالح بعيزيق : **المرجع السابق**، ص66 ، و رجح باحث أخر أن السبب في دخول بجاية بهذه السهولة الى تدمر أهلها من الحروب التي عرفتها المدينة في العهد الموحدي، أنظر : ابن أحمد صالح : بجاية في **العهد الحفصي**، ص7.

يكون ضعف الوجود العسكري الموحدي بها لبعدها عن مراكش والقوة الحفصية الجديدة بعصبيتها أسبابا سهلت الدخول الى المدينة، وبعث بواليها رفقة والي قسنطينة إلى المهدية "وأجريت عليهم الأرزاق"[1]، لما عرف عن أبي زكريا من سمو الأخلاق ولما أبداه الواليان في تسليم المدينتين دون مقاومة[2]، ليعين ابن عمه أبو علي عمر بن عيسى بن الشيخ أبي حفص[3] واليا عليها ليشرف على إدارة ولاية بجاية عكس ما ذهب إليه بعيزق الذي ظن أن السلطان أبا زكريا أسند الولاية إلى أخيه أبي عبد الله اللحياني[4]، وأورد ابن خلدون أنه أصبح من رجال السلطان وجملتهم بالحاضرة وولاه بعدها الولايات الجليلة وكان يستخلفه بتونس في مغيبه[5]، فإن كانت بجاية فلما لم يذكرها المؤرخ؟ وإن سلمنا بولايته على بجاية فكيف كان يخلفه على تونس أثناء غيبته علما أن بجاية هي الولاية الثانية من حيث الأهمية ومن الصعب حكمهما في آن واحد، ليتم زوال الوجود الموحدي بها نهائيا [6]، ولمجيئها ثانية بعد الحاضرة سيتم التركيز عليها من قبل السلطان، فهل كان ولاء المدينة للمركز مطلقا أم حاولت الانفصال وتكوين كيان مستقل؟ وإن كانت كذلك فما هي الدواعي والأسباب؟

([1]) ابن خلدون : **المصدرالسابق**، ج6، ص382 .

([2]) Moulou Gaid *: op.cit., p. 84.*

([3]) تولى الولاية على بسطة بافريقية على العهد الموحدي ثم ولاه أبوزكريا بجاية عام 626هـ/1229م ثم حوله إلى بونة فواليا على المهدية 638هـ/ 1240م ثم على بونة ثانية إلى أن توفي سنة 646هـ/1248م وهوعلى ولايتها وله ديوان شعر، أنظره : التجاني : **الرحلة**، ص293-295 ، ويسميه برونشفيك أبو علي عمر بن أبي موسى بدل عيسى ولايشير إلى المصدر الذي أخذ عنه ، **تاريخ إفريقية**، ج1، ص53.

([4]) صالح بعيزيق : **المرجع السابق**، ص 68 .

([5]) إبن خلدون :**المصدر السابق**، ج6، ص 382 .

([6]) للتفصيل في الموضوع يراجع : حسين مؤنس : **تاريخ المغرب وحضارته** ، العصرالحديث للنشر والتوزيع ، بيروت، 1992، ج2، ص220 .

ثانيا : ولاة بجاية بين الولاء للمركز والرغبة في تشكيل فضاء سياسي مستقل

يعين القائم بأمر الدولة سواء كان خليفة أو سلطانا أمراءه على الأقاليم والأمصار التابعة لمجاله الجغرافي وهي من مهام ولايته من تكون ولايته عامة في أعمال خاصة وهم أمراء الأقاليم والبلدان[1]، ويسمى واليا أو أميرا[2]، أو عاملا عليها، والرسول (ص) عين معاذا على اليمن وأبا موسى الأشعري على زبيد وعدن .

يشترط في الوالي لتقلد هذا المنصب أن يكون رجلا حرا مسلما بالغا عدلا من أهل القدرة والكفاية[3]، للسلطان صلاحية تعيينه وحق عزله، والولاية عامة وخاصة فالعامة على كامل البلد وأهله وسائر أعماله والخاصة محدودة بصلاحيات يقرها السلطان يستثنى منها القضاء والجباية والخراج والصدقات[4].

من صلاحيات الوالي ماهو ذو بعد عسكري كالإشراف على الجيش وصرف رواتب الجند وتسليحه وتوزيعه على البلد المشمول بالولايةثى ر في تدبير الجيش"[5]، وتعيين القضاة والأمراء الذين سمتهم بعض الكتب السلطانية بالحكام[6] على عمالات الولاية مع مراعاة الشروط الواجبة في الإمارة والقضاء ، ويشرف كذلك على جمع الخراج والزكاة ويرسل السعاة في ذلك بانتظام عبر المجال الواقع تحت تصرفه وتوزيعها على مستحقيها، وأهم الواجبات المناطة به الدفاع عن الدين بحماية حدود الدولة من الغزاة المتربصين بها والحفاظ على أنفس وعرض ومال المسلمين من رعيته وتطبيقه للأحكام دون تهاون وإحقاق الحق ودفع الظلم ونصرة الضعفاء خاصة وأن العدل أساس صلاح العالم[7]، والإشراف على تنظيم ركب الحج[8] وهي مهام وزير التفويض[1]، عند التأمل في الشروط التي وجب توفرها

([1]) الماوردي : **الأحكام السلطانية**، ص82 .

([2]) هم قواد البعوث وبرأ يق خ لدون فيق للعنى ظطورحتى انتحله المتأخرون للتعبير عن الملك ، أنظره في : **المقدمة** ، ص219 .

([3]) استدلوا على هذه الشروط بأدلة من القران والسنة ، فالرجولة لقوله (صلى الله عليه وسلم) **"لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة "** وحرا مسلما لقوله تعالى: « **وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**» النساء الآية14، والبلوغ لقوله (صلى الله عله وسلم) **"رفع القلم عن ثلاث..."** والقدرة لقوله لأبي ذر الغفاري **"إني أراك عبدا ضعيفا..."** أنظرها تفصيلا عند : الماوردي : **المصدر السابق**، ص64-65 ، وكذلك : **نصيحة الملوك** ، 239-241.

وأضاف البعض والخير والصلاح والعلم والأمانة والصدق وكرهوا أن تولى " راغبا أو طالبا فيها "، يراجع : الطرطوشي : **المصدر السابق** ، ص416 .

([4]) الماوردي : **الأحكام السلطانية**، ص92، وأنظر : الفراء : **المصدر السابق**، ص34-35 .

([5]) **الماوردي : المصدر السابق**، ص92 .

([6]) الفراء : **المصدر السابق**، ص34 .

([7]) الماوردي : **التحفة الملوكية في الآداب السياسية** ، تحقيق : فؤاد عبد المنعم ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، 1993، ص103.

([8]) الماوردي : المصدر السابق، ص92 .

في الوالي نجد تركيز الشارع الحنيف على الورع والتقوى والأمانة والصدق مع الله أولا ثم المحكومين ثانيا بهدف تحقيق العدل الإلهي في الأرض وهي دلالة على عظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم . هذا من الجانب النظري أما في الفترة الحفصية فإن الكثير من هذه المقاييس لم تؤخذ بعين الاعتبار لأنها قامت على نظام الإمارة الدولة؛ بتوزيع الأقاليم على أفراد الأسرة الحفصية الحاكمة.

1- والي حفصي بإرث موحدي :

دأب الموحدون على اختبار ولاتهم الذين كانوا يسمون في البداية "الحفاظ" على مارواه التجاني (حيا 717هـ/1317م) في رحلته[2] ثم تحولوا بعدها بفترة إلى الولاة[3] من الأشياخ الموحدين أو من المقربين من الخليفة[4] فإن فُقِدَ هؤلاء وُلُوا من يرونه أكثر طاعة وولاء لهم على تلك الأقاليم[5] يساعدهم في أداء مهامهم وتسيير شؤون المدن موظفون في مختلف التخصصات كالفقهاء والقضاة والحجاب، القادة العسكريين يساعدونهم طلبة الحضر كمستشارين في شؤونهم المتعددة[6]؛ لكي لا يحيدون عن نهج الدعوة التي رسمها بن تومرت وخلفاؤه وكذلك ضمان ولاء هذه المدن للمركز باستقرارها وتوفير الأمن لها، و لم تخرج مهام الوالي الموحدي عن ما ذكرناه كما أن الخليفة الموحدي له صلاحية تعيينه وعزله إذا ثبت عليه ما يستحق ذلك فهل كان الأمر كذلك عند ورثتهم من الحفصيين؟

إشكالية المصطلح :

الإشكالية التي صادفتني عند تناول موضوع ولاة بجاية في العهد الحفصي هي فقدان المصادر التي تحدثت بشكل مستفيض عنهم فمؤرخو هذه الفترة الذين أمدونا بمعلومات قيمة خاصة ابن خلدون فيما يخص القرنين 7و8 الهجريين 14و15 الميلاديين والزركشي الذي لولاه لكان القرن 9هـ15م في طي النسيان وجل من جاء بعده نقل عليه تأريخا لهذه الفترة هو عدم تركيزها على تواريخ التولية والعزل وحديثها عن الولاة ضمن الإطار العام للحدث دون تخصيص، حتى وإن كانت فهي تقتصر على التعيين تارة أو الإنهاء أخرى وعند بعضهم لم نجد إلا الاسم مما أجبرنا على مقارنة المصادر بعضها ببعض من جهة ومقاربة النصوص محاولة لمعرفة التاريخ بنوع من الدقة، أطلقوا على أنفسهم لقب **"الأمير"** برأي برونشفيك[7] لتصادف إشكالية المصطلح فهل كان هؤلاء ولاة أم أمراء أم سلاطين؟ وماهو الفرق بين التسميات الثلاث؟

([1]) أنظر مهامه عند كل من : **المصدر نفسه**، ص 89 ، الفراء : **المصدر السابق**، ص29-30، الفضل شلق : **الفقيه والدولة الإسلامية**، دار الكتاب العربي، بيروت ،2000، ص 20-22 .

([2]) التجاني : **المصدر السابق**، ص95 .

([3]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص187 .

([4]) عز الدين عمرو موسى : **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم** ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،1991، ص 186.

([5]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص 109.

([6]) عز الدين عمرو موسى : **المرجع السابق**، ص 186

([7]) تاريخ افريقية ، ج2 ، ص111.

بتتبع ابن خلدون في تأريخه السياسي لبجاية على العهد الحفصي وجدت أنه يستعمل مصطلحين اثنين وهما الأمير والسلطان، فأطلق لقب السلطان على الولاة الذين استقلوا بالثغر الغربي وأعلنوا انفصالهم عن الحاضرة وجعلوا من بجاية عاصمة له، فقد سمى أبا زكريا بن أبي اسحاق (683-700هـ/1284-1300م) بالسلطان ونفسه مع أبي البقاء (700-709هـ/1284-1309م)[1] وأبي يحيى أبي بكر (712-718هـ/1312- 1318م)[2] اعترافا بهؤلاء كسلاطين وسماهم بالأمراء[3]، ويقصد به تحول الولاية الى ملك يتناحر عليه السلاطين[4]، في حين جمع بين التسميتين فقال عن أبي زكريا "السلطان الأمير"[5]، وفرق بين الأمير وأمير المؤمنين، فهذا الأخير لم يطلق عليه هذا اللقب أدبا مع عمه بالحضرة[6]، فالسلطان أطلقه على الأمراء الثلاث الذين أعلنوا الإنفصال،كما سماهم بالأمراء وقصد بالأمير كذلك الوالي.

وعليه فإنني فرقت بين المصطلحات الثلاث واعتبرت الوالي حاكما للمدينة وما تابعها من الأعمال كما سمته الكتب السلطانية والذي يقوم السلطان بتعيينه[7]، يحدد صلاحياته ومهامه، أما الأمير وان كان المعنى لايختلف عن الوالي لغة[8] فقد أطلقته على المستقلين بالقسم الغربي للسلطنة الحفصية تمييزا لهم عن السلطان بالحاضرة ولكي لا يقع الخلط للقارئ بمقصود التسمية. لأصل إلى تحديد ثلاث أصناف من الذين تولوا حكم بجاية وهم : الولاة التابعين للمركز والذين بقوا طيلة مدتهم تحت إمارة سلاطنيهم بتونس، ثم الولاة السلاطين وصل هؤلاء الى الحاضرة دون أن يعلنوا الانفصال ثم الأمراء السلاطين وهم الذين أعلنوا الانفصال ثم حكموا كامل السلطنة الحفصية.

2- قراءة إحصائية للولاة :

الجدول الذي أمامنا يبين عدد الولاة الحفصيين عبرثلاثة قرون بمعدل حكم كل والي[9]، يُسَهل لنا الجدول المقارنة و تبيين الفروق بين القرون، وللتقصي عن جميع ولاة بجاية الذين أوردتهم المصادر ولمحاولة معرفة مختلف الحيثيات عن انتمائتهم السياسية وعلاقاتهم الأسرية ومدة حكمهم نهجت طريقة الإحصاء الكمي والمقارنات العددية لتسهل القراءة التاريخية بناءً على ماتمدنا به المصادرة تلفة لتلك الفترة من معلومات تاريخية تساعدنا في فهم العلاقة التي كانت بين المركز وبجاية ومدى ارتباط الأطراف بالحاضرة وهل وافق البجائيون على الولاة

([1]) فقال عنه "لما ولي السلطان أبو البقاء"، **العبر**، ج6 ، ص449 .

([2]) في قوله " ثم رجع السلطان الى بجاية سنة 713هـ/1313م" **المصدر نفسه** ، ص478.

([3]) وقد أطلقه على أبي زكريا في مواضع كثيرة على سبيل المثال لا الحصر : **العبر**، ج6، ص442 - 443 ، 460 ، 461 .

([4]) ابن خلدون : **المقدمة** ، ص 219 .

([5]) ابن خلدون : **العبر** ج6، ص453 .

([6]) **المصدر نفسه** ، ج6، ص449، والمقصود به السلطان أبو حفص عمربن زكريا (حكم683-694هـ 1284-1294م).

([7]) سبق وأن تناولناه بالتفصيل ص50-51.

([8]) فالإمارة من الولاية ، والتأمير تولية الإمارة ، ابن منظور : **لسان العرب**، مادة أمر، ج4، ص 31 .

([9]) للتفصيل في جميع الولاة الذين تعاقبوا على حكمها وفترتهم أنظر الملحق 4.

القادمين من تونس وهل كان للعائلة الحفصية الناشئة بين أحضانهم حظ في حكم المدينة؟ وما موقف البجائيين منها؟

القرون	العدد	المدة	معدل الحكم
ق7هـ/13م	9 ولاة	74 سنة	8,22 سنة لكل وال
ق8هـ/14م	13	88 سنة[1]	6,76 سنة لكل وال
ق9هـ/15م	13	82 سنة[2]	6,30 سنة لكل وال
المجموع	35	244 سنة	6,97 سنة لكل وال

الجدول : إحصاء الولاة الحفصيين ومدة حكمهم ببجاية حسب القرون

من خلال الجدول يمكننا إبداء الملاحظات الآتية :

35 مرة يتعاقب عليها 32 واليا خلال مدة 244 سنة أي بمعدل وال واحد لكل أكثر من ست سنوات . أقصر ولاية شهر واحد[3] أطول ولاية 27 سنة[4]، وتختلف النسبة من قرن الى آخر كما يبرزه الجدول.

القرن السابع أقلها عددا فعرف (9) ولاة وبأكبر نسبة مايعادل (8) ولاة وبتطبيق النظرية الخلدونية على الواقعة التاريخية يظهر لنا أن تأثير قوة الدولة وضعفها على ذلك، فالدولة الحفصية في مراحلها الأولى كانت قوية بفضل عصبية القبيلة الهنتاتية التي ورثت الدولة الموحدية في إفريقية ويبرز ذلك على عهد السلطانين أبي زكريا يحي (626-647هـ/1226-1247م) مؤسسها ثم خليفته المستنصر (647-675هـ/1247-1286م) اللذين عرفا بقوة شخصيتهما وحكمتهما في تسيير شؤون الدولة وإدارة قبائلها في ظل اتساع الرقعة الجغرافية للسلطنة، هذه القوة التي استمدتها من أهلها جعلتها "أكثر ممالكا وأوطانا"[5]، وهو طور من الأطوار التي تمر عليها الدولة عند ابن خلدون فقد قام كلا منهما بجباية المال واكتساب المجد فاتخذوا الرجال واصطنعوا الحاشية[6] من قبيلتهم ومن شيوخ الموحدين، واتسمت الإدارة على عهدهما بالاستقرار لهذا لم تعرف بجاية في فترة حكمهما سوى أربعة ولاة اثنان من الأسرة الحفصية واثنان من الأشياخ الموحدين، الوالي الأخير من هؤلاء وهو أحمد بن أبي هلال (673-679هـ/1275-1280م)امتدت ولايته الى عهد السلطان أبي إسحاق بن أبي زكريا.

([1]) دون حساب فترة الحكم المريني التي دامت إثنا عشرة سنة من 748-760هـ/1347-1358م .

([2]) الإحصائيات التي جمعتها تتوقف بتاريخ 882هـ/1477م، لكن الدراسة تتمتد إلى غاية 915هـ/1510م.

([3])تولاها أبو حفص بن أبي بكر و رفضه أهل بجاية واليا عليهم وبايعوا أبا عبد الله ابن الوالي السابق أبي زكريا، أنظر : الزركشي : **المصدر السابق**، ص78، ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص 516-517.

كما نشير إلى والٍ عين و لم يحكم وهو أبو حفص عمر الذي ولاه عمه السلطان الواثق سنة677هـ/1278م لم يصل بجاية وعاد من باجة الى تونس لدخول أبي إسحاق بن أبي زكريا اليها، ابن قنفد : **المصدر السابق**، ص136.

([4]) تولاها الوالي أبو زكريا بن أبي يحي من 720-747هـ/1320-1346م.

([5]) ابن خلدون : **المقدمة** ، ص160.

([6]) المصدر نفسه، ص171-172.

الولاة الثلاث الأوائل انتهت ولايتهم دون إراقة للدماء ولا عزل، ليقتل الوالي الرابع السابق الذكر من طرف السلطان أبي إسحاق بن أبي زكريا (678-682هـ/1279-1283م)[1] رغم أفضاله عليه لندخل في طور التآمر على السلطة وكثرة الوشايات لتطرح إشكالية مامدى مسؤولية السلطة المركزية في إثارة القلاقل ببجاية؟ من خلال تعيين موظفين لا أهلية لهم وبتصرفاتهم أثاروا الفتنة وهو ماحدث مع الحاجب ابن الحبر بتونس المسؤول عن النهاية المأساوية لأخيه ادريس بتعيينه على ولاية الأشغال 655هـ/1257م ودخوله في صراع مع واليها ليدشن به عهد التطاحن على المناصب ببجاية، وهو ما يتناقض مع المعطيات النظرية التي أوردها الماوردي حول شروط الوالي.

القرن الثامن الهجري عرف (13) واليا خلال 88 سنة بمعدل وال واحد لحوالي سبع سنوات والملاحظ ان فترة الولاية تقل بسنة عن القرن 7هـ/14م كما أن عدد الولاة يزداد بأربع ولاة ، والسبب أن الدولة دخلت في الطورالرابع "القنوع والمسالمة"[2] وفقدان العصبية والتفنن في الترف فتكثر الأطماع فيها من مختلف العصائب، ونقرأ ذلك من خلال كثرة الخارجين عليها من القبائل بازدياد التحرشات في بداية هذا القرن على بجاية من الزيانيين في حملتين الأولى سنة 713هـ/1313م والثانية سنة 715هـ/1315م[3] ثم تكتمل بالسيطرة المرينية بقيادة السلطان أبي الحسن المريني 748-749هـ/1347-1348م ثم على يد أبي عنان سنة 753هـ/1352م ليمتد الى 760 هـ/1358م وهو تاريخ خروج آخر وال مريني من المدينة[4]، والسبب في ذلك التكالب أن أول ما ينقص من الدولة هو أطرافها برأي بن خلدون[5] لبعدها عن المركز واهتمام السلطان في هذه الحالة ينصب على المركز حفاظا على ملكه من الضياع.

القرن التاسع عرف (13) واليا خلال 82 سنة بمعدل والي لأكثر من ست سنوات رغم أن الـ كل يوضح التكافؤ في العدد الا أن الفترة تتقلص بسنة واحدة عن القرن 8هـ/14م وبسنتين عن القرن7هـ/13م، لدخول الدولة في طورالهرم ويدب فيها المرض وتنبض العصبية خاصة في أطرافها[6]، فقد عرفت بجاية زيادة الخارجين عن سلطة الوالي وظهورطلاب الولاية من البيت الحفصي والولاة السابقين وشيوخ القبائل مما نتج عنه تقلص مجالها الجغرافي وفقدان الأمن مما أجبر السلطان أبا عمرو عثمان (839-894هـ/1435-1494م) على تعيين قادة عسكريين للإشراف على المدينة وكسر شوكة الطامعين فيها[7].

([1]) ابن خلدون : **العبر**، ج6 ، ص434.

([2]) ابن خلدون : **المقدمة** ، ص172 .

([3]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص162.

([4]) ابن خلدون : **العبر** ، ج6 ، ص521 ، 533 .

([5]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص161.

([6]) وهو مالمسناه في تلك الفترة فرغم قوة السلطانين أبي فارس عبد العزيز (796-837هـ/1394-1434م) وأبي عمرو عثمان إلا أن بجاية عرفت اضطرابا كبيرا .

([7]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص 146 .

فمن كان يقوم بتعيين ولاة بجاية على العهد الحفصي؟ أين كان مقر الوالي البجائي؟ وهل رُعيت الشروط التي تناولتها الكتب التراثية فيهم ؟ هل خرجت ولاية بجاية من العائلة الحفصية ؟ ما هي انتماءاتهم الجغرافية ؟ وما موقف الأسرة الحفصية الفرع البجائي ببجاية من هؤلاء الولاة، وماموقف أهل بجاية منهم ؟ هل إلتزموا بأوامر السلطة المركزية وأذعنوا لها أم حاولوا الانفصال عنها في ظل قوة المدينة ؟ هل وفقوا في أداء واجباتهم تجاه البجائيين؟

3- الولاة طرق التعيين والمهام والإنتماءات الأسرية :

طرق التعيين :

لم يخرج الحفصيون عن عادة الموحدين فالسلطان بتونس هو الذي كان يعين الولاة على المدن التابعة لدولته ومنها مدينة بجاية الثانية من حيث الأهمية بعد تونس كما صورتها المصادر لعدة أسباب، منها موقعها الجغرافي الهام بإطلالها على البحر المتوسط وأهمية مينائها التجاري الذي أكسبها علاقات اقتصادية مع الموانئ الأوربية[1]، وطريقا تجاريا بريا يربط إفريقية بالمغرب الأوسط ومن ثم المغرب الأقصى ونحو الجنوب إلى الصحراء، بعضا من الولاة انتقل من إدارة ولاية إلى أخرى بسبب ظروف طارئة أجبرت السلطان على إحداثه، وكان تعيينه يرفق بمظاهر الأبهة والبهجة والاحتفاء كما يروي بان خلدون عند تقليد السلطان أبي بكر قسنطينة لولده أبي عبد الله وبجاية لأبي زكريا في الفاتح من عام 727هـ1326م بقوله "في احتفال من العسكر والأصحاب والأبهة"[2]، وحرصا منه على أمصاره من الانقلابات والفوضى ومحاولات الانفصال كان يعين بنفسه رجال الوالي من الحجاب والكتاب وغيرهم أو ماسماهم ابن قنفذ بالخواص في حديثه عن السلطان أبي العباس أحمد الذي جعل ابنه أبي عبد الله محمد واليا على بجاية سنة 769هـ/1367م و"أوقف بين يديه رجالا من الخواص"[3]، وعين البعض منهم نوابا لهم في حالات اضطرارية فعند خروج الأمير أبي فارس من بجاية لمقاتلة الدعي ابن أبي عمارة سنة 682هـ/1380م خلفه أخوه أبو زكريا بن أبي إسحاق رفقة الشيخ أبي زيد الفزازي على المدينة[4].فهل كل الولاة تم تعيينهم من قبل السلطان ؟ أم ثمة طرق أخرى خارجة عن إرادته؟

طرق أخرى : الجدول التالي يبين أن ثمة بعض التعيينات تمت من قبل أهل بجاية بالقوة وأخرى استخلافا وطرقا أخرى كما هو بارز :

طريقة التولية	من السلطان	من أهالي بجاية	استخلافا	صلحا	بالقوة
العدد	23	3	2	1	2

الجدول : الطرق التي تمت بها تولية أمراء بجاية

([1]) فصل الباحث دومينيك فالريون في العلاقات التجارية لميناء بجاية مع مختلف الموانئ المتوسطية في الفترة الوسيطة من خلال دراسته التي إعتمد فيها على المصادر المسيحية من وثائق الأرشيف الإسباني والإيطالي ممثلا في العقود و الإتفاقيات التجارية التي عقدتها بجاية مع تلك الموانئ وأرشيف القناصل، النصوص والرحلات أنظر Valèrian : ***Op.cit:***

([2]) العبر، ج6، ص485.

([3]) الفارسية، ص186.

([4]) الزركشي : المصدر السابق، ص48 .

ثلاثة وعشرون واليا من أصل اثنان وثلاثون[1] تم تعيينهم بطريقة رأتها السلطة غير شرعية قاومت بعضها في حين أجبرت على قبول أخرى .أهالي ومشيخة بجاية تدخلوا في فرض ثلاثة من الولاة، في حين استخلف اثنان من هؤلاء، الوالي الأول وهوشيخ صنهاجة (المغرب الأوسط) عبد الرحمن بن يعقوب بن مخلوف[2] (709-712هـ/1309-1312م) الملقب بالمزوار[3] وهو الوالي الوحيد الذي عرفته من خلال المصادر أنه من العناصر المحلية الذي ولي بجاية ، استخلفه أبو البقاء خالد لما تحول إلى الحاضرة سلطانا سنة 709هـ/ 1309م لإخلاصه ووفائه لسلطانه ورفضه مبايعة صاحب قسنطينة الأمير أبا بكر وقضائه على المتحرشين ببجاية حتى قتل بفرجيوة على يد أحد موالي أبي بكر سنة 812هـ/1409م[4]، رغم الوساطة التي قام بها الشيخ الصوفي يعقوب بن عمران البويوسفي الملاري[5] وإعطائه عهد الأمان ووعد ابن مخلوف بحجابة بجاية إلا أن مصيره كان القتل[6]، دلالة على روح الانتقام والتقاتل على الإمارة.

الوالي الثاني هو محمد المنصور بن عبد الله (810-812هـ/1407-1409م) استخلفه والده الوالي البجائي أبو عبد الله محمد بن أبي يحي الذي كان واليا سنة 810هـ/1407م[7]، خارجا عن طاعة السلطان أبي فارس ومدعما من قبل المرينيين مما أجبر هذا الأخير على دخول بجاية بالقوة والقبض على المنصور واعتقاله؛ ويدل ذلك على عدم

([1]) أحصى صالح بعيزق 24واليا فقط منهم حاجبين أدرجهم كولاة يعقوب بن غمر (ت719هـ/1319م) وابن عمه يعقوب (ت720هـ/1329م)، أنظر في ذلك : **بجاية في العهد الحفصي**،ص 93-94، لكنني بعد القراءة المتكررة للمصادر أحصيت 32 واليا كما بينته، ألحقتهم في الملحق رقم 4.

([2]) هو أبو عبد الرحمن بن يعقوب بن مخلوف صهر شيخ الموحدين أبو زكريا بن أبي الأعلام قدمه أبو فارس شيخا على صنهاجة استخلفه على بجاية بعد خروجه الى تونس 709هـ/1309م ،دافع عن بجاية ضد أبي بكر صاحب قسنطينة حتى قتل بفرجيوة على يد جنود الوالي712هـ/1312م ، تراجع أخباره عند : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص461-462 ، 473-474 .

([3]) المزوار هو المشرف على من هم بباب السلطان القائمين على تطبيق أوامره ويسمى كذلك بالعريف ، العودة إلى : ابن خلدون : **المقدمة**، ص 229 .

([4]) أنظر في أمره : ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص471-473-474، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص 162

([5]) هو يعقوب بن عمران البويوسفي الملاري المتوفي سنة 717هـ/1317م ، شيخ زاوية ملارة ، والد جد ابن قنفذ من أمه ، كانت له علاقات طيبة مع الأمراء والسلاطين الحفصيين، خاصة والي قسنطينة أبي بكر ، وكذلك السيرة مع ابنه يوسف بن يعقوب الملاري (ت764هـ/1363م) جد ابن قنفذ، أنظر أخباره في : ابن قنفذ : **المصدر السابق** ، ص164 ، ولنفس المؤلف : **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق أودولف فور ومحمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، الرباط، 1965، ص 53-54.

وقد فصل الدكتور عبد العزيز فيلالي في الزاوية الملارية في مقاله الذي نشر تحت عنوان : «**الزاوية الملارية مظهر من مظاهر التصوف وأ ثره في فج مزا ا مزالة**»، أعمال الملتقى الأول لكتامة المنعقد بفرجيوة يومي 23-24 ماي، 2005، ص32-47.

وضريحه مازال إلى اليوم بقرية ملارة وهي بلدة صغيرة تابعة لدائرة تسدان على بعد 18كلم من فرجيوة، وقد زرته والتقطت صورة لضريحه، أنظرها في الملحق 2.

([6]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص474 .

([7]) ليتفرغ هو لمقاتلة السلطة المركزية بمساعدة المرينيين فكان مصيره أن أجتز رأسه من جنود السلطان وأرسل إلى فاس للإعتبار به، يجعل برونشفيك وفاته سنة 811هـ/1408م دون تبرير في حين أننا اعتمدنا سنة 812هـ/1409م نقلا عن الزركشي الأقرب للحدث ، أنظر : تاريخ الدولتين ،ص123-124، برونشفيك : المرجع السابق، ج1، ص245 .

تسامح السلطة وإشهارها لسيفها ضد المغتصبين للحكم وعدم الاعتراف بهم كحكام على المدينة. ودخلها أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا في ولاية أخرى (765-767هـ/1363-1367م)[1] صلحا مع السلطان أبي إسحاق إبراهيم (75-770هـ/1351-1369م).

أما القوة فاتخذها كلامن أبي زكريا بن أبي إسحاق (683-700هـ/1284-1397) عائدا من تلمسان ليضم كلا من قسنطينة والجزائر وبسكرة ويعلن انفصال السلطنة الحفصية الغربية جاعلا بجاية عاصمتها ساعده في ذلك أهلها الذين أحبوه وتعلقوا به لحسن سيرته فيهم وحسن ملكته ومخالطته لأهل العلم[2]. ووصل أبو عبدالله محمد بن أبي يحي سنة 810هـ/1407م إلى القصبة حاكما بالقوة بعد هزيمته للقائد ظافر[3].

مقر الوالي :

كان ولاة بجاية يسكنون بقصبة المدينة مع فرقة من الجيش تقوم على حماية المركز بالإضافة إلى كبار رجال الدولة[4]، والمرجح أنها بنيت في عهد الموحدين بعد دخولهم لها 547هـ/1152م[5]، بدليل أن الغبريني (ت 704هـ/1304م) يذكر أن بني غانية أثناء احتلالهم لبجاية 580هـ/1184م دخلوا من باب اللوز واتجهوا إلى القصبة فسيطروا عليها ومنها تحكموا في كامل المدينة[6]، اتخذها الولاة والأمراء مقرا لهم لإدارة شؤون الولاية وما يليها من الأعمال، تعد بمثابة قلعة حكومية ملاصقة للمدينة مع أجهزتها[7]، وقد جمعت ستة نصوص رواتها المصادر تبرز أنها مقر والي بجاية كمار أهميتها وأن من يتحكم فيها يستطيع السيطرة على كامل المدينة .

النص الأول برواية الغبريني[8]، أما النص الثاني فيعود الى بن خلدون في معرض حديثه عن السلطان أبي إسحاق وفراره الى بجاية أمام الدعي بن أبي عمارة فمنعه واليها أبي فارس من الدخول الى قصره في القصبة خوفا على ضياع ملكه[9].

([1]) بعد أن تقلدها للمرة الأولى (747-748هـ/1346-1347م) وأزاحه عنها أبو الحسن المريني، ثم أعيد إليها بدعم من أبي عنان سنة 749هـ/1348م) ليتنازل عنها للسلطان المريني ،ثم العودة ثالثة سنة765هـ/1363م حتى قتل من طرف أبي العباس صاحب قسنطينة ، أنظر أخباره في : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص516-517، 527-528، 533، 546-548، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص 171-175، الزركشي : **المصدر السابق**، ص94، 99-102، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1ص190، 207، 210- 211 .

([2]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص 448 ، وأنظر أخباره كذلك في : ج6، ص 448 – 461 ، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص148-155، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص 124 .

([3]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص124 ، برونشفيك ، **المرجع السابق**، ج1، ص245.

([4]) **المرجع نفسه**، ج2، ص36 .

([5]) وأشير هنا إلى أن حديثي عن القصبة الحمادية، أما القصبة الحالية فهي إسبانية.

([6]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص77 .

([7]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص414 .

([8]) سبق ذكره في خبر دخول بنو غانية إلى المدينة.

([9]) ابن خلدون : المصدر السابق، ج6، ص444 .

أما النص الثالث فرواه الزركشي في نفس الموضوع ومفاده أنه بعد هزيمة أبي فارس ربيع الأول من نفس العام أمام الدعي فر والده السلطان أبو إسحاق "هاربا من القصبة يريد تلمسان"[1]، وكان قد انتقل من قصر الكوكب الذي أنزله به الوالي أبي فارس إلى القصبة لتسيير المدينة في غياب صاحبها.

النص الرابع جاء به ابن خلدون الذي يذكر أن أهل بجاية رفضوا تعيين السلطان أبي بكر لابنه أبي حفص واليا عليهم في ربيع الأول 747هـ/1346م واحتلوا القصبة بأسلحتهم ونادوا بأبي عبد الله أميرا[2]، ثم نقلوه من الغد الى قصره بالقصبة وملكوه أمرهم[3]. النص الخامس لنفس المؤرخ، أورد فيه أن أهل بجاية اجتمعوا وراء القائد فارح وفتكوا بالوالي المريني عمر بن علي 753هـ/1353م بداره في القصبة[4].

النص السادس برواية الرحالة ابن الحاج النميري (ت بعد 774هـ/1372م) حيث يذكر في رحلته أن السلطان أبا الحسن المريني لما دخل بجاية أوائل 748هـ/ 1347م، تفقد معالمها ومنها قصبة بجاية وقصرها رفقة الرحالة والذي وصفه مبديا إعجابه بروعته وتفوقه على بقية القصور بقوله " فكنت ممن دخل معه قصرها الذي تقاصر عن أدنى مباني الغرب وتضاءل تضاؤلا دون قصوره التي هي منية النفس والقلب"[5] .

أما دار الوالي فكانت في القصبة نفسها وقد أرفقت بمسجد يسمى باسمها مند العهد الموحدي يصلي فيه الوالي وحاشيته ويختار له أفضل الفقهاء لأداء صلاة الجمعة[6]، وكان الوالي ينتقل بين عدة قصور في المدينة وخارجها كقصر الكوكب بروض الرفيع على ضفاف وادي بجاية الذي أقام به السلطان المخلوع أبو إسحاق وأخرى حول المدينة كقصر البديع في الجهة الغربية[7].

([1]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص 490 .

([2]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص516 .

([3]) **المصدر نفسه** ، ج6، ص517 ، وينقل الزركشي القصة بنفس الصيغة عن بن خلدون ، أنظر : **تاريخ الدولتين**، ص78 .

([4]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص533 .

([5]) النميري : **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة الى قسنطينة والزاب**، تحقيق : محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص268 .

([6]) ذكره الغبريني في ترجمته لأبي عبد الله محمد المعافري (ق7هـ/13م)الذي كان يصلي فيه التراويح بضور الوالي الموحدي، **عنوان الدراية**، ص140.

([7]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص 416 .

الذي وصف جماله ورونقه الشاعر حسن بن الفكون (ق7هـ13م) قائلا :

فيا حسن ذاك القصر لا زال آهلا ويا طيب ريا نثره المتنشق

رتعنا به في روضة الأنس بعدما هصرنا به غصن المسرة مورق

أنظر الأبيات عند : الغبريني : **المصدر السابق**، ص282 .

وقصور أخرى خارج المدينة من أثار السلاطين الحماديين عن قصور بجاية من العهد الحمادي ، أنظر : برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص413- 414 ، رشيد بورويبة : **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ص208 ، عبد الحليم عويس : **دولة بني حماد ملوك القلعة**، ص 186-187، وعن مصير هذه القصور التي هدم بعضها الإسبان بعد احتلالهم بجاية 915هـ/1519م ، يراجع ترجمة نص إبراهيم المريني عند :

يبدو لي أنه كان يلجأ اليها الأمراء للتنزه والترويح، احتوت هذه القصور خاصة القصبة مقر الوالي على منازل غاية في الجمال والإتقان لاستقبال وإقامة الضيوف، وأشار الرحالة خالد البلوي (ت 780هـ1378م) إلى إحداها والتي أقام بها عند عودته من المشرق ونزل في ضيافة واليها أبي زكريا بن أبي يحي سنة 740هـ/ 1339م[1].

الولاة الحفصيون على بجاية حكموا المدينة والأكوار التابعة لها كما عبر عنه الزركشي في معرض حديثه عن تولية أبي فارس 679هـ/1280م على بجاية وأعمالها [2]، والتي اتسمت بالاتساع أحيانا وصلت إلى بسكرة جنوبا وضمت الزاب كله وقسنطينة في بعض الحالات في حين ضاقت أحيانا أخرى حتى وصل الحد بهؤلاء الولاة التصرف في المجال الحضري وفقط وعدم القدرة على الخروج خارج أسوارها في ظل التحرشات الزيانية والمرينية من جهة وضربات القبائل من جهة ثانية[3]، وفي أسوأ الأحوال خرجوا عنها كلية بعد السيطرة المرينية عليها.

تقلد ولاة بجاية عدة مناصب قبل تسلمهم لولاية بعضهم كتابا مرورا بالحجابة ولكن ذلك لم يكن قاعدة ثابتة، زمام السلطة طمان طماعة الرعية قربوا ماعة الرعية قربوا النخب البجائية منهم لمشاركتهم في تقاسم الأعباء معهم فاتخذوا الأشياخ الموحدين كمستشارين لهم وحجابا يولونهم أمور الدولة حتى استبد البعض منهم بالأمر، وأغدقوا على شيوخ القبائل بالعطايا وقلدوا الفقهاء الخطط الدينية والسلطانية .

مهامه :

الوالي هو ممثل السلطان في ولايته ومشمولاتها الجغرافية، وكما شرحنا من خلال المؤلفات السلطانية فإن مهامه تنقسم الى ماهو ديني وعسكري وإداري، ولم تخرج عموما مهام الوالي البجائي في العهد الحفصي عن ذلك، فهو صورة السلطة المركزية في بلده يشرف على الشؤون العسكرية للولاية بالتصدي للثورات ونشر الأمن ليضمن الولاء والتبعية للمركز الذي تمثله في ظاهره الخطبة وضرب السكة باسم السلطان ويجدد البيعة إذا طلب منه[4]، تعبيرا عن الانقياد واستمرار الطاعة، ويحافظ على عرشه من الطامعين باعتباره من الأسرة الحاكمة الوارثة للعرش بالقضاء على المعارضين والخارجين عن السلطان[5]، ويتوسط عند شيوخ القبائل لضمهم الى صفه، ومهام مالية على

-CharleFèraud :*Conquête de Bougie par Ies Espagnols d`après un manuscrit arabe d`Abou AIi Ibrahim el-Merini* , *Révue Africaine*, Alger, N°12,1868, p34

([1]) بقوله شعرا :

دار مشى الإتقان من تنجيدها حتى تناسب روضها وبناؤها

مرقومة الجنبات ذات قرارة يمتد قدام العيون فضاؤها

مازال يضحك دائما نوارها في وجه ساحته ويلعب ماؤها

أنظر : البلوي : **تاج المفرق**، ص138.

([2]) **تاريخ الدولتين**، ص44 .

([3]) علما أن حركة القبائل تأثرت بأحداث سياسية وجبائية ، فقد قامت السلطة الحفصية بالتخلص من بني رياح نحو الجهة الغربية سنة 630هـ/1232وتعويضهم ببني مرداس، وكان رفض دفع الجباية وتقليص السلطة لعطاءاتها نحوهم سببا كافيا ليثوروا ضدها، أنظر في موضوع القبائل وتحركاتها في العهد الحفصي، محمد حسن : **الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول الى القرن التاسع الهجري**، دار الكتاب الجديد، طرابلس، ليبيا، 2004، ص228-234.

([4]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص146 .

([5]) ابن خلدون : المصدر السابق، ج6 ، ص431 .

رأسها جباية الضرائب بأنواعها وإطلاق يد الوالي عليها[1] والتي كانت توليها السلطة أهمية خاصة لدورها في انعاش خزينتها، ويشرف على ديوان الجند وأعطياتهم[2]، وأعطيت لهم في بعض الحالات صلاحيات إدارية كتعيين الحاجب وموظفيه[3]، وأرجح أن هذا الامتياز لم يعط إلا للولاة أبناء السلاطين لكي لايتخذ كحجة للاستقلال الإداري عن الحاضرة وفي بعض الحالات القليلة وبإذن من السلطان اتخذ بعضهم مراسيم الملك كالشارة والآلة[4].

الانتماءات الأسرية للولاة :

لم يخرج التعيين من العائلة الحفصية إلا نادرا ولظروف أملتها الأحداث والشكل التالي يوضح إنتماءات الولاة الذين تقلدوا حكم بجاية :

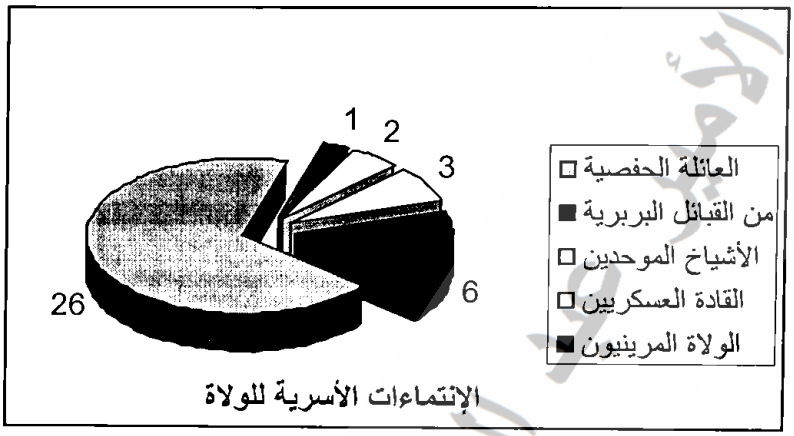

الإنتماءات الأسرية للولاة

من خلال الشكل يتضح لنا أن الغالبية من الولاة من الأسرة الحفصية 26 واليا من مجموع 32 واليا إذا استثنينا واليين تقلد أحدهما الإمارة ثلاث مرات والمقصود به أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا (ت767هـ/1367م) وأبو العباس أحمد بن أبي عبد الله (ت 812هـ/1409م) مرتين وستة مرينيين، سواءً أكان ابنا للسلطان أو أخا له أو عمه أو من الغصن الأحق بها كما يبينه الجدول :

إبن السلطان	أخ السلطان	عم السلطان	إبن عم السلطان	السلطان نفسه	من الأسرة
10	3	1	3	1	8

الجدول : العلاقة العائلية لولاة بجاية بالسلطان

ما يلاحظ من الجدول هو أن نصف الولاة أبناء سلاطين وإخوتهم فمن ست وعشرون واليا عشرة من فئة الأبناء وثلاثة من الإخوة وبإضافة ثلاثة أبناء عمومة السلطان وواحد السلطان نفسه ونعني به أبو إسحاق ابراهيم

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج 6 ، ص560 .

([2]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها .

([3]) **المصدر نفسه** ، ج6 ، ص504 .

([4]) المصدر نفسه ، ج6 ، ص561 .

بن أبي يحيى واليا (761-765هـ/1350-1363م) وفي نفس الوقت سلطانا على كامل السلطنة الحفصية، يصبح المجموع سبعة عشر واليا من العائلة الحفصية الوارثة للعرش.

الولاية لم تخرج إلا في ثماني حالات للأحفاد لأسباب اضطرارية حبا في بقاء الأمر بينهم لتهيئهم لولاية العهد كما أن هذا التقليد المبكر للمدن يعد بمثابة تدريب لهؤلاء على أساليب الإدارة والتعرف على طرق وتقنيات التسيير والغوص في خبايا السلطة ومتاهات الحكم للاستعداد للمناصب الأكثر أهمية في حالة الحاجة لهؤلاء الولاة ، وربما كانت طبيعة التنظيم القبلي والنظرة السياسية لنظام الحكم سببا في الاعتماد على موظفيهم، وهو ما أجمله بن خلدون في حديثه عن السلطان أبي إسحاق وتقديمه لأولاده في مناصب وخطط الدولة المتعددة "وطالت فروعهم في دوحه"[1] وهيئوا البطانة التي ستعمل معهم أثناء تسلمهم ولاية الأمصار يعبر عن ذلك في قوله "واصطنعوا أهل السوابق من الرجال"[2]، مما جلب ثقة الأسرة في بعضها وشعورها بالأمان أمام ولاتها من بني جلدتها تفاديا للعصيان ودفاعها عن المملكة، خاصة وأن الأطراف هي أول من يعلن الاستقلال في حالة هرم الدولة وفقدانها لعصبيتها على رأي بن خلدون[3]، وكسب طاعة الرعية لهم ، كما أن منصب الوالي يأتي ثانيا ترتيبا بعد السلطان من حيث الأهميته فقد يرشح صاحبه إلى ولاية العهد مما أغرى أولاد السلاطين الذين ما فتئوا يحاولون إثبات قدراتهم لعلهم يظفرون بالولاية بعد تدربهم على أساليب الحكم مستعنين بحجاب ذوي أصول أندلسية أصحاب المعارف العلمية والممارسات الإدارية، فقد أشرف الحاجب ابن سيد الناس على تعليم أبي فارس بن أبي إسحاق فنون الإدارة و"أجراه على سنن الوزارة"[4] قبل أن يعين على بجاية التي ظفر بها دون إخوته لأنه الأكبر سنا فيهم كما أنه أثبت أحقيته بها وتخفيفا لحزنه على حاجبه المغتال.

أوعز برونشفيك تقليد الأمصار من عائلة بني حفص لأنهم بربر لايشعرون بالأمان إلا مع بني جنسهم بفضل تضامنهم الفئوي[5]، وبرأيي أن هذه الصفة التي هي الأمان والتضامن إحساس عند كل البشر لاستئناسهم وألفتهم بأقاربهم وأهلهم ووصلهم بالمناصب والمال والجاه لتمكينهم، وتوزيع الثروة بين أفراد الأسرة المالكة، وليست شعور البربر لوحدهم كما رأى المؤرخ الفرنسي.

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص 437 .

([2]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها .

([3]) العصبية من الأسس التي بنى بن خلدون عليها نظريته في الدولة ، ولاتقوم الدول إلا على عصبية القبيلة وتسقط بسبب ضعفها ، للتفصيل فيها أنظر : محمد عابد الجابري : **العصبية والدولة**، ط5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ،1992، ص 163-193، وكذلك : جمال شعبان : «قراءة جديدة في فكر ابن خلدون»، **مجلة المستقبل العربي**، عدد 329، يوليو 2006، ص 95 وما بعدها ، عبد الغني مغربي : **«سوسيولوجية الفكر الخلدوني»** : تقديم وتعريب : محمد الشريف بن دالي حسين، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص 141-163 .

([4]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص437 .

([5]) برونشفيك : المرجع السابق، ج1، ص110.

لتلك الأسباب كان يتم اختيار ولاة قادرين على تسيير المدينة وإدارتها في وجه القبائل من جهة والدول المتربصة بها من ناحية مما يجعل السلطة المركزية في مأمن من ضربات هؤلاء إذا علمنا أن المدينة هي الوجه الغربي الحامي لعاصمة السلطنة مما يطيل عمر السلطان في كرسي الحكم .

وبالعودة إلى الشكل البياني يتضح غياب ولاة من أصول بجائية أو حتى من المغرب الأوسط و لم نجد إلا ابن مخلوف (ت 712هـ/1312م) الذي استخلفه أبو البقاء بقرار شخصي سرعان ما قضي عليه بقتله واعتباره متمردا عن السلطة المركزية.

أما الذين عينهم السلطان من دون العائلة المالكة فعددهم ستة، اثنان من الأشياخ الموحدين أصحاب النفوذ والموالين للدولة والقائمين عليها منذ عهود، وثلاثة من القادة العسكريين، وواحد من القبائل البربرية، ويعود ذلك في تقديري لشدة إخلاصهم وتفانيهم في خدمة السلطان ومملكته وروعيت فيهم الكفاءة والمقدرة في ظروف صعبة مرت بها السلطنة في جهتها الغربية، فالشيخ الموحدي أبو هلال بن محمد الهنتاتي ولاه السلطان المستنصر على بجاية (660-673هـ/1262-1275م)[1] لبلائه في القضاء على طلاب السلطة من البيت الحفصي[2] وإنهائه لثورة أبي علي المليانى (659-660هـ/1261-1262م)[3] ووقوفه ضد ثورة الجزائر سنة 669هـ/1270م[4] ليخلفه إبنه محمد (673-679هـ/1275-1280م) الذي كان له دور هام رفقة أهل بجاية في وصول السلطان أبي اسحاق ابراهيم الى حكم بجاية سنة 677هـ/ 1278م حيث دعوه لحكم المدينة بعد بطشهم بأبي العلاء إدريس صاحب الأشغال بها ورغم الخدمات التي قدمها إلا أن نهايته كانت القتل على يد أبي إسحاق نفسه[5].

المس من القادة العسكريين من مماليك السلطان الذين تدرجوا في المناصب وبرهنوا على إخلاصهم وهم على التوالي : الضابط والقائد ظافر من الموالي القدماء، الذي ولاه السلطان أبو فارس سنة 805هـ/1402م للدفاع عن بجاية ورد الهجمات التي قام بها أبو عبد الله محمد بن أبي يحي المتحالف مع العرب والمرينيين الى أن عزله سنة 809هـ/1406م[6]، فالقائد ابن نعيم رضوان كلفه نفس السلطان بالإشراف على الولاية سنة 824هـ/1431م بعد عزله لابنه المعتمد الذي طمع في ولاية العهد[7] واستمر القائد صاحب الأمر الى 838هـ/1434م، لنصل الى أبي علي بن منصور عينه السلطان أبوعمر وعثمان (839-894هـ/1435-1488م) سنة 856 هـ/1452 لدوره الهام في القضاء على أبي الحسن علي بن أبي فارس المغتصب لعرش بجاية

---

(1) اختاره السلطان المستنصر على أخيه أبي حفص مما يدل على ثقته فيه ، أنظر أخباره : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص423، 431-434 .

(2) ابن خلدون : **المصدرالسابق**، ج6، ص405-406 .

(3) **المصدر نفسه**، ج6، ص420-421 .

(4) **المصدر نفسه**، ج6، ص431 .

(5) يراجع في أمره : **المصدر نفسه**، ج6ص434 ، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص 104-106، 112 .

(6) الزركشي : المصدر السابق، 123-124.

(7) المصدر نفسه، ص129.

والخارج عن السلطة، حيث قتله وبعث برأسه إلى السلطان بتونس 856هـ/1452م[1] فكان ذلك بمثابة عربون التعيين على بجاية الى أن عزله سنة 859هـ/1455م[2]، فالسادس وهو شيخ صنهاجة ابن مخلوف الذي عينه الأمير أبو البقاء سنة709هـ/1309م واليا على المدينة.

أما الولاة المرينيين فقد تداول على بجاية ستة ولاة في الفترة التي تم فيها الاحتلال المريني للمدينة على عهد السلطان المريني أبي عنان الذي دخل المدينة أوائل 748 هـ/1347م وعزل واليها أبي عبد الله بن أبي زكريا[3] معتبرا دخول بجاية مفتاح السيطرة على كامل المغرب تحت الراية المرينية حتى أن التهاني بهذا الإنجاز وصلت السلطان من صاحب غرناطة ابن الأحمر بقلم ابن الخطيب منه بقوله " أمطاكم السعد صهوتها وأحلكم التوفيق ربوتها..فأصبحت دولتكم السعيدة تتقيأ جنة الجنتين وتختال في حلتين "[4]، دلالة على أهمية المدينة المفتاح لدخول إفريقية وكذلك على عهد خلفه وولده أبي عنان ، عين السلطان أبو الحسن وزيره محمد بن النوار واليا على بجاية وأعمالها [5]، واستمرت السيطرة المرينية على بجاية إلى نهاية سنة 760هـ/ 1358م حين دخلها السلطان أبو إسحاق وجعلها مقره لمدة خمس سنوات[6] وهم على التوالي :

إسم الوالي	فترة ولايته	مصيره	المصادر
محمد بن النوار[7]	749هـ/1348م[8]		ابن خلدون: 356/7
عمر بن علي بن أبي الوطاس[9]	-753 753هـ/1352- 1352م.	أغتيل من أنصار الحفصيين ببجاية[1]	ابن خلدون: 533/6، 383/7، الزركشي: ص94

(1) الزركشي : **المصدر السابق**، ص146.

(2) **المصدر نفسه**، ص 148.

(3) صرفه عن بجاية وأعطاه ندرومة مع جبايتها ، ابن خلدون: **المصدر السابق**، ج6، ص 521، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص171، وللتفصيل في كيفية دخولها وطواف السلطان أبي الحسن بها وزيارة منشأتها ، أنظر : النميري : **المصدر السابق**، ص252-279 .

(4) القلقشندي : **صبح الإنشاء**، ج7، ص69 ، و الرسالة كاملة تجدها، ص 67-70 من نفس الجزء.

(5) عهد المرينيون تنصيب ولاتهم من فئة الوزراء أو المرشحين لهذا المنصب، ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج7، ص356 .

(6) ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص 175.

(7) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج7، ص356 .

(8) لم يكمل العام حتى عاد أميرها أبو عبد الله ثانية من المغرب حيث سرحه الأمير أبو عنان بغرض وقوفه في وجه والده السلطان أبي الحسن ومنعه من العودة ليظفر بقيادة الدولة المرينية ودعمه بالمال وكان عند وعده فمنع المؤونة عن السلطان أبي الحسن عند مروره بسواحل بجاية وحكمها بين (749-753هـ/1348-1352م) ، أنظر أخباره في : **المصدر نفسه**، ج6، ص527، 532.

(9) يزعم هذا الوالي أنه من نسب علي بن يوسف أمير صنهاجة اللمتونية ، **المصدر نفسه**، ج6، ص 533.
عين من السلطان أبي عنان بعد احتلاله لبجاية 753هـ/ 1352م وسيطرته على المغرب الأوسط ويتخلى عنها واليها أبي عبد الله للمرة الثانية بطلب من السلطان المريني"على اليأس والكره" رغم الخدمات التي قدمها هذا الأمير للمرينيين ، فقد تعاون مع السلطان وقبض على

موسى بن براهيم اليزناسي[2]	753-754هـ/1352-1353م.		ابن خلدون: 6 /534
أبو عبد الله محمد بن أبي عمر[3]	754-756هـ/1353-1355م.		ابن خلدون: 534/6، 388-386/7
عبد الله بن علي بن سعيد	756-758هـ/1355-1356م[4]	سخطه ونكب به السلطان أبو عنان[5]	ابن خلدون: 535/6-539، الزركشي، 94
يحي بن ميمون بن مصمود	758-760هـ/1356-1358م.	ثارت عليه غوغاء بجاية[1]	ابن خلدون: 539/6-542، ابن قنفذ :175،الزركشي: ص 99

أحد الأمراء الزيانيين وبعث به لأبي عنان عند دخوله تلمسان ليكون مصيره تسريحه الى المغرب واقطاعه مكناسة ، أنظر : ابن خلدون : **المصدر السابق**، الصفحة نفسها.

([1]) وعلى رأسهم زعيم صنهاجة منصور بن ابراهيم بن الحاج والمولى فارح وهو تعبير عن رفض الوجود المريني ببجاية ، أرجع الى : **المصدر نفسه**، ج6، ص533 ، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص207 .

([2]) وهو من طبقة الوزراء وقد ولاه السلطان أبو عنان على قبيلة سدويكش ، ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص534 ، واليزناسي من الأسر المغربية التي خدمت البلاط المريني ومنه الشيخ عبد الرحيم اليزناسي الذي دخل بجاية ودرس بها ، ترجم له الغبريني : **المصدر السابق**، ص223 ، ومنها القاضي أبو إسحاق ابراهيم تولى القضاء لدولة السلطان المريني أبي العباس (ت 796هـ/1393م) أنظره : الناصري : **الإستقصا لدول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ط 1، دار الكتاب، الدار البيضاء ، 1997، ج2، ص75 .

([3]) ذو أصول عربية من المهدية كان جده في خدمة السلطان المستنصر الحفصي تقلد عدة م ب ن حاجبا للوالي موسى بن ابراهيم وكانت كل الأعمال التي يقوم بها الوالي تحت أنظاره، ويقود العمليات الحربية حتى تعدت سلطته سلطة الوالي مما يجعلنا نعتقد أنه السلطة الأولى في بجاية ، أنظر تاريخه عند : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج 6، ص534-535 ، ج7، ص386-388.

والمرجح أنه نفسه الذي يسمية يحي بن خلدون (أبو عبدالله بن محمد التميمي) الذي كان حاجبا للسلطان أبي عنان وتوفي سنة756هـ/1355م وهو أمير على بجاية وقد نكب به السلطان كما ذهب إليه الأخوان بن خلدون، العودة للتفصيل الى : **المصدر نفسه** ،ج6، ص539 ، يحي بن خلدون : **بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد** ، تحقيق : عبد الحميد حاجيات ، المكتبة الوطنية ، الجزائر، ج1، ص132 ، محمد ابن مريم : **البستان في ذكرالأولياءوالعلماء بتلمسان**، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ص228.

([4]) يجعل الزركشي سنة 755هـ/1354م تاريخ توليته : **تاريخ الدولتين**، ص94، وهو أمر غير معقول فكيف يعين والوالي ابن أبي عمر لم يتوفى الا في بداية 756هـ/1355م على رواية بن خلدون المعاصر للأحداث، وفي اعتقادي أن السلطان أبا عنان عين ابن أبا عمر على بجاية ليكلف موسى بن إبراهيم (الوالي السابق) كقائد عسكري لإخضاع قسنطينة التي فشل في دخولها سنة 756هـ/1355م وليس 755هـ/1354م كما أورد الزركشي، ثم أعاد الكرة ثانية سنة 757هـ/1356م، أنظر : **المصدر نفسه**، ص94-95 ، ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص535 .

([5]) بعد أن شكاه موسى بن إبراهيم إلى السلطان أبي عنان متهما أياه بتحاذله في حربه ضد قسنطينة، **المصدر نفسه**، ج6، ص539

يتضح من مصير الولاة المرينيين أن أهل بجاية لم يرق لهم الزائر الجديد فثاروا على اثنين منهم واغتالوهما وربما لم تسمح لهم الظروف بالإطاحة بالآخرين لقوة شكيمتهم وخوفهم من البطش الذي يلحقهم جراء ذلك و هذا ما حدث فعلا مع الوالي عمر بن علي ليعود البجائيين ويعلنوا ولائهم لأبي عنان المريني رهبة لاشغفا فيهم[2]، وباءت ة المرينية بالفشل في المرحلة الأولى وزال حلم بسط نفوذهم على كامل المغرب والذي كان يراود سلاطينهم دوما بعد أن تعثر في القيروان أمام القبائل العربية[3]، ثم تلاه الفشل الثاني وعودة أبي عنان الى فاس مكرها 758هـ/1356م[4].

4- تشكل الفضاء السياسي للمدينة :

اثنان وثلاثون واليا عهد إليهم ولاية بجاية، هؤلاء كما بيناه لم يخضعوا كلهم لطاعة السلطان في المركز فمنهم من خرج عن طاعته معلنا الاستقلال والجدول التالي يوضح أصناف هؤلاء وعلاقتهم بالحاضرة مجيبا على إشكالية المصطلح التي طرحتها سابقا :

اسم الوالي	أمير[5]	أمير ثم سلطان	والي ثم سلطان	والي وسلطان	الفترة	المدة بالتقريب
أبو اسحاق بن أبي زكريا			X		677-678هـ/1277-1278م[6] 678-682هـ/1278-1283م.	4+1=5سنوات
أبو زكريا بن أبي اسحاق	X				683-700هـ/1284-1300م.	17سنة
أبو البقاء خالد (ابنه)	X	X			700-709هـ/1300-1309م. 709-711هـ/1309-	9+2 =11 سنة

([1]) قبض عليه السلطان أبو اسحاق بعد دخوله بجاية 760هـ/ 1358م ثم سجن بتونس وبعدها أرسل الى المغرب ، أنظر : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص542 ، الزركشي : **المصدر السابق**، ص99 ، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص175.

([2]) وصل بهم الحد الى قتل المولى فارح753هـ/1352م الذي تحالف معهم للقضاء على الوالي المريني وبعثوا برأسه السلطان أبي عنان بتلمسان أنظر : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6 ، ص533 .

([3]) معركة القيروان التي انهزم فيها أبا الحسن المريني أمام القبائل العربية أوائل محرم 749هـ/ أفريل1348م وكانت سببا في انسحابه من إفريقية، للتفصيل أنظر : ، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص170 ، الزركشي : **المصدر السابق** ، ص85 ، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص 199، المطوي : **المرجع السابق**، ص 393-394 .

([4]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص98 .

([5]) وكما شرحت سابقا فالمقصود بالأمير هو الوالي الذي أعلن الإنفصال عن المركز وكون حفصية غربية عاصمتها بجاية.

([6]) التاريخ الأول في بجاية والثاني في تونس.

					1311م.	
أبو يحي أبو بكر	x	x			712-718هـ/1312-1318م. 718-747هـ/1318-1346م.	6 + 29=35سنة
أبو اسحاق بن أبي يحي			x		760-765هـ/1358-1363م.	5سنوات
أبو العباس أحمد المستنصر				x	767-772هـ/1365-1370م. 772-796هـ/1370-1393م.	5+ 24 = 29سنة
المجموع	3	2	2	1		

الجدول : الولاة البجائيين الخارجين عن طاعة المركز

ومن الجدول يمكنني أن أبدي الاستنتاجات الآتية :

انفصلت بجاية عن المركز لتكون عاصمة للدولة الحفصية في جهتها الغربية[1]، وقع ذلك ثلاث مرات مع الأمير أبي زكريا إبن أبي إسحاق (683-700هـ/1284-1300م) الأمير الطموح[2]، الذي فر من بجاية ناجيا بنفسه من الدعي بن أبي عمارة كما أسلفنا ساعده على ذلك حزمه ويقظته وصرامته[3] وتقديره لأهل العلم[4]، وإخلاص رجاله في إدارة بجاية وأكوارها لتمتد إلى تدلس[5]، الجزائر وقسنطينة سنة 684هـ/1285م تحت نطاقه ويبايعه منصور بن فضل متولي منطقة الزاب[6] سنة 693 هـ/1293م[7]، ليتسع المجال الجغرافي الى الأوراس وواد ريغ[8]

([1]) يسميهم بعيزق بالمتمردين، **بجاية في العهد الحفصي**، ص88، وإن كانوا كذلك فما هي أسباب ذلك التمرد ؟ وكيف نسمي ما قام به الحفصيون أنفسهم مع الموحدين لما اقتطعوا افريقية ، لتطرح إشكالية الانفصال والتشتت إلى دول بل إمارات تتطاحن فيما بينها والتي عرفها التاريخ الإسلامي مشرقا ومغربا عبر14قرنا .

([2])كما يسميه المطوي : **المرجع السابق**، ص268 .

([3]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص661 .

([4]) **المصدر نفسه** ، ج6، ص448 .

([5]) وهي دلس حاليا وتقع الى الغرب من بجاية على بعد 70 ميلا أي حوالي 106 كلم، نقلا عن الإدريسي : **المصدر السابق**، ج1ص259 ، وقال الحميري بأنها مدينة بحرية كبيرة، **الروض المعطار**، ص132.

([6]) والزاب مركزه أصبح بسكرة في الفترة الحفصية التي تتبعها مقرة وطبنة ، العودة الى : شمس الدين المقدسي : **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ط1، تحقيق : محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2003.

([7]) ابن خلدون : **المصدر السابق** ، ج6 ، ص 453، 588.

([8]) برونشفيك : المرجع السابق ، ج1، ص140.

ومنطقة الجريد التونسي وجزء من جنوبه [1]، على حساب السلطنة الحفصية الشرقية التي تقلص نفوذها وزادت بفضل ذلك الجباية حتى أنه تلقب بـ" المنتخب لإحياء دين الله"[2] وضرب النقود باسمه[3]، و قد عبر البعض عن الفضاء السياسي والعلمي الذي حصل في عهد هذا الأمير بقوله "وفرضت بجاية نفسها على حوض المتوسط بتجارتها وشهرتها العلمية "[4]، وللقضاء عليه وضم الجهة الغربية التي ضاهت قوتها نظيرتها في تونس وخرجت عن الطاعة عقد السلطان في الحاضرة تحالفات مع المرنيين والزيانيين لكسر شوكة بجاية وإخضاعها دون جدوى[5].

يتولى بعده ابنه أبو البقاء خالد (700-711هـ/1300-1311م)[6] ويواصل قيادة السلطنة الحفصية الغربية لكن بأقل حدة، حيث حاول التقرب مع الحاضرة محاولة منه لتليين العلاقات وقطعا للزبون عنه [7]، فأرسل أحد أفراد عائلته وقاضي بجاية أبا العباس الغبريني إلى السلطان أبي عصيدة بتونس سنة 701هـ/1301م لكن هذه الوساطة فشلت في ظل تصاعد الوشايات داخل البلاط البجائي والتي راح ضحيتها الغبريني سنة 704هـ/1304م[8]. لم يمنعه ذلك من عقد المعاهدات مع الممالك كما حدث مع ملك أرجونة سنة 709هـ/1309م[9].

يعلن الأمير أبو يحي أبو بكر الاستقلال بالثغر الغربي جاعلا بجاية عاصمته من 712هـ/1312م إلى 718هـ/1318م[10] في ظل استمرار التحرشات الزيانية ببجاية سنوات 713هـ/1313م، 715هـ/1315م، 718 هـ/1318م[11] وما بعدها[1]، بمعدل مرة لكل سنة ووضعت بجاية تحت الحصار الدائم على عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني لكنه فشل في دخولها لجلدة أهلها وموقع المدينة المتميز[2].

([1]) Mouloud Gaid : *Op.cit.*,p. 92.

([2]) ابن خلدون: **المصدر السابق** ، ج6 ، ص449.

([3]) حسب برونشفيك فإن هذا القب ضربه على النقود، وهو برأيي دلالة على الإستقلال المالي وعلامة من علامات الملك، **تاريخ افريقية**، هامش 84، ج1، ص 134.

([4]) Mouloud Gaid : *op.cit.*, p.93

([5]) للتفصيل في التحرشات الزيانية والمرينية ببجاية أرجع الى : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6 ، ص458-459 ، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص134.

([6]) تولى ولاية قسنطينة على عهد والده ، ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص461.

([7]) **المصدر نفسه**، ج6، ص462.

([8]) **المصدر نفسه**، ج6، ص462 ، وسأتطرق لذلك في الفصل الثالث بالتفصيل.

([9]) وتخص التمثيل القنصلي والفنادق ببجاية علما أن أرجونة كان لها قنصل في بجاية قبل هذا التاريخ ، ونصت بتسخير ملكها لسفنتين حربيتين وضعتا تحت تصرف أبي البقاء يتدخلان في حالة تعرض مدينة الجزائر التابعة له إلى أي إعتداء ، نقلها برونشفيك ،ج1، ص508 عن : *Traité de paix et de commerce concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge*, Paris , 1886. -Mas-Latrie :

([10]) ذكر ابن قنفذ أن نهاية ولايته ببجاية كانت سنة 717هـ/1317م رغم أن كل المصادر أجمعت على سنة 718هـ/1318م وهو الأصح لأن أبا بكر لم يبايع سلطانا إلا بعد وفاة أبو يحي زكريا اللحياني في نفس السنة ، **الفارسية**، ص160، وينظر : ابن الشماع : **المصدر السابق**، ص85-86، ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص 482.

([11]) برونشفيك : المرجع السابق، ج1، ص 162.

خروج روج الواضح الذي أبدته بجاية حيال السلطة المركزية رد عليه السلطان في تونس بعقد تحالفات للإطاحة بهؤلاء، كما حدث أيام السلطان أبي عصيدة (694-709هـ/1295-1309م) الذي اتخذ من المرينيين ذراعه الأيسر لضرب بجاية وإسقاط السلطة الحاكمة بها كمحاولة لإعادتها إلى الحضيرة الشرقية[3]، وقد اعترف ابن خلدون بهم سلاطين فهو يلقبهم بهذا اللقب دون غيره في حين لايطلق ذلك في الفترة التي كانت تابعة للحاضرة تونس وسما الوالي أبا يحيى أبا بكر بالسلطان[4]، ولم يذكره لا بالأمير ولا بالوالي في اعتقادنا اعترافا بقيادته للإقليم الغربي مستقلا بدولته لنجده سلطانا على كامل الحفصية بعد دخوله تونس ومبايعته سنة 718هـ/1348م.

وجدت أربع ولاة بجائيين صاروا سلاطين اثنان من الأمراء ومثلهم من الولاة، بداية من الوالي أبي اسحاق بن أبي زكريا (677-678هـ/1278-1279) ليبايع سلطانا بعد دخوله تونس بالقوة وخلعه للواثق[5] في ربيع الأول 678هـ/ جويلية 1279م،[6] ثم الأمير السلطان أبا البقاء خالد الذي ورث الحكم عن والده أبي زكريا بن أبي إسحاق الذي استقل بالثغر الغربي كما بيناه وقد بويع أبو البقاء سلطانا سنة 709هـ/1309م وحكم لمدة سنتين[7]، ليضطر إلى التنازل عن العرش لابن اللحياني 711هـ/1311م[8]، وبعد سبع سنوات من ذلك سيصل الوالي السلطان أبو يحي أبو بكر إلى نفس المنصب ويبايع سنة 718هـ/ 1311م في الحاضرة [9] ليوحد المملكة وتطول مدته لتمرسه على دواليب الحكم ببجاية أيام كان سلطانا على السلطنة الحفصية الغربية التي قادها من 711-718هـ/1311-1318م، لنصل إلى ثاني وال سلطان انطلق من بجاية ليصل إلى تونس وهو أبو العباس

([1]) للتفصيل في هذه التحرشات أرجع إلى : - Sidi Ahmed Bouali : *Les deux grands sièges de TLemcen*, Entreprise Nationale du Livre , AIger,1984, p. 99-113.

وأنظر : عبد الحميد حاجيات : **أبوحموموسى الزياني**، ص17-19، 114-116، وكذلك : عبد العزيز فيلالي : **تلمسان في العهد الزياني**، موفم للنشر ، الجزائر، 2002، ج1، ص40 - 43 .

([2]) **المرجع نفسه**، ج1، ص41.

([3]) ابن خلدون : **المصدر السابق**،، ج6 ، ص461.

([4]) **المصدر نفسه**،ج6، ص478 .

([5]) أبو زكريا يحي الواثق ابن المستنصر (675-678هـ/1276-1279م)، أنظر أخباره عند : **المصدر نفسه** ، ج 6 ، ص433-435 ، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص134-137 ، الزركشي : **المصدر السابق**، ص40-42 ، ابن الشماع : **المصدر السابق**، ص74-75 ابن أبي دينار : **المصدر السابق**، ص160.

([6]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص 435.

([7]) عن أخباره أنظر : **المصدر نفسه**، ج6، ص461-470 ، الزركشي : **المصدر السابق**، ص59-60، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص157-159 ، ابن الشماع : **المصدر السابق**، ص 84-85، إبن أبي دينار : **المصدر السابق**، ص164.

([8]) هو أبو يحيى زكريا بن أحمد ولد بتونس سنة 651هـ/1253م وأمه تدعى محرم مسيحية بويع سلطانا سنة 711هـ/1311م وتلقب بالقائم بأمر الله إلى أن أجبر على التخلي سنة 718هـ/1318م وافته المنية بالأسكندرية 727هـ /1326 ، أنظر : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص475-482، الزركشي : **المصدر السابق**، ص61، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص159، ، ابن الشماع : **المصدر السابق**، ص85-86، التجاني : **الرحلة**، ص24 . ابن أبي دينار : **المرجع السابق**، ص164-166.

([9]) ابن خلدون : **المصدر السابق** . ج6، ص483 .

أحمد المستنصر الذي بويع سنة 772هـ/1370م ليوحد الدولة واستمر كذلك إلى أن توفي سنة 796هـ/1394م[1].

كل ذلك ينم عن قوة بجاية وتفوقها على العاصمة تونس عسكريا بدليل أن هؤلاء الولاة خاضوا حروبا ضد السلطة القائمة وأطاحوا بها في مرات عديدة، وتفوق إداري بحسن إدارتهم لبجاية وكسبهم لولاء رعيتهم وتسخير القبائل العربية والبربرية إلى صفهم بعد أن كسبوا بعض شيوخ تلك القبائل التي كدرت صفو السلطة في أحيان كثيرة علما أن اثنان من الولاة السلاطين أعلنوا الانفصال عن المركز ليزداد يقينا أن ذلك الانتصار كان جراء حسن تدبير شؤون السلطة بالمدينة في حين راحت تتهاوى في المركز على وقع ضربات القبائل الثائرة .

المصادر تحدثت عن سلطان واحد اتخذ من بجاية مقرا له لتسيير شؤون الدولة والمقصود به أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر (760-770هـ/1360-1369م) الذي استقر ببجاية من 761-766هـ/1361-1364م أي لمدة خمس سنوات[2]، بعد تخليصها من السيطرة المرينية وكان ابن تافراجين يوافيه بما يحدث في العاصمة تونس ولعل السلطان أعجب بالمدينة وأهلها وأدرك أهميتها خاصة وأنها خرجت ولمدة قاربت ثلاث عشرة سنة عن حضيرة المملكة الحفصية بعد تمكن المرينيين منها[3] فاتخذها عاصمة سياسية لدولته وجمع بين يديه منصب الوالي والسلطان في آن واحد.

تعيينات هؤلاء لم تحظ دوما برضى أهل بجاية، ففي حالات عديدة أوردتها المصادر رفض سكان المدينة ولاة عينوا من السلطان بالحاضرة رأوا فيهم عدم أهليتهم لحكمهم خاصة في وجود من هم أهل لذلك من أبناء الأسرة الحفصية الفرع البجائي المنشأ والمترعرع بين ظهرانيهم، فردوا على سبيل المثال الوالي أبا حفص بن أبي بكر المعين سنة 747هـ/1346م لينصبوا وليهم وابن مدينتهم الأمير أبا عبد الله بن أبي زكريا عليهم ولمخافة إثارة البلبلة ولدرء الفتنة و افق السلطان أبوبكر عليه دون تردد[4]، والهدف من تفضيل العنصر المحلي من الأسرة على المبعوث من تونس كان في رأي أحد الباحثين وعلى حد تعبيره تكوين عائلة حاكمة من الولاة المحليين[5]، لنصل إلى التساؤل حول مامدى قدرة الوالي على الإدارة دون ضغوط من تلك الأطراف؟

الملاحظ أن الوصاية المركزية على بجاية لم تمنع وصول بعض القادة العسكريين والموالي وحتى الموظفين الكبار لإدارة دفة الحكم فيها إن بطريق مباشر كما فعل الحاجب ابن غمر (ت 719هـ/1319م)[6] الذي استبد بالأمر

---

(1) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6 ، ص555-556 ، ابن قنفد : **المصدر السابق**، 177، الزركشي : **المصدر السابق**، ص106.

(2) اختلاف المصادر في تاريخ دخول بجاية بين 760هـ/1360م عند ابن قنفد ويجعلها ابن خلدون 761هـ/ 1361م و ينقل عنه ، و الأرجح ماذهب اليه ابن قنفذلأن المصدرجمعلى أنه مكث ببجاية سنوات حتى دخوله تونس 765هـ ، يراجع في الموضوع : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6ص442 ، 448 ، الزركشي : **المصدر السابق**، ص99 ، ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص175 ، ابن الشماع : **المصدر السابق**، ص105.

(3) من 748هـ إلى 761هـ/1347-1359م فترة الحكم المريني بها .

(4) للتفصيل يراجع : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6 ، ص 516-517، الزركشي : **المصدر السابق**، ص 78 .

(5) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص 111 .

(6) سأتناوله بالدراسة بشكل مستفيض عند الحديث عن علاقة الحجاب بالسلطة في الفصل الثالث فانظره هناك .

وسيطر على الجهة الغربية بما فيها قسنطينة وبجاية ليتخذ منها مقره ووصل به الحد إلى كتابة اسمه على السكة و لم يبقى للسلطان إلا الخطبة[1]، وقد كثرت أمثال تلك الأعمال من الانقضاض على الأمر دون الولاة الشرعيين خاصة في المراحل التي عانت فيها الدولة من كثرة الخارجين عليها، وترقى هؤلاء في المناصب وتدرجوا ليتحول بعضهم في مرات كثيرة إلى ولاة للمدن والأمصار[2].

آخر الولاة البجائيين واحتلال الإسبان للمدينة :

لا نمتلك بعد 882هـ/1477م[3] معلومات عن بجاية لغياب المصادر ونجد هذا الفراغ يمتد الى نهاية القرن 9هـ/15م[4]، والنص الوحيد الذي ملأ الفراغ من899هـ/1393م الى غاية سقوطها 915هـ/1510م يعود الى أبي علي ابراهيم المريني الموسوم بـ**"عنوان الأخبارفيما مرعلى بجاية"** من القرن 10هـ/16م نشره المؤرخ الفرنسي شارل فيرو *charles féraud*[5] الذي أشار الى أن بجاية كانت عبارة عن مملكة منفصلة عن تونس تحت إمارة الوالي أبي العباس عبد العزيز ابن السلطان أبي عبد الله محمد (899-932هـ/1494-1526م)[6]، ونرجح أن الوالي البجائي ولي مباشرة بعد تقلد والده الحكم وكذلك الأمر بالنسبة لأخيه أبي بكر والي قسنطينة، واستمر الصراع التقليدي بين المدينتين محاولا كلا منهم ضم أراضي الأخر ليتمكن أبي العباس صاحب بجاية من دخول قسنطينة 914هـ/1509م[7]، وفي غياب أميرها الذي استمر في مقاتلة القبائل لإخضاعها لسلطته كسدويكش ودريد وضد أشياخ القبائل المتمردة[8] من البربر والعرب[9] نة رمضان رف المناسب واحتلوا المدينة رمضان 915هـ/

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص484 .

([2]) برونشفيك : **المرجع السابق** ، ج2ص112، المطوي : **المرجع السابق**، ص561.

([3]) توقفت عند الوالي أبو فارس عبد العزيز بن أبي عمر الذي ولاه السلطان أبو عمرو عثمان (839-894هـ/1435-1488م) على بجاية سنة 859هـ/1454م ، أنظر : الزركشي : **المصدر السابق**، ص148 ،ولعله حكم إلى 882هـ/1477م ، ورجحت هذا التاريخ لأن المؤرخ يتوقف عنده دون ذكر لوال آخر رغم أنه أتى على جل الولاة المتوالين على المدينة ، كما أن السلطان أبا عمرو عرف بقوته وحزمه في تسيير الدولة وعرفت بجاية الاستقرارفي عهد هذا الوالي مما جعلنا نعتقد أنه احتفظ به واليا كل هذه المدة.

([4]) خاصة وأن المعلومات التي أوردها ابن أبي دينار شحيحة ومضطربة أحيانا، فبعد وفاة السلطان الحفصي أبوعمرو عثمان يخلفه أبي زكريا بن مسعود (ت 894هـ/1499م) ثم ابنه أبي زكريا يحي بن مسعود (895-899هـ/1490-1494م) والذي لم يشر اليه إبن أبي دينار وأرخ لوفاة والده بتاريخ ابنه (ت 899هـ/1494م) ومع حدة الصراع على من يحكم بين أفراد الأسرة الحفصية فأشكل عليه الأمر، خاصة في ظل الأحداث المتوالية في الأندلس وسقوط غرناطة 897هـ/1492م ، للتفصيل أنظر : **المؤنس**، ص181-182، برونشفيك : **المرجع السابق** ، ج1، ص306-307

([5]) «Conquête de Bougie», p. 245 et ss.

([6]) أنظر أخباره في : ابن أبي دينار ، **المؤنس** ، ص181-183.

([7]) Féraud *: op.cit.,p. 251*

([8]) ويقدم المريني شرحا مفصلا عن إبراهيم بن وادفل كأحد النماذج المتمردة على السلطة والذي كانت نهايته علي يد والي قسنطينة أبوبكر حيث قبض عليه وأرسل إلى قسطينة فسجن هناك ثم أعدم في الثاني من محرم عام 915هـ/1510م ، للتفصيل أنظر : *Ibid.*,p.251.

([9]) *Ibid.*, p. 251.

جانفي 1510 م بعد مقاومة مستميتة لأهل المدينة دفاعا عنها والتي استمرت لمدة عشرة أيام[1]، لينتهي حكم الحفصيين بها والذي دام 289 سنة هجرية/ 282 سنة ميلادية.

نخلص إلى أن تعيين الوالي يتم من قبل السلطان الا أن البعض منهم عينه أهل بجاية بالقوة خاصة العائلة الحفصية الناشئة ببجاية والبعض الآخر فرض نفسه، وتعددت انتماءاتهم السياسية إلا أن أغلبهم كان من الأسرة الحفصية خاصة أبناء السلاطين للتخفيف من حدة محاولات الاستقلال ببجاية، ويتم تجديد العهد للولاة الذين أثبتوا جدارتهم في منصب الولاية واستطاعوا أن يقوا الدولة شر الهجمات المتوالية عليها، ويتبين اهتمام السلطة المركزية ببجاية من خلال تعيينها لولاة أكفاء سببه أهمية المدينة وأعمالها وفوائدها الجبائية خاصة، تم تغييب السلطة للعنصر المحلي في الولاية و لم نجد إلا عنصرا واحدا فرض من أمير بجائي سرعان ما قضي عليه، كماوقف أهل بجاية ضد الولاة المرينيين واعتبارهم محتلين وغرباء والترحيب ببعضهم كان تحت الإكراه والضغط،، مع تكرر المحاولات الزيانية لدخول المدينة وإصرارهم على إخضاعها ينم عن مكانتها وأهمية مجالها الجغرافي وحيويته كفضاء لبني عبد الواد في المغرب الأوسط.

انفصال بجاية وتكوينها لسلطنة حفصية غربية وجعلها عاصمة لها وتكون الفضاء السياسي المتوسطي للمدينة واتخاذها لمظاهر الاستقلال المالي والسياسي والعسكري ووصول الولاة المحليين والأمراء سلاطينا يوحي بقدرة قيادتها المحلية على الزعامة ودلالة على قوتها وتفوقها على المركز.

تشكل الفضاء السياسي لبجاية ونفوذها عبر مجال يتسع ويضيق ضم في أقصى حدوده الجزء الغربي لكامل الدولة الحفصية عبر أهم المدن كقسنطينة والجزائر وبونة وبسكرة والزاب كله ووصل الى حد السيطرة على المغرب الأوسط بالتحكم في تلمسان وتهديد الدولة المرينية[2]، وقدرة الحكومة المحلية لمدينة بجاية كما يسميها فالريون[3] في ضبط وتسيير المنطقة التابعة لها خاصة القبائل الرحل الذين كانت لهم اليد الطولى على الجهات البعيدة عنها مما أجبر قيادتها الدخول في الوساطات مع شيوخ القبائل لاستمالتهم إلى صفها.

ثالثا : النخب البجائية وتشكل الفضاء العلمي للمدينة

بعد تأسيس بجاية الحمادية ولموقعها البحري الهام وانفتاحها شرقا وغربا توافدت الكثير من الهجرات من مختلف مدن المغرب الأوسط وأخرى خارجية من الأندلس والمغرب الأقصى والأدنى عليها، لتساهم كل النخب المستقرة ببجاية ذات الأصول المتعددة وبكل أصنافها في بروز بجاية المدينة التابعة للحفصيين التي ستساهم في صناعة القرار

---

(1) *Ibid.*, p. 251

(2) على عهد السلطان الحفصي الأول أبي زكريا بسيطرته على عاصمة الزيانيين تلمسان ودخولهم في طاعة الحفصيين وطلبه مراكش ، كل ذلك المجال كان تابعا سياسيا إلى بجاية حيث كان إبنه أبو يحي زكريا واليا عليها من 633- 646هـ/1235-1248م فبايعت السلطان أبا زكريا كلا من إشبيلية ومرسية وبني الأحمر وبقية المدن الأندلسية والمغربية، واستنجد أمير بلنسية به ضد الزحف المسيحي ، أنظر: ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص 385-397 .

(3) Valérian :*op.cit.*, p. 127.

السياسي في الفترة محل الدراسة بفضل نخبها السياسية ، كما أثرت المنظومة الفكرية والعلمية من خلال نخبها العلمية التي ستُكون مدرسة علمية بلغت ذروتها في القرون 7، 8، 9هـ/13، 14، 15م، فماهي الأصول الإثنية والجغرافية لهذه النخب؟ وما هي أصنافها ؟ ومن أين كانت تتزود بجاية بهذه النخب؟ هل كانت بجاية مركز استقطاب للنخب أم صانعة لها؟ وهل استطاعت هذه النخب خلق فضاء بجائي خارج حيزها الجغرافي أم بقيت رهينة له؟ وهل كان للفضاء السياسي تأثير على الفضاء العلمي وكيف؟

حاولت رسم خريطة بجاية السياسية والعلمية في الفترة الحفصية من خلال رصد جل النخب وبأصنافها المتنوعة التي أنتجتها بجاية أو استقطبتها من مناطق عدة باستخدام طريقة الإحصاء الكمي لهذه النخب كما أوردتها المصادر المختلفة من كتب التراجم والرحلات والتاريخ السياسي ليسهل علي عملية رصدها وقراءتها في إطارها التاريخي، والصعوبة التي صادفتني في هذا العمل هي كثرة المترجم لهم مما أوقعنا في إشكالية هل يتم الإحصاء أفقيا بغض النظر عن النوعية أم عموديا أي باختيار من كان لهم وزن سياسي وعلمي ؟ وما معيار البجائية في هذه النخب أهو الأصل والنشأة أم الاستقرارأو حتى مجرد العبور؟ أم يشمل كل ذلك؟ والإشكال الثاني هو سكوت المصادر وعدم ذكرها لأصول عدد كبير ممن ترجمت لهم مما صعب علي معرفتهم.

لكي تفي الدراسة الغرض وهو الشمولية واستبعاد الإقصاء لأن لكل هؤلاء دور في بجاية الحفصية حتى وإن قل، فإني فضلت انتهاج أسلوب الم الكلي لهذه النخب مهما كانت درجة فعاليتها بشرط توفرها على مواصفات النخبة التي أتيتُ عليها في الفصل الأول، وتجنبا للخلط بين العناصر البجائية الأصيلة والوافدة عليها سأورد بالأرقام وأفرق بينها لنتمكن من المقارنة لنصل إلى الإجابة على إشكال هام وهو هل كانت بجاية عالة على غيرها أم اعتمدت على رصيدها المحلي الذي راكمته التجربة السياسية والعلمية القَبلِية؟

1- الأصول الإثنية للنخب البجائية :

يظهر الجدول التالي الأصول الجغرافية لـ 255 شخصية نخبوية بجائية، اختلفت في تعدادها وأصولها :

العناصر الإجتماعية	العدد
العرب	102
البربر	83
الروم	2
الأفارقة	2
الفرس	1
غير معروفين	65
المجموع	255

سبرت المصادر التي تمكنت من الحصول عليها لهذه الفترة بأنواعها التراجم والطبقات، كتب الجغرافية والرحلة، التاريخ السياسي، لأقف عند 255 شخصية من النخب بمختلف أصنافها : سياسية، علمية، عسكرية، صوفية، شيوخ القبائل والتجار الكبار، والتي توزعت أصولها العرقية كما يوضحه الجدول السابق ويمكننا أن نبدي بعض الملاحظات عليه :

نلاحظ من خلال الجدول أن العرب يشكلون الأغلبية 102 شخصية ثم البربر في المرتبة الثانية 83 شخصية بينما نجد قلة العناصر الأخرى من الروم والأفارقة والفرس في حين لم نتعرف إلى خمس وستين من المترجم لهم وهو عدد معتبر بالمقارنة مع العدد الكلي وهو الإشكال الذي سبق وأن أشرت إليه.

العرب يحتلون الصدارة يعود ذلك في تقديري لعدة أسباب أهمها : بناء بجاية بين 457- 460هـ/1064-1068م وتشجيع الحكام الحماديين الهجرة إليها لتعميرها بعد خراب القلعة[1] ، فتتوافد عليها الجموع سواءً كأفراد أو كأسر وبيوتات عربية لتتمركز في المدينة الجديدة التأسيس القديمة المرسى، وهو ما يؤكده ابن خلدون عند تعرضه للدعي بن أبي عمارة أنه "من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة"[2] مما يوحي بوجود هجرة جماعية، وربما يكون ذلك وراء تَشَجُع بقية القبائل العربية في المغرب الأوسط خاصة المناطق القريبة إلى حد ما كالزاب ومايليه بالتحرك نحوها في ظل الإغراءات المقدمة من البيت الحمادي كإسقاط الجباية[3] ، وساهمت الظروف الصعبة التي كانت تعانيها المناطق الداخلية كتراجع التجارة الداخلية وغياب الأمن في ذلك التوافد، أقطعتهم الدولة أحواز المدينة بأراضيها الخصبة ليتحكم هؤلاء في بسائطها ويسودوا فيها فسيطر الذواودة[4] على بجاية وقسنطينة إلى الزاب وما وراءها[5]، وصولا إلى القرن 8هـ/14م لتصبح بجاية وما تابعها "دار العرب إلا ممتنع الجبال"[6]، كما كان للعنصر العربي المنتقل من الأندلس نحو بجاية خاصة القرن 7هـ/13م وما بعده دورا هاما في إصباغ الغلبة للعرب في بجاية علما أن القبائل العربية الأولى القيسية واليمنية دخلت الأندلس مع وبعد الفتح لتشكل فضاءً سياسيا وعلميا عبر القرون[7]، والذي سيكون رافدا هاما أمد العدوة المغربية عامة وبجاية على ب خب بنخب سيكون لها تأثيرا ذا أبعاد متعددة، أضف إلى ذلك أن العالم الوسيط لم يكن يعترف بالحدود السياسية مما سهل

---

(1) الإدريسي : المصدر السابق، ج1ص261 .

(2) ابن خلدون : المصدر السابق، ج6 ، ص 441 .

(3) المصدر نفسه ، ج6 ، ص332 .

(4) الذواودة هم أبناء داود بن مرداس بن رياح من قبيلة رياح العربية الهلالية . المصدر نفسه، ج6، ص43 – 44 .

(5) المصدر نفسه ، ج6، ص 46 .

(6) المصدر نفسه، ج6، ص 134، وفي أمر تمكن العرب من الضواحي البحائية أنظر : جورج مارسي : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى ، ترجمة : محمود عبد الصمد هيكل ، منشأة المعارف، مصر (دت) ، ص327 .

(7) عن القبائل العربية الفاتحة لبلاد المغرب وتكويناتها أنظر : يوبة مجاني : أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، منشورات جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2003 ، ص ص 1 – 17 .

حركة التنقل عبر دار الإسلام[1]، وبقاء باب الهجرة من بلاد المشرق مفتوحا على قلة الوافدين . ليشكل كل هؤلاء النواة الأولى التي ستؤدي بعد قرنين من بناء المدينة إلى التفوق العددي للعنصر العربي ببجاية وفق نسق تصاعدي.

أما العنصر البربري الذي يأتي ثانيا من حيث اترتيب بـــ 83 شخصية فيعود ذلك الى أن بجاية أصلا منطقـــة توطن قبائل زواوة [2]، وهو ما أقره ابن خلدون بأن بلاد بجاية وقسنطينة هي دار زواوة وكتامة[3]، سكنوا الجبـــال وأمدوا المدينة بعدد معتبر من النخب العلمية، دخول البربر الإسلام منذ فتح المغرب ومصاهرتهم للعـــرب وإتقـــان مجموعات منهم اللغة العربية وتفاعلهم مع العنصر العربي ومع ما يدعوا إليه الإسلام من التعـــارف والخـــروج في طلب العلم، كل ذلك جعلهم يرتحلون نحو بجاية الحضرية لإكمال دراساتهم، كما شكلت قبيلة هنتاتة البربرية التي قامت عليها الدولة الحفصية والقبائل الموحدية البربرية من المصامدة المتحركة من المغرب الأقصى نحـــو إفريقيـــة[4] والمدن الحفصية تعدادا بربريا آخرا سنراه في بجاية يشكل نمطا سياسيا مثلته المشيخة الموحدية نموذجا .

2- الأصول الجغرافية :

تعددت الأصول الجغرافية للنخب البجائية بأكثر من سبعة مناطق، وزعتُها على القرون الثلاثـــة مـــن 7 إلى9 هـــ/13-15م فترة الدراسة محاولا المقاربة فيما بينها لمعرفة ما إذا كان هذا التعداد سيرجع بالمزايا أو السلبيات على تاريخ بجاية في العهد الحفصي أم لا؟ وما هي أسباب اختلاف الأصول الجغرافية من منطقة إلى أخرى؟ والجـــدول الموالي يوضح ذلك :

المنطقة	عدد النخب	توزيعها حسب القرون		
		ق7هـــ/13م	ق8هـــ/14م	ق9 هـــ/15م
المغرب الأوسط	156	69	49	38
الأندلس	63	37	26	0
المغرب الأقصى	16	9	4	3
تونس	11	5	3	3
المشرق	2	2		
صقلية	1	1		
بلاد فارس	1	1		

([1]) عمارة علاوة : «مكانة الفكر العقدي في إنتاج العلوم والمعارف في الجزائر الحمادية»، ص219 .

([2]) زواوة بطن من بطون قبيلة كتامة البرنسية كما ذكر ابن حزم (ت 456هـــ/1063م) وذهب ابن خلدون نفس المنحى ناقلا عنـــه ، رغم أنه اضطرب فذكرهم مع البرانس مرة ومع البتر أخرى ، ومواطنهم من بجاية إلى دلس يسكنون المناطق الـــوعرة ، وعـــددهم كـــثير وبطونهم عدة ، أنظر عنهم : ابن حزم : **جمهرة أنساب العرب** ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، دار المعـــارف، مـــصر، 1948، ص466 ، وأنظر : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6 ص 168، 196، 200 ، وكذلك : عبد الوهاب بن منصور : **قبائل المغـــرب** ، المطبعـــة الملكية ، الرباط ، 1968، ج1، ص320.

([3]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص 134.

([4]) حسين مؤنس : الموجع السابق. ج2، ص233.

	2	3	5	غير محدد
44	**84**	**127**	**255**	المجموع
%17,25	**%32,94**	**%49,80**		النسبة %

الجدول : الأصول الجغرافية للنخب البجائية

من خلال الجدول يمكن إبداء ملاحظات على توزع النخب عبر القرون الثلاثة، فنلاحظ أن القرن 7هـ/13م استحوذ على حصة الأسد من مجموع النخب بـ127 شخصية أي ما نسبته حوالي 50% في حين يتوزع النصف الآخر على القرنين المتبقيين، ويعود ذلك الى التدفق الذي عرفته بجاية خاصة من مدن المغرب الأوسط أو من الأرياف والضواحي التابعة لها والتي شكلت في مجموعها 69 شخصية، بالإضافة إلى عدد معتبر من الأندلسيين 37 فردا والذين دخلوا بجاية، ولمكانة المدينة التي تأتي ثانية من حيث الأهمية السياسية والعلمية بعد تونس الحاضرة وحاجة السلطة الحفصية الجديدة إلى هؤلاء وتشجيعها لهذا الإنسياب مما جعلها تستقطب هذا العدد المرتفع، تصدروا في الخطط والوظائف الدينية والإدارية التي وفرتها السلطة لهم، كما يعود الفضل للغبريني (ت 704هـ/1304م) في هذا القرن من خلال ترجمته لعلماء بجاية بمختلف توجهاتهم العلمية فأتى لوحده على 98 ترجمة كانت سببا في الحصول على هذا الكم من النخب[1].

القرن 8هـ/14م يتراجع العدد بقليل إلى 84 شخصية بنسبة حوالي 33%، وربما يعود ذلك للاضطرابات السياسية التي عرفتها بجاية في ظل التحرشات الزيانية لدخول المدينة والاحتلال المريني لها كما سبق وأن تناولته، فعلى سبيل المثال خرج الفقيه أبوعمران المشدالي (ت 745هـ/1344م) من بجاية أثناء الحصار الزياني لها سنة 726هـ/1325م نحو الجزائر ومنها إلى تلمسان[2]، هذا الحصار كان من نتائجه صعوبة ظروف المعيشة من قلة السلع وغلاء الأسعار، ولعل ذلك وراء كثرة المرتحلين من طلاب العلم البجائيين نحو تونس والذين قدرتهم بـ 34 شخصية وبلاد المشرق بنحو 35، كما قل عدد المنتقلين من الأندلس والمغرب الأقصى وبقية المناطق عن القرن السابق مما خفض من النسبة، لكن ما لاحظناه هو أن 84 منهم كان أغلبهم نخبة نوعية بجائية الأصل والتكوين.

القرن 9هـ/15م أقل القرون عددا بـ 44 شخصية فقط بما نسبته 17% ويعود هذا التراجع إلى تغير وجهة البجائيين فأصبحت كلية بلاد المشرق وبروز أسر علمية في دمشق والقدس بلاد الحجاز ومصر كما حصل مع أسرة المشادلة ببلاد الشام وأسرة عبد القوي بالمدينة ومكة لجع بجاية تدريجيا يا في غياب الاستقرار الأمني بها وتدهور الحالة الاقتصادية[3]، وكثرة الخارجين على السلطة من القبائل في غياب بسط الدولة لنفوذها على الأطراف، وهو مانلمسه من خلال نوازل المازوني (ت 883هـ/1478م) والونشريسي (ت 914 هـ/1508م)

([1]) علما ان الغبريني ترجم في كتابه لـ 108 من الفقهاء والأولياء وغيرهم، لكنني استبعدت من هم خارج فترة الدراسة ممن أتى عليهم من القرن 6هـ/12م لأحصل على ثمان وتسعين ترجمة أفادتني في الموضوع.

([2]) يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج1 ص، 130 ،217-218 .

([3]) أبو القاسم سعد الله : **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10إلى14 الهجريين** ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1995، ج1، ص32 .

التي تصب بعضها في حكم الإسلام في هؤلاء الخارجين عن السلطة[1]، وفقدان الفقهاء الذين يأخذون عنهم وتفضيل طلاب المغرب الأوسط لمراكز أخرى بديلا عنها، كما نسجل اندماج الأندلسيين في المجتمع البجائي، والذين لم يبق لهم بالأندلس سوى غرناطة والتي سقطت في ربيع الأول 897هـ/ فيفري 1492م[2] . أما عن الأصول الجغرافية فتتعدد وتختلف من حيث الكمية كالآتي:

المغرب الأوسط :

يأتي أولا بـ 156 شخصية تتناقص تدريجيا على مدى القرون الثلاثة، ولعل هذا التبوء العددي للنخب المنتسبة له أرجعه إلى أن المدينة أصبحت حاضرة علمية وسياسية شدت إليها النخب من مختلف مدن المغرب الأوسط ولايضاهيها في هذه المكانة أي مركز أخركما أن القرب الجغرافي عاملا ساهم في انتقال طلاب العلم إليها من القرى والأكوار المحاذية لها ليتم الانتقال بعدها إلى الحواضر الأكثر اجتذابا في عالم وسيط كان الارتحال في طلب العلم وملاقاة الشيوخ أساسا ينشده كل من يريد التفوق خاصة على يد البجائيين الذين علا كعبهم وزانت الآفاق شهرتهم كناصر الدين المشدالي (ت 731هـ/1330م) و أحمد بن إدريس البجائي (ت بعد 760هـ/ 1359م) "فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها"[3]، وقد أحصيت 33 شخصية استقرت ببجاية قدمت من مختلف حواضر المغرب الأوسط موزعة كالآتي :

المدينة	القلعة	الجزائر	تلمسان	قسنطينة	مليانة	فرجيوة	دلس، ميلة، بسكرة، المسيلة، الشلف،
العدد	8	6	4	3	2	2	وهران، بونة،سطيف : (1 لكل مدينة)

الجدول : تعداد النخب القادمة من حواضر المغرب الأوسط نحو بجاية.

القلعة رغم أفول نجمها إلا أننا نجد الغبريني يترجم لبعض من الذين ولدوا بها ثم انتقلوا إلى بجاية،كأبي عبد الله بن صمغان (ق7هـ/13م) الذي ولد بها ثم رحل إلى بجاية التي تعلم بها وتولى نيابة قضاء الأنكحة بها، ويبدو أنه عاش نهاية العهد الموحدي وبداية الحفصي لقراءة أحد أحفاد بني عبد المؤمن عليه[4]، وكذلك الشأن بالنسبة لأبي العباس المعافري (ق7هـ/13م) على قول الغبريني "وارتحل إلى بجاية ولقي بها أفاضل"[5]، في حين ولد البعض الآخر

([1]) ونقل كل منهما فتوى الإمام ابن عرفة في جواز قتال أمراء العرب بالمغرب الأوسط سنة 796هـ/1393م من المفسدين، أنظر الفتوى عند : المازوني : **الدرر المكنونة في نوازل مازونة** ، تحقيق، حساني مختار، منشورات مخبر، طوطات، جامعة الجزائر، 2004، ج1، ص309-311، وكذلك : الونشريسي : **المصدر السابق**، ج5، ص153.

([2]) علي حسين الشطشاط : **نهاية الوجود العربي في الأندلس**، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة ، 2001، ص62، وللتفصيل في سقوط غرناطة وبشكل مفصل، يراجع : واشنطن إيرفنغ : **أخبار سقوط غرناطة** ، ترجمة الدكتور هلالي يحي نصري ، مؤسسة الإنتشار العربي ، لندن ، 2002.

([3]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص497 .

([4]) الغبريني : **عنوان الدراية** ، ص189.

([5]) المصدر نفسه، ص265.

بها ممن كانت هجرة أسرهم قبل القرن السابع الهجري كأبي محمد بن عمر القلعي (ت 669هـ/1270م) الذي تعلم بها ثم اشتغل بالتدريس فيها[1].

جبال بجاية وأعمالها كانت خزانا لا ينبض أمد المدينة بنخب علمية وبطلاب علم سيديع صيتهم بعد أن صقلت المدينة وغيرها من المراكز العلمية مواهبهم وعددهم تسعة وثلاثون شخصية موعهم كما يبرزه الجدول، هؤلاء كان لهم دور في تفعيل الحركة العلمية بالمدينة في ظل تراجع التوافد الأندلسي والمدن المجاورة لبجاية، ويقر ابن خلدون بهذه الظاهرة، فبقدان المدينة لمكانتها وتراجع عمرانها تلجئ إلى الأطراف لحفظ وجودها وضمان استمرارها الحضاري حيث يقول " أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائما "[2] ويقدم المثال عن بجاية، مما سينتج عنه تلاقحا حضاريا بين المدينة والبادية ليستمر هذا الإمداد إلى غاية القرن 10هـ/16م والجدول التالي يبرز دينامية الظاهرة :

المنطقة	زواوة بصفة عامة	مشدالة	بني غبرين	بني حسن	بني وغليس	بني يجر	بني مليكش	منتانة	المجموع
العدد	17	8	6	2	2	2	1	1	39

الجدول : تعداد النخب القادمة من الأطراف.

تحتل قبيلة زواوة بصفة عامة الريادة بـ17 شخصية دون حساب مشدالة التي هي بطن من بطونها وبنو غبرين[3] وبني مليكش كما ذكر بن خلدون[4]، ليتم التعرف إلى 39 شخصية قدمت من مختلف القبائل والبطون البربرية التابعة لبجاية ليشكلوا رفقة النخب الآتية من المغرب الأوسط ما تعداده 72 من النخب وهو رقم معتبر إذا قارنته بالمجموع الكلي 156 شخصية.

الأندلسيون :

المرتبة الثانية بعد المغرب الأوسط كانت من نصيب الأندلسيين بـ 63 شخصية علمية وسياسية فلماذا هاجر هؤلاء الى بجاية ؟ وهل تواترت تنقلاتهم إليها عبر القرون الثلاثة ؟ الإشارة الأولى الى وجود أندلسيين في بجاية تعود الى ماذكره البكري قبل تأسيسها بأنها آهلة بالسكان الأندلسيين[5]، ليكون هؤلاء نواة تواجد إخوانهم فى بجاية مابعد التأسيس، وقد ترجمت بعض المصادر لفقهاء وصوفية أندلسيين استقروا في بجاية خلال القرن 6هـ/12م

([1]) **المصدر نفسه** ، ص93 .

([2]) **المصدر نفسه**، ص 319 .

([3]) وآيت غبرين هي عزازقة اليوم.

([4]) على اختلاف في بني مليكش الذين يقال كذلك أنهم من صنهاجة ، أنظر : ابن خلدون : **المصدلر السابق**، ج6 ص168-169.

([5]) المسالك والممالك، ج2، ص242.

وذكر الغبريني منهم : عبد الحق الإشبيلي (ت 582هـ/1186م) الذي رحل إلى بجاية وتخيرها وطنا[1]، أخذ عنه الكثير من الأندلسيين ببجاية أثناء مرورهم بها نحو المشرق أو أثناء عودتهم أومن الذين اتخذوها مقامهم[2]، لكننا نجد أن المغرب الأقصى أكثر اجتذابا للأندلسيين بدل الأوسط لما عاشه هذا الأخير من صراعات (الحماديين في آخر أيامهم الموحدون الطارئ الجديد، العرب الهلالية ،بنو غانية ما بعد 580هـ/1184م) هذه الهجرة التي سنجدها تتفاوت من قرن إلى آخر فلماذا ذلك؟

القرن 7هـ/13م استقر ببجاية 37 أندلسيا، وقد كان لموقعها البحري الجذاب وأهميتها السياسية كثانية بعد تونس سببا في إقبالهم عليها واستقرارهم بها[3]، ومنطقة عبور نحو المشرق قصد الحج أو الدراسة والتجارة أحيانا، منهم من كانت تتوقف رحلته عند بجاية أثناء الذهاب والبعض عند العودة من رحلته نحو المشرق, كما أنه وعلى رأي محمد طالبي فإن بجاية عرفت انهيارا ديمغرافيا كبيرا ملأه الأندلسيون في تلك الفترة[4]، والسبب الرئيس برأيي كانه حف المسيحي الذي عرفته المدن الأندلسية فسقطت الواحدة تلوى الأخرى، قرطبة 633هـ/1236م، وحُصرت بلنسية من قبل ملك أرغون رمضان 635هـ/1238 فبعث صاحبها إبن مردنيش يستغيث بالسلطان الحفصي أبي زكريا وكان ابن الأبار حامل الرسالة فأنشد أمامه يستصرخه لإنقاذها بسنيته المشهورة مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها قد درسا[5].

والتي سقطت كذلك في أيدي المسيحيين عام 635هـ/1238م[6]، ثم طليطلة محرم 478 هـ/ أفريل 1085م[7] فاضطر أهل تلك المدن إلى الخروج عن بلادهم نحو دار الإسلام هذا لخروج الذي اعتبره الفقهاء واجبا، وفتوى الونشريسي في الذين ندموا على الهجرة مما وجدوه من ضيق الحال واضحة حيث أفتى بوجوب الهجرة ولاعذر

([1]) الغبريني : **المصدرالسابق**، ص73، ويذكر ابن الزبير أن خروجه من الأندلس كان بنية الحج فلم يقدر فاستقر ببجاية ، أنظر : **صلة الصلة** ، القسم الأخير، ص5 .

([2]) والأمثلة عن هؤلاء كثيرة ، كعلي بن أحمد بن خيرة (ت 634هـ/1236م)، ويوسف بن محمد البلوي الذي قال عنه ابن الزبير أنه "أخذ في طريقه ببجاية عن أبي محمد عبد الحق الإشبيلي" ، ويوسف بن عبد العزيز الخزرجي (ت 625هـ/1227م) ، أنظر ترجمتهم على التوالي في: **المصدر نفسه**، ص 134-217،135-219، 222-223، وأحمد بن عبد الجليل بن عبد الله (ت 555هـ/1160م) الذي سكنها لمدة ، أنظر ترجمته عند : ابن الأبار : **التكملة لكتاب الصلة**، ج1، ص60 .

([3]) إبراهيم جدلة : السكان الحضر بإفريقية من ق13م إلى ق16م ، نشر ضمن : **الديمغرافية التاريخية المغربية في تونس والعالم العربي** ، دار سراس للنشر ، تونس ، 1993، ص86.

([4]) عمار طالبي : «الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين »، **منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، تونس، 1982، ص171.

([5]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص385 ، وقد استجاب السلطان للنداء وبعث بأسطول من الطعام والأسلحة والمال لكنه لم يصل بسبب سقوط بلنسية وأفرغ حمولته بدانية.

([6]) قبلها سقطت ميورقة 627هـ/1229 ثم قرطبة 633هـ/1236 فإشبيلية 646هـ/1248م والمرية 666هـ/1268م ، أنظر : بعيزق : **المرجع السابق**، ص370 .

([7]) للتفصيل في أسباب سقوط طليطلة يراجع : هاشم عبد الرؤوف، **رسالة ووصية من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشرالهجري**، ج1، مؤسسة الرسالة ، بيروت، 1994، ص65-76.

للمستطيع وهو ظالم لنفسه إن لم يخرج[1]، ليكون للعدوة المغربية عموما والدولة الحفصية خصوصا النصيب الأكبر[2] لقوتها واستفحالها على رأي بعض المؤرخين[3]، وستكون بجاية ملاذا آمنًا للكثير من هؤلاء، فقد أحصيتُ أكثر من 15 مدينة جاءت منها تلك النخب أخذت بلنسية ومرسية النصيب الأكبر بـــ 12 شخصية بالتساوي ونفسر ذلك بكثرة نخبهما أصلا وسابقتهما العلمية بين مدن الأندلس، ثم إشبيلية وشاطبة بـــ4 شخصيات فغرناطة والمرية ثلاثة شخصيات لكل مدينة، ومدن أخرى تتراوح بين (1،2)، ونلاحظ أن نخب مدن شرق الأندلس كانت الأكثر توافدا على المدينة ويعود ذلك ربما لأسبقية بني حفص في حكم البعض من المناطق التابعة لهذه المدن أيام الموحدين وحسن سيرتهم فيها[4]، ويعلل حسن حسني عبد الوهاب هذا التدفق الأندلسي الهائل نحو البلاد الحفصية بتشجيع السلاطين الحفصيين لهم وفتح الباب أمامهم للاستفادة من خبراتهم العلمية والإدارية وتقليدهم وظائف الدولة[5] خاصة في بدايتها حيث كانت بحاجة ماسة إليهم، كما أن تحضر بجاية وكثرة عمرانها أراه سببا هاما علما أن النخب المهاجرة اعتادت العيش في مدن أندلسية أكثر عمرانا ولولا ذلك لما اختاروها موطنهم عكس ماذهب إليه جورج مارسي في حكمه العام على المغرب الأوسط بأنه " لا تجد الحضارة أرضا خصبة للنمو به"[6]، لتتحول تلك النخب بمختلف تخصصاتها (فقهاء، أدباء، شعراء، صوفية) إلى بجاية حاملة معها تراثها ومعارفها دون رجعة، والذين سيضيفون إثراءً علميا ونهضة ثقافية لبجاية .

من القراءات المتعددة للمصادر المختلفة يمكن أن نصنف الداخلين إلى بجاية في القرن 7هـ/13م بأشكال ثلاثة، المستقرين بها إلى وفاتهم كأبي بكر محمد بن محرز الذي قرأ بالأندلس ودخل بجاية بعد 640هـ/1242م بها وكان على قول الغبريني "معظما عند أهلها محترما" لعلمه وتقواه وهو مايدل على تقدير البجائيين لهم الى وفاته ببجاية 655هـ/1257م[7]، وأبو عثمان سعيد الأنصاري الذي رحل من بلنسية الى بجاية وأقرأ بها وأروى إلى أن

([1]) أنظر فتوى الونشريسي في هذا الشأن في : **المعيار** ، ج2 ، ص119-132.

وأنظرها مفصلة ومقتبسة من المعيار في رسالته المسماة : **أسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر**، تحقيق: أبي يعلى البيضاوي، نشر ضمن سلسلة كشف خبايا الزوايا من تراث السلف وكنوز الخلف،ص5-50.

([2]) عن دور المغرب في احتضان المهاجرين من الأندلسيين وحفظ تراثهم وثقافتهم ، أنظر : دنون طه : **المرجع السابق**، ص399 وما بعدها.

([3]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6ص 438.

([4]) أنظر في الموضوع : محمد الباجي بن مامي : **المرجع السابق**، ص 253.

([5]) حسن حسني عبد الوهاب : **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية** ، جمع وإشراف : محمد العروسي المطوي ، مكتبة المنار ، تونس ، 1972، ج3 ص 264.

([6]) جورج مارسي : **المرجع السابق**، ص336

([7]) أنظر ترجمته المفصلة عند كلا من : ابن الأبار : **تحفة القادم** ، تحقيق : إحسان عباس، ط1 ، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1986، ص 206، وكذلك : **التكملة لكتاب الصلة** ، ج2، ص153-154، الغبريني : **المرجع السابق**، ص241-243 ، الصفدي : **الوافي بالوفيات**، ج1، ص161- 163، التجيبي : **برنامج التجيبي** ، تحقيق : عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1981، ص37، : التنبكتي : **كفاية المحتاج**، ص293، المقري : **نفح الطيب** ، ج2ص66، ابن مخلوف : **شجرة النور الزكية**، ص194.

توفي ودفن بباب أمسيون جمادى الأول 654هـ/ماي 1256م[1]، والمؤقتون الذين استقروا بها لمدة مزاولين للوظائف الإدارية كالحجابة والأشغال، أو الدينية كالتدريس والخطابة والإمامة أوالقضاء ثم انتقلوا إلى تونس أو بلاد المشرق[2]، كما أن القلة منهم من البيوتات الأندلسية الطارئة على بجاية والحفصية كالأعلام وأهل البيوت كانوا على علاقات طيبة مع سلاطنيها[3]، حيث تبوءوا مكانة هامة في الدولة كعائلة ابن سيد الناس، وأول من حط ببجاية منهم أبو بكر محمد (ت 659هـ/1260م) تولى بها صلاة الفريضة والخطبة بالجامع الأعظم، ولما ذاع صيته طلبه السلطان المستنصر إلى بلاطه[4]، والذي سيكون لأولاده وأحفاده شأن في الدولة الحفصية، ثم العابرون والذين كان لبعضهم التدريس ولو لمدة قصيرة فالغبريني يقول بأنه سمع من أحمد بن محمد الغرناطي (ت 692هـ/1292م) حينما حط ببجاية[5]، مما يدل على أن إقامته بها لم تطل، وكذلك الشأن بالنسبة لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشاطبي (ت 691هـ/1291م) الذي لقيه كذلك عند ذهابه إلى المشرق ثم أثناء عودته[6].

القرن 8هـ/14م ينقص العدد عن القرن السابع الهجري، فقد أحصيتُ 26 أندلسيا دخل بجاية، لكن يبقى العدد معتبرا إذا علمنا أن هجرة القرن السابع الهجري كانت أكثر عددا في كل المناطق المهاجر إليها دون استثناء ثم أخذت في التراجع، وأعتقد أن هذا الاستمرار في الإقبال على بجاية وعدم انقطاع الهجرة إليها يعود إلى سابقة إخوانهم الذين حضيوا بالاحترام من أهلها وبالرعاية من السلطة بتقديمهم في المناصب السياسية والعلمية وتخصيصهم باعتناء ربما لم يكونوا يتوقعونه[7]، وربما أغرقهم ما يسميه إبراهيم حركات الترقيات الوظيفية والمناصب[8]، حتى أصبح لهم دورا سياسيا بارزا في البلاط البجائي، كإبراهيم بن الحاج النميري (ت768هـ/1366م) الذي تولى خطة الإنشاء والكتابة بها[9]، وأبو الحسين بن سيد الناس (ت 690هـ/1291م) الذي تولى الحجابة للأمير أبي زكريا بن أبي إسحاق سنة 684هـ/1285م ووصفه بن خلدون وصفا ينم عن إخلاصه للأمير أبي زكريا بن أبي إسحاق في السلطنة الحفصية الغربية وقدرته على تسيير شؤون البلاط " فقام بها ورسخ ملكه وملك بنيه بهذه الناحية الغربية"[10]، كما أن بعضهم مر ببجاية ودرس على شيوخها كأبي البركات

([1]) الغبريني : **المصدر السابق** ، ص245 ، الصفحة نفسها، أنظر ترجمته في : ابن قنفذ : **كتاب الوفيات** ، تحقيق ، عادل نويهض ، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1982، ص323، ابن الجزري : **غاية النهاية**، ج1، ص303.

([2]) عن الذين مروا على بجاية والمهام التي باشروها فيها أنظر : الغبريني : **المصدر السابق**، ص 101، 129، 172، 209 224، 228، 246، 251، 259...الخ.

([3]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6ص438.

([4]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص247.

([5]) **المصدر نفسه**، ص301.

([6]) **المصدر نفسه**، ص126.

([7]) محمد رزوق : **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17م** ، ط3 ، افريقيا الشرق ،1998، ص 47.

([8]) إبراهيم حركات : **مدخل الى تاريخ العلوم بالمغرب حتى القرن9هـ/15م**، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، 2000، ج1، ص 76.

([9]) ابن الخطيب : **الإحاطة**، ج1،ص342.

([10]) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج6ص 449 .

البلفيقي (ت771هـ/1369م) الذي جلس إلى التلقي على الشيخ ناصر الدين المشدالي[1] والفقيه محمد بن شبرين (ت747هـ/1346م) الذي درس بها على الشيخ أبي العباس الغبريني وناصر الدين المشدالي[2].

القرن 9هـ/15م، الظاهرة الملفتة من خلال الجدول هي أنني لم أجد ولا شخصية دخلت بجاية في هذه الفترة، علما أن الأندلس لم يعد فيها للمسلمين سوى غرناطة مما قلل من العدد كما أن ظروف بجاية السياسية تكون وراء تفضيل هؤلاء للمشرق، لكننا ولحسن الحظ نمتلك مصدرين يؤرخان لنهاية القرن 9هـ/15م يشيران إلى اجتياز الكثير من أهل غرناطة بعد سقوطها 897هـ/1492م لية، وهي إ شـا ر منهم بجاية، وهي إشارة المريني الذي ذكر أنهم سكنوا خارج السور القديم من الناحية الشرقية للمدينة مستغلين البساتين المحاذية للوادي الكبير و هو الاجراء الدي اتخده السلطان عبد العزيز بعد ان لم يستطع إيجاد مكان لهم داخل المدينة [3] مما يدل على عدم قدرة المجال الحضري البجائي على استيعابهم في ظل نمو ديمغرافي كبير عرفته بجاية رغم كبرها كما وصفها العبدري[4] جراء الهجرة الداخلية من المغرب الأوسط أو الخارجية التي كان الأندلسيون نموذجا حيا لها، يعضد ذلك مصدرا تاريخيا يعود لأندلسي شارك في المعارك الأخيرة قبل سقوط غرناطة ذكر أنه بعد احتلالها رحل البعض من الغرناطيين إلى بجاية بقوله : "وخرج ما بقي من أهل غرناطة في خمسة عشر يوما إلى بجاية"[5]، ويستشف من كلامه أن العدد كان كبيرا لخروج كل من بقي بالمدينة إلى بجاية في مدة خمسة عشر يوما متتالية دون انقطاع، ومن خلال الوثيقتين يبدو أننا أمام هجرة بسطاء الأندلسيين في ظل غياب كلي للنخبة، هؤلاء العوام ربما لم تسمح لهم ظروفهم الصعبة بالخروج من غرناطة قبل احتلالها، مع احتمال أنهم كانوا من الفلاحين، حيث استغلوا البساتين المحيطة بالواد الكبير[6] للزراعة وهي الجهة التي كانت عامرة ومشتهرة بالإنتاج الفلاحي على حد وصف حسن الوزان[7]، يسكنون أحياء خاصة بهم في بجاية خارج المدينة على حد قول برونشفيك الذي رأى أنهم لم يندمجوا في المجتمع البجائي[8]، ولكن هذا الحكم مبني على حادثة متأخرة وهي سُكناهم خارج سور المدينة و لم يكن ذلك لعدم قدرتهم على الاندماج بقدر ما كان فقدان الحيز الجغرافي الذي يأويهم داخل أسوارها لارتفاع ديمغرافيا المدينة، كما أن النخب الواردة على المدينة سكنت داخلها فالغبريني يذكر أن الفقهاء الأندلسيين كانوا يجتمعون ببيت ابن محرز كل مرة[9]، وهذا مما يجعلنا نقدر كذلك بأننا أمام هجرة للبسطاء وبالأخص من الفلاحين .

([1]) ابن فرحون : **المصدر السابق**، 386.

([2]) ابن الخطيب : **المصدر السابق**، ج2، ص242.

([3]) *Féraud : Conquête de Bougie par les Espagnols, p, 252.*

([4]) بقوله " مدينة كبيرة حصينة منيعة"، أنظر : العبدري : **الرحلة المغربية** ، تحقيق : أحمد بن جدو، ص24.

([5]) مجهول : **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**، تحقيق : محمد رضوان الداية ، ط2 ، دار الفكر ، دمشق ، 2002، ص121.

([6]) واد الصومام حاليا .

([7]) **وصف إفريقيا**، ج2، ص50 .

([8]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1،ص417 . وينقل عنه أحمد محمد الطوخي نفس الفكرة مؤكدا على عدم إندماج الأندلسيين مع أهل بجاية ، أنظر : **العلاقات الأندلسية الحفصية**، ص73-74.

([9]) عنوان الدراية ، ص242.

المغاربة :

ما عدا الأندلسيين فإن العناصر المتبقية ببجاية أخذت صبغة الأقلية ويرجع البعض ذلك إلى اشتداد التنافس بين الدول القائمة على مصادر الثروة مما نتج عنه ضعف العلاقات الثقافية بينها باستثناء التواجد الأندلسي[1]، علما أن الوجهة كانت المشرق لا غير وهو ما نلمسه بالنسبة للمغرب الأقصى، حيث لم أحص سوى 16 شخصية علمية وسياسية، جاء الغبريني على ستة منها، البعض مر ببجاية نحو المشرق للدراسة أو الحج أو بنية الاستقرار والتجارة، فيحدثنا عن أبي العبا س بن عيسى الغماري (ت 682هـ/1283م) الذي رحل إلى المشرق ثم عاد واستقر ببجاية ليشتغل فيها بالتدريس ويتولى القضاء مرتين[2] ، وعن أبي عبد الله بن شعيب الهكسوري (ق7هـ/13م) الذي مر بها إلى المشرق ثم استقر بتونس[3]، وكذلك الشأن بالنسبة لأبي محمد عبد الله بن محمد الأغماتي (ق7هـ/13م) الذي سكنها ودرس بها وو القضاء ببعض أكوارها[4]، وقد زاول التدريس من المغاربة ببجاية بالإضافة إلى هؤلاء كل من أبي سعيد بن تونارت الدكالي (ق7هـ/13م) وأبي زيد عبد الرحيم اليزناسني[5] الذي"وصل بجاية واشتهر بها وعكف على التدريس"[6]. حط بها كذلك الكثير من العلماء الذين رافقوا أبا الحسن المريني في حركته الكبيرة إلى إفريقية لبسط النفوذ المريني على كامل المغرب عام 748هـ/1347م، حيث جلب معه عددا معتبرا من الفقهاء الذين مروا على بجاية أثناء رواحهم ومجيئهم وقد درس بعضهم في مساجدها ولو لمدة قصيرة كشيخ العلوم العقلية

([1]) إبراهيم حركات : **مدخل إلى تاريخ العلوم** ،ج1، ص89.

([2]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص112-113, وأنظر ترجمته عند : ، التنبكتي : **كفاية المحتاج**، ص35 ، القرافي : **المصدر السابق** ، ص48 , ابن مخلوف : **المرجع السابق**، ص201، محمد المنوني : **ورقات عن حضارة المرينيين** ، ط2 ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ،1996، ص457.

([3]) الغبريني : **المصدر السابق** ، ص174.

([4]) **المصدر نفسه**، ص196.

([5]) وقعت تصحيفا اليزناتني عند الغبريني ص 223، وفي ترجمته عد إلى : القرافي : **المصدر السابق**، ص136، إبن مخلوف : **المرجع السابق**، ص 185، المنوني : **المرجع السابق** ، ص457 .

([6]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص223.

الفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي (ت 757هـ/1356م)[1] الذي مكث بها شهرا فقط درس فيها علوما كثيرة على رأسها الفقه مركزا على مختصر إبن الحاجب[2] في الفقه[3] وآخرون كثيرون لا يسع المقام لذكرهم[4].

أما الشق الثاني من النخب القادمة من المغرب الأقصى فكانوا من السياسيين، استحوذ شيوخ الموحدين على الجزء الأكبر منها والذين ينحدرون من القبائل الموحدية، انتقل هؤلاء من المغرب الأقصى إلى تونس في بداية الدولة لطلب سلاطين بني حفص لهم لأسبقيتهم في التوحيد ومناصرتهم لصاحب الدعوة ابن تومرت ثم حاجة بنو حفص لهم في إدارة شؤونهم لما عرف عن هؤلاء الشيوخ من تمرس وحنكة إدارية فائقة وهروبا من الاستبداد الذي مورس على هذه الطبقة من السلطان الموحدي العادل ثم المأمون[5]، كل تلك العوامل كانت سببا في انتقالهم إلى البلاط الحفصي الذي استقبلهم وأسند إليهم المناصب الحساسة في الحاضرة والمدن الأخرى، فكان نصيب بجاية على ما دونته مصادر تلك الفترة شيوخا وصلوا إلى منصب والي بجاية كأبي هلال بن محمد الهنتاتي (ت 673هـ/1260م) ثم إبنه محمد (ت 679هـ/1280م)، كما كان لأبي عبد الله الهنتاتي (ت 866هـ/1461م) وهو شيخ للموحدين ببجاية دورا فعالا في القضاء على الثائر أبي الحسن عام 856هـ/1452م[6]، تقلدوا كذلك الحجابة كأبي محمد بن تافراجين الذي باشرها ببجاية سنة 741هـ/ 1340م وكان كبيرا للموحدين بها[7]، مشكلين جبهة وقفت في وجه الأندلسيين الطامحين.

([1]) وهو أبوعبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي من أصل تلمساني، درس بها ثم انتقل إلى مصر والشام ، العراق وبلاد الحجاز، شيخ العلوم العقلية ، توفى بفاس 757هـ/1356م ، أنظر ترجمته في : ابن مرزوق : **المسند**، ص266-267، يحي بن خلدون : **بغية الرواد**، ج1، ص120، عبد الرحمن بن خلدون : **الرحلة** ، ص513-514 ، ابن حجر العسقلاني : **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** ،ط2، تحقيق محمد عبد المعيد خان دائرة المعا ف رة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند، (دت)، ج5، ص 13-14، ابن القاضي : **جذوة الإقتباس** ،ص 305 ، ، التنبكتي : **نيل الإبتهاج** ، ص413، المقري : **نفح الطيب** ، ج5، ص244 ابن أبي مريم : **البستان**، ص214-216، السراج : **الحلل السندسية في الأخبار التونسية** ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1985، ص599، جورج مارسي : **تلمسان** ، ترجمة : سعيد دحماني ، ط2، دار النشر التل ، 2004، ص72-73.

([2]) هو عثمان بن عمر بن يونس يعرف بابن الحاجب (570-646هـ/1174-1248م) له مختصر في الفقه المالكي يسمى باسمه ، أدخله ناصر الدين المشدالي إلى بجاية وقرأه على طلبتها، تبحر في الفنون وكان الغالب عليه العربية كما ذكر ابن خلكان ، أنظره في : ابن خلدون : **المقدمة**، ص417 ، ابن خلكان : **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت، 1968، ج3، ص 348 وما بعدها .

([3]) ابن خلدون : **الرحلة**، ص52.

([4]) وقد ترجم ابن خلدون لكوكبة من هؤلاء الأعلام الذين حلوا بتونس وقرأ على بعضهم بها كأبي عبد الله محمد بن أحمد الزواوي وابن رضوان المالقي وأبو عبد الله بن مرزوق وغيرهم ، وقد غرق بعضهم أثناء العودة ، أنظر : **المصدر نفسه**، ص 40-64.

([5]) حسين مؤنس : **المرجع السابق**،ج2 ، ص289.

([6]) اضطرب الزركشي في تاريخ وفاته فجعلها 864هـ/1359م حينا وجعلها 866هـ/1461م حينا أخر ،أنظر : **تاريخ الدولتين**، ص146، وكذلك : ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص 139 ، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص289.

([7]) ابن خلدون : **العبر**، ج6 ، ص508 ، 515.

تونس كان نصيبها 11 شخصية، فيهم من دخل بجاية لفترة قصيرة وعلى رأسهم الشيخ الفقيه أبو القاسم بن زيتون (ت691هـ/1292م) لقيه الغبريني ببجاية ووصفه بأنه "رجل علم وجلال"[1]، وأبو محمد عبد الله بن أحمد (ق7هـ/13م) المدعو ابن الطير وهو من أهل إفريقية، الذي جمع بين التدريس والقضاء ببجاية وقد أحب أهلها وأثنى عليهم أمام السلطان الحفصي[2]، واستقضي بها أبو علي الحسن بن موسى (ق7هـ/13م) "فحسنت سيرته واستحسنت طريقته"[3]، وقرأ بها برهان الدين الصفاقسي (743هـ/1342م)[4] عن ناصر الدين المشدالي وأحمد بن إدريس البجائي، كما وصلتها من تونس شخصية سياسية تولت كتابة العلامة بها سنة 684هـ/1285م للأمير لأبي زكريا بن أبي إسحاق لما استقل بالثغر الغربي والمقصود به أبو عبد الله محمد بن أحمد التجاني (ت 710هـ/1310م)[5] وعُرف فيها بصدق اللهجة وصفاء الطوية والمقدرة على التحرير الراقي[6]، متنقلا بين بجاية وقسنطينة[7]، والبقية من التونسيين الذين استقروا ببجاية عينوا كقادة عسكريين (علوج) كظافر الكبير الذي ولي قسنطينة ثم بجاية [8]، والقائدان أحمد بن بشير ومحمد بن فرج (ق7هـ/13م) اللذان كان لهما دور عسكري إلى جانب ولاة المدينة في الدفاع عنها من الطامعين على تعدد أصنافهم[9] .

المشارقة :

العدد قليل لايتعدى الثلاثة، اثنان من العراق وواحد من بلاد فارس، مما يدل على أن وجهة المشارقة نحو الغرب الإسلامي كانت قليلة خاصة في الفترة محل الدراسة التي اعترتها الاضطرابات السياسية والعسكرية في

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص 115.

([2]) **المصدر نفسه**، ص194-195.

([3]) **المصدر نفسه**، ص256.

([4]) إمام وفقيه مالكي، إشتغل بالافتاء والتدريس، له عدة مؤلفات في إعراب القرآن وشرح ابن الحاجب ، أنظر : ابن تغري بردي : **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، تحقيق، محمد مصطفى وعبد القادر عطا، ط1،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر،مصر، 1398هـ/ 1977م، ج10، ص98.

([5]) وهو والد أبي محمد صاحب الرحلة ، عمل في ديوان الإنشاء بتونس ثم استدعي إلى بجاية ليتولى بها كتابة العلامة لأبي زكريا ، ثم العودة ثانية إلى الحاضرة ليتولى إحدى خطط ديوان الرسائل إلى أن توفي 710هـ/ 1310م ، إلا أن ابن الطواح يجعل وفاته سنة 712 هـ/1312م، وقد اختلط الأمر على محقق كتاب سبك المقال بين أبو عبد الله محمد هذا وابنه أبو محمد عبد الله (ت مابعد717هـ/1317م) علما أن أبا عبد الله حين يترجم له ابن الطواح يذكر أنه قرأ على إبن الأبار (ت 658هـ/ 1259م) في حين أن صاحب الرحلة ولد ما بين (670-675هـ/ 1272-1276م) ، أنظر : ابن الطواح : **المصدر السابق**، ص 165-168 ، والهامش رقم (3) ص 165من نفس الكتاب ، وأنظر ترجمة أبي عبد الله كذلك في : ابن الأحمر : **المصدر السابق**، ص65، مقدمة تحقيق **رحلة التجاني**، ص 17 ، محمد النيفر : **عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب**، المطبعة التونسية ، تونس، 1351هـ/1932م، ج1، ص79.

([6]) التجاني : **المصدر السابق** ، مقدمة المحقق، ص17.

([7]) حسن حسن عبد الوهاب : **ورقات عن الحضارة العربية بافريقية**، ج3 ، ص160.

([8]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص462، 486 ،487.

([9]) الزركشي : المصدر السابق، ص142.

الأندلس والمغرب، الثلاثة طبعت عليهم صبغة الرحالة المغامرين، تعرفت إليهم السلطة الحفصية القائمة لتسهيل تحركاتهم وتذليل الصعاب أمامهم والتعرف إليهم مخافة أن يشكلوا خطرا عليها.

أولهم أبو زكريا المرجاني الموصلي دخل بجاية في القرن 7هـ/13م وصفه الغبريني بأنه كان زاهدا ناسكا ومكاشفا من أهل الصلاح، كان يلتقي به بعض البجائيين للسماع منه بالمسجد الذي يسمى باسمه (المرجاني) بحومة اللؤلؤة فيتلقون عنه غرائب ويطلعون من أحواله على عجائب[1]، ودخلها من الموصل كذلك تقي الدين الموصلي (ت 638هـ/1240م)، قال عنه أبو الحسن الحرالي (ت 638هـ/1240م) بأنه من أساطين الحكمة[2]، صوفي على رأي أحد الدارسين[3]، جاب الكثيرمن البلدان فدخل بلاد التتار والترك وبلاد السودان وصقلية وجل بلاد المشرق، عرف عنه المقدرة على مناظرة القساوسة، أقام ببجاية مدة ولعله لم يطل البقاء بها لكثرة تنقلاته فارتحل منها إلى المغرب الأقصى، وسبب رحلاته حسب الغبريني كانت التأمل فيما خلق الله والتطلع إلى ملكوته[4].

من بلاد فارس وصل إليها الفقيه والمحدث والرحالة أبو العباس الشريف الجدلي من أصبهان (ق7هـ/13م)، سار على نفس المنوال فزار بلاد المشرق ودخل الصين والهند، ثم بلاد المغرب استقبله السلطان الحفصي المستنصر في بلاطه وسأله عن البلدان التي زارها فروى له الكثير من غرائبها، ونرجح أن هؤلاء المغامرين كانت السلطة متوجسة منهم، حيث يذكر الغبريني أن هذا الرجل كان يضمر طلب الإمامة والأخ الذي أوهم به السلطان بالبحث عنه لم يكن إلا الإمام المهدي، دخل بجاية وأقام بها مدة ومنها تحول إلى المغرب[5]، كان له علم بالمنطق والجدل على طريقة محمد بن محمد السمرقندي العميدي صاحب الطريقة المسماة باسمه (العميدية)[6]. دخل بجاية صقلي واحد وهو أبوزيد عبد الرحمن بن علي الصقلي (ابن الحجري) في القرن 7هـ/13م، أقرأ بها وعرف بأستاذيته وممن درس عليه من البجائيين محمد بن إبراهيم الوغليسي (ق 7هـ/13م) وقد أجازه[7].

العابرون (المؤقتون) :

الرحلة إلى المشرق تتم بالمرور عبر الكثير من المدن ومن بينها بجاية اعتبارا من أنها طريق آمن يسلكه أهل الأندلس والمغرب الأقصى ومن حواضر وقرى المغرب الأوسط وحتى إلى تونس من الذين ولوا شطرهم تجاهها قصد الاستقرار بالحاضرة في ظل تشجيع البلاط الحفصي لمختلف تلك النخب للاستفادة من خبراتها العلمية والحرفية، أثناء رحلة كل هؤلاء رواحا ومجيئا كانوا يحطون رحالهم ببجاية باعتبارها طريقا مفضلا وحاضرة

([1]) الغبريني : **عنوان الدراية** ، ص165.

([2]) **المصدر نفسه** ، ص166.

([3]) إبراهيم حركات : **المرجع السابق**، ج1، ص148.

([4]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص167.

([5]) **المصدر نفسه**، ص168.

([6]) إبراهيم حركات : **المرجع السابق**، ج1، ص395 .

([7]) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي ولي الخطابة بجامع القصبة ببجاية ، أنظر ترجمته عند : الغبريني : **المصدر السابق**، ص241.

و قضاءحو يحتهم لإكمال السفر أو من الرحلة و للجغرافيين الذين يجوبون مخ وبون مختلف بقاع الأرض

لأغراض متنوعة، الإشكالية التي صادفتها هي أن المصادر تسكت عن المدة التي قضاها المترجم لهم ببجاية وتكتفي بإشارات بسيطة قد تفهم أياما أو أشهرا مثل " أقام بها مدة، سكنها لفترة، عند مروره بها"، لكن هذه المدة كانت كافية للرواية أو السماع من أعلام بجاية قرأوا عليهم وأقرأوهم، وأخذا بكل الاعتبارات السابقة فقد أحصيت 24 شخصية فيهم من أخذ عنه البجائيين واستفادوا رغم قصر مكوثهم بها كـالآبلي (ت757هـ/1356م)[1]، وأبي القاسم بن زيتون (ت691هـ/1261م) الذي وفد على بجاية مرتين ودرس عليه الغبريني في إحداها[2]، وكوكبة أخرى من مناطق مختلفة دَرَست على شيوخ وأعلام بجاية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

المترجم له	البلد	شيوخه ببجاية	المصدر
برهان الدين الصفاقسي (ت743هـ/1342م)	تونس	ناصر الدين المشدالي ، أحمد بن ادريس البجائي.	بغية الوعاة، ج1،ص425
يحي بن عبدالله بن أبي عرفة اللخمي (ت719هـ/1319م)	المغرب الأقصى	ناصر الدين المشدالي ، أبو عبد الله بن غريون	الإحاطة : ج4 ، ص340-342
محمد بن شبرين (747هـ/1346م)	الأندلس	ناصر الدين المشدالي ، أبو العباس الغبريني.	الإحاطة :ج2، ص242
أبو عبد الله محمد بن الأزرق (ق8هـ/14م)	المغرب الأوسط(بسكرة)	أبومحمد الزواوي	العبر : ج6، ص53
محمد بن جابرالوادي آشي (ت749هـ/1348م)	تونس	أبو العباس الغبريني، محمد بن صالح الكناني، أبو الحسين بن السراج.	برنامج الوادي آشي : ص137، 188.
أبو البركات البلفيقي(ت771هـ/1369م)	الأندلس	ناصر الدين المشدالي	أوصاف الناس[3] :ص

دخلها من غير شيوخ العلم وطلبته أصناف أخرى كالأطباء، نذكر منهم الطبيب غالب بن علي بن محمد اللخمي (ت741هـ/1340م) أصيل غرناطة الذي قرأ الطب بمصر وأثناء عودته لبلده انتصب للمداواة ببجاية لفترة وجيزة[4].

([1]) ابن خلدون : **الرحلة** ، ص52.

([2]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص115، 308.

([3]) لسان الدين بن الخطيب : **أوصاف الناس-بر وا لطئ ات –** ، تحقيق : محمد كمال شبانة ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1423هـ/2002م ، ص28-30.

([4]) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج4 ، ص240.

مر على بجاية عدد من الرحالة الذين أفادونا عن الحركة العلمية والسياسية بها سواءً القادمون من الشرق أو من الميممين نحوه طلبا للعلم أو قصدا للحج أو جمعا بينهما،كما هو الشأن للرحالة العبدري الذي دخلها سنة 688هـ/1289م، وذكر بأنها مدينة حصينة ومنيعة وأعجب بمناظرها لكنه تحامل على الحركة العلمية بها كما هو الشأن لبقية حواضر المغرب الأوسط التي زارها في قوله "غاص بحر العلم الذي كان بها حتى عاد وشالاً"[1]، فكيف أصبح العلم بها مفتقرا ضعيفا والغبريني لوحده ترجم لـ 108 من الفقهاء والصوفية في القرن 7هـ/13م؟، وهل يستطيع إطلاق هذا الحكم على مدينة بجاية الكبيرة كما وصفها و لم يمكث بها إلا يومين فقط أثناء جوازه إلى المشرق؟ التقى فيها بالعلامة محمد بن صالح الكناني سابق الذكر ووصفه بنبل الرواية وأن له حظ من الدراية قرأ عليه جزء من موطأ الإمام مالك وقرأ عليه جزء من كتاب "الشمائل" للإمام الترميذي[2]، وكذلك أثناء عودته من الحج حيث التقى به ثانية فقرأ عليه برنامجه، كما سمع من أبي الحسين الرندي[3]، ومنها إلى ملالة حيث التقى بالفقيه ناصر الدين المـ وقال عنه أنه "لم يكن معتن بالرواية ولا له فيها حظ"[4] . ومكث بها ابن رشيد السبتي (ت721هـ/1321م)[5] لفترة تبدو كافية للسماع من عدد معتبر من أعلامها مبديا ثناؤه على مقدرتهم الفقهية وصفاتهم الخُلقية على عكس العبدري، كالمحدث عبد العزيز بن كحيلا (ت685 هـ/1286) الذي قرأ عليه بعض من علوم الفقه والحديث[6]، وسمع من أبي عبد الله محمد الكناني (ت690هـ/1291م) ووصفه بأنه الخطيب الصالح[7] وعلى ناصر الدين المشدال وسماه بالشيخ الإمام المفتي[8]. كما دخلها الرحالة ابن بطوطة في رجب 725هـ/ مارس 1325م و لم يبت فيها لما شاهده من ظلم حاجبها ابن سيد الناس على ما رواه[9]. ووصل إليها الرحالة خالد بن عيسى البلوي (ت 780هـ/ 1378م) في 13 جمادى الثانية 736هـ/ أكتوبر 1335م وتعرض لترجمة الفقيه أبي عبد الله محمد بن جعفر، سمع منه وقال عنه أن له إلمام بعلوم الرواية والدراية[10]، وحل بها الرحالة عبد الباسط بن

([1]) العبدري : **المصدر السابق**، ص 24.

([2]) **المصدر نفسه**، ص25 .

([3]) **المصدر نفسه** ، ص129.

([4]) **المصدر نفسه** ، ص131.

([5]) عن رحلة ابن رشيد وأجزائها المتوفرة والمفقودة وعن شخصيته أنظر ما كتبته عنها : نجاح صلاح الدين القابسي : «رحلة ابن رشيد»، **مجلة التاريخ العربي**، العدد 3، ص301 وما بعدها.

([6]) أحمد حدادي : **رحلة ابن رشيد السبتي** ، دراسة وتحليل ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب، 2003، ص 295-296.

([7]) **المرجع نفسه**، ص296.

([8]) **المرجع نفسه**، ص297.

([9]) روى ابن بطوطة في **رحلته أن الحاجب** البحائي ابن سيد الناس أخذ غصبا أموال أحد التجار التونسيين الذي وافته المنية في طريقه إليها فتكفل أحد أهالي الجزائر بإيصالها إلى ورثته بتونس، فغاضه هذا الفعل من الحاجب وقرر الرحيل عن بجاية رغم إصابته بالحمى على ماذكر، ابن بطوطة : **المصدر السابق**، بيروت، ص10.

([10]) تنسم من هوائها العليل وتغنى بحدائقها الخضراء حتى أنشد فيها قائلا :

ورياض كأنما نثرت فو ق ثراها حريرة خضراء

هلال المالطي قادما إليها من مصر ودخلها في ذي الحجة من عام 866هـ/ ماي 1461م، اجتمع فيها بأبي القاسم المشدالي المتوفي في نفس السنة وسمع منه الكثير، وسأله أبو القاسم عن وفاة إبنه أبي الفضل[1] للتحقق من الخبر فأجابه على ذلك[2] .

3- نخبة نسوية نادرة :

حسب برونشفيك فإن النساء في العهد الحفصي كنا غير متعلمات و لم يستثن نسوة الحضر من هذا الحكم، مبررا ذلك بأن المرأة في الإسلام ربة في بيتها ومستندا إلى مدرسة ابن عرفة الفقهية التي حظرت عليها الخروج في القرنين 8و9هـ/14و15م على حد تعبيره[3]، وربما كان ذلك سببا في غياب الكم المعتبر لنساء بجائيات كن لهن صفة التفرد العلمي والسياسي، رغم تلك الظروف إلا أنني أحصيت ثلاثة منهن وهو عدد قليل جدا من مجموع 255 شخصية، إلا أنني أرجح وجود نساء أخريات ربما كانت للبيئة وطبيعة تفكير المجتمع دور في تهميشهن وعدم الترجمة لهن في ظل كتابة تاريخية سياسية في عالم وسيط موجهة للحكام ورجال البلاط والقادة العسكريين كل ذلك كان سببا في هذه الندرة .

أولهن من القرن 7هـ/13م وهي الشاعرة عائشة بنت أبي عمارة[4]، جاء على لسان الغبريني أنها أديبة أريبة فصيحة لبيبة[5]، نسخت كتاب أبي منصور الثعالبي (ت 429هـ/1047م) الموسوم بـ «يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر» بخطها في 18جزءا، شاعرة مفوهة ومن شعرها البيتان اللذان بعثت بهما إلى الشاعر ابن الفكون القسنطيني

أعين النرجس الجنى نجوم واخضرار الرياض منها سماء

للثرى تحتها شيات وللما غطيط وللغصون لقاء

وقال فيها واصفا جمالها الطبيعي وزخمها العلمي "حاضرة البحر ونادرة الدهر، وموطن الفضلاء من أهل العصر الذي طبق ذكرهم تطبيق الغمائم ونم[كذا] كما نمت بأزاهرها الكمائم ولهم مآثر يتعاطى الركب حمياها ويتعاطى نوافح رياها وما أنا بمستوف مناقبهم ولو نظمت لهم زهر النجوم حلى" يراجع : البلوي : **المصدر السابق**، ص 153-157.

([1]) علما أن أبا الفضل توفي سنة 864هـ/1459م ووالده أبا القاسم في 866هـ/1461م، وسنقف عندهم بالتفصيل لاحقا ، أنظرهم في : ابن القاضي : **درة الحجال**، ص541 ، التنبكتي : نيل الإبتهاج ، ص538- ، 539

([2]) عبد الباسط المالطي : **الروض الباسم في حوادث لعمر والتراجم** ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرنكفورت، ألمانيا ، 1414- 1994، ص41 ، وكذلك عن هذه الرحلة إلى الغرب التي امتدت من 866-871هـ/1461-1466م ، يراجع : إلى : عمر عبد السلام تدمري : «مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط "حوادث العمر والتراجم العمر والتراجم»، **مجلة التاريخ العربي**، العدد17، ص111وما بعدها.

([3]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2 ، ص178-179.

([4]) هو الفقيه أبو الطاهر عمارة بن يحي الشريف الحسني، استقضي في بعض نواحي بجاية من القرن 6هـ/12م ألف في علم الفرائض وله ديوان شعر، أنظر ترجمته مفصلة عند : الغبريني : **المصدر السابق**، ص76-78 ، ، ابن ثغري : **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي** ، تحقيق : محمد أحمد أمين ، الهيئة المصرية للكتاب ،1994، ج7 ، ص328-329، القرافي : **توشيح الديباج**، ص 107، التنبكتي : **كفاية المحتاج**، ص 214.

([5]) الغبريني : المصدر السابق، ص 78-79.

وطلبت منه الزيادة عليهما أو معارضتهمافرد عليها بأن الاقتصار عليهما هو الصواب دلالة على بلاغة معناهما وإيفائهما بالغرض[1].

البجائية الثانية هي الفقيهة رقية بنت الشيخ عبد القوي بن محمد عبد القوي (ت816هـ/1413م)، خلف ثلاثة أولاد : محمد، أحمد، ورقية، التي كانت من فضليات النساء[2]، ولدت ونشأت بمكة وقرأت بها حتى وصلت إلى درجة عالية من العلم، حيث أجاز لها كبار الشيوخ كالحافظ العراقي والهيثمي وابن صديق والزين المراغي بعد 805هـ/1402م، وأجازت هي للإمام السخاوي[3] مما يدل على تفوقها خاصة وأنها من أسرة علمية (الوالد والأخوان).

المرأة الأخيرة الشيخة شمسي من بيوتات بني عبد الصمد تزعمت بطن بني يراثن وهو أحد بطون زواوة، أنجبت شمسي عشرة أولاد كانوا سببا قويا في زعامتها لبني قومها، وقفت في وجه السلطان المريني أبي الحسن رغم إغراءاته لها ولقومها بهدف بسط نفوذه على المنطقة، لكن هذه المقاومة لم تعمر طويلا وخوفا من بطشه بقومها بعد ما سمعت بما فعله بعرب بسكرة فإنها أقبلت على السلطان مقدمة فروض الطاعة تحت الإكراه مع بعض أولادها وقومها فأحسن صلتها وأجاز الوفد ورجعت بهم إلى موطنها[4] .

على قلة عددهن إلا أنهن تميزن أدبيا، فقهيا، وسياسيا مما يوحي على قدرة المرأة في المغرب الأوسط على التفوق في المجالات التي يعتبرها البعض حكرا على الرجل ورغم الظروف التي سبق ذكرها إلا أننا وجدنا ثلاثة نماذج من شتى التخصصات استطعن أن يحصلن على المشيخة العلمية والقبلية التي ارتبطت بالرجل في تلك الفترة.

4- توسع الفضاء العلمي البجائي :

مجموعة من العوامل تركت البجائيين يتجهون نحو المراكز العلمية والحضرية المنتشرة في العالم الإسلامي, أولها الرحلة في طلب العلم التي قال بها علماء الحديث للأخذ عن الشيوخ والمذاكرة على العلماء لتحصل لهم الملكة، والنظرة الأولية للشكل البياني الذي يوضح أعداد النخب البجائية نجد أنها انتشرت في مختلف البلدان حتى وصلوا إلى اليمن كأقصى حد, ية ليتولى بها ا لوظائف والمناصب و يقوم على التدريس والبعض الآخر

([1]) تقول فيهما : أخذوا قلبي وساروا واشتياقي أودعوني

لا عد إن لم يعودوا فاعذروني وأودعوني

أنظر : الغبريني : **المصدر السابق**، ص79.

وقالت نقلا عن **المصدر نفسه** ، ص80 ، شعرا أمام صديقاتها في رجل أصلع خطبها :

عذيري من عاشق أصلع قبيح الإشارة والمترع

يروم الزواج بما لو أتى يروم به الصفع لم يصفع

بر أس حُويج إلى كية ووجه فقير إلى بُرقع

([2]) عادل نويهض: **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ص35.

([3]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج12، ص 34.

([4]) ابن خلدون : **العبر**، ج6 ، ص169-170.

طابت له الإقامة خاصة ببلاد المشرق, وتولى عدد كبير منهم التدريس والفتيا والقضاء إما بمصر, بلاد الشام, القدس, المدينة ومكة, كما يبرزه التمثيل البياني :

النخب العلمية البجائية بمختلف البلدان

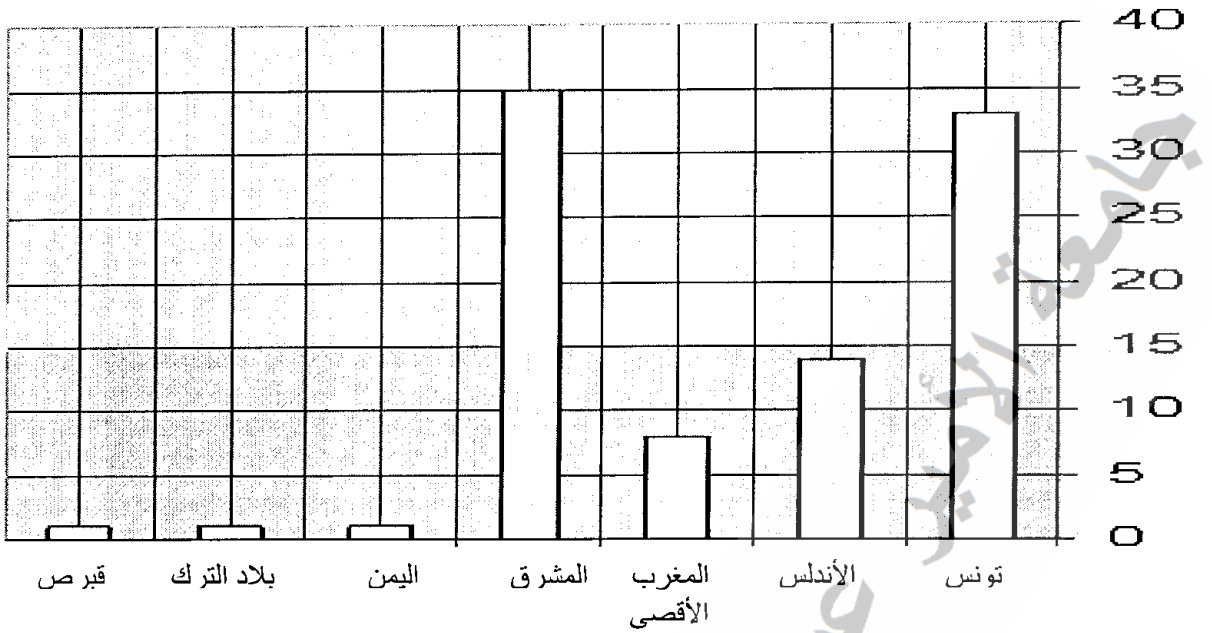

أربعة عشر بجائيا دخلوا الأندلس في الفترة محل الدراسة, ولعل العدد قليل مقارنة مع الفترات السابقة, للظروف التي عاشتها الأندلس (الزحف المسيحي وطرد المسلمين) خصوصا القرن 7هـ/13م الذي حاز النصيب الأكبر حيث دخلها تسع بجائيين, ثم القرن 8 هـ/14م بخمس شخصيات في حين لم نجد ولابجائيا واحدا دخلها في القرن التاسع الهجري لسقوط مدنها التي كانت آخرها غرناطة عام 865هـ/ 1492م، وكانت لنشأة العلوم الشرعية وتطورها ببلاد الأندلس وتفوق تدريس أصول الفقه والقراءات واللغة العربية وللإطلاع على مؤلفات علمائها العلمية والأدبية ولسابقة ذويهم من العدوة المغربية في الرحلة إليها والسماع من شيوخها كلها دوافع شجعتهم على الانتقال إلى العدوة الأندلسية[1]، علما أن رحلة طالب العلم البجائي كانت تمر عبر حواضر المغرب الأوسط كتلمسان, المغرب الأقصى، فاس ثم المدن الأندلسية كبلنسية, شاطبة, غرناطة وغيرها[2], وبعضهم وإن كانوا قليلين جابوا كل هذه الأمصار ورحلوا إلى المشرق والمغرب والأندلس, كعلي بن أبي نصر فتح بن عبد الله

(1) عن علماء المغرب الأوسط والمغاربة الذين دخلوا الأندلس والعلاقات العلمية بين العدوتين يراجع ماكتبه : محمد زنيبر : «التبادل الثقافي بين الأندلس والمغرب وأثره في التطور العلمي بين البلدين»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، جامعة محمد الخامس ، الرباط ، العدد16، سنة1991، ص9-41 ، وكذلك : عمار هلال : «العلماء الجزائريون في الأندلس فيما بين القرنين (10و14م/4و8 هجرية)» **مجلة الدراسات التاريخية** ,العدد 8, 1993-1994، ص18.

(2) صالح المهدي عباس الخضيري : «النشاط الثقافي لعلماء بجاية الإفريقية من خلال كتاب (عنوان الدراية) لأبي العباس الغبريني», **مجلة** آفاق الثقافة والتراث, السنة 10, العدد38, ص50.

(ت652هـ/1254م)[1] والذي رحل إلى الأندلس قبل590 هـ/1193م, فدخل مالطة وإشبيلية وسمع فيهما عن شيوخها، ثم انتقل إلى مكة والقدس ودمشق والإسكندرية والقاهرة وسمع من أعلام هذه البلدان ليعود إلى بجاية للتدريس[2]، عرف بعلو سنده في الحديث حتى أن الأندلسيين ببجاية كانوا يروون عنه الحديث لقصورهم حسب الغبريني في السند[3], من تلاميذه ببجاية الرحالة ابن رشيد[4].

من البجائيين الذين دخلوا الأندلس للدراسة عبد الله بن حجاج بن يوسف (ت بعد 640هـ/1242م), روى عن ابن موسى الجزولي تولى القضاء ببجاية بعد 612هـ/1215م[5]، ومنهم عبد الرحمان بن محمد المعروف بابن السطاح (ت 629هـ/1215م) الفقيه النحوي اللغوي دخل الأندلس ودرس على جلة من شيوخها فأخذ عن ابن زرفون و أجازه إجازة عامة وخاصة سنة 615هـ/1218م، وعن محمد بن علي بن طرفة بإشبيلية[6], وقرأ المقامات بمرسية على شيخها أبي القاسم الطرسوني وحدث عنه سنة 618هـ/1221م[7], تصدى للتدريس والتوثيف بهذه المدينة[8]، ومنها إلى بجاية 623هـ/ 1226م التي كان بها نائبا عن قضاء الأنكحة ويصل إسناد الغبريني عنه بطريق أبي عبد الله القلعي عن ابن السطاح عن ابن زرفون [9]. ومن أهل الجزائر الذين انتقلوا إلى بجاية للدراسة أحمد بن ع لمم العروض ومنه ا إلى الأندلس ومنها إلى الأندلس, انتصب للتدريس بمرسية إلى أن توفي بها سنة 640هـ/1242م[10] .

تواصلت رحلات البجائيين إلى الأندلس في القرن 8هـ/14م لكن بصفة أقل حيث لم تدخلها سوى خمس شخصيات فقط، للظروف المتدهورة التي كانت تعيشها شبه الجزيرة, ومن أكثرهم تأثيرا منصور بن علي الزواوي، الذي تناوله صاحب الإحاطة بشكل مستفيض ونقلت عنه جل المصادر الترجمة التي أوردها عنه ابن الخطيب أنه من مواليد 710هـ/1310م بزواوة، والذي سأله عن شيوخه ببجاية فذكر له ناصر الدين المشدالي الذي قرأ عليه مختصر ابن الحاجب، ومحمد بن يحي الباهلي (ابن المسفر) وأبي علي بن الحسين البجائي[11]، خرج منها إلى تلمسان بعد حصارها من السلطان الزياني أبي تاشفين سنة 727هـ/1326م والتي قرأ بها على مجموعة

([1]) ذكر الغبريني أنه ولد سنة 506هـ/ 1112م ولعل كلمة ستة سقطت للمترجم, أنظر : **عنوان الدراية، ص142**، والأصوب أنه ولد سنة 566هـ/1220م ,يراجع في دلك : ابن الأبار : **التكملة**، ج 3 ، ص 252.

([2]) **المصدر نفسه**، ج3، ص252 -253, التنبكتي : **نيل الإبتهاج**، ص321.

([3]) الغبريني : **المصدر السابق** ، 142-143 .

([4]) أحمد حدادي : **المرجع السابق**، ص 319.

([5]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص 215 ، الحفناوي : **المرجع السابق، ص50**.

([6]) الغبريني : **المصدرالسابق**، ص225.

([7]) ابن الأبار : **المصدر السابق**، ج3، ص56.

([8]) ابراهيم حركات : **المرجع السابق**، ج1ص101.

([9]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص225.

([10]) ابن الأبار : **المصدر السابق**، ج1،ص113، وأنظره في : عبد الوهاب بن منصور : **أعلام المغرب العربي**، ج4، ص118.

([11]) ابن الخطيب : **الإحاطة** ، ج3 ، ص326-327.

من شيوخها علوم العربية والحساب والهندسة كمحمد بن عبد المهيمن الحضرمي[1]، ثم انتقل إلى الأندلس 753هـ/1352م، فقرأ على الفقيه أبي عبد الله الرندي والشيخ عبد الله بن الفخار وقاضي الجماعة الشريف أبي القاسم الحسيني وأبي البركات البلفيقي وأبي عبد الله الطنجالي[2]، تصدى للتدريس بالمدرسة النصرية بغرناطة[3] فروع الفقه والتفسير وتصدى للفتيا لمدة 12 سنة[4]، تقدم في العلوم النقلية والعقلية وله نظر في الأصول والمنطق كما ذكره تلميذه يحيى السراج في فهرسته[5]، ومن أشهر تلاميذه الذين أخذوا عنه كذلك الإمام أبو إسحاق الشاطبي صاحب الموافقات، عرفت دروسه في المدرسة رواجا كبيرا عند طلبة العلم من التفسير والفقه[6]، صاحبه إبن الخطيب واستفاد منه كثيرا وقال عن مزايا معاشرته له "صحبته فبلوت منه دينا و نصفة وحسن عشرة "[7]، فكان إشعاعا بجائيا علميا في الأندلس فاق أقرانه، عاد إلى بجاية سنة 765هـ/1363م مدرسا، ثم خرج إلى تلمسان حيث سمع منه الطلبة دروسا في شتى علوم الشريعة إلى أن توفي بها بعد 770هـ/1368م[8]، له فتاوى نقلها الونشريسي في المعيار.

دخلها زواوي آخر بصبغة سياسية وعلمية والمقصود به أبو عبد الله محمد بن يعقوب المنجلاني (ت 730هـ/1329م) الفقيه الحافظ لمسائل الفروع كما سماه ابن القاضي[9]، قرأ ببجاية على والده الفقيه يعقوب بن يوسف[10]، وعلى عبد العزيز بن كحيلا, دخل مدينة المرية الأندلسية رسولا عن والي بجاية فأقرأ بها لطلبتها وشيوخها مختصر ابن الحاجب[11]، قرأ عليه محمد المقري (ت759هـ/1357م) وقال عنه أنه الفقيه ابن الفقيه[12]، مشاركا في كثير من فنون العلم[13]. وجاز كذلك إلى غرناطة سنة 718هـ/1318م محمد بن عمر المليكشي (ت

([1]) ابن الخطيب : **المصدر السابق**، ج3 ، ص328.

([2]) يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج1، ص132.

([3]) المدرسة النصرية بغرناطة من أشهر مدارس الأندلس التي درس بها أكبر الشيوخ وعلماء الأندلس, **أنشأها أبو الحجاج يوسف سنة 750هـ/1349م.**

([4]) ابن الخطيب : **المصدر السابق**، ج3 ، ص325.

([5]) نقلا عن أبي مريم : **المصدر السابق**، ص293.

([6]) ابن حجر : **المصدر السابق**، ج6 ، ص127.

([7]) أنظر : **الإحاطة** ، ج3 , ص325.

([8]) ابن مخلوف : **المرجع السابق**، ص236.

([9]) **درة الحجال**، ص188.

([10]) ووالده هو يعقوب بن يوسف الزواوي (ت690هـ/1291م) **من أصحاب الغبريني، تولى التدريس والإفتاء والشورى ببجاية** ، أنظره ترجمته عند : الغبريني : **المصدر السابق**، ص 226 .

([11]) ابن القاضي : **المصدرالسابق**، ص188.

([12]) المقري : **نفخ الطيب** ،ج5، ص203 , ولنفس المؤلف : **أزهار الرياض في أخبار عياض** ، تحقيق : مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، المملكة المغربية والإمارات العربية، ج5، ص69 ، ابن الخطيب : **الإحاطة**،ج2، ص203.

([13]) التنبكتي : نيل الإبتهاج ، ص390

740 هـ/1339م)، ولقي بها الحظوة والترحاب[1]، ودخلها كذلك عبد الحكيم بن الحسين التنمللي وهومن أصول مغربية ولد سنة 663هـ/ 1264م ببجاية ونشأ بها ومنها إلى تونس عام 685هـ/1276م، استقضى بمدينة شلش التي اتخذها موطنا له إلى أن توفي بها عام 723هـ/1323م[2]، وحط بها الفقيه أبو سرحان الزواوي (ت 803هـ/1400م) والتقى بأعلامها وشيوخها وسمع منهم[3].

رغم الظروف التي كانت تعانيها الأندلس إلا أن ذلك لم يقف حاجزا أمام هجرة البجائيين إليها والذين تولوا بها خطة القضاء, التدريس, الفتيا و الخطابةعلمي بل نقى هؤلاءرسا لة لبن لاء رسالة ابن الحاجب في الفقه ودرّسوها بمدارس غرناطة والمرية وغيرهما.

المغرب الأقصى :

في الفترة المدروسة يقل عدد البجائيين المتواجدين بالمغرب الأقصى مقارنة بالأندلس وتونس، وربما يعود ذلك إلى أن المراكز العلمية في البلدين كانت أكثر اجتذابا لشهرتهما العلمية، أحصيت ثماني شخصيات توزعت على القضاء والتدريس والخطابة بمدن مغربية مختلفة، أذكر منهم عبدالرحمان بن عثمان التميمي البجائي (ت 636هـ/1238م) الذي استقضي بسبتة علم عنه عدله ونزاهته في القضاء[4].

من الأعلام البجائيين الذين طال إشعاعهم الحواضر المغربية في القرن 8هـ/14م الفقيه أبو سرحان الزواوي البجائي، له علم بالفقه والفرائض والنحو, دخل مدينة سبتة المغربية وأقرأ بجامعها[5]، ولاه السلطان أحمد المريني القضاء والتدريس بصفة رسمية في المدينة, دخل الأندلس ثم عاد إلى المغرب الأقصى واستقر بمدينة تازة إلى أن وافته المنية بها[6]، ومنهم محمدبن يحي الباهلي المشهور بالمسفر (ت 744هـ/ 1343م) مفتي بجاية وقاضي الجماعة بها, دخل فاس رسولا عن صاحب بجاية والتقى الفقيه أبا الحسن الصغير شارح المدونة, فسأل أصحابه بما يدرك علم هذا الرجل فقالوا : بمعرفة كتاب الفصيح لثعلب[7]، فحفظه في ليلة واحدة[8].

([1]) ابن الخطيب : **المصدرالسابق** ،ج2 ، ص563.

([2]) **المصدر نفسه**، ج 3، ص، 546-548.

([3]) ابن منصور : **المرجع السابق**, ج2، ص187.

([4]) المراكشي : **الذيل والتكملة** ، السفر8 , القسم1 ، ص262.

([5]) عاشور بوشامة : **المرجع السابق**، ص 555.

([6]) ابن منصور : **المرجع السابق**، ص187.

([7]) هو أبو العباس أحمد بن يحي الشهير بثعلب من مواليد سنة 200هـ/815م، إمام الكوفة في النحو واللغة، كان عالما بالحديث توفي سنة 291هـ/ 903م ، أنظر ترجمته عند : السيوطي : **طبقات الحفاظ** ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، 1996، ص 311-312.

([8]) القصة عند ابن قنفذ : **أنس الفقير وعز الحقير**: تحقيق أبي سهل نجاح عوض صيام , ط1 ، دار المقطم للنشر والتوزيع , القاهرة ، 1422هـ/2001م ، ص94 ، وينقل عنه ابن القاضي: **درة الحجال** ، ص226 ، و انظر : ابن الخطيب : **الإحاطة** ، ج2، ص 202، التنبكتي : نيل الابتهاج ، ص401-402 ، ابن مخلوف : **شجرة النور**، ص219.

يفهم من كل ما سبق أن البجائيين الذين تولوا القضاء بحواضر كثيرة بالمغرب الأقصى كانوا فقهاء وعلماء بفروض القضاء على مذهب مالك وعرفوا بتراهتهم وأهليتهم لتولي هذا المنصب، زاوج بعضهم بين القضاء والتدريس بمباركة من السلطة التي أشرفت على تعيين أحدهم بصفة رسمية في المنصبين فيما أوردته.

تونس :

بالنسبة لتونس من خلال الشكل البياني فإن عدد النخب البجائية فيها يرتفع عن سابقاتها كما وكيفا ولعل العوامل الجغرافية كانت في صالحها فهي قريبة من بجاية مقارنة بغيرها كما أنها واقعة في طريق ركب الحج ونحو بلاد المشرق عموما، وأسباب سياسية تمثلت في تشجيع السلطنة الحفصية للحركة العلمية واستقطابها ورعايتها للنخب بمختلف أصنافها خاصة وأنها العاصمة، ودواع علمية لأنها كانت تعرف نهضة فكرية بثلة من الفقهاء كابن زيتون، ابن عجلان، ابن خلدون، ابن عرفة وغيرهم كثير، لتكون فضاءً آخر للبجائيين الذين سيكون لهم شأن فيها.

أحصيت 34 شخصية إفريقية استحوذت الحاضرة تونس على الأغلبية، استقر بعضهم بصفة نهائية في حين عاد البعض الآخر إلى بجاية بعد إكمال تعلمه بها، في حين واصل الآخرون رحلتهم العلمية نحو المشرق، من المجموع ضو ةممايحيلنا على طرح إشكالية مدى ولهم إلى الحاضرة مما يحيلنا على طرح إشكالية مدى مسؤولية السلطة الحفصية في استقطابهم إليها ؟ وهل يؤثر العامل السياسي في الفضاء العلمي؟

إثنان من المغرب الأقصى يدخلون إفريقية انطلاقا من بجاية ونقصد بهما أحمد بن عيسى الغماري (ت682هـ/1283م) الذي ولي القضاء ببجاية ليتحول إلى الحاضرة ويكون رسولا للمستنصر الحفصي إلى صاحب المغرب عدة مرات[1]، واجتاز منها نحو المشرق المتصوف أبو عبد الله بن شعيب الهكسوري (ق7هـ/13م)[2].

نفس الشأن بالنسبة لطلبة مدن وكور المغرب الأوسط الذين دخلوا بجاية للدراسة على شيوخها، فالكثير منهم واصل رحلته العلمية فكانت تونس إحدى المراكز المفضلة عندهم للتلقي على علماء مدرستها التي كانت تنافس بجاية، دخلها أبوالعباس الغبريني فقرأ الفقه على شيخي تونس ابن عجلان وابن زيتون أثناء إقامته بها[3]، وارتادها عبد الرحمن الثعالبي (ت875هـ/1470م) المحدث وعالم التفسير في رحلته التي بدأها أواخر القرن 8هـ/14م، فقرأ على تلاميذ الوغليسي الكثيرين كما وصفهم أمثال سيد علماء بجاية كما سماه علي بن عثمان المنجلاتي، ومنها إلى تونس التي دخلها حوالي 802هـ/1399م أخذ بها عن أصحاب ابن عرفة أمثال أبو مهدي عيسى الغبريني والبرزلي[4]، وعند عودته من مصر أقام ثانية بتونس وأخذ عن أبي عبد الله بن مرزوق الذي أجازه بالتدريس في

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص113.

([2]) **المصدر نفسه** ، ص173.

([3]) أورد ذلك في برنامج مشيخته، ص 308.

([4]) الثعالبي : الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، تحقيق، عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ج4، ص159.

أنواع العلوم المختلفة مبديا إعجابه بالتقييد الذي ألفه عن ابن الحاجب الفرعي حاثا له على إتمامه[1]، وزار المهدية 810هـ/1417م[2]، كما رحل أبي يوسف يعقوب المنجلاتي (ت690هـ1291م) إلى افريقية وقرأ على مشايخها كأبي العباس بن عجلان[3]، ودخل فقيه بجاية عيسى بن مسعود الزواوي (ت743هـ/1342م) مدينة قابس[4]، تولى بها القضاء مدة ليرحل منها إلى الإسكندرية[5]، فتكون له رئاسة المالكية بالديارالمصرية والشامية[6].

دخلها أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم المشدالي (ت866هـ/1461م)[7]، العلامة المحقق الورع والزاهد أخذ عن شيوخ بجاية، مكرما عند السلطان الحفصي بتونس لمكانته العلمية والفقهية[8]، تتلمذ عليه الطلبة من جل الحواضر الحفصية علما أنه تولى التدريس والخطابة بالجامع الأعظم ببجاية[9]، ولعلمه الواسع أصبح يضرب به المثل فيقال : "أتريد أن تكون مثل أبي عبدالله المشدالي"، وهو صاحب تكملة الوانوغي على البرادعي واستدرك ما صرح به ابن عرفة في مختصره بنفي وجوده[10]، كما تولى أحمد بن أحمد الغبريني (ت772هـ/1370م)[11] قضاء الجماعة بتونس وعين إماما وخطيبا بجامع الزيتونة[12]، أسندت إليه الفتوى لتبحره في الفقه[13]، وقال عنه ابن الجزري " شيخ يعز وجود مثله في وقتنا"[14]، أخذ عنه عيسى الغبريني التالي الذكر ومحمد القلشاني، علما أن الوظائف الموكلة إليه لايتولاها إلا الفقهاء المتضلعون في مختلف العلوم الشرعية، تولى خطابة مسجد الزيتونة بعده الفقيه ابن عرفة، وجاء

([1]) الثعالبي : **المصدرالسابق**، ج4، ص159.

([2]) عبد الرحمن عون : **أبوعبدالله الأبي وكتابه الإكمال** ، الدار العربية للكتاب ، 1983 ، ص148.

([3]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص226.

([4]) عكس ماذهب إليه عمار هلال الذي أورد أنه دخل فاس في مقاله ص20 , فالمصادر التي ترجمت له لم تذكر فاس أصلا في حين أنها قابس ، أنظر في ذلك : ابن فرحون : **المصدر السابق**، ص283.

([5]) **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها ، ابن القاضي : **درة الحجال**، ص50.

([6]) السيوطي : **حسن المحاضرة** ،ج1، ص217.

([7]) ذكر الزركشي أن وفاته كانت نهاية سنة 867هـ/1365م عكس المصادر التي ترجمت له التي أوردت سنة 866هـ/1364م، **تاريخ الدولتين**، ص154.

([8]) التنبكتي : **نيل الإبتهاج** ، ص532.

([9]) القرافي : **المصدر السابق**، ص157 ، السيوطي: **نظم العقيان**، تحقيق : فيليب حتي، دار المعارف، تونس، 1999، ص 160، إبن مخلوف : **المرجع السابق**، ص263 ، ابن السراج : **المرجع السابق**، ج1، ص 663-664.

([10]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج8، ص290، ابن القاضي: **المصدر السابق**، ص278.

([11]) وهو إبن أبي العباس الغبريني صاحب عنوان الدرية ، ويشكك عبد الوهاب بن منصور في ذلك دون تقديم أي دليل ، أنظر : بن منصور : **المرجع السابق**، ج4، ص372.

([12]) ابن مخلوف : **المرجع السابق**، ص224.

([13]) التنبكتي : **كفاية المحتاج**، ص 48.

([14]) ابن الجزري : المصدر السابق، ج2 ، 229.

بعده غبريني أخر وهو أبو مهدي عيسى (ت813هـ/1411م)[1]، نشأ ودرس بتونس وتولى نيابة قضاء الجماعة بها عام 787هـ/1385م بعد مرض القاضي عبد الرحمن البرشكي ليتولى المنصب كلية بوفاة هذا الأخير في نفس العام ثم قاضيا للقضاة مستقلا به[2]، وأسندت له كذلك الخطابة بالزيتونة بعد ابن عرفة، له فتاوى نقلها البرزلي في نوازله[3].

لم يقتصر دور البجائيين على تولي الوظائف والمناصب الإدارية والخطب الدينية كالتدريس والفتيا والخطابة سية، فكانوا رسلا للبلاط الحجائي عند صاحب تونس كما البجائي عند صاحب تونس كما حدث مع الفقيه أبي العباس الغبريني الذي أرسله الأمير البجائي أبي البقاء سنة 700هـ/1300م سفيرا للسلطان الحفصي أبي عصيدة محاولة منه لتطبيع العلاقات بين بجاية والحاضرة[4]، ونماذج بجائية أخرى حازت ثقة السلطة بالحاضرة فكلفت بمناصب سياسية هامة شأن محمد بن الجلاء البجائي (ت638هـ/1240م) الذي تولى كتابة العلامة والإنشاء للسلطان الحفصي أبي زكريا يحي وقد أهلته كفاءته وأمانته وبراعة خطه لهذه الوظيفة، ووصفه ابن الأحمر بقوله "علما بغير علم"[5] ، كاتما لسر السلطان حليما في عمله " بجميل شارته وحسن سمته"[6]،خلفه في كتابة العلامة محمد بن الأبار[7].

سعت السلطنة الحفصية وعلى رأسها السلاطين إلى اعتماد سياسة استقطاب النخب البجائية نحو الحاضرة، للاستفادة من خبراتهم العلمية والإدارية والفنية خاصة الأندلسية منها التي تميز بعضها بغزارة في العلم وشرف في البيت وفصاحة في اللسان والقدرة على الكتابة والخطابة في بلاغ كما وصفها حسين مؤنس[8]، على عهد السلطان أبي زكريا يحي الذي أمضى فترة واليا على بعض كور إشبيلية وكذلك في فترة المستنصر الذي ضم مجلسه الكثير من شيوخ العلم والأدباء نفس الشأن مع خلفه أبي إسحاق ابراهيم (678-681 هـ/1279/1283م)، ومن هؤلاء البجائيين الذين تم استقطابهم نذكر على سبيل المثال لا الحصر أحمد بن عثمان المتوسي (ت644هـ/1246م) الشيخ الفاضل الكامل المحصل المتقن كما نعته الغبريني[9]، رحل إلى المشرق لإكمال دراسته ثم عادإلى بجاية فسكنها

([1]) اختلاف في سنة وفاته بين كتب التراجم والتاريخ ففي حين يجعله الزركشي 813هـ/1410م وقال ابن القاضي سنة 815هـ/1412م وذهب السخاوي أنه توفي سنة 816هـ/1413م ، وأرجح ما ذهب إليه الزركشي الذي عاش في نفس القرن مؤرخا للدولة الحفصية ، أنظر كل أولئك في : **تاريخ الدولتين** ، ص125، **الضوء اللامع**، ج6 ، ص151، **درة الحجال** ، ص377.

([2]) الزركشي : **المصدر السابق** ، ص 114.

([3]) السخاوي : **المصدر السابق** ، ج6 ، ص151.

([4]) في أمر هذه السفارة والنهاية المأساوية للغبريني نتيجة الوشايات ، أنظر : ابن خلدون : **العبر**، ج6 ، ص462.

([5]) **مستودع العلامة** ، ص30

([6]) **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها.

([7]) ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص116 ، الزركشي : **المصدر السابق**، ص28.

([8]) أنظر مقدمته لكتاب **الحلة السيراء**، ط2 ، دار المعارف، القاهرة ، ج1، ص18.

([9]) عنوان الدراية ، ص171.

دراسته ثم عادإلى بجاية فسكنها وانتصب للتدريس بها[1]، ولمهابته وعلمه وأدبه استدعاه السلطان الحفصي أبي زكريا يحي إلى الحاضرة وكان دائم الحضور إلى مجلسه مع شيوخ العلم للاستفادة منه، وبرز تفوقه بينهم في كثير من المسائر العلمية فأجلوه وعرفوا فضله وكماله[2].

الظاهرة التي لفتت انتباهي من خلال دراسة النخب البجائية المتجهة نحو تونس هو كثرة العنصر الأندلسي البجائي، فمن مجموع أربع وثلاثين بجائيا دخل تونس وجدت منهم أربعة عشر أندلسيا قدموا إليها من بجاية، ولعل الأسباب التي أتيت عليها عن علاقة السلاطين الحفصيين الأوائل بالأندلس، وحاجة الدولة الجديدة لخبرة هؤلاء، والإغراءات المقدمة لهم كانت كفيلة لتحولهم من بجاية التي استقروا بها لفترة إلى تونس التي توطنوا بها نهائيا، وما يدعم السبب الأخير أن نصفهم أي سبعة شخصيات من أصل أربعة عشر تقلدوا وظائف سامية في الدولة من كتابة العلامة إلى ديوان الإنشاء إلى القضاة وغيرها، والجدول الموالي يوضح ذلك :

الشخصية	دورها في بجاية	سبب انتقالها إلى الحاضرة	الوظائف المسندة لها ودورها في البلاط الحفصي	المصادر
أحمد بن الغماز (ت693هـ/1293م)	القضاء ببجاية وصلاة الفريضة بجامعها الأعظم	استدعي إلى الحاضرة من قبل السلطان المستنصر.	رسول للمستنصر إلى السلطان المريني، وقاضي القضاة بتونس.	عنوان الدراية، ص129-130 .
أبو زكريا يحي اللقنتي (ق7هـ/13م)	أقرأ وأسمع ببجاية في حدود 630هـ/1232م.	استدعاه السلطان أبي زكريا إلى الحاضرة تونس.	عين لمجلس السلطان أحد طلبته النجباء.	عنوان الدراية ، ص224. كفاية المحتاج، ص505.
محمد بن سيد الناس (ت659هـ/1260م)	صلاة الفريضة والخطبة بالجامع الأعظم ببجاية	لما اشتهر بعلمه وذاع صيته ببجاية استدعاه المستنصر إلى الحاضرة.	حظي بمنزلة رفيعة عند السلطان فأجزل له العطاء وكان من المقربين في مجلسه.	عنوان الدراية ، ص247.
أحمد بن عميرة المخزومي (ت658هـ/1259م)	أقرأ ببجاية	كاتبه ابن الأبار بالانضمام إلى مجلس المستنصر وبطلب منه.	اتصل بالمستنصر واستقضي بقابس وصار من خواص مجلسه وفقهاء دولته.	عنوان الدراية ، ص251-253

(1) الغبريني : **المصدر السابق**، ص171-172.

(2) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها، وأنظره كذلك في : القرافي : **المصدر السابق**، التنبكتي : **نيل الإبتهاج**، ص78، ص51، بن منصور : المرجع السابق، ج4 ، ص121-122.

محمد بن الأبار (ت658هـ/1259م)	أقرأ وألف ببجاية	ضمه المستنصر إلى مجلسه.	كتابة العلامة للمستنصر وبلغ عنده مأموله وقصده ولكن نهايته كانت مأساوية[1].	عنوان الدراية ، ص259-260. مستودع العلامة ، ص28.
علي بن مؤمن الحضرمي (ابن عصفور ت 669هـ/1270م)	التدريس ببجاية	ارتحل إلىافريقية على عهد المستنصر.	كان أحد خواص مجلس السلطان.	عنوان الدراية ، ص266-267. سبك المقال ، ص149.

أخلص إلى أن بجاية كانت خزانا للكفاءات المصقولة أصلا أو التي زادتها البيئة البجائية صقلا، هذا الخزان أمد الحاضرة بمجموعة هائلة من النخب في مختلف التخصصات التي سارعت السلطة إلى اقتناصهم بدعوتهم إلى تونس فلم يمانعوا في ذلك، إما طمعا في غنائمها وتقربا منها أو خوفا من بطشها وسعيا لصحبة السلطان رغم التحذيرات التي وجهتها كتب المرايا لمضار هذه الصحبة والتي أتيت عليها في الفصل الأول، وأرجح أن طلب الجاه والرفعة والمناصب كانت سببا رئيسا في تلبية الدعوة خاصة من النخب الأندلسية التي كانت لها الحظوة عند السلاطين، الأوائل منهم مهدوا الطريق لإخوانهم للولوج إلى دواليب البلاط، مكونة شوكة سيكون لها شأن كبير، ونستشف هذه التسهيلات من خلال الرسالة التي كتبها ابن عصفور يطلب فيها من ابن الأبار القدوم إلى الحاضرة مستدعيا من السلطان المستنصر سنة 657هـ/1258م، حاثا أياه بالمسارعة إلى تلبية الدعوة والالتحاق بالركب السلطاني "واستقبلكم من خير النظر ما به يبرأ السقيم ويسعد الظاعن والمقيم"[2]، مما يوحي بقدرة السلطة على استقطاب النخب للأسباب المتقدمة وتفضيل هذه الأخيرة للعاصمة على بقية الحواضر الأخرى، رغم أن الظاهرة ليست عامة في كل الحالات، ليكون للعامل السياسي دور في التأثير على الفضاء العلمي .

حازت بلاد المشرق القدر الأكبر من البجائيين المرتحلين نحو مصر، الحجاز، بلاد الشام بـ35 شخصية منهم خمس أندلسيين وواحد من المغرب الأقصى، و لم تحظ العراق وعاصمتها بغداد باهتمام البجائيين والسبب سقوطها في يد التتار في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م، لتكون الوجهة بلاد الشام خاصة دمشق التي أصبحت مركزا يفد إليه الطلبة من كل حدب وصوب، في ظل تراجع بغداد من جهة وفضل حكام بني أيوب وحرصهم على بناء

---

(1) عن هذه النهاية المروعة المجسدة وبشكل واضح للعلاقة بين عنصر من الـ ـقدمها ل إليه ابن الأبار رغم الخدمات التي قـدمها لها عد إلى ما كتبه حسين مؤنس وقراءته لعقوبة قتله وأسبابها في تقديمه لكتاب **الحلة السيراء** ، ص43-47.

(2) ابتدأها ببيتين شعريين يقول فيهما :

على قدر حبي أتتك بشارتي وحسبك ما أجملته من إشارتي

هنيئا هنيئا قدرفلت من المنى بأفخر ملبوس وأجمل شارة

للتفصيل أنظر : الغبريني : **المصدر السابق** ، ص251-252 .

دور العلم والاعتناء بطلبته[1]، وهي شيمة أهل الشام الذين تنافسوا في عمارة المساجد والزوايا والمدارس واحتضنوا طلبة العلم المغاربة وأحسنوا الظن بهم "ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد" [2]، كما أجريت عليهم النفقات والاستفادة من الرواتب العالية للمشتغلين بالتدريس[3] وإقراء القرآن والإمامة، وحتى الصوفية في خوانقهم وصلهم عطاء السلطة[4]، كما حدث مع المحدث الأندلسي أبي الخطاب ابن أبي دحية (ت633هـ/1235م) الذي سكن بجاية مدة وارتحل منها إلى بلاد الشام وحظي بدمشق بمنزلة ومكانة عند السلطان الأيوبي محمد بن الملك العادل (ت635هـ/1237م)[5].

نفس الأمر وبأقل حدة ببلاد الحجاز التي كان الحج السبب الأول في الارتحال إليها ثم طلب العلم بالمدينة ومكة، ويشترك مع بمصر التي كانت طريق هؤلاء حيث قرأ وأقرأ بها الكثير من البجائيين خاصة في الأزهر، وتولوا الخطابة والإمامة وعينوا قضاة بحواضرها، وقد أجمل الغبريني أسباب رحلة البجائيين نحو المشرق في عوامل دينية وعلمية في ترجمته للفقيه داود بن مطهر الوجهاني (ق7هـ/13م) بقوله "رحل إلى المشرق وحج بيت الله الحرام وقرأ ودرس ورأس واجتهد وحصل"[6].

ما يمكن استنتاجه من القراءات المتأنية لتراجم هؤلاء هو أن الرحلة لملاقاة الشيوخ والسماع من العلماء شتى العلوم، لزيادة التحصيل والاستفادة كانت غاية جل الذين شقوا طريقهم نحو المشرق الذي كان يعج بثلة من العلماء المتضلعين، وقد عبر الغبريني عن ذلك في مواضع كثيرة من كتابه بقوله "رحل إلى المشرق ولقي الأفاضل والجلة"[7] وفي موضع أخر "ولقي أكابر العلماء وأخيار الفضلاء"[8]، وعلى رأسهم ناصر الدين المشدالي (ت731هـ/1330م) الذي سمع من عزالدين بن عبد السلام وأبي الفضل المرسي[9]، وشهد جنازته على ما رواه

([1]) في فضلهم في بناء المدارس والزوايا والمساجد ودور العلم المختلفة وإعالة الطلبة ، أنظر : علي أحمد : **الأندلسيون والمغاربة ببلاد الشام**، ص102-112.

([2]) العبدري ، **المصدر السابق**، ص58.

([3]) علي أحمد : **المرجع السابق** ، ص112.

([4]) ابن بطوطة : **المصدر السابق**، ص58-59.

([5]) وقد قال فيه قصيدة يمدحه فيها بعد أن اشتاق إلى رؤيته مطلعها :

مالي أسائل برق بارق عنكم ... من بعد ما بعدت دياري عنكم

والعدل الملك الهمام محمد ... بادي المنار لكل من يظلم

عز الملوك الشرف الذي ... لعلائه السبع الكواكب تخدم

أنظرها عند : الغبريني، **المصدر السابق** ، ص231-232 ، وأنظر ماكتبه في السلطان ومبادلته أياه بقصيدة أخرى، **المصدر نفسه**، ص230-238.

([6]) **المصدر نفسه**، ص225.

([7]) **المصدر نفسه**، ص171.

([8]) **المصدر نفسه**، ص182.

([9]) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ص125.

العبدري[1] الدين الأصفهاني الدين السبكي وشمس الدين الأصفهاني[2]، وشهاب الدين القرافي[3]، وكان للمشدالي الفضل في إدخال مختصر ابن الحاجب إلى بجاية الذي كان كالبرنامج للمذهب، فانكب عليه طلبتها بالدراسة والشرح والتعليق[4] ، ومنها انتشر في كل بلاد المغرب وأصبح يدرس في جل حلقات العلم وعليه المعتمد في الفقه[5] ، تنقلوا بين عدة مدن وحواضر كدمشق والقدس ومكة و القاهرة ، وقد دخل علي بن أبي نصر البجائي (ت 652هـ/1254م) المدن السابقة وسمع من شيوخها الأجلاء، مع غيره من البجائيين الذين درسوا على المشارقة وحصلوا منهم الكثير وأجازوهم اعترافا من شيوخهم لتمكنهم العلمي وتفوقهم في مختلف العلوم الشرعية[6]، إلا أن القلة منهم رحلت بعد أن بلغت درجة عالية من العلم و لم تستفد شيئا في المشرق لتمكنها كما هو الحال لأحمد بن يوسف اللبلي (ت691هـ/1291م) الذي أقرأ ببجاية لمدة ثم ارتحل منها إلى بلاد الحجاز حاجا بعد أن بلغ مرتبة عالية من التحصيل والأستاذية[7].

منهم من عاد إلى بجاية بعد أن أكمل مشواره العلمي وتأديته لفريضة الحج والبعض الآخر طاب له المقام واستقر نهائيا هناك، ليتولوا وظائف دينية وخططا سلطانية فذاع صيتهم العلمي وفاقت شهرتهم الأمصار، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر في القرن السابع الهجري عبد المحسن الوجهاني الصواف (ت بعد 690هـ/1290م) قرأ ببجاية ومنها ارتحل إلى مصر، عرف بزهده وتقواه حتى أن أمراء بني أيوب بمصر أحبوا زيارته وطلب دعائه لكنه كان يرفض ذلك معرضا عن دنياهم وزاهدا فيها[8]، وبرز في اللغة العربية وعلومها يحي بن معطي الزواوي من مواليد زواوة 564هـ/ 1168م درس ببجاية على شيوخها وعلى رأسهم أبي موسى الجزولي[9] وبدمشق على ابن عساكر الدمشقي[10] ، تولى تدريس النحو بمدارسها لمدة نفع بها طلبتها وشيوخها[11]، ولفضله وعلمه استدعاه السلطان الأيوبي الكامل إلى مصر وعينه أستاذا ومدرسا لعلوم اللغة العربية بالجامع العتيق

([1]) **رحلة العبدري**، ص131.

([2]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص 200.

([3]) القنوجي : **أبجد العلوم** ، ج1 ،ص183.

([4]) عمار جيدل : **المرجع السابق**، ص172.

([5]) القنوجي : **المصدر السابق**، ج2 ، ص416 .

([6]) عن الذين انتقلوا إلى المشرق من البجائيين للدراسة وعن الشيوخ الذين قرأوا عليهم أنظر الغبريني : **المصدر السابق** ص، 142،171، 180، 182، 200، 209، 225، 228.

([7]) **المصدر نفسه** ، ص300 ، وعن مؤلفاته الكثيرة في اللغة أنظر : الفيروزآبادي : **البلغة في ترجم أئمة النحو واللغة** ، ط1 ، تحقيق : محمد المصري ،جمعية غحياء التراث الإسلامي، الكويت، 1407 هـ/1986م ،ج1، ص166.

([8]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص180.

([9]) هو عيسى بن عبد العزيز الجزولي (ت607هـ/1210م) شيخ علوم العربية ببلاد المغرب ، درس النحو واللغة والأدب في عدة مدن مغربية ومنها بجاية ، أنظر تعريفه في : الفيروزآبادي : **المصدر السابق**، ج1 ، ص166167، ابن الجزري : **غاية النهاية** ، ج1 ، ص611.

([10]) السيوطي :**حسن المحاضرة**، ص217 ، **بغية الوعاة** ، ج2 ، ص344.

([11]) الذهبي : العبر في خبر من غبر، ص112.

بالقاهرة[1] وكان يحضر مجلس علمه وقرر له عطاء دائما[2]، تفرغ للتأليف ومن أهم مؤلفاته في النحو ألفيته الموسومة بـ"الذرة الآلفية في علم العربية"[3] بلغت 1021 بيتا من الرجز والسريع انتهى من تأليفها سنة 595هـ/1199م كان إلى جانب تاج الدين الكندي زعيما في الأدب بمدينة دمشق[4]، ذاع صيته العلمي ببلاد الشام ومصر إلى أن وافته المنية سنة 628هـ/ 1230م ودفن بقرب قبر الإمام الشافعي اعترافا وتقديرا[5].

ومن شيوخ بجاية الذين برعوا في علم القراءات ببلاد المشرق الإمام البارع والمحقق الفقيه الثقة[6] عبد السلام بن سيد الناس الزواوي المولود بظاهر بجاية 589هـ/1163م ومنها انتقل إلى مصر سنة 614هـ/ 1217م، فأخذ القراءات بالأسكندرية على شيخها أبي القاسم بن عيسى لمدة سنتين[7]، ثم دخل دمشق عام 617هـ/1220م، فقرأ على أبي الحسن السخاوي، ترأس بعدها مشيخة الإقراء بالشام كله لمدة إثنين وعشرون سنة[8]، دلالة على المرتبة التي حازها في تخصصه فلم ينافسه أحد طول تلك المدة، وهو أول من تولى منصب قاضي المالكية بدمشق سنة 644هـ/ 1246م لمدة تسع سنوات وإن كان ذلك على كره منه[9]، تصدر للإفتاء والتدريس بدمشق، والسبب الذي جعل أهل الشام يـ لتوطع ـع بين العلم والعمل والتواضع معهم، حتى أنه كان يخدم نفسه بنفسه فيحمل الحطب بيديه على علو شأنه، توفي في رجب 692هـ/ مارس 1292م، ومشى في جنازته خلق كثير من أهل الشام وعلى رأسهم نائبها حسام الدين لاجين[10].

يتواصل إشعاع بجاية في القرن 9هـ/15م ببلاد المشرق بفضل ثلة من أعلامها ويأتي في مقدمتهم أبو الروح عيسى بن مسعود الزواوي (ت743هـ/1342م) قرأ ببجاية ثم بالأسكندرية فالقاهرة[11]، انتصب بعدها لتدريس

([1]) ابن خلكان : **المصدر السابق**، ج6 ، ص197.

([2]) الذهبي : **سير أعلام النبلاء** ، 22، ص324.

([3]) سيدي موسى : **المرجع السابق**، ص157 .

ومما ألفه كذلك : القوانين في النحو، شرح أبيات سيبويه ، العقود والقوانين، كتاب شرح الجمل، ديوان خطب، نظم كتاب الصحاح للجوهري في اللغة، نظم كتاب الجمهرة لابن دريد، كتاب المثلث، وقصيدة أجمل فيها القراءات السبع ، أنظرها في : السيوطي : **بغية الوعاة**، ج2، ص344 ، وأنظر ماكتب عنه : رابح بونار : **المغرب العربي تاريخه وثقافته**، ص276.

([4]) علي أحمد : **المرجع السابق**، ص260.

([5]) إبن خلكان : **المصدر السابق**، ج6 ، ص197 ، وقد وقع ابن ثغري بردي في خطأ وفاته فجعلها سنة 578هـ/ 1282م، **النجوم الزاهرة** ، ج6 ،ص278.

([6]) كما سماه ابن الجزري والذي يجعل ولادته بباجة بدل بجاية وربما وقع ذلك تصحيفا : **المصدر السابق** ،ج1، ص386 .

([7]) الصفدي : **المصدر السابق**، ج18 ، ص262.

([8]) ابن العماد : **المصدر السابق**، ج5 ، ص274.

([9]) ابن الجزري : **المصدر السابق** ، ج1، ص 386.

([10]) **الوافي بالوفيات**، ج18، ص262 ، ابن ثغري بردي : **المصدر السابق**، ج7، ص356 ، نفس المؤلف : **المنهل الصافي**، ج7 ، ص266.

([11]) ابن القاضي : درة الحجال ، ص375.

الحديث الشريف بجامع الأزهر[1]، واصل رحلته نحو بلاد الشام ليولى قضاء مدينة نابلس فدمشق[2]، يعود بعدها إلى مصر نائبا لقاضي قضاة المالكية بها[3]، زاول تدريس الفقه المالكي بزاوية المالكية، عرف عنه تمكنه في العلوم الشرعية وتضلعه في الفقه فرد على ابن تيمية في مسألة الطلاق، انتهت إليه رئاسة الفتوى على المذهب المالكي بكل الديار الشامية والمصرية[4]، له الكثير من التآليف في علوم شتى[5] توفي ودفن بالقاهرة[6].

القرن التاسع الهجري ملفت للنظر من حيث كثرة البجائيين الذين ارتحلوا إلى المشرق ولعل الظروف السياسية الصعبة التي عاشتها المدينة كانت سببا في تلك الهجرة، هؤلاء علا كعبهم وارتفع شأنهم بين المشارقة وعلى رأسهم محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي المعروف بأبي الفضل ابن العلامة أبي عبد الله، ولد بزواوة بعد سنة 820هـ/1417م[7]، قرأ وحفظ القرآن ببجاية وعمره لم يتعد سبع سنوات ونصف على ما رواه ابن القاضي[8]، تتلمذ على والده وعلى بعض شيوخ بجاية[9]، أكمل دراسته بعد سنة 840هـ/1436م، في تلمسان على شيوخها أمثال سعيد العقباني الذي قرأ عليه الفقه وأصول الدين، وعلى أحمد بن زاغو التفسير والحديث والحساب والفرائض، وعلى أبي الفضل ابن الإمام التفسير والحديث والطب والتصوف، وتلقى على محمد بن مرزوق(الحفيد) التفسير والحديث والفقه والأصلين والأدب والمنطق والجدل والطب والهندسة، سمع عن عشرة من شيوخ تلمسان لوحدها لمدة أربع سنوات ليعود إلى بجاية سنة 844هـ/1440م[10] منتصبا للتدريس بها، ومنها نحو عنابة قسنطينة فتونس التي دخلها حوالي855هـ/1401م، وقرأ على ثلة من أعلامها، فمصر على متن سفينة لنصارى مدينة

([1]) ابن فرحون : **الديباج** ص283.

([2]) ابن مخلوف : **شجرة النور** ص219.

([3]) ناب عن قاضي القضاة زين الدين بن مخلوف ثم عن تقي الدين الأخنائي ، أنظر ذلك في : ابن فرحون : **المصدر السابق**، ص283.

([4]) ابن فرحون : **المصدر السابق**، ص 283.

([5]) من مؤلفاته "إكمال الإكمال" وهو شرح لصحيح مسلم في 12 جزءا ، وله مختصر ابن الحاجب في الفقه ، أنظرها في : ابن فرحون : **المصدر السابق** ، ص283 ، حاجي خليفة : **المصدر السابق**، ج1، ص558.

([6]) **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها.

([7]) اختلاف بين كتب التراجم في تاريخ ولادته فيجعلها السيوطي بعد 820هـ/1417م وينقل عليه القرافي ذلك بينما قال الشوكاني أنه من مواليد 821هـ/1418م ، أما السخاوي فأورد 821 أو822هـ/1418 أو 1419م راجع : **الضوء اللامع** ، ج9 ، ص180، السيوطي : **نظم العقيان**، ص160 ، الشوكاني : **البدر الطالع**، تحقيق : علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، 1992، ج1، ص339 ، القرافي : **توشيح الديباج**، ص205.

([8]) **درة الحجال** ، ص278 ، وذكر السخاوي أن حفظه للقرآن تم في سنتين ونصف وأنه حفظ حزب سبح قبل أن يتهجى وربما يكون ذلك مبالغ فيه أو كرامة من الكرامات، **الضوء اللامع** ، ج9 ، ص180.

([9]) قرأ القرآن على أبي عبد الله محمد بن أبي الرفاع وهارون المجاهد ، والعربية على أبي بكر التلمساني وابن عيسى الونشريسي والحساب على موسى ابراهيم الحسناوي وسمع الفقه والتفسير والحديث والأصلين من علي بن ابراهيم الحسناوي وغيرهم ، أنظر شيوخه : **المصدر نفسه** ، ج9 ، ص180-181.

([10]) المصدر نفسه، ج9 ، ص181-182.

جنوة حط بجزيرة قبرص وناظر أساقفتها[1]، ومن مصر إلى بيروت فدمشق وحماة فالقدس التي دخلها سنة 847 هـ/1443م والتي مكث بها لفترة ليست بالقصيرة، قصد بلاد الحجاز حاجا سنة 849هـ/1445م ، عاد ثانية إلى القاهرة التي طاب له المقام بها خاصة بعد أن قربه الكمال بن البارز أحد كبار رجال الدولة، فتهيأت له ظروف التدريس والعطاء في فنون كثيرة والتي كان يحضرها القاصي والداني من العامة والخاصة من شتى أنحاء مصر[2]، ظهرت مكانة وفضل أبي الفضل المشدالي مبكرا وهو طالب علم بتلمسان حيث تفوق على أقرانه وحتى شيوخه وشهد له معلمه ابن مرزوق الحفيد الذي كتب لوالده يقول "أنه قدم علينا وكنا نظن به حاجة إلينا فاحتجنا إليه أكثر"[3].

سمع منه لبن قطي كة عالمها البرهان بن ظهيرة، وبالشام سمع منه ابن قاضي

عجلون، وبالقدس الكمال بن أبي شريف وبالقاهرة الشهاب البيجوري والديسطي وابن الغز وغيرهم كثير، عرض علية القضاء بالشام ومصر ولكنه رفض[4]، ربما كان ذلك تحريا لما جاء في القضاء من ترهيب، ورغم علمه الغزير إلا أنه كان قليل التأليف فلا تذكر المصادر إلا شرحه على جمل الخونجي في المنطق[5]، توفي أواخر سنة 864 هـ/1460م في عنتاب (عين تاب) [6] بالشام، فكان حقا فضاء بجائيا علميا مؤثرا بشكل قل نظيره، ساد البلاد المصرية والشامية وحاز الاحترام من الحكام والرعية.

([1]) **المصدر نفسه** ، ج9 ، ص182.

([2]) **المصدر نفسه** ، ج9 ، ص 183.

([3]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج9 ، ص182.

وحدث عن ابن مرزوق كذلك أنه شهد لتلميذه بالتفوق وأنه كان سببا في اجتهاد شيخه حيث قال: " ما عرفت العلم حتى قدم إلينا هذا الشاب فقيل له وكيف؟ قال : لأني كنت أقول فيسلم لي قولي فلما جاء هذا شرع ينازعني فشرعت أتحرر وانفتحت لي أبواب المعارف، التنبكتي : **نيل الإبتهاج** ،ص542. بالأز ه س الدين السخاوي الذي قرأ عليه دروس الفقه المالكي بالأزهر الشريف سنة 852هـ/1448م طريقته الفريدة في التدريس مبديا إعجابه بها، حتى قال إن من لم يسمع دروسه " لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا رأى الناس بل ولا خرج إلى الوجود، السخاوي : **المصدر السابق** ، ج9 ، ص182. وقال عنه السيوطي أنه"ملأ الأسماع وصار كلمة إجماع وكان أعجوبة الزمان في الحفظ والفهم والذكاء"، **نظم العقيان** ، ص160. ولما دخل الرحالة أبي الحسن القلصادي (ت891هـ/1486م) مصر سنة 851هـ/1447م قاصدا الحج التقى بأبي الفضل فقرأ عليه جزء من كتاب المستصفى لأبي حامد الغزالي وأثنى عليه بقوله "الإمام الفذ في وقته ذي العلوم الفائقة والمعاني الرائقة لم أرى مثله في تحصيل العلوم وتحقيقها"، أنظر : **تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب**، تحقيق : محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص127.

([4]) السخاوي : **المصدر السابق** ، ج9 ، ص186.

([5]) البغدادي : **هدية العارفين**، وكالة المعارف الجديدة، اسطنبول، 1955، ج6، ص202.

([6]) عنتاب أو عين تاب قلعة تابعة لحلب تقع بينها وبين أنطاكية ، العودة إلى : ياقوت الحموي : **معجم البلدان** : ج4 ، ص176.

الملاحظ أن البجائيين الذين توجهوا نحو بلاد المشرق استطاعوا في الغالب فرض قدراتهم[1]، إن في المناصب التي تقلدوها أو في تخصصاتهم العلمية فتركوا بصماتهم في طرق التدريس في المساجد والمدارس والزوايا التي كانت فضاءً استطاعوا من خلاله إبراز تفوقهم، ولعل ذلك يعود إلى طبيعة تكوينهم ببجاية وبحواضر المغرب وإتمام تحصيلهم على شيوخ العلم ببلاد المشرق وسماعهم من العلماء، كما أن الحكام والسلاطين كان لهم الدور في هذا التألق البجائي بتقريبهم لأهل العلم ورعايتهم لشيوخه.

5- تخصصات النخب العلمية :

خصص ابن خلدون فصلا كاملا في كتاب العمران لأصناف العلوم وفصل في كل علم وقال أنها علوم حكمية فلسفية وأخرى نقلية وضعية وربط كثرتها بتوسع العمران فتحُل ما أشكل من المسائل والفنون[2]، هذه التخصصات والتآليف تعبر عن الوضع العلمي والثقافي وعن المرجعيات الفكرية والعقدية لأصحابها بعد سبر وقراءة تراثهم المكتوب.

([1]) ونظرا لكثرتهم و تأثيرهم ببلاد المشرق فقد اقتصرت على بعضهم فقط ولكي لا أقع في إجحاف الآخرين أذكر منهم هنا : أحمد بن محمد الشهاب البجائي (ت860هـ/1455م) أقرأ بالأزهر ثم بالباسطية الفقه وعلوم العربية والمنطق أخذ عنه المؤرخ شمس الدين السخاوي أنظره : **الضوء اللامع** ، ج2 ،ص181.

ودخل يحي بن عبد الرحمن العجيسي البجائي (ت862هـ/1457م) دمشق وحلب والقدس ، وأقرأ بالقاهرة والشيخونية وبجامع ابن طولون والأشرفية وغيرها من مدارس مصر، أنظر ترجمته عند : السخاوي : **المصدر السابق**، ج6 ، ص231-233 .

ودخل حمزة بن حسن البجائي من مواليد 839هـ/1435م مصر سنة 877هـ/ 1472م، حج مرتين استقر بالقاهرة أقرأ بالشيخونية وتولى الإفتاء إلى أن توفي ، درس عليه بعض الشيوخ كسعد الدين محمد السمديسي ، ولفضله أقر له سلطان مصر مرتبا من بيت المال وقبل شفاعته في أمور كثيرة وكلفه ببعض المهام ، التقى به السخاوي عند عودته إلى مصر من حجته الثانية ويعد خاتمة كبار فقهاء المالكية ببجاية كانت وفاته سنة872هـ/ 1467م أنظره في : **المصدر نفسه**، ج3، ص167، القرافي : **المصدر السابق**، ص65 التنبكتي : **نيل الإبتهاج**، ص 163.

وبرزت بالمدينة ومكة أسرة عبد القوي بن محمد بن عبد القوي (ت816هـ/1413م) الذي درس وأفتى وقال المقريزي أنه كان يتبرك به أهل مكة لصلاحه مات ودفن بمقبرة المعلاة بمكة ، السخاوي : المصدر السابق،ج4 ، ص302، وأنظر ترجمته كذلك عند : ابن ثغري : **المنهل الصافي** ، ج7، ص328-329، ابن العماد : **المصدر السابق**، ج6، 121 ،

وكذلك الشأن بالنسبة لولديه محمد بن عبد القوي المولود بمكة سنة781هـ/1379م تعلم على أعلامها وعلى الشيوخ الذين كانوا يرتادون البقاع المقدسة للحج من مختلف الأقطار فأخذ عن ابن خلدون وابن عرفة والزين المراغي ، ناب في العقود واستفاد منه السخاوي أثناء أدائه لفريضة الحج 825هـ/1421م ، غلب عليه الأدب ونظم الشعر ، مات في ذي الحجة 852هـ/1448م، صلي عليه بباب الكعبة ودفن بجانب والده بالمعلاة ، أنظره في : السخاوي : **المصدر السابق**، ج8، ص71-72، ابن العماد : **المصدر السابق**، ج5 ، ص289 .

ونفس الشأن لأخيه أحمد بن عبد القوي المولود بمكة سنة 797هـ/1394م، سمع من شيوخها أجاز له الشهاب الجوهري والهيثمي تولى الحسبة بمكة أسمع وحدث بها توفي في رجب 861هـ/1456م ، السخاوي : **المصدر السابق** ، ج1، ص353 ، وبرزت أختهم رقية بنت عبد القوي (ت874هـ/1469م)، يراجع : **المصدر نفسه**، ج4، ص 302.

([2]) ابن خلدون : **المقدمة** ، ص402 – 403.

قراءتي للنخب البجائية النشأة أو الاستقرار وحتى المرور (العابرون) خلصت فيهـا إلى التعـرف علـى 187 شخصية علمية ببجاية في الفترة المدروسة أفرزت ترتيبا حسب تخصصاتها أفضى إلى ما يبينه الجدول الآتي :

الفقه	العقيدة	علوم اللغة	الشعر والنثر	الحديث	أصول الفقه	علوم القرآن	التصوف	الرياضيات والهندسة	الطب	التاريخ	دون تخصص
120	34	28	26	22	22	13	12	6	5	4	24

الجدول : تخصصات النخبة العلمية البجائية

من خلال الجدول والشكل البياني التالي يظهر تفوق الفقه بشكل جلي فيأتي أولا بـ 120 مرة، جله مالكيـا فهو مذهب أهل المغرب والأندلس بسبب ارتحالهم إلى المدينة وأخذهم عن إمام دار الهجرة وتلاميذه من بعـده[1]، وتشجيع السلطة الحفصية لتدريس الفقه المالكي في الحواضر وحتى القرى والبوادي[2] خصوصا في المساجد في ظل تراجع العقيدة التومرتية والتخلي التدريجي عن الموروث الموحدي فيعود أهل بجاية لدراسة وتدريس المذهب بشغف كبير، و لم يكفهم ذلك بل توسعوا وتخصصوا فيه فكانت الرحلة إلى المشرق لملاقاة شيوخه والاطلاع على مؤلفاته ظاهرة ميزت طلبة العلم، فبرزت المدرسة الفقهية البجائيـة وكـان مـن روادهـا ناصـر الـدين المـشدالي (ت731هـ/1330م) محمد بن إدريـس البجـائي (ت 760هـ/1359م) وعبـد الـرحمن الوغليـسي (ت 786هـ/1384م) وأبي الفضل المشدالي (ت 864هـ/1460م)، وأستثني من هذا الكم من المالكية المشارقة الثلاثة الذين حلوا ببجاية الذين سبق ذكرهم والأندلسيين أبي جعفر أحمد اللبلي (ت691هـ/1291م) الـذي كـان شافعيا[3]، وأبي بكرمحمد بن سيد الناس (ت 659هـ/1260م) الظاهري المذهب[4]، وابـن معطـي الـزواوي (ت 628هـ/1230م) الذي كان مالكيا في بجاية وشافعيا في دمشق وحنفيا في مصر[5].

تأتي العقيدة وعلم الكلام التي تقوم على الجدل العقلي ومناقشة الحجة بالحجة بـ 34 شخصية وهي مكانـة معتبرة لهذا العلم في بجاية من ق 7هـ /13م إلى ق9هـ/ 15م مقارنة بالفترة الحمادية التي لم يكن فيها إلا ثمانيـة متخصصين فيه[6]، وربما يعود ذلك لارتباط العقيدة بالفقه وأصوله فنجد الكثير من هؤلاء جمع بين شـتى العلـوم الشرعية كعبد الوهاب بن يوسف بن عبد القادر (ت 686هـ/1287م) الذي كان له علم بالفقه وأصول الـدين والحكمة وبراعة في علم المنطق[7] للحجاج والبرهنة بالأدلة العقلية عن العقيدة الإسلامية مع أهل الكتـاب أو مـن

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص415.

([2]) ابراهيم حركات : **المرجع السابق**، ج2، ص204.

([3]) **المرجع نفسه**، ج2، ص 317.

([4]) **المرجع نفسه** ، ج2، ص321.

([5]) علي أحمد : **المرجع السابق**، ص224.

([6]) عمارة علاوة : «**مكانة الفكر العقدي في إنتاج العلوم والمعارف**»، ص228.

([7]) الغبريني : المصدر السابق، ص204.

المبتدعة[1]، لتصبح بجاية قبلة لدراسة العلوم العقلية بفضل مجموعة من المناطقة البجائيين الذين جمع بعضهم أكثر من خمس تخصصات كأبي عبد الله محمد بن علي القصري (ق7هـ/13م) من أهل الفقه وأصول الدين والفقه وله تقدم في علم التصوف والبراعة في العربية[2] وأبي العباس أحمد بن عثمان المتوسي (ت 644هـ/1246م) الذي درس بالمشرق ثم استقر ببجاية له علم بالفقه وأصول الدين والعربية والتصوف[3] وربما مما زاد في هذه المكانة مساهمة الأندلسيين بشكل مميز في هذا العلم وعلى رأسهم أبو الحسن علي بن ابراهيم الحرالي (ت638هـ/1240م) الذي مكث ببجاية مدة وقال الغبريني أنه أعلم الناس بأصول الدين وله تآليف في ذلك[4]، كما أن العقيدة الأشعرية تابعت انتشارها امتدادا للفترة الحمادية ثم الموحدية التي كان ابن تومرت أحد المساهمين في إدخالها إلى بلاد المغرب، وألف البجائيون في العقيدة أمثال محمد بن يحي الباهلي (ت 744هـ/1440م) الذي كتب "أسماء الله الحسنى"[5] وله كذلك "فرائد الجواهر في معجزات سيد الآوائل والآواخر"[6].

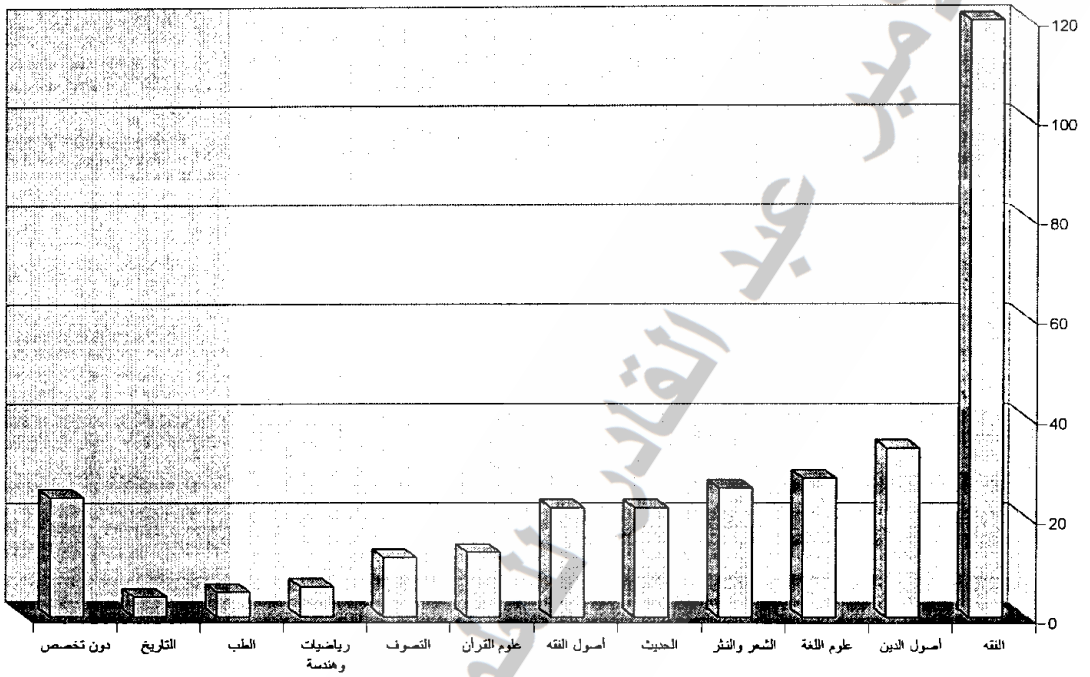

شكل بياني يبين تخصصات النخب العلمية البجائية

يظهر الشكل البياني والجدول أن علوم اللغة كان نصيبها 28 لغويا ونرجع هذه المكانة لارتباط العلوم الشرعية ومقاصد الشريعة بمعرفة صاحبها باللغة العربية وقواعدها، ونفس الملاحظة السابقة تشير إليها المصادر التي

([1]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص423.

([2]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص170.

([3]) **المصدر نفسه** ، ص171.

([4]) **المصدر نفسه** ، ص146.

([5]) ابن القاضي : **درة الحجال**، ص227، التنبكتي : **نيل الإبتهاج**، ص402 ،.

([6]) عمار جيدل : «**التأليف في درس العقيدة الإسلامية في الجزائر خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري**»، مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان، العدد الثاني، ربيع الأول 1426هـ/ أفريل 2005، ص249.

ترجمت لأهل اللغة من البجائيين، حيث تخصصوا في أكثر من علم إضافة إلى اللغة برزوا في الفقه والأصول وتألقت منهم فئة من النحاة واللغويين تدريسا وتأليفا ومناظرة على سبيل المثال لا الحصر ابن معطي الزواوي الذي قرأ النحو بدمشق ومصر وألف الألفية المسماة باسمه في النحو(ألفية ابن معطي)[1]، ومحمد بن الحسن بن ميمون القلعي (ت 673هـ/1274م) الذي انتقل من القلعة واستوطن بجاية وصفه الغبريني بأنه أحد علماء اللغة البارعين في بلاد المغرب كلها جمع بين النحو والأدب واللغة[2]، ومن الأندلسيين أبو الحسن علي بن مؤمن المعروف بابن عصفور (ت 669هـ/1299م) رحل من اشبيلية وسكن بجاية عرف بتفرده في النحو واللغة له كتب هي من أجل الموضوعات والتآليف ولفضله ضمه السلطان المستنصر الحفصي إلى مجلسه[3].

يأتي الشعر والنثر رابعا حيث سجلت 26 مختصا، البعض منهم كانوا فقهاء نظموا شعرا في الزهد والتذكير بالآخرة كالفقيه عبد المنعم بن محمد الغساني (ت 670هـ/1271م) الذي ولي القضاء ببجاية لفترة طويلة[4]، وكذلك الفقيه ابن الغماز (ت 693هـ/1293م) الذي تولى القضاء والخطابة بجامعها الأعظم[5]، وجمع إبراهيم بن ميمون الزواوي (ت 686هـ/1287م) بين الشعر والنثر وقد أعجب الغبريني بهما وقال أن نظمه حسن وكلامه في النثر مستحسن[6]. وأخذ شعر الزهد نصيبا أكبر ببجاية مع الشعراء المتصوفة الذين دعوا من خلاله إلى تنقية الأنفس من الأدران والمعاصي ومنهم المتصوف الأندلسي المولدأبو الحسن النميري الششتري (ت 668هـ/1269م) الذي ببجاية لفترة وقد أثنى صاحب عنوان الدراية على نثره وشعره الهزلي والزجلي[7]، وفي الوصف والإعجاب بالمدن نظم الشاعر القسنطيني الحسن بن الفكون (ق7هـ/13م) واصفا الحركة العلمية بالمدينة التي ضاهت برأيه

([1]) أنظره في : السيوطي : **بغية الوعاة**، ج2، ص344، **وكذلك : حسن المحاضرة**، ص255.

([2]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص94.

([3]) **المصدر نفسه**، ص266-267.

([4]) ومن شعره يرهب من اليوم الآخر :

ويوم يفر المرء من ولد له حبيب ولا يجزى أب بأبوته

ترى الناس فيه بين باك وصارخ وذاكر ما قد فات من فرط زلته

يراجع : الغبريني : **المصدر السابق**، ص125،123.

([5]) والذي نظم في ذكر الموت قائلا :

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة وأنت على سوء من الفعل عاكف.

أنظر : **المصدر نفسه**، ص129، 131.

([6]) **المصدر نفسه**، ص182.

([7]) ومما قاله الششتري :

يا قلب اصرف عنك وهم النقا وخل عن سرب حمى حاجرِ

يراجع : الغبريني : **المصدر نفسه**، ص210-211، ونقل لسان بن الخطيب عن الغبريني بعض من الترجمة أنظرها في : **الإحاطة** ، ج4، ص206.

العراق والشام[1]، نستنتج أن النثر والشعر في بجاية قد تعددت أغراضه بحسب الظروف، من السياسي إلى التصوف والزهد والغزل وغيره.

أصول الفقه كان نصيبها 22 شخصية بفضل مجموعة من البجائيين والأندلسيين الذين علا كعبهم في الأصول ومن أبرز شيوخه عبد الرحيم بن عمر اليزناسني (ق7هـ/13م) درس ببجاية الفقه وأصوله على طريقة الفخر الرازي وأبو حامد الغزالي[2]، له علم بأصول الفقه إلى أن وصل درجة الإجتهاد[3]، ومعاصره عبد الحق بن الربيع الأنصاري (ت 675هـ/1276م) البجائي المولد والدراسة الذي تخصص في الكثير من العلوم ومنها أصول الفقه[4]، ومن القرن 9هـ/15م عيسى بن أحمد الهنديسي (ت 890هـ/1485م) الذي شهد له السخاوي بالفروسية والتقدم في هذا العلم تولى الخطابة بالجامع الأعظم ببجاية[5] .

يأتي الحديث بـ 22 شخصية اشتغلت به، ومن المشهور أن بلاد المغرب لم تعرف شيوع علم الحديث مما أنجر عنه رحلة المغاربة إلى المشرق لأخذه عن المحدثين[6]، والقراءة التي استنتجتها هي أن غالبية أهل الحديث في بجاية كانوا من الأندلسيين، وربما يعود ذلك لعلو شأن المدرسة الأندلسية في الحديث في التكوين علما أن ثلة منهم قرؤوا بها ثم رحلوا إلى بلاد الشام ومصر لإكمال السماع على شيوخ هذا العلم، ويأتي على رأس هؤلاء أبو الخطاب عمر بن دحية (ت 633هـ/1235م) من الحفاظ والثقاة وكبار المحدثين والذي أسمع دروس الحديث لطلبة بجاية عند مروره بها نحو المشرق[7]، أما المحدثين فلم نعثر إلا على واحد وهو أبو بكرمحمد بن سيد الناس (ت 659هـ/1260م) المحدث الحافظ لأكثر من عشرة آلاف حديث بمتونها وسندها وعارفا بأسماء الرواة وتواريخهم، أقرأ ببجاية وولي الخطابة بالجامع الأعظم ولمكانته العلمية ضمه المستنصر الحفصي إلى مجلسه[8]، أما من البجائيين الذين اهتموا بعلم الحديث فنذكر علي بن أبي نصر البجائي (ت 652هـ/1254م) قرأ بالأندلس ثم رحل إلى

([1]) بقوله : دع العراق وبغداد وشامهما فالناصرية ما إن مثلها بلد
بر وبحر وموج للعيون به مسارح بان عنها الهم والنكد
حتـ ـم الهوى والهواء الطلق مجتمع حيث الغنى والمنى والعيشة والرغد
يراجع : الغبريني : **المصدر السابق**، ص280.

([2]) ابراهيم حركات : **المرجع السابق**، ج2 ، ص332.

([3]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص223 ، ووقع تصحيفا عنده باليزناتي .

([4]) **الغبريني : المصدر السابق**، ص86 .

وأصول الفقه هي النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام و التآليف من القرآن والسنة النبوية، أنظر التعريف في : ابن خلدون : المقدمة، ص418.

([5]) **الضوء اللامع**، ج 6 ، ص151.

([6]) عمارة علاوة : **المرجع السابق**، ص226.

([7]) الغبريني : **المصدر السابق** ، ص228.

([8]) المصدر نفسه، ص 247 ، ابن مخلوف : **المرجع السابق**، ص194.

المشرق واستقر ببجاية لتدريس له علو سند في الحديث بخاري صحيح البخاري[1]، وعيسى بن مسعود الزواوي (ت743هـ/1342م) قرأ صحاح الحديث الستة على شيوخ الأزهر وشرح صحيح مسلم في اثني عشر مجلدا[2].

علوم القران والتفسير تتكرر 13 مرة فقط وهو شأن المغرب الأوسط ككل الذي طغت عليه الدراسات الفقية في جل فتراته التاريخية، من هؤلاء الثلاثة عشر أحمد بن محمد الصدفي (ت 674هـ/1275م)، الذي كان له معرفة متبحرة بالقراءات وعرف بضبط الرواية قال عنه الغبريني"ما رأيت أتقن منه في القراءات"[3]، وكذلك الشأن بالنسبة ليحي بن موسى الغماري الذي انتقل إلى بجاية بعد 760هـ/1358م، قرأ بها له عناية وحرص بالقراءات بشكل مستفيض[4]، وفي التفسير العلامة عبد الرحمن الثعالبي (ت 876هـ/1471م) درس على فقهاء بجاية، اختصر تفسير ابن عطية في جزئين[5]، وله تفسير للقرآن الكريم (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) انتهى منه سنة 863هـ/1458م اعتمد فيه على أكثر من مائة تفسير مما يدل على وجودها بالمغرب الأوسط[6]، ومؤلفات أخرى في علوم القرآن[7]، ولابراهيم بن فائد الزواوي (ت857هـ1453م تفسيرا للقرآن الكريم[8]، لكن المصادر لاتجيبنا إن كان كاملا أو لجزء منه أوبعض من السور أوالآيات.

حظي التصوف بـ 12 صوفيا ألفوا فيه وهو عدد معتبر، ونرجح أن المرجعية الصوفية البجائية للقرن 6هـ/12م التي مثلها القطب أبي مدين شعيب (ت 594هـ/1197م) وعبد الحق الإشبيلي (ت 582هـ/1186م) وأبي زكريا الزواوي (ت611هـ/1214م) سببا في بروز مدرسة صوفية بجائية انطلاقا من القرن 7هـ/13م تخرج منها الأخيار والصلحاء سواءا كان تصوفا سنيا[9]، كيحي بن زكريا القرشي (ت 677هـ/1278م)، الذي رحل إلى المشرق ولقي الشيوخ وأخذ عنهم علم الظاهر والباطن فتقدم في العلمين سكن وتوفي ببجاية[10]، ومن المغرب وصل بجاية واستقر بها أبو شعيب الهكسوري (ت 664هـ/1265م)، عرف بزهده، جمع بين التصوف والفقه

([1]) الغبريني : **المصدر السابق** ، ص142.

([2]) ابن فرحون : **المصدر السابق**، ص 283.

([3]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص108.

([4]) ابن الجزري : **المصدر السابق**، ج2 ، ص379.

([5]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج4 ، ص152 ، التنبكتي : **نيل الإبتهاج**، ص258.

([6]) شوقي ضيف ، **تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)**، ط1، دار المعارف، القاهرة (دت)، ص98.

([7]) يحي بوعزيز : «أعلام و شيوخ المنطقة الجرجرية ودورهم في مقاومة الغزو الثقافي الأجنبي»، **نشر ضمن أعمال ملتقى أعلام البويرة**، 1426هـ/2005 ، ص8.

([8]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج1، ص116.

([9]) التصوف السني هو الالتزام بالقرأن والسنة النبوية وأخلاق السلف الصالح والابتعاد عن الخوض في القضايا الفلسفية ، الطاهر بونابي : **المرجع السابق**، ص103.

([10]) الغبريني : **المصدر السابق** ، ص119.

والأصول أقام ببجاية[1]، ومنهم الشيخ المتصوف محمد بن عمي الفرواصني (ت 882هـ/1477م) درس ببجاية وتلمسان ثم المدينة المنورة أكثر من ثلاثة أشهر، عاد إلى بجاية وأقرأ بجامعها الأعظم[2]، وبرز من هذا الاتجاه مجموعة من المتصوفة ببجاية نزعوا إلى مجاهدة النفس اقتداء بالسلف بإكثارهم من التعبد والتقشف في المأكل والمشرب والزهد في الدنيا وزخرفها، فصل فيهم أحد الدارسين بشكل مستفيض[3]. ومن أقطاب التصوف الفلسفي الذي يترع منتحليه إلى الكشف لإدراك الحقائق الإلهية ببجاية عبد الحق بن سبعين (ت 669هـ/1270م) الذي رحل إليها وسكنها وقرأ عليه الكثير ممن لقيهم الغبريني[4]، ناشرا مذهبه و طريقته في التصوف[5].

لم تحظ علوم الرياضيات والهندسة بالاهتمام الأكبر لطلبة العلوم الشرعية ولغياب تكوين مغربي المجال سال فإن من رصدنا تفوقهم درسوا بالمشرق كأبي الفضل المشدالي الذي تعمق في الرياضيات[6]، وكذلك الشأن لسليمان بن يوسف الحسناوي (ت 902هـ/1496م) المتفوق في الحساب والفرائض إضافة إلى علوم أخرى[7].

الطب لم يكن أكثر حظ فأحصيت خمس أطباء فقط واحتل التاريخ المرتبة الأخيرة بثلاث حالات فقط، فكان الفضل لقاضي بجاية أبي العباس الغبريني (ت 704هـ/1304م)[8] في التراجم معرفا بفقهاء وصوفية بجاية في القرن السابع الهجري ولمشيخته، وأفاد كثيرا في الحياة الثقافية وجزء من السياسية والاجتماعية والدينية وملامح اقتصادية للمدينة في القرن السابع الهجري[9]، وقرأ المؤرخ الأندلسي محمد بن أحمد بن شبرين (ت 747هـ/1346م) ببجاية

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص173-174 ، وانظره في : مجهول : **مفاخر البربر** ، تحقيق ، عبد القادر بوباية ، ط1 ، دار أبي الراقراق للطباعة والنشر ، الرباط ، 2005 ، ص،153، ابن الطواح : **المصدر السابق**، هامش ، ص169، المنوني : **ورقات عن حضارة المرينيين**، ص457-458.

([2]) التنبكتي : **نيل الإبتهاج**، ص556-557.

([3]) بونابي : **المرجع السابق** ، ص 109-112.

([4]) **عنوان الدراية** ، ص209 .

([5]) ابن الخطيب : **الإحاطة** ، ج4 ، ص32 ، وللتفصيل يراجع : التنبكتي : **كفاية المحتاج**، ص205 ، القرافي : **المصدر السابق**، ص137.

([6]) التنبكتي : **نيل الإبتهاج** ، ص 541-542 ، السخاوي : **المصدر السابق**، ج9 ، ص180 وما بعدها .

([7]) **المصدر نفسه** ، ج3 ، ص270.

([8]) تخطأ الكثير من المصادر والمراجع في وفاة الغبريني فبعضها يؤرخه بسنة 705هـ/ 1305م كابن القاضي في : **درة الحجال** ص12، والبعض الأخر يؤرخه 714هـ/1314م ، أنظر ذلك عند : عبد الحي الكتاني : **فهرس الفهارس**، دار الغرب الإسلامي ، تحقيق ، إحسان عباس ، 1986، ج2، ص 883.

([9]) ترجمت لصاحب عنوان الدراية الكثير من المصادر والمراجع مثل : ، **الوادي آشي** : برنامج الوادي آشي ، تحقيق : محمد محفوظ، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص 43 ، 44 ، 292، النباهي : المرقبة العليا، ص132، ابن فرحون : **المصدر السابق**، ص136، ابن قنفذ : **الوفيات** ، ص338-339 ، الفارسية ، 149، 158 ، 268،266، ابن خلدون : **العبر** ،445 ، 462، القرافي : **المصدر السابق**، ص46، ابن القاضي : **درة الحجال**، ص 12، ابن مخلوف : **المرجع السابق**، ص 215، كحالة : **معجم المؤلفين** ، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1414هـ/1993م، ج1، ص151 ، عبد الوهاب بن منصور : **أعلام المغرب العربي**، ج4 ، ص270.

على ناصر الدين المشدالي وأبي العباس الغبريني[1]،آخرهم عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ/1405م) عمل حاجبا ببجاية بين 766-767هـ/1364-1365م لينتقل بعدها إلى الحياة العلمية فنعرف المؤرخ والسياسي من خلال العبر والمنظر الاجتماعي في صورة كتاب العمران.

المنظومة الفكرية البجائية في تلك الفترة غلبت عليها التوجهات الفقهية خصوصا والعلوم الشرعية عموما وكانت أكثر اهتماما من العلوم الأخرى التي تفاوت المتخصصين فيها من علم لآخر و لم يحظ التاريخ خصوصا بالعناية الكافية لما له من تأثير على السلطة رغم أن بلاد المغرب عرفت في تلك الفترة بروز بعض الكتابات التاريخية التي طبعتها البصمة البلاطية، وقل المتخصصون في الطب والرياضيات والهندسة التي كان روادها من المشارقة والأندلسيين .

من خلال هذه القراءة للنخب البجائية أخلص إلى أن العامل السياسي يؤثر في الفضاء العلمي من خلال الامتداد تارة والتقلص أخرى للنخب العلمية، فقد وجدت مناطق جذبت هذه النخب إليها واحتضنتها السلطة بفضل تشجيعها لها بمختلف الطرق، إضافة إلى الاستقرار الأمني الذي عرفته من جهة ثانية والذي ساعدها على الإنتاج بكتاباتها وتآليفها وتقلدها للوظائف المتنوعة وهو مالمسناه في العناصر المتنقلة إلى تونس والتي كان السلاطين الحفصيين يعملون على تقريبها وتسخيرها في خدمتها، أو المستقرة ببلاد المشرق والتي لاقت الترحيب من السلاطين الأيوبيين بالشام ومصر من الأسرة الزنكية، والحظوة التي لقيها الأعلام البجائيين وتقديمهم في مناصب القضاء والتدريس والخطابة والإفتاء أو حتى المستقرة ببجاية خاصة خلال القرن 7هـ/ 13م أين سعت السلطة إلى تقريبهم وتشجيع الحركة العلمية بالمدينة، فأصبحت بجاية قبلة الشخصيات العلمية والفكرية خصوصا من الأندلسيين، إلا أن العاصمة السياسية للدولة الحفصية استأثرت بالكم الأكبر لاعتبارات عديدة، في حين توفرت عوامل سياسية طاردة لتلك النخب كما هو الشأن بالنسبة للأندلس بسبب الوضع السياسي المضطرب الذي عاشته وهو نفسه في العراق التي لم يدخلها ولا بجائيا واحدا بسبب احتلالها من قبل التتار، كما أن الصراع بين الولاة الحفصيين على حكم بجاية والذي امتزج بأطماع المرينيين والزيانيين فيها، كانت عوامل ساهمت في هجرة الكثير من نخبها، مما لى المنع انب السياسي على الوضع الثقافي، لكنهم عوضوا ذلك باندماج في الحياة السياسية والاجتماعية في البلدان التي رحلوا إليها.

(1) ابن الخطيب : الإحاطة،ج2 ، ص242.

الفصـــل الثالث

النخبة والسلطة في بجاية من خلال الجهاز الديني

أولا :

السلطة والخطط الدينية نجاح مقرون بالفشل

ثانيا :

التدريس بين وصاية السلطة والفضاء الحر للمدرسين

ثالثا:

المؤسسة القضائية تجسد الاستقلالية عن السلطة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : السلطة والخطط الدينية نجاح مقرون بالفشل

1- المساجد ببجاية بين الموروث القبلي والعناية الحفصية :

ارتبط المسجد في تاريخ المجتمع الإسلامي بالمدينة الإسلامية، فإلى جانب دار الإمارة أقيم المسجد الجامع الذي يعد أحد ركائز المدينة الإسلامية في العصر الوسيط، تعددت وظائفه من دينية أخلاقية واجتماعية وسياسة، يسمو إلى تهذيب سلوك الفرد المسلم وتزكية نفسه[1]، بهدف الحفاظ على وحدة جماعة المسلمين لقيامها بدورها الريادي في شتى المناحي، وهو الهيكل المادي الملموس للجماعة المسلمة.

لم تشد الدول المتعاقبة على المغرب الأوسط على هذا المنحى، فاهتمت بتشييد المساجد والوقوف عليها، خاصة الدولة الحمادية التي أثر عن أمرائها الحرص على العمران عموما والقصور والمساجد خصوصا، والجامع الأعظم الذي بناه المنصور (481-497هـ/1088-1103م)[2]، مسجد جامع جميل ذو شأن[3] شاهد على ذلك[4]، ولم يقتصروا عليه فحسب، فعلى رواية البيدق فإن ابن تومرت لما حط ببجاية نزل بمسجد الريحانة[5]، ونفس المصدر يذكر أنه تولى التدريس به قبل مجافاتها له[6]، كما ارتبط إنشاؤها ببعض القيادات العسكرية التي وصلت إلى الحكم، والتي افتقدت لأي شرعية تستند إليها لتبرير سلطتها فلجأت إلى تشييد المؤسسات الدينية محاولة منها لكسب عواطف العامة وجلب الفقهاء إلى صفها.

على نفس النهج جرى العرف الموحدي فقام ولاة بجاية على عهدهم ببناء مسجد القصبة الجامع، الذي كان يرتاده الولاة لأداء صلاة الجمعة[7]، وبعض المساجد الأخرى التي كانت بمبادرة من جماعة العلماء وتحت إشرافهم كجامع الموحدين الذي وجد في نفس الحقبة[8]، ويذكر الغبريني مسجد الإمام المهدي ومسجد أبي زكريا الزواوي (ت611هـ/1214م) والذي أقرأ بهما أبو الحسن الحرالي (ت 636هـ/1228م)[9].

تقام الصلوات الخمس والجمعة والصلوات المشهورة بالجامع الأعظم والقصبة، هذا النوع أطلقت علية كتب الأحكام السلطانية بالمساجد السلطانية، خاصيتها أنها كثيرة المصلين وتحت رعاية ورقابة السلطة[10]، تزامنا مع

([1]) أحمد أبو زيد : «فضل الأوقاف في بناء الحضارة الإسلامية» ، **مجلة التاريخ العربي**، العدد 13، ص329.

([2]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص232.

([3]) كما قال عنه برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1 ، ص414 ،

([4]) لم يعد له أثرا اليوم وصفه فيرو بشكل مفصل ، وقال أن منارته بلغت 60 قدما في علوها.

([5]) البيدق : **المصدر السابق**، ص31.

([6]) **المصدر نفسه**، ص32.

([7]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص140.

([8]) **المصدر نفسه** ، ص215.

([9]) **المصدر نفسه** ، ص151.

([10]) للتفصيل فيها يراجع كلا من : الماوردي : **الأحكام السلطانية**، ص171، الفراء : **المصدر السابق**، ابن خلدون : المقدمة ، ص210.

وجود مساجد للعامة[1]، لطبيعة روادها كما أن بناءها يعود إلى المحسنين من كبار التجار والفقهاء ورجال الصوفية، فهي خارجة عن إطار السلطة فكرة وتدعيما وإشرافا، وهو ما نلمسه بوضوح في بجاية من خلال المساجد المشيدة من قبل شيوخ الصوفية كمسجد أبي زكريا الزواوي المذكور آنفا ومسجد المرجاني الذي ينسب إلى الفقيه أبي زكريا المرجاني (ق7هـ/13م) الكائنين بحي اللؤلؤة[2].

بعض المساجد نسبت إلى فقهاء بجائيين كما هو الشأن للفقيه أبي فارس عبد العزيز (ت 686هـ/1287م) الذي قال عنه الغبريني أنه كان يلقي دروسه بمسجده الواقع بعين الجزيري[3]، ومسجد الفقيه عبيد الله بن يحيى الأزدي (ت691هـ/1291م)[4]، لأ هذه ا لنسبةلا تعي بـ لطر رورة أن المسجد تم بناؤه من أموال الفقيهين أو حتى في وقتهما، وأرجح أنها تعود إلى أنهما المتوليان لشؤون المسجدين إمامة وخطابة، أو أنهما دعيا إلى إقامتهما لحاجة أهل بجاية لهما وإشرافهما على هذا الإنجاز باعتبار الفقيه سلطة دينية مؤثرة في الرأي البجائي، وما يدعم هذا الرأي أن كتب التراجم لم تخبرنا على أن الفقيهين كانا من الأثرياء حتى يستطيعا بناء المسجدين، كما توجد لدينا إشارة إلى وجود مسجد النطاعين ببجاية لكننا نجهل موقعه بالنسبة للمدينة[5].

استمر الوضع كذلك على العهد الحفصي، وإن كنا نفتقر إلى مادة علمية دقيقة بشأن المساجد التي شيدها الولاة الحفصيون ببجاية، إلا أن ما عرف عن سلاطينهم اهتمامهم ببناء المساجد والحرص عليها بالحاضرة تونس خاصة على عهد السلطانين أبي زكريا وخليفته المستنصر[6]، تجعلنا نرجح أنها سياسة عامة انتهجها الحفصيون تجاه بيوت الله وامتدت إلى بجاية باعتبارها قلعة الملك الثانية بعد تونس[7]، كما قام ولاة بجاية بترميم المساجد القديمة الموروثة على العهد الحمادي والموحدي وتجديد أفرشتها والسهر على نظافتها[8].

نصل في النهاية إلى ما مجموعه اثنان وسبعون مسجدا في بجاية على العهد الحفصي[9]، أو سبعون على رواية أخرى[10]، ولا نستبعد صحة هذا الرقم الذي يبدو لأول وهلة كبير، إلا أننا نمتلك بعض النصوص التي تحيلنا إلى

([1]) الماوردي : **المصدر السابق** ، ص171.

([2]) الغبريني : **المصدر السابق** ، ص165.

([3]) **المصدر نفسه** ، ص 61.

([4]) **المصدر نفسه** ، ص121.

([5]) **المصدر نفسه**، ، ص161.

([6]) كبناء أبي زكريا لجامع القصبة الموحدي بالحاضرة تونس وتجديده للقصبة وبعد اكتمال بناء صومعة الجامع صعد إلى أعلاها وأذن بنفسه للصلاة، كان بداية الأشغال به سنة 628هـ/ وانتهي منه 633هـ/ ، أنظر : الزركشي : **المصدر السابق**، ص26-27.
كما أن الواثق أصلح جامع الزيتونة وجدد كسوته ، يراجع : **المصدر نفسه، ص41**.

([7]) كما سماها ابن فضل الله العمري : **المصدر السابق**، السفر 4 ، ص145.

([8]) سيدي موسى : **الحياة الفكرية في بجاية**، ص77

([9]) **دائرة المعارف الإسلامية** ، مج3، ص351.

([10]) سعد الله : **المرجع السابق**، ج1 ، ص34.
علما أن هذا الرقم يشمل بجاية المدينة دون أكوارها التي كانت بها جوامع ومصليات، حسب كتب التراجم التي تروي تولي الفقهاء التدريس بها لكننا لا نملك عينات عنها لسكوت المصادر عن ذكر أسمائها.

تبرير هذا الرقم، ومنها أن صوفية بجاية اهتموا ببناء المساجد في أحيائها التي وصلت إلى اثنين وعشرين حيا[1]، حيث يشير الغبريني في نص منقبي أن أبا زكريا الزواوي أينما نزل بحي من أحياء بجاية إلا وترك وراءه مسجدا أو معلما وكلها معروفة عند أهل بجاية ومشمولة ببركاته[2]، واعتقد أنها مساجد صغيرة معدة للصلوات يلتقي فيها المريدون من أتباع الشيخ لقراءة الأوراد والأذكار، كما أن ازدياد نمو سكان بجاية كان وراء اهتمام السلطة وأغنياء المدينة الذين عرف عنهم المبادرة إلى الخير و الإحسان بإقامة المساجد لاستيعاب المصلين[3].الدليل الآخر الذي نسوقه رغم أنه ينتمي إلى القرن العاشر الهجري إلا أنه يفيدنا هنا لقربه الزمني، وهي المشاهدة الحية التي يرويها الوزان عند زيارته لبجاية على أن المساجد منتشرة بأحيائها بشكل كاف لأهلها[4].

فمن تولى الوظائف الدينية ببجاية؟ ومن كان يعين هؤلاء الموظفين؟ و ما هي الشروط المتوفرة في الإمامة والخطابة والفتيا والتدريس ؟ و هل استقلت هذه الوظائف عن بعضها البعض أم أن هناك من جمع بينها كلها؟ هل خضعت هذه المساجد في ما كانت تقدمه من برامج إلى مراقبة السلطة؟ وهل استطاعت السلطة في بجاية أن تسخر الخطاب الديني في خدمة مشروعها السياسي من خلال احتوائها لفقهاء بجاية في هذه الخطط؟ أم استطاعت امة على كثرتها أن تخرج من سيطرتها من سيطرتها؟

2- الخطط الدينية ورقابة السلطة :

الإمامة :

وتعني إمامة المساجد والجوامع[5]، والتي اعتبرها ابن خلدون أرفع الخطط وأعلى الرتب جميعها حتى عدها أهم من المُلك[6]، يعود تعيين الإمام في المساجد السلطانية إلى السلطان نفسه[7]، وفي بجاية كان يعين من قبل قاضي الجماعة كما هو الشأن في تونس ولا علاقة له بالسلطان أو الوالي حسب الأبي[8]، لكن هذه القاعدة شدت في بجاية في حالة واحدة، حيث نُصب محمد بن قاسم الأنصاري (ت 728هـ/1327م) إماما وخطيبا بالجامع الأعظم

([1]) أهمها حي اللؤلؤة ، حي المذبح، حي باب البحر، حي باب أمسيون، وحي بئر مسفرة، حي رابطة المتمني، حارة المقدسي، أنظرها عل التوالي عند : الغبريني : **المصدر السابق**، ص165، 76، 80،69، 181، 186، 69.

([2]) **المصدر نفسه** ، ص136.

([3]) الوزان : **المصدر السابق**، ص102.

([4]) **المصدر نفسه**، ج2، ص50.

([5]) ويضيف إليها المشارقة المدارس الكبرى، القلقشندي : **صبح الأعشى**، ج11، ص222.

([6]) **المقدمة** ، ص210.

([7])وجرت العادة في المشرق أن يتم ذلك بنص التولية موقع من ولي الأمر أنظر نسخة من توقيع على تعيين الإمامة عند : **المصدر نفسه**، ج11 ، ص223.

([8]) عبد الرحمن عون : **الأبي وكتابه الإكمال**، ص89.

باتفاق من أهل المدينة لتقواه وورعه وتدينه[1]، ونعتقد أنها لم تكن الحالة الوحيدة في بجاية، أما المساجد الخاصة بقوم أو حي فيجوز تنصيبهم لإمامهم دون أخذ الإذن من القاضي أو السلطة القائمة[2].

توصلت إلى التعرف على ثلاثة عشر إماما ببجاية، وهو رقم لا يعبر عن حقيقة هؤلاء ببجاية بالنظر إلى عدد المساجد المنتشرة بالمدينة وطول الفترة الدراسة التي تقارب الثلاثة قرون، وذلك يعود برأيي إلى تركيز المصادر التاريخية بشتى أنواعها على الترجمة للولاة البجائيين والتركيز على الأحداث السياسية والعسكرية والمباشرين لشؤونها من حجاب وكتاب وقادة كما هو شأن ابن خلدون والزركشي، واهتمام كتب التراجم والبرامج بالشيوخ والفقهاء الذين كان لهم باع من العلم أو علاقات مع السلطة القائمة أو تقلدوا وظائف أكثر شأنا، وهو ما يتضح من الأئمة المترجم لهم في بجاية فجلهم لم يكتف بمنصب الإمامة فكانوا خطباء وقضاة ومفتين وشهود، وهو التقليد الذي جرى عليه سلاطين البيت الحفصي في تعيينهم لفقهاء كبار جمعوا بين المناصب المذكورة في جامع الزيتونة كأمثال ابن عرفة ثم بعده أبو مهدي عيسى الغبريني وأبو القاسم البرزلي[3].

للأسف فإن كل هؤلاء المترجم لهم جلهم كانوا أئمة للجامع الأعظم ببجاية والقلة فيهم بجامع القصبة في غياب المعلومات عن المساجد الأخرى، يعينهم الوالي البجائي وفي حالات من قبل قاضي الجماعة بها، ليؤكد ذلك مسؤولية السلطان عن الجامعين، ولعل فضل هذا الجامع (الأعظم) وتاريخيته منذ العهد الحمادي ومركزيته في المدينة ورحابته، جعل السلطة المحلية تعين له أفضل الفقهاء والشيوخ البجائيين ليكونوا أداتها لإيصال خطابها إلى رعيتها، دون الأخذ بعين الاعتبار الأصول الجغرافية للإمام إن كان بجائيا أم من الوافدين عليها خاصة من الأندلسيين الذين تصدر أكثرهم للإمامة والخطابة به على شاكلة أحمد بن إبراهيم الغساني (ت 726هـ/1325م) الذي جمع بين الوظيفتين في الجامع لأنه كان من أهل الفضل ببجاية[4].

لعل الجمع بين الإمامة والخطابة لأئمة المسجد الأعظم ومسجد القصبة الخاص بالسلطة مباشرة أجبرهم على تبني خطابها، علما أن الوالي البجائي وبقية أفراد الحكومة المحلية المصغرة عن البلاط بالحاضرة كانوا يرتادون الجامعين بانتظام، والغلبة لجامع القصبة الأميري لأداء صلاة الجمعة والأعياد والتراويح، وربما كانوا يحضرون بعض حلق العلم بهما[5].

إلى جانب الوظائف السابقة التي جمعها الإمام تولى بعضهم العدالة والتوثيق والشهادة التي تلزم صاحبها الاتصال المباشر بالقصر الأميري ويمثل ذلك الفقيه محمد بن صالح الكناني (ت 699هـ/1299م) الذي فاقت

([1]) ابن القاضي : **درة الحجال**، ص174.

([2]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص210.

([3]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص122، 139.

([4]) ابن القاضي : **المصدر السابق**، ص67.

([5]) ويورد الغبريني رواية قبل فترة الدراسة، تفيد أن الوالي الموحدي ببجاية كان يحي ليلة السابع والعشرين من رمضان بجامع القصبة مع الفقيه المقرئ محمد بن عبد الله المعافري (ق7هـ/13م) معجبا بقراءته وصوته، ورغم أن الرواية موحدية متأخرة إلا أننا لا نستبعد استمرار هذا التقليد الديني بأداء الفرائض من جهة والظهور بمظهر الحرص على الالتزام بالشعائر الدينية أمام الرعية من جهة ثانية، الغبريني : المصدر السابق، ص140.

إمامته بالمسجد الأعظم أكثر من ثلاثين سنة كان فيها إماما مباركا على البجائيين[1]، وتولى ابن الغماز (ت 692هـ/1292م) صلاة الفريضة بالمسجد الأعظم وقضاء الجماعة في نفس الوقت[2].

كما ارتبطت الإمامة بشكل واضح ببجاية بالتدريس وربما كان لذلك سبب آخر في أن يكون هؤلاء من كبار الفقهاء يتولون الإقراء بالجامع، وفي مقدمتهم محمد بن صالح الكناني، فقد قرأ عليه الغبريني بالجامع الأعظم واستفاد منه الكثير من العلوم التي أتى عليها في برنامجه وأثنى على طريقته، وكان من أكثر الشيوخ الذين أخذ عنهم وذلك يعود إلى طول مدته إماما بالمسجد الجامع[3]، ومثله الفقيه أبو إسحاق ابن عرافة (ق7هـ/13م) الذي كان له حلقة للتدريس إضافة إلى صلاة الفريضة والخطابة[4]، وتولى المحدث أبو بكر بن سيد الناس (ت 659هـ/1260م) الإمامة والخطابة بالجامع كما أنه "أقرأ وأسمع وكثر الآخذون عنه والسامعون منه والمقتدون به"[5].

يبدو أن الإمام كان له نائب ينوب عنه في أداء الصلوات الخمس، ويفهم ذلك من خلال نموذجين اثنين وهما الفقيه أبو النجم هلال بن يونس (ق7هـ/13م) الذي ناب عن أبي زكريا الزواوي (ت 611هـ/1214م)[6]، وأبو محمد عبد الله بن علوان (ت 7هـ/13م) الذي شغل نيابة الإمامة بالجامع الأعظم كذلك[7]، في حالة غياب الإمام لعذر أو مساعدته في خطبته، ويبدو أن النيابة كانت وظيفة ثابتة في الجامع الأعظم ومسجد القصبة، إضافة إلى أنهما لا يغلقان طيلة اليوم لكثرة الرواد عليهما للعبادة والدراسة وقراءة القرآن وهي خاصية الزهاد والصوفية الذين كانوا ملازمين للجامع الأعظم ماعدا أوقات الغَذاء والعَشاء[8].

في ظل اختلاف الفقهاء بين جواز أخذ الأجرة عن الإمامة والنهي عن ذلك[9]، فإنه من المرجح أن الإمام في بجاية كان يتقاضى أجرا، فرواية الغبريني وإن كانت لا تتصل مباشرة ببجاية إلا أنها حدثت في نفس الفترة بمراكش، حيث يروي عن الفقيه أبي بكر بن محمد بن محرز (ت 655هـ/1257م) والذي كان شيخ الجماعة الأندلسية ببجاية أن أحد أئمة مساجد بلنسية طلب من الفقيه أن يكلم الخليفة الموحدي بزيادة مرتبه بظهير يصدره وقد كان له ما أراد[10]، هذا المرتب لم يكف لسد حاجيات الإمام مما أجبر الكثير منهم الاعتماد على مدا خيل

---

(1) الغبريني : **المصدر السابق**، ص106.

(2) **المصدر نفسه** ، ص129.

(3) **المصدر نفسه**، 106-107.

(4) **المصدر نفسه** ، ص122.

(5) **المصدر نفسه** ، ص 247.

(6) **المصدر نفسه** ، ص169.

(7) **المصدر نفسه** ، ص262.

(8) **المصدر نفسه** ، ص170.

(9) الونشريسي : **المعيار**، ج1، ص131، ج7، ص475.

(10) بزيادة قدرها ستة دنانير ومُدين من القمح في كل يوم، العودة إلى : الغبريني : **المصدر السابق** ، ص244 ، وقدر بعيزق هذه الزيادة قفيزا وخمس القفيز من القمح أو الشعير و75من لحم الضأن و30 دجاجة جيدة بالإضافة إلى 60 مدا من القمح شهريا أي نصف القفيز ، وهي زيادة معتبرة عادلت أجرة القاضي أنذاك ، ولا ندري إن عممت على جميع الأئمة أم إستثناءً فقط للإمام المشتكي، أنظر : بعيزق : المرجع السابق، ص423

أخرى، وهو شأن إمام الجامع الأعظم أبو النجم هلال الغبريني (ق7هـ13م) الذي كان يسترزق من أرض يملكها بظهير من بني عبد المؤمن ببجاية[1]، علما أن هؤلاء ممن عدهم بن خلدون بأنهم لا تكثر ثروتهم لأن الحاجة لهم عند بعض الناس فقط، فلا يصح في قسمهم إلا القليل[2].

وعليه فإن ارتباط الإمامة بوظائف دينية وسلطانية أخرى أجبرتهم على التواجد بالقصر الأميري بالقصبة، كما أن خضوع الأئمة إلى تعيين من الولاة والقضاة في بجاية إلا في حالات استثنائية نادرة، وملازمة ولاة الأمر وحاشيتهم للصلاة في المساجد الجامعة، كل ذلك كان وراء قدرة السلطة على إدارة المساجد وتوجيه الخطاب الديني في مصلحتها، باستثناء المساجد العامة التي نفتقد إلى معلومات عنها.

الخطابة :

تكمن أهمية الخطبة في أنها الركن الثالث من أركان صلاة الجمعة التي هي فرض عين على كل مسلم، وتشتمل عموما على المواعظ التي يلقيها الخطيب على السامعين بالمساجد الجامعة، والذين ينصتون له حيث" يتكلم فتخرس الألسنة وتجف في فم الدار الأقلام"[3]، يستعمل أسلوب الترغيب تارة والترهيب أخرى"يقرع المسامع بالوعد والوعيد ويذكر بأيام الله"[4]، جعلها القلقشندي من أجل الوظائف وأعلاها مرتبة[5]، وربما أهميتها كانت سببا في اعتلاء الخلفاء للمنابر وأمرائهم في الولايات التابعة لهم في بداية أمر الدولة، ليتم التخلي عن المنبر بعدها للفقهاء[6].

واعتبارا من أن الخطابة هي "قياس مركب من مقدمات مظنونة من شخص معتقد فيه"[7]، وأن غايتها ترغيب جماعة المسلمين " فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم"[8]، فإنه وجب توفر صفات في الخطيب الناجح لإقناع جمهوره وتوجيهه الوجهة التي يريدها وينحى بهم إلى مايصبو إليه[9]، وهي المواصفات التي توفرت في الكثير من خطباء بجاية على شاكلة محمد بن إبراهيم الوغليسي (ق7هـ/13م) خطيب الجامع الأعظم الذي كان فصيح القلم واللسان[10]، وعلى خطاه سار محمد بن القاسم الأنصاري (ت 728هـ/1327م) خطيب نفس الجامع فكان كما

([1]) الغبريني : **المصدر السابق** ، ص169.

([2]) **المقدمة** ، ص365.

([3]) بتعبير لسان الدين بن الخطيب نقلا عن ، القلقشندي : **المصدر السابق**، ج11، ص222.

([4]) **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها.

([5]) **المصدر نفسه**، ج11، 222.

([6]) القلقشندي : **مآثر الإناقة**، ج2، ص230-231.

([7]) علي الجرجاني : **التعريفات** ، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ/.، ج1، ص134.

([8]) **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها.

([9])ومن هذه الصفات الفصاحة والبلاغة وسمو الأخلاق والعلم والإيمان بما يقوله، واعتبر الجاحظ أن رأس الخطابة الاستعداد الفطري أو ما أسماه (الطبع) وأن عمودها الدربة وجناحها رواية الكلام وحليها الإعراب وبهاؤها تخير الألفاظ، يراجع : **البيان والتبيين**، تحقيق، فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، 1968، ج1،ص38.

- وشدد البعض في أن يكون الخطيب عالما بالقراءات وبالأصلين، أنظر : السخاوي : **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، تحقيق : عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1993، ج2، ص529

([10]) الغبريني : **المصدر السابق**،ص 241.

الجامعة بني حسن صغير يليق بمقام اليوم وجلالة الوظيفة

يختار الخطيب ويعين عادة من السلطان أو الوالي كما هي العادة ببلاد المشرق والأندلس[3]، وجرى العرف كذلك على العهد الحفصي في الحاضرة تونس بتولية الخطباء من أولياء الأمر، ويأتي تعيين السلطان أبي إسحاق سنة 764هـ/1323م لابن مرزوق خطيبا بجامع الموحدين بتونس في نفس السياق[4]، وقد يعين الخطيب كذلك من قبل قاضي الجماعة[5]، ولم تخل الدولة التابعة للمركز عن هذا التقليد فقد قدم الأمير أبو عيد الله صاحب بجاية بتعيين العلامة ابن خلدون خطيبا ومدرسا بجامع القصبة سنة 765هـ/1355م[6]، وهو نوع من أنواع الوصاية التي فرضتها السلطة الحفصية في المركز أو في الدولة التابعة لها على هذه الوظيفة لإصباغ مبدأ الشرعية على هؤلاء الخطباء فهل كانوا في خدمة مشروعها السياسي؟ وأداة لإيصال خطابها لأهل بجاية أم لا؟ وماهي المساجد التي وصلتها السلطة بوصايتها؟ تمكنت من التعرف إلى ستة عشر خطيبا ببجاية، ولعل العدد كما هو شأن الأئمة لا يعبر عن الجمالي خطباء المساجد الجامعة والتي هي اثنتان :

أ- **جامع القصبة** :

الذي بني على العهد الموحدي كما أسلفت، يسمى كذلك بجامع الموحدين[7]، كان يرتاده الولاة للصلاة الجمعة والأعياد وبقية الصلوات[8]، يختار له أفضل الخطباء ويقدمون فيه على الجامع الأعظم إذا كانوا أكثر فقها وربما ولاءً، فالخطيب محمد بن عبد الله اللعاقري خطب في الجامعين لكن الوالي البجائي أوقفه على جامع القصبة الذي

([1]) **درة الحجال**، ص174.

([2]) يروى أن ابن العطاز أعجبه لباس الفقيه عبد الحق بن الربيع أحد خطباء الجامع الأعظم ببجاية في صلاة العيد فقال يصفه :

لبس البرنس الفقيه فباهى ورآه أن الليل فتاها

لو رزليخا رأته حين تبدله لتمنت أن يكون فتاها.

أنظر البيتين عند : ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج2، ص223.

([3]) أنظر في ذلك نسخة توقيع بالخطابة للجامع الأموي ببدمشق للفقيه زين الدين القارقي بخط الشيخ شهاب الدين الحلبي : القلقشندي : **صبح الأعشى**، ج12، ص69، وفي الأندلس يراجع الظهير الذي أصدره الأمير النصري أبو عبد الله محمد بن يوسف بقلم لسان الدين بن الخطيب بتولية النباهي خطيبا بجامع غرناطة إلى جانب قضاء الجماعة بها، **المرقبة العليا**، ص6، وكذلك : المقري : **نفح الطيب**، ج5، ص136-137، ابن الخطيب : **المصدر السابق**، ج4، ص89.

([4]) المقري : **المصدر السابق**، ج5، ص414.

([5]) أنظر في ذلك تقليد قاضي الجماعة بتونس ابن عبد الرفيع للفقيه محمد بن عبد الستار خطيبا لجامع الزيتونة، الزركشي، **المصدر السابق**، ص67.

([6]) ابن خلدون : **الرحلة**، ص95.

([7]) الخروبي : **المصدر السابق**، ص215.

([8]) **المصدر نفسه**، ص140.

كان يصلي فيه لما علم من فضله وجلاله وصالح عمله كما تقول الرواية[1]، واستمر الحال كذلك على العهد الحفصي، فكان الوالي وحاشيته يفضلون جامع القصبة ويختارون خطيبه كما أسلفت.

ب- الجامع الأعظم :

الحمادي الإنشاء أقدم من جامع القصبة وهو جامع المدينة كما أطلق عليه برونشفيك[2]، تداول على منبره ثلة من بجاية وأغزرهم علما، كان يصلي فيه أمير بجاية لكن في حالات معدودة، كانت الخطابة به سببا في شيوع الفضاء العلمي وذيوع صيت الكثير من الفقهاء، أمثال الخطيب أبو بكر بن سيد الناس الذي اشتهر بخطبه ودروسه التي كان يلقيها على أسماع أهل بجاية بالجامع حتى وصل صداها إلى الحاضرة الحفصية مما جعل السلطان المستنصر يطلبه إلى تونس ليضمه إلى مجلسه[3].

نظرا لأهمية المنبر في التأثير على الناس حرص ولاة بجاية على اختيار فقهاء يروونهم الأقرب إلى سياستهم وتعيينهم في المساجد الجامعة محاولة منهم لكسب عموم المرتادين للجوامع لأداء صلاة الجمعة من خلال الخطاب الموجه إليهم في خطبتي الجمعة والأعياد، ومحاولة منهم لتمتين علاقتهم مع المحكومين فإن سلاطين بني حفص ألزموا الخطباء الدعاء لهم على المنابر في خطب الجمعة والأعياد، وإن كان ابن خلدون عدها من شارات الملوك ورموز الدولة[4]، ولا يستبعد الدعاء للوالي الحفصي ببجاية بعد السلطان وهي صفة الدول المتغلبة[5]، واعتبرها أحد الباحثين من الرموز السياسية التي تجسد قوة السلطة في محاولة منها لفرض هيبتها من على المنبر[6]، وامتد حرص سلاطين بني حفص في ذكرهم عل المنابر إلى كامل المغرب الأوسط بعد أن تمت السيطرة الكاملة عليه على عهد أبي زكريا يحيى (حكم 626-647هـ/1229-1249م) بالدعاء له على منابر تلمسان بعد دخولها سنة 640هـ/1242م، مقابل التخلي عن الحكم لبني زيان والالتزام بولائهم لتونس، وقد هون يغمراسن بن زيان من أمر الدعاء لبني حفص على منابر جوامع دولته وعدها من عاداتهم[7]، كما أن ذكر السلطان الحفصي المستنصر على منابر مراكش المرينية كان سببا في التقليص من حدة التوتر مع السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق، فقد خص خطيب جامع مراكش الفقيه محمد الكناني السلطان المستنصر بالدعاء له مقرونا بالسلطان المريني، وقد وفقت السفارة الحفصية وفرحت بهذا الفعل" فعظم سرورهم وانقلبوا محبورين مسرورين"[8]، ويعتبر هذا في التقاليد السياسية اعترافا ضمنيا بقوة الدولة الحفصية واتساع فضائها الجغرافي بمظاهر روحية.

([1]) الغبريني : **المصدر السابق** ، الصفحة نفسها.

([2]) **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** ، ج1 ، ص414.

([3]) الغبريني : **المصدر السابق** ، ص247.

([4]) **المقدمة**، ص253.

([5]) **المصدر نفسه**، ص254.

([6]) صابرة خطيف : **المرجع السابق**، ص118.

([7]) بقوله "تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاءوا" ، أنظرها عند : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص 254.

([8]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص240.

حرص الحفصيون على ذكر سلاطينهم وأمرائهم في المساجد الجامعة يدل على إدراكهم لأهمية الرابطة الروحية بينهم وبين رعيتهم وتوثيق صلتهم بالمحكومين، كما أنهم يعرفون مدى قدرة الخطيب على التأثير في السامعين لكونه قدوة لهم فما كان عليهم إلا السمع والطاعة لما يصدر عنه، وهي الخصلة التي اتصف بها البجائيون تجاه خطبائهم أمثال عيسى بن أحمد الهنديسي (ت بعد 890هـ/1485م) الذي ارتفع شأنه بين البجائيين فكان لبجاية "شيخها وقدوة أهلها"[1]، وربما كان ذلك وراء ترصد السلطة لمواقف الخطباء وأرائهم السياسية لمعرفة مدى ولائهم لها، وكان مجرد الشك في هذه الموالاة سببا في عزلهم، وهو الفعل الذي طال ابن مرزوق الذي أوقف عن خطابة جامع الموحدين بالحاضرة من قبل السلطان أبي العباس (772-796هـ/1370-1394م) بسبب شكوكه في موالاته لوالي بجاية أبي عبد الله أيام كان أبي العباس واليا على قسنطينة[2]، ومحاولة لكسب هؤلاء الخطباء إلى صفها دون عناء سعت السلطة إلى إسنادهم بعض الوظائف الدينية والسياسية إلى جانب الخطابة وهو ما يبرزه الجدول التالي :

(1) السخاوي : **المصدر السابق**، ج6، ص151.

(2) وكان السلطان أبو إسحاق قد عين ابن مرزوق خطيبا لجامع الموحدين بتونس سنة764هـ/1362م ، أنظر : المقري : نفح الطيب، ج5، ص414.

اسم الخطيب	الجامع المعين فيه للخطابة	الإمامة	الفتيا	التدريس	القضاء	العدالة (الشهادة)	الكتابة	المشاورة	السفارة	الحجابة
أبو عبد الله الكناني (ت699هـ/1299م)	الجامع الأعظم	X		X	X	X				
إبن الغماز (ت693هـ/1293م)	الجامع الأعظم	X			X				X	
محمد بن ابراهيم الوغليسي (ق7هـ13م)	جامع القصبة			X		X	X			
أبو بكر بن سيد الناس (ت659هـ/1260م)	الجامع الأعظم	X		X						
أبو العباس الغبريني (704هـ/1304م)	الجامع الأعظم			X	X			X	X	
عيسى بن أحمدالهنديسي (ت بعد 890هـ/1489م)	الجامع الأعظم (نيابة)		X	X						
محمد بن أبي القاسم المشدالي (ت866هـ/1461م)	الجامع الأعظم (نيابة)		X	X						
أحمد بن محمد الغساني (ت726هـ/1325م)	الجامع الأعظم	X								
محمد بن علي المرسي (728هـ/1327م)			X							
عبد الرحمن بن خلدون(ت808هـ/1405م).	جامع القصبة			X						X

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نلاحظ من الجدول أن هناك ثلاث خطباء جمعوا بين الخطابة والقضاء وهو شأن أبي عبد الله الكناني الذي ولي قضاء الأنكحة ونائبا لقضاة بجاية وكان أحد عدولها[1]، ولعل ثقة السلطة ببجاية فيه مرده إلى تفوقه العلمي وانضباطه في عمله وحب البجائيين له، وهي الأسباب التي أهلته للخطابة بالجامع الأعظم أكثر من ثلاثين سنة لم يتخلف عن أداء الجمعة يوما واحدا طوال تلك الفترة[2]، وعلى منواله سار الخطيب ابن الغماز والذي ولي قضاء الجماعة ببجاية[3]، وكذلك كان أبو العباس الغبريني (ت 704هـ/1305م)[4].

ويظهر الجدول اشتغال ثلاث خطباء بالفتيا، وهم عيسى بن أحمد الهنديسي[5]، ومحمد بن علي المرسي (ت 728هـ1327م)[6]، ومحمد بن أبي القاسم المشدالي (ت 866هـ/1461م) واعتقد أن خطبه ودروسه وفتاويه هي التي كانت وراء شهرته العلمية وحظوته عند السلطان الحفصي بتونس[7].

ارتبطت الخطابة بوظائف أخرى حتمت على أصحابها الحضور الدائم إلى القصبة مقر الوالي البجائي كالكتابة والمشاورة، ونجد في مقدمتهم خطيب مسجد القصبة محمد الوغليسي الذي كان كاتبا للرسائل بديوان الوالي كما أنه اشتغل موثقا لسجلات القضاة[8].

يلاحظ كذلك وصول خطباء إلى مناصب سياسية هامة في البلاط البجائي من خلال ثلاثة نماذج جمعت بين ما هو سياسي وديني، ولعل كفاءتهم العلمية وحنكتهم الإدارية وولاءهم للبلاط كان وراء ترشيحهم لنيلها، فالخطيب البجائي وقاضي الجماعة بها ابن الغماز الذي استدعاه المستنصر الحفصي إلى بلاطه وأدناه منه وزاد مكانة في مجلسه ليختاره سفيرا له عند السلطان المريني[9] لما توفر عليه من مقدرة على الإقناع اكتسبها من دربته على المنابر البجائية، وكذلك أبو العباس الغبريني الذي كلف بمهمة ربط حبل الوصال والمودة بين أبي البقاء أمير بجاية وأبي عصيدة السلطان بالحاضرة سنة 700هـ/1300، بعد الجفاء الذي عرفته العلاقات بين تونس وبجاية على عهد والده أبي زكريا الذي أعلن الانفصال بالثغر الغربي للمملكة الحفصية، والتي كانت سببا في نهايته المروعة، كما أنه كان مشاورا لأبي زكريا وابنه من بعده أبي البقاء في أموره السياسية وربما كان وراء سر نجاحه في حُكمه وانفصاله بالجهة الغربية وطول مدته في إدارة شؤونها فقد قال عنه ابن خلدون أنه " كبير بجاية وصاحب شوراها"[10].

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص106.

([2]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([3]) **المصدر نفسه**، ص129.

([4]) ابن القاضي : **درة الحجال** ، ص12.

([5]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج6، ص251.

([6]) ابن القاضي : **المصدر السابق**، ص192.

([7]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج8، ص290 .

([8]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص241.

([9]) **المصدر نفسه**، ص130.

([10]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص462.

يتبين من الجدول الجمع بين الخطابة والحجابة في شخص ابن خلدون الذي تولى خطابة جامع القصبة والتدريس به، كما كان حاجبا لأبي عبد الله والي بجاية الذي استدعاه للقيام عليها سنة 765هـ/1363م، وبما أنها تعني الاستقلال بالدولة على رأيه[1]، فإنه أسهم بشكل جاد في خدمة أميره بتدبير شؤونه السياسية والإدارية، كما أنه قام بدور الوساطة للسلطة البجائية مع شيوخ القبائل المتمردة عليها ونجح في كسب طاعتها وعودتها إلى دفع الجباية، واستمر كذلك إلى غاية دخول أبي العباس صاحب قسنطينة مدينة بجاية سنة 767هـ/1365م[2].

جل الخطباء اشتغلوا في الجهاز التعليمي من خلال تصدرهم للتدريس بالجوامع التي كانوا خطباء بها وحتى في غيرها من مساجد بجاية، وبالتالي فإن السلطة استطاعت أن تحتوي الخطباء من خلال رعايتهم المادية من الأجور التي كان هؤلاء يتقاضونها مما أكسب الخطابة صفة الوظيفة الرسمية برأي برونشفيك[3]، كما تم تقليدهم وظائف أخرى كانت سببا في كسب ولائهم وإن لم يكن ولاءً مطلقا، بعضهم أسهم بشكل واضح في ترسيخ سياسية السلطة وإنجاحها بتقلدهم لوظائف إدارية كالحجابة والسفارة،نية المي باشر هاجع الفقهاء الفقهاء كانت سببا في تحصيلهم للجاه والحظوة لكونهم أصبحوا أعوانا رسميين للسلطة بوظائفهم، فكانت النتيجة أن استطاعت السلطة إخضاع ما سماه أحد الباحثين النظام الشرعي الديني للنظام السياسي[4].

الفتيا :

عُرفت الفتيا بأنها بيان حكم الواقع المسؤول عنه أو بيان لحكم مسألة[5]، وأنها توقيع عن الله (عز وجل)[6]، وعلم الفتاوى من فروع علم الفقه هدفه تسهيل فهم الأحكام الصادرة عن الفقهاء للقاصرين[7]، ولأهمية المفتي فقد رتبه القلقشندي ثانيا بعد القاضي في تصنيفه لأصحاب القلم[8]، وهي الصفات التي اجتمعت في مفتيي بجاية الذين

([1]) **الرحلة**، ص95.

([2]) **المصدر نفسه**، ص96.

([3]) **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**،ج2، ص154.

([4]) **المرجع نفسه**، ج2، ص155.

([5]) الجرجاني : **التعريفات**، ج1، ص49.

([6]) ابن الصلاح : **أدب الفتوى وشروط المفتي وصفة المستفتي وأحكامه وكيفية الفتوى والاستفتاء**، تحقيق : رفعت فوزي عبد المطلب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1992،ص27.

([7]) القنوجي : **أبجد العلوم**، ج2، ص395.

([8]) **صبح الأعشى**، ج9، ص255.

- اشترط علماء الأصول فيه أن يكون مسلما، مكلفا، ثقة ومأمونا، متنزها عن ما يخدش المروءة، يراجع : ابن الصلاح : **المصدر السابق**، ص35.

- عارفا بالأحكام مع المقدرة على استنباطها من القرآن والسنة والإجماع وصولا إلى القياس إبراهيم بن علي الشيرازي : **الوصول إلى مسائل الأصول** : تحقيق : عبد المجيد التركي، (دون دار النشر والتاريخ)،ص123

- وشدد بعضهم في أن يكون مجتهدا جمال الدين القاسمي : **الفتوى في الإسلام**، تحقيق : محمد عبد الحكيم القاضي، قصر الكتاب، الجزائر، 1988، ص56.

عرفوا بسمو الأخلاق والتقوى والوقار[1]، على شاكلة داود بن مطهر الوجهاني (ق7هـ/13م) الذي يروي الغبريني أنه كان فائقا في قياس الأحكام إلى حد درجة الاجتهاد مصنفا إياه من كبار المفتين[2]، واتصف أحمد بن ادريس البجائي (ت 760هـ/1359م) بإلمامه بمذهب مالك[3] ومفتيا عليه ببجاية حتى لقب بشيخ الفتيا بها[4].

جل هؤلاء كانوا على دراية واسعة وإلمام وحفظ بكتب المذهب المالكي كالمدونة وشروحها، وهو ما يوافق ما ذكره ابن خلدون أن منصب الفتيا لا يعطى لصاحبه إلا بعد حفظ كل كتب المذهب وشروحه[5]، ولم ينكر ابن رشد على من قرأ المدونة والعَتبية وفهم ما ورد فيها مطابقة مع الكتاب والسنة والإجماع من الإفتاء[6]، وتكثر النوازل في المعيار عن حكم فتوى المقلد[7].

يتم تعيين المفتي من قبل السلطة الحاكمة في المركز أو ممثلها في المدينة الممثل في الوالي، وينطبق ذلك على المساجد الجامعة التي تشملها رعاية الحاكم فلا يجوز الإفتاء فيها إلا بإذن من ولي الأمر، ويورد الزركشي نصوصا عن تعيين السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (839-894هـ/1435-1488م) للمفتين بجامع الزيتونة الذين جمع بعضهم بين قضاء الجماعة والإفتاء كالفقيه أبو القاسم الوشتاتي القسنطيني (ت 846هـ/1342م)[8] لنكون أمام مفتيين رسميين بمناصب قارة يعينون من المركز، أما المساجد العامة فلا سلطة للهيئة الحاكمة على المفتين بها وهؤلاء يمثلون الفتوى كتخصص وعمل خيري لتبصير الناس بأمور دينهم بالإجابة النوازل الفقهية[9]، لكنه يحق للسلطان منع المفتي إذا ثبت قصوره وفتواه الناس دون علم وتضليلهم مخافة أن يتميع أمرها وينتصب لها الجهالة[10]، وهي

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص217.

([2]) **عنوان الدراية**، ص225.

([3]) علما أن المفتين ينقسمون إلى مفتي مستقل مطلق، ومفتي غير مستقل بإتباعه لمذهب معين ولا يخرج عنه في فتاواه وهو شأن المفتين ببجاية الذين كانوا على مذهب مالك في فتاويهم وجلهم مقلدين، للتفصيل في الموضوع يراجع : ابن الصلاح : **المصدر السابق**، ص36-46.

- وفصل ابن القيم الجوزية في أنواعهم بشكل دقيق فانظره في : **أعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (دت)، ج4، ص212-214، وكذلك : الشاطبي : **فتاوى الإمام الشاطبي** : تحقيق : محمد أبو الأجفان، ط2، مطبعة الكواكب، تونس، 1985، ص72-73.

([4]) ابن فرحون : **المصدر السابق**، ص138.

([5]) **المقدمة**، ص488.

([6]) **فتاوى ابن رشد**، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1407هـ/1987 ج3، ص 1274، 1275، وينقل عنه الونشريسي هذه الفتوى ويستدل بها على الجواز، ج11، ص219-220.

([7]) الونشريسي : **المصدر السابق**، ج10،ص30-31.

([8]) **تاريخ الدولتين**، ص135.

([9]) عبد الرحمن عون : **المرجع السابق**، ص79.

([10]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص211.

الظاهرة التي عرفها المغرب في القرن التاسع الهجري واعتبرها الونشريسي من المنكرات الكبيرة وأرجع سببها لقلة أهل العلم في زمانه، وينجر عنها ضياع الدين[1].

توصلت في دراستي إلى التعرف على واحد وعشرين مفتيا ببجاية توزع هؤلاء على عدة وظائف دينية وإدارية على النحو التالي :

اسم وتاريخ وفاة المفتي	التدريس	القضاء	الخطابة	المشاورة	التوثيق	الرسل	دون وظيفة
عبد المحسن الوجهاني (ت بعد 690هـ/1291م)	×						
ناصر الدين المشدالي (ت 731هـ/1330م)	×			×			
عمر بن عزون السلمي (ق7هـ/13م)				×			
يحي بن علي المهداني (ق7هـ/13م)	×			×	×		
يعقوب بن يوسف الزواوي (ت 690هـ/1291م)	×			×			
عبد العزيز بن كحيلا (ت 685هـ/1286م)	×						
محمد بن أحمد الأريسي (ق7هـ/13م)				×			
ابن تونارت الدكالي (ق7هـ/13م)						×	
داود بن مطهر الوجهاني (ق7هـ/13م)						×	
منصور بن علي الزواوي(ت بعد770هـ/1368م)	×						
أحمد بن إدريس (ت 760هـ/1359م)	×						
عبد الرحمن الوغليسي (ت 786هـ/1348م)	×						
سليمان بن يوسف الحسناوي	×	×					

(1) وقد أعطى أمثلة عن الفتاوى الضالة وأرجع ذلك إلى سكوت القائمين على أمر الأمة وعدم ردعهم، أنظر تفصيلا في ذلك : المعيار ج2، ص502-596.

(ت887هـ/1482)							
عيسى بن أحمد الهنديسي (ت بعد890هـ/1485)	×		×				
عمران بن موسى المشدالي (ت 745هـ/1344م)	×		×				
محمد بن يحي الباهلي (ت 743 أو744هـ/1342 أو1343م)	×	×					×
محمد بن أبي القاسم المشدالي (ت 866هـ/1461م)	×		×				
منصوربن علي بن عثمان الزواوي (حيا 850هـ/1446م)	×						
أحمد بن عيسى البجائي (ق8هـ/14م)	×						
محمد بن عبد القوي (ت 852هـ/1448م)	×						
محمد بن علي البجائي (ت 747هـ/1346م)	×						
المجموع 21	17	2	3	5	1	1	2

الجدول : الوظائف المسندة للمفتيين ببجاية

العدد لا يعبر بشكل دقيق عن إجمالي المفتين ببجاية، علما أن كتب النوازل ليست معيارا حقيقيا، حيث أن الكثير من المفتين لم تذكره هذه المصادر، مما أجبرنا على سبر كتب التراجم والطبقات محاولة منا للقيام بمسح شامل لكل المفتين ببجاية، ا ه ا لفتيا عملا بأثر السلف الذين اه الفتيا عملا بأثر السلف الذين كانوا يتهربون منها[1]، رغم القدرة العلمية لهؤلاء الفقهاء، فالبعض منهم وصل إلى درجة الاجتهاد في المذهب كناصر الدين المشدالي[2]، وسليمان بن يوسف الحسناوي (ت 887هـ/1482م) الذي كان يعلن ببلوغه هذه المرتبة[3]، حتى أنه كان يخالف أئمته في الكثير من المسائل الفرعية[4]. الملاحظة الأولية التي تبدو بارزة للعيان من الجدول هي أن جل المفتين ببجاية اشتغلوا بالتدريس فمن مجموع 21 مفتيا تولى سبعة عشر منهم التدريس لأهمية هذه الوظيفة وفضلها في تعريف البجائيين بدينهم في مختلف العلوم الشرعية، ولقد أسهم الكثير من الفقهاء المفتين

(1) ابن الصلاح : **المصدر السابق**، ص28.

(2) التنبكتي : **نيل الإبتهاج**، ص609.

(3) ابن القاضي : **درة الحجال**، ص437.

(4) السخاوي : **المصدر السابق**، ج3، ص270.

في ذلك فانبروا لتدريس كتب المذهب المالكي كناصر الدين المشدالي الذي عاد من المشرق بعلم غزير[1]، وكان له السبق في إدخال مختصر ابن الحاجب إلى بجاية وتدريسه لطلابه ومنها انتشر في أقطار المغرب[2]، يقول عنه ابن رشيد "شيخنا الإمام المفتي"[3]، وممن قرأ عليه بها التجيبي الذي سماه القاضي الأعدل والإمام المفتي[4]، وكان بها أحمد بن إدريس البجائي (ت 760هـ/1359م) الذي تميز بكثرة مجالس العلم التي كان يقيمها بمساجد بجاية ووفود الطلاب عليه من جل الأقطار وكان في تعليمه مجيدا، تخرج عليه الكثير من الفقهاء وعلى رأسهم عبد الرحمن الوغليسي[5]، تتلمذ عليه الأبي (ت 828هـ/1424م) ويسميه الشيخ الصالح المفتي، وكانت بعض فتاويه ترجح على فتاوى الإمام ابن عرفة[6]، ومن نفس الطبقة الفقيه المفتي المدرس أحمد بن عيسى البجائي[7]، تتلمذ عليه الوغليسي وأبو الحسن المنجلاتي وأبو القاسم المشدالي[8].

تعدى نطاق البجائيين في الإفتاء إلى العدوة الأندلسية في شخص منصور بن علي الزواوي (ت 770هـ/1368م) الذي انتصب للتدريس والفتيا بالمدرسة النصرية بغرناطة[9]، وقام قبلها بنفس الوظيفة بتلمسان، عرف بحذقه في الفتيا مدركا ومحققا برأي يحي بن خلدون[10]، ولعل الشغف إلى إعادة إقراء كتب المذهب المالكي بعد الحصار الذي فرض عليه في الفترة الموحدية جعل فقهاءه ينتفضون لتدريسه محاولة منهم لإحيائه في الأنفس والقضاء على الموروث الموحدي الفاسد عقائديا من منظورهم، و لم تقف السلطة حائلا دون ذلك رغم إعلان سلاطين بني حفص الأوائل خصوصا وراثتهم للفكر الموحدي كنظم سياسية ومذهبية وفكرية.

تولى مفتيان اثنان قضاء الجماعة ببجاية وهما سليمان بن يوسف الحسناوي لأكثر من سنتين مع التدريس إضافة إلى الإفتاء[11]، ومحمد بن يحيى الباهلي (ت 744هـ/1343م) في نفس الوظيفة والذي قال عنه ابن القاضي "المفتي الصالح الشهير"[12]، وقد أجاز العلماء فتوى القاضي واعتبروها من صلاحياته وفي نفس الوقت هو ملزم بتنفيذ ما أفتى به على رأي الجمهور[13]، وشدد البعض في أن فتواه لا تشمل إلا العبادات[1]، ولأن القاضي كان يعين من السلطان أو الوالي ويعزل من قبلهما فلا يستبعد أن فتاوى القضاة لم تسلم هي الأخرى من المراقبة.

([1]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص400

([2]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([3]) أحمد حدادي : **المرجع السابق**، ج1، ص297.

([4]) التجيبي : **المصدر السابق**، ص239.

([5]) ابن فرحون : **المصدر السابق**، ص138.

([6]) عبد الرحمن عون : **المرجع السابق**، ص136.

([7]) من فقهاء القرن الثامن له الكثير من الفتاوى في **المعيار**، أنظر بعضها في الصلاة، ج1، ص136، 282.

([8]) التنبكتي : **نيل الإبتهاج**، ص100، الحفناوي : **المرجع السابق**، ص321، نويهض : **المرجع السابق**، ص33.

([9]) ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج3، ص325.

([10]) **بغية الرواد**، ج1، ص132.

([11]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج3، ص270، التنبكتي : **المصدر السابق**، ص186.

([12]) **درة الحجال**، ص226، **جذوة الإقتباس**، ص226، ابن قنفذ : **الوفيات**، ص310.

([13]) ابن القيم : **المصدر السابق**، ج4، ص220.

ارتباطا بالقضاء ولتبحر بعض المفتين في الأحكام فقد كان لبعض القضاة في بجاية مشاورون، فيذكر الغبريني أن المفتي عمر بن عزون السلمي (7هـ/13م) كان مساعدا للقاضي عبد الله بن حجاج ومعولا عليه في استصدار أحكامه القضائية[2]، وجل اعتماد القاضي الأصولي كان على يحي بن علي المهداني في جلساته القضائية[3]، مما يدل على المكانة العلمية لهؤلاء الفقهاء المفتين.

انتصب للخطابة ثلاثة مفتين ببجاية والمقصود بهم عيسى بن أحمد الهنديسي (ت 890هـ/1485م) الذي تولاها في الجامع الأعظم الذي كان يستفتى به[4]، كان له علم بالفقه وأصوله مما أهله إلى مناظرة محمد بن أبي القاسم المشدالي في نازلة من النوازل احتكما فيها إلى مفتي تلمسان قاسم العقباني[5]، واعتلى منبر الجامع الأعظم مفتي بجاية عمران بن موسى المشدالي (ت 745هـ/1345م) صهر ناصر الدين المشدالي والذي عرف بطول باعه في الفقه، وامتد سنده العلمي إلى تلمسان التي خطب ودرس بها كذلك وعرف بقدرته على المناظرة والجدل، بعد أن طلبه صاحبها أبو تاشفين وقربه إلى مجلسه وأصبح من خاصته[6]، له فتاوى كثيرة نقلها الونشريسي في المعيار وأهمها فتواه للسلطان المريني أبي الحسن في اتخاذ الركاب من الذهب الخالص[7]، في ظل وجود كوكبة من الفقهاء بتلمسان إلا أن المشدالي أثبت مقدرته الفقهية في الفتوى، ليشكل فضاء علميا بجائيا في كامل المغرب الأوسط، كما انتصب محمد بن أبي القاسم المشدالي للخطابة بالجامع الأعظم مع الإفتاء والتدريس به[8].

استطاع البلاط البجائي أن يستقطب خمسة مفتين من أهل الشورى للحكومة البجائية المصغرة عن مركز القيادة بالحاضرة تونس، وربما لإجلال البجائيين لفقهائهم أسهم ذلك في إيصال الخطاب الصادر من القصبة إلى أهل المدينة عبر بعض المفتين كناصر لدين المشدالي الذي عد من أهل الشورى في المدينة[9]، ويعقوب بن يوسف الزواوي (ت 690هـ/1291م) أشهر مفتي في بجاية وصاحب شوراها حتى أن واليها كان يزوره بمنزله عرفانا وتقديرا، مما يبرز العلاقة الحميمة التي كانت بين السياسي والديني ببجاية في شخص هذا الفقيه[10].

([1]) جمال الدين القاسمي : **المرجع السابق**، ص63.

([2]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص218.

([3]) **المصدر نفسه**، ص220.

([4]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج3، ص151

([5]) التنبكتي : **نيل الإبتهاج**، ص298-299.

([6]) المقري : **أزهار الرياض**،ج5، ص30، **نفح الطيب**، ج5، ص223، التنبكتي : **المصدر السابق**، ص350-351.

([7]) أنظر الفتوى كاملة في : المازوني : **المصدر السابق**, ج1، ص253-260، الونشريسي : **المصدر السابق**، ج6، ص32 .

([8]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج8، ص290، التنبكتي : **المصدر السابق**، ص538.

([9]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص201.

([10]) **المصدر نفسه**، ص226.

ومما يدل على قدرة السلطة البجائية في احتواء بعض الفقهاء المفتين أنها عهدت للفقيه محمد بن يحي الباهلي (ابن المسفر) الذي كان "من فصحاء الفقهاء في الفتيا"[1]، بمهمة السفارة محاولة منها لتليين علاقاتها مع البلاط المريني فكان رسولها لصاحب بجاية إلى فاس[2]، ليسهم في النشاط الدبلوماسي الحفصي ببجاية ويكون حضوره بارزا في البلاط من خلال هذه السفارة[3]، علما أن الباهلي من الشيوخ الذين أخذ عنهم المقري ببجاية مبديا ثناءه عليه[4].

على تأثير المفتي البجائي الفضاء المحلي وبرز حضوره في المجالس السلطانية بالحاضرة تونس من خلال التواجد البارز لشيخ الفتيا ببجاية منصور بن عثمان (ت 850هـ/1446م) في مجلس السلطان أبي عمرو عثمان بقصبة تونس محرم 846هـ/ ماي 1442م[5]، تزامن وجوده في هذه الفترة بتونس مع خروج الشيخ ابن حجر زعيم قبيلة بني سيلين ضد الوالي الحفصي ببجاية ولا يستبعد أن السلطان استعمل الفقيه المفتي في محاولة للوساطة مع المعارضة القبلية التي انتهت باغتيال الوالي البجائي على يد شيخ القبيلة سنة 846هـ/1442م[6].

مفتيان اثنان لم يتقلدا أي وظيفة وهما سعيد ابن تونارت الدكالي (ق7هـ/13م) الذي استقر ببجاية قادما من المغرب الأقصى، عرف ترجيح البجائيين لفتواه على فتوى غيره لتضلعه في المذهب المالكي وحفظه للمدونة، زاهدا في المناصب التي عرضتها السلطة عليه متفرغا للعلم ونشره بين البسطاء من البجائيين[7]، وعلى سيرته نحا داود بن مطهر الوجهاني (ق7هـ/13م) الذي عده الغبريني من أكابر المفتين كان قوته من أرض له يخدمها بنفسه[8] معرضا عن ما تقدمه السلطة من وظائف وأجرة للمفتين، وإن كان الفقهاء أجازوا أخذ الأجر على الفتوى من بيت المال فإن كان له ذلك فلا يجوز له أخذ الأجرة من المستفتي مع جواز أخذ الهدية[9]، وهو رأي فقهاء المالكية خاصة إذا حبس المفتي نفسه لهذه المهمة دون سواها قاضيا وقته كله في الإفتاء وهي علة الجواز[10]. والراجح أن السلطة حاولت أن تقلد الإفتاء للمؤهلين بتعيينها لفقهاء كبار في المساجد الجامعة كناصر الدين المشدالي ومحمد بن علي

([1]) ابن قنفد : **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق نجاح عوض صيام، ط1، دار المقطم، القاهرة، 1422هـ/ 2002، ص96. وقد استعملت هذه النسخة التي رأيت أنها أحسن تحقيقا وكتابة من الطبعة الحجرية بداية من الفصل الثالث إلى نهاية البحث.

([2]) ابن الخطيب : **الإحاطة**، ج2،ص202.

([3]) كانت فصاحته وأمانته وعلمه وتقواه وإخلاصه سببا في ثقة السلطة به، ابن قنفد : **أنس الفقير**، ص96.

([4]) المقري : **نفح الطيب**، ج5، ص250.

([5]) الزركشي : **تاريخ الدولتين**، ص140.

([6]) **المصدر نفسه**، ص141.

([7]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص222.

([8]) **المصدر نفسه**،225.

([9]) ابن الصلاح : **أدب الفتوى**، ص69-70، البرزلي : **جامع مسائل الأحكام**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002.
ج2، ص633.

([10]) أحمد حسن : **نظرية الأجور في الفقه الإسلامي**، دار إقرأ، (دت)، 162.

البجائي ومنصور بن علي الزواوي، مما جعلها تظهر في صورة الحريص على حماية الفتوى من الجهال، وربما ساعدها على ذلك هامش الحرية الذي تركته أمام عودة المذهب المالكي والإفتاء عليه، مما نتج عنه شعور المفتي والمستفتي بنوع من السعة الفقهية في الفتاوى التي غابت عن المؤسسات الدينية طيلة العهد الموحدي.

قراءتي للمسائل الواردة في كتب النوازل جعلتني ألاحظ غياب شبه كلي لفتاوى السياسة الشرعية المتعلقة خصوصا بشرعية الحكم القائم على توريث الولاية للبيت الحفصي [1] كما نفتقد إلى نصوص حول الصراع القائم بين أفراد هذا البيت والذي نتج عنه سفك دماء الناس، بل العكس من ذلك ذهب ابن عرفة إلى عدم جواز نقض البيعة لبني حفص ويستدل بحادثة وقعت في بجاية من أحد عدولها والذي أعلن البيعة لأحد أفراد آل البيت فاعتبره نه قدم ا لبيعة لي لأمر بجاية ثم نكثها نكثها [2]، كما نتساءل عن موقف هؤلاء المفتين من التحرشات المستمرة للزيانيين والمرينيين على مدينة بجاية؟

نفتقد كذلك إلى فتاوى تبين موقف الفقهاء من إسداء الوظائف لغير أهلها خاصة الدينية لعظم شأنها كالخطابة والقضاء والشهادة والإمامة والتدريس، واستعمال الوساطة لتقلد المناصب وهي الظاهرة التي أقرها الزركشي بتونس في تولية القضاء [3]، وانتشار ظاهرة انتصاب الجهال أصحاب الجاه والمال لهذه الخطط وإبعاد العلماء والتي اعتبرها الإمام البرزلي بدعة محرمة سببها فساد الأمراء والسلاطين وسكوت العلماء [4]، و لم تسلم الفتيا فتعرض لها من هم ليسوا أهلا لها من حفاظ الكتب في غياب أئمة وشيوخ المذهب المالكي [5].

وتغيب الفتاوى التي توضح موقف الشريعة الإسلامية من الضرائب والمكوس التي كانت تفرضها السلطة على القبائل، وسكوت الفقهاء عن الأموال التي تنفق على شيوخ القبائل لضمان طاعتهم وولائهم لها، ومن هو أحق بها أهي الرعية التي عانت أحيانا كثيرة من الفاقة والأمراض أم زعماء القبائل المتمردة عليها؟ أم أن الفقهاء تعرضوا إلى كل ما ذكرته ولكن النصوص لم تصلنا في ظل هيمنة دواليب السلطة على الكتابة التاريخية؟, وما يرجح هذا

([1]) وعن مكانة المدرسة البجائية في الفتوى من خلال كتب النوازل والتي يتقدمها أبي مهدي عيسى الغبريني قاضي الجماعة بتونس بأربع وثلاثون فتوى ، ثم من نفس الأسرة المفتي أبي القاسم الغبريني بواحد وثلاثين فتوى ثم عبد الرحمن الوغليسي بسبع وعشرين فتوى، أنظر :
Allaoua Amara: « quelques aspects de la vie économique au Maghreb central d'après les consultations juridiques rendues par al-Waglisi, » *Journal des sciences*, 4 (2005), p24-25.

- ومن أبرز هذه الفتاوى مقدمة عبد الرحمن الوغليسي الموسومة بـ«الوغليسية» وهو مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 591 ، في 14ورقة بخط مغربي واضح ومقروء ، وللوغليسية شروح كثيرة من شيوخ بجائيين وغيرهم ومما عثرت عليه منها شرح أبو يزيد عبد الرحمن الصباغ الذي سماه " **عمدة البيان في معرفة فرائض الأحكام**"، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 596 في 195ورقة.

- وقد حققت ونشرت أنظر: حفيظة بلميهوب : **الإمام أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي آثاره وآراؤه الفقهية مع تحقيق المقدمة الوغليسية في الفقه**، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007 .

([2]) وقد أنكر الرجل ما رمي به وأفتى ابن عرفة بأنه كمن هم بالمعصية و لم يفعلها فأطلق سراحه، أنظر : الونشريسي : **المصدر السابق**، ج10، ص5.

([3]) أنظر طريقة تولية الفقيه ابن عبد الرفيع قضاء الجماعة بتونس سنة 749هـ/1348م كما رواها الزركشي : **المصدر السابق**، ص88.

([4]) **المعيار** : ج2، ص491-492.

([5]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص391.

الاحتمال هو وجود بعض الإشارات التي تدل على أن الكثير من المفتين وقفوا في وجه السلاطين إحقاقا للحق ورفضا للواقع القائم، فقد ذكر الغبريني عن الفقيه المفتي عبد المحسن الوجهاني (ت بعد 690هـ/1291م) أنه كان يرفض لقاء الولاة البجائيين زاهدا عن عروضهم ومتمنعا عن شهوات الدنيا، وكانت فتاويه مشهورة ومرجحة عند البجائيين[1]، كما سُئلَ الفقيه البجائي أحمد بن عيسى بن علي البجائي (ق 8هـ/14م) بفاس عن تحبيس السلطان المريني أبي العباس أحمد لجنان ملك لصاحبها على ضريح جده فأجاب ببطلان فعله وعدم جوازه[2]، وهذه مهمة الفقهاء الذين كلفوا بالنصح للأمراء والسلاطين ونهيهم عن المنكر دون خوف ولا محاباة.

لعل سطوة السلاطين وبطشهم كانت سببا في سكوت المفتين عن الوضع القائم في ظل التطاحن بين الدول الثلاث التي ورثت مغرب ما بعد الموحدين، وسعي كلا منها إلى توسيع رقعتها على حساب الأخرى جعل الفقهاء يقفون مع الأقوى مخافة الفتنة وحفظا لدماء المسلمين، و لم يثبتوا شرعية سلطة على حساب أخرى بدليل أن أهل الشورى والفتيا والقضاة البجائيين لم يقفوا في وجه السلطان أبي الحسن المريني عند دخوله بجاية سنة 747 هـ/1346م، بل خرجوا في استقباله مع حاجب المدينة فارح مولى ابن سيد الناس، ويفهم من رواية ابن خلدون أن السبب في هذا الموقف هو رهبتهم من السلطان ورغبة فيه[3]، ولكن وبالنظر إلى المصلحة الشرعية فإن تغليب سفك الدماء كان الأولى بالمواجهة مع سلطة متغلبة، ولعلها نظرة أهل الفتيا في بجاية لأنه تعوزنا نوازل في هذا الموضوع، نفس الموقف اتخذه أهل الشورى والفتيا في تونس الذين أدوا مراسيم الولاء والطاعة لأبي الحسن لما دخل عاصمة الحفصيين في جمادى الأخيرة سنة 748هـ/1347[4].

ما يزيد ترجيحنا لفكرة أن المفتين ببجاية لم يدعموا سلطة على حساب أخرى موقف الحياد الذي اتخذه مفتي بجاية أحمد بن إدريس حيال اغتيال المولى فارح حاجب الوالي البجائي أبي عبد الله في دار المفتي بعد الثورة التي قادها ضد الوجود المريني في بجاية بداية 754هـ/1353م وفشلها، فاضطر اللجوء إلىفتيا الفتيا للحماية، لكن سلطة صنهاجة المتحالفة مع المرينيين تتبعته إلى الدار لتتم تصفيته تحت أنظار أحمد بن إدريس الذي لم يبدي أي موقف تجاه الفعل[5]، مما يثبت أن القليل من كبار المفتين تحولوا إلى مفتين رسميين للسلطة.

([1]) الغبريني : **المصدر السابق، ص222.**

([2]) أنظر الفتوى في: المعيار، ج7، ص304-305.

([3]) العبر، ج7، ص356.

([4]) المصدر نفسه، ج7، ص357.

([5]) المصدر نفسه، ج7، ص384.

ثانيا : التدريس بين وصاية السلطة والفضاء الحر للمدرسين

سعى أهل المغرب الإسلامي في نشر التعليم منذ القرون الأولى لفتحه[1]، وصنفوا تسهيلا لذلك مصنفات في فضل العلم وصفات المتعلم والمعلم وطرق تأديب الصبيان من أهمها مؤلف الفقيه المالكي محمد بن سحنون (ت 256هـ/869م) الموسوم "آداب المعلمين"[2]، ليحدو حدوه أبو الحسن القابسي (ت 403هـ/1012م) مستعرضا لأقوال فقهاء المالكية خصوصا ومستندا بشكل بارز لتنظيرات سحنون وبشيئ من التوسعة مطلقا على مؤلفه "الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين"[3]، وألف الكثير من الفقهاء في المشرق والمغرب تآليف في هذا الشأن[4].

اعتبر التعليم واجب ديني في البداية ليصبح بعد عدة قرون وظيفة وحرفة خصوصا بانتشار المدارس، أوكلت مهمة التدريس للفقهاء الذين تختلف شروطهم بتعدد مستويات التعليم وتدرجها، ومن خلال النماذج التي عملت عليها في بجاية توفرت لدينا عينات من المدرسين الأساتذة الذين عرفوا بموسوعيتهم العلمية وانتهاء بالمؤدبين في الكتاتيب، ولا تخفى الصعوبات التي وجدتها في تصنيفهم بسبب قلة المعلومات التفصيلية عنهم، مما اضطرني إلى التمعن والنظر في مؤلفات المدرس ورحلاته العلمية وشيوخه وطلبته والإجازات التي حصل عليها لأتمكن من التعرف على قيمة المدرس وتصنيفه، فمن كان يعينهم؟ ما هي أشكال ومظاهر وصاية السلطة على التعليم بمختلف مراحله؟ وهل كان التعليم في خدمة المشروع السياسي؟

1- هيئة التدريس أية وصاية للسلطة عليها؟

([1]) في جهود فقهاء المغرب قبل القرن 5هـ/11م في التعليم عد إلى دراسة : محمد مهدي المسعودي : **العلماء والمعلمون بالمجتمع المغربي في القرون الإسلامية الأولى**، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، جامعة تونس 1، تونس، 1993.

([2]) محمد بن سحنون : **آداب المعلمين**، تحقيق : محمد عبد المولى، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

- وعن سحنون المؤدب أنظر ماكتبه : محمد الأمين بلغيث : **فصول في التاريخ والعمران في الغرب الإسلامي**، انتيرسنيي، الجزائر، 2007، ص24-27.

([3]) أبو الحسن القابسي : **الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين**، تحقيق : أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1986.

- وعن القابسي رسالته المفصلة، أنظر كذلك : الأمين بلغيث : **المرجع السابق**، ص31-33.

([4]) منهم : المحوي الحصري (ت 453هـ/1061م) في " **زهرة الأداب**"، و محمد عبد البر النمري (ت 458هـ/1065م) "**جامع بيان العلم وفضله**"، تحقيق : منير عبدة آغا، المطبعة المنيرية، القاهرة (دت)، وألف السمعاني (ت 562هـ/1166م) "**طراز الذهب في آداب الطلب**" وهو مفقود، وله كذلك "**أدب الإملاء والإستملاء**"، نشر : مكس ويلر، مطبعة ليدن، 1952، وكتب برهان الدين الزرنوجي (ت 571هـ/1175م) مؤلفه الموسوم "**تعليم المتعلم طريق التعلم**" وألف محمد بن إبراهيم الكناني (ابن جماعة ت 735هـ/1334م) " **تذكرة السامع والمتعلم في آداب العالم والمتعلم**".

تتضح علاقة التدريس بالسلطة بشكل جلي من خلال مراحل التدريس وفئة المدرسين[1]، الذين يتم تعيينهم في المساجد الجامعة من قبل الوالي البجائي، وإن تعذر عليه فالقاضي يقوم بالمهمة بدله[2]، ونفس السلطة مختصة بعزلهم[3]، للأسف المعلومات التي نملكها بتعيين هؤلاء تعنى بالمسجد الأعظم ومسجد القصبة فقط لما ذكرته من تعليلات سابقة جعلت السلطة الرسمية تولي اهتمامها بهما تعيينا ونفقة، علما أنه في هذه الفترة بتلمسان كان المدرسون يُنَصَبون بظهير سلطاني[4]، وهو نفس العرف الذي سارت عليه السلطنة الحفصية، بتعيين الأساتذة والمدرسين في المساجد وخصوصا في المدارس باعتبارها "رسمية لا تدرس إلا ما يراه السلطان يخدم مصلحة مذهبه"[5].

احتمل برونشفيك أن تعيين المدرسين كان يتم من السلطة وجوبا بهدف تكريس مذهبية الدولة[6]، وبالتالي اشتركت مساجد بجاية الرسمية مع المدارس الحفصية في صفة التعيين في ظل غيابها بالمدينة كما سبق وأن أشرت، وهو ما زاد المساجد أهمية في بداية الدولة بشكل خاص، ومحاولة من السلطة الحفاظ على المشروع السياسي الموحدي من خلال المسجد شأنه شأن المدارس، وإن كان ذلك لم يأخذ الصبغة الجبرية للحرمة التي يفرضها المكان من منظور ديني، وغياب نصوص صريحة تؤكد ذلك، كما أن الوضع في بجاية يختلف عن تونس التي اضطلعت فيها المدارس بدور مذهبي للدولة خاصة في القرن7هـ/13م، إلا أنه في بجاية لم أجد دليلا على أنها سارت على هذا ال ، بل بالعكس من ذلك فقد انبرى الفقهاء لتدريس كتب المذهب المالكي وعملت السلطة على تشجيع الفقه المالكي وتدريس كتب الفروع، وبقراءتنا للكتب المدرسة لا نجد أثرا لكتب ابن تومرت أو ما ماثله من مؤلفات مذهب الموحدين، مما نتج عنه بروز فقهاء بجائيين متضلعين في الفقه المالكي.

([1]) مرحلتان يمر بهما الطالب البجائي فمن التعليم الابتدائي في الكتاتيب التي لم يكن للسلطة عليها إشراف والتي سيطر عليها الأندلسيون، ينتقل الطالب في المرحلة الثانية إلى الزوايا والمساجد التي كانت تحت رعاية السلطة بنوع من التحفظ، وفيه من النجباء من تكون لهم حلقات خاصة بهم والبعض منهم يستمر في طلب العلم بالرحلة نحو الحواضر مشرقا ومغربا، وللاستزادة في موضوع التعليم ببجاية يمكن الاستئناس بالمصادر والمراجع والمقالات التالية : **برنامج مشيخة الغبريني**، ص، 307-323، الرعيني : **المصدر السابق**، ص، 173، التجيبي : **المصدر السابق**، ص272، محمد الطالبي : **المرجع السابق**، ص 187. ناصر الدين سعيدوني : « مدرسة بجاية الأندلسية ومكانتها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط (ق6-7هـ/12-13م) »، نشر ضمن : **السجل العلمي لندوة الأندلس**، القسم الثالث، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1996، ص88 محمد الباجي بن مامي : **المرجع السابق**، ص وما بعدها253، بوبة مجاني : «المدارس الحفصية : نظامها ومواردها»، **مجلة العلوم الإنسانية**، العدد12، جامعة منتوري، قسنطينة، 1999، ص، ص157-164، محمد عادل عبد العزيز : **التربية الإسلامية في المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1978.

([2]) سيدي موسى : **المرجع السابق**، ص72.

([3]) بوشامة : **المرجع السابق**، ص445.

([4]) عبد العزيز فيلالي : **المرجع السابق**، ج2، ص351، وهو شأن المشارقة الذين كانوا يعينونهم بظهير سلطاني، يراجع ذلك في : القلقشندي : **صبح الأعشى** : ج11، ص223، 225، 226.

([5]) بوبة مجاني : **المرجع السابق**، ص159.

([6]) **تاريخ افريقية في العهد الحفصي**، ج2، ص377.

أخذت السلطة في مراقبة المدرسين في المساجد صفة منع الجهال والمدعين للعلم من الانتصاب للتدريس[1]، كما راقبت الكتب المدرسة للطلبة مخافة احتوائها على ما يعارض الشريعة من بدع أو أهواء، ومنع كتب المذاهب الضالة و الدروس التحريضية المعادية للسلطة أو القائمة على العصيان، وكل هذه الأعمال كانت من اختصاص المحتسب، وأرجع أحد الدارسين ذلك إلى ضغط الرعية المالكية المذهب بزعامة الفقهاء على السلاطين الحفصيين، معتبرا عدم انتصار سلاطين وولاة بني حفص للمذهب الموحدي نزاهة وحيادية[2].ذلك لم يمنع الكثير من المدرسين مزاولة مهمتهم في هذه المساجد دون رخصة من قبل السلطة القائمة، أو ما يسمى إن صح التعبير (التعليم الحر)، وتحديدا لذوي الكفاءات العلمية أو الموصولين بجاه السلطة وإن كانوا قلائل، وهي الظاهرة التي أشار إليها ألفرد بال في كل الحواضر الحفصية[3]، فيروي الغبريني عن الفقيه عبد الله بن محمد القلعي (ت 669هـ/1270م) أنه كان رئيسا للديوان ومشاورا وشاهدا، لكنه استقال من منصبه وتولى التدريس بالجامع الأعظم مفتخرا بوظيفته الجديدة بقوله "حديث بدينار أشرف من دينار"[4]، رغم المكاسب المادية التي كان يجنيها من الديوان، مما يدل على أن السلطة لم تلاحق موظفيها المستقيلين من الوظائف الإدارية، كما أن بعض الفقهاء الأساتذة الذين اشتهروا ببجاية وهبوا أنفسهم للإقراء بمساجدها وعدم الارتباط بأي وظيفة أخرى دون مقابل مالي شأن عبد الرحيم اليزناسني الذي عرف بدروسه المميزة في الفقه بالجامع الأعظم، ورفضه لجراية السلطة ورد مال وطعام الوالي البجائي[5]، وتتضح الصورة جليا مع الفقيه أبي سعيد بن تونارت الذي لم يكن له ببجاية همٌ سوى" الاشتغال بالعلم"[6]، والذي عرف عنه نشوزه من المناصب التي تسديها السلطة للفقهاء وعدم اشتغاله بالحرف[7].

البعض من الفقهاء اتخذ داره مكانا للتدريس، والمسوغات التي يمكنني استنتاجها في ظل سكوت المصادر عن التصريح بأسباب ذلك أرجعها إما لتحفظهم من الأجر الذي كان المدرسون يقبضونه جراء وظيفتهم، وتحديدا الذين أُثر عنهم ميولهم إلى الزهد خاصة الصوفية منهم لغبريني في مترله، د المالقي الذي قرأ عليه الغبريني في مترله، والذي لم يكن بحوزته إلا قوت يومه وفي بعض المرات لم يكن عنده شيء[8]، فأين هي جراية السلطة على هؤلاء؟ علما أنها كانت تصل المدرسين بصفة رسمية بحوالي عشرة دنانير في الشهر، في المدارس و المساجد والجوامع بإقرار

---

(1) وهي الظاهرة التي لاحظها ونبه إليها الونشريسي واعتبرها من المناكر العظيمة، أنظر فتواه في ذلك في : **المعيار**، ج2، ص504.

(2) المهدي البوعبدلي : « الحياة الفكرية ببجاية على عهد الدولتين الحفصية والتركية وأثارها»، **مجلة الأصالة**، العدد19، ص 139.

– لكن ألا تُقرأ هذه الحيادية بمنطق "مجبرأخوك لا بطل" في ظل الضغط الممارس على هؤلاء السلاطين وصعوبة وقوفهم في وجه العامة تزامنا مع الظروف السياسية التي كانت تعيشها الدولة ي تلك الفترة.

(3) حتى في الحواضر التي انتشرت فيها المدارس، إلا أن التدريس دون تعيين من السلطة انتشر بشكل ملفت للنظر في البلاد الحفصية، يراجع، **الفرق الإسلامية**، ص361.

(4) **عنوان الدراية**، ص93.

(5) **المصدر نفسه**، ص223.

(6) **المصدر نفسه**، ص222.

(7) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(8) **المصدر نفسه**، ص100.

ابن عرفة بذلك على حد سواء[1]، تمول من أموال الأحباس والوقف و بيت المال وهي نفس موارد المال للمدارس الحفصية في تلك الفترة[2]، وربما يعود إعراضهم محاولة للتخلص من القيود التي يحسون بها في المساجد والتي كانت تحت رقابة الإدارة المحلية، والشغف لتدريس المذهب المالكي في المراحل الأولى و الذي تراجع في الفترة الموحدية.

التدريس كان يجلب الشهرة لصاحبه بين الطلبة والعامة ويحظى المدرس باحترام المجتمع البجائي وتبجليه، وحتى السلطة التي كانت تبحث عن الكفاءات العلمية لتنصبها في الوظائف التي تليق بها، في ظل الصراع القائم بين الدول الثلاثة والتباهي بمظاهر الملك، فأبوبكر بن سيد الناس (ت 659هـ/1260م) عرف بين البجائيين بدروسه المتميزة بالجامع الأعظم فكثر مستمعوه والآخذون عنه لفصاحة لسانه وجودة بيانه[3]، وسمع به المستنصر الحفصي فاستدعاه بالحضور إلى تونس[4]، وعينه مدرسا بالمدرسة التي أسستها أم الخلائف[5]، واستدعي أحمد بن عثمان المتوسي (ت 644هـ/1246م) من السلطان أبي زكريا إلى الحاضرة، بعد أن أقرأ وأسمع مدة ببجاية، فقُدم في المجلس وعرف فضله وعلمه بين الفقهاء التونسيين[6]، كما اشتهر ناصر الدين المشدالي وذاع صيته في المغرب الأوسط كله جراء دروسه المميزة التي كان يلقيها بمساجد بجاية، فارتحل إليه الطلاب من بلاد المغرب والأندلس للدراسة عليه وحق أن يوصف ببلاغة ابن الخطيب الذي قال فيه "روض العلم الذي أخضب جانبه و خاصره ففاز بلقائه ونهل من سقائه"[7]، فكان خطيبا ومفتيا ومشاورا[8].

ربما كان ذلك من الأسباب التي جعلت الكثير من الفقهاء يقبلون على التدريس وصولا إلى تقلد مناصب دينية أكثر فضلا وإدارية تؤهلهم لتحصيل جاه السلطة، بإقرار عبد الرحمن اليزناسني الذي جمع ستة آلاف دينار من وظيفته بالديوان والتي لا يتسنى للمدرس أن يوفرها، علما أن وظيفة التدريس لا تدر الشيء الكثير على صاحبها وليست مصدرا للثروة، فكان ذلك مبررا لقبول المدرسين المناصب التي وفرتها لهم السلطة، لتحسين مكانتهم الاجتماعية والسياسية، ليصبحوا أعوانها الدينيين والإداريين بشكل رسمي يساهمون في تنفيذ خططها، فإلى إي مدى استطاع هؤلاء الانسياق في خطط السلطة ببجاية؟ وهل كل من تقلد وظيفة يصبح بالضرورة خدوما لها؟ أم أن هناك نماذج تمردت على قراراتها و لم تنصاع لأوامرها؟ وإن كان فكيف كان مصيرها؟

([1]) بعيزق : **المرجع السابق**، ص433.

([2]) بوبة مجاني : **المرجع السابق**، ص162.

([3]) على حد تعبير الغبريني، ص247.

([4]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([5]) وهي المدرسة التي بحمام الهواء، ينظر فيها : ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص438، طالبي : **المرجع السابق**، ص188.

([6]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص171-172.

([7]) في ترجمته لأبي البركات البلفيقي الذي ارتحل إلى بجاية وسمع من ناصر الدين واستفاذ منه كثيرا، أنظر في ذلك : **أوصاف الناس**، ص29.

([8]) الغبريني، ص201.

من خلال قراءتي الإحصائية تعرفت إلى مائة واثنين من المدرسين ببجاية في الفترة المدروسة، وهؤلاء ينضوون تحت المدرسين المتخصصين، والذين زاوج الكثير منهم إضافة إلى التدريس وظائف أخرى مما سهل على السلطة دمج الكثير منهم في خدمة مشروعها والسريان في نسق سياستها، والجدول التالي يبرز تلك المزاوجة :

إجمالي الفقهاء المدرسين	الإمامة	الخطابة	الفتيا	القضاء	العدالة	التوثيق	الشهادة	المشاورة	الكتابة السلطانية	الحجابة	السفارة
102	10	15	15	34	13	7	5	11	2	1	10

الجدول : مزاوجة المدرسين ببجاية لوظائف أخرى

الملاحظة الظاهرة للعيان من الجدول أن القضاء هو الوظيفة الأولى الممارسة من قبل المدرسين ببجاية، ولعل ذلك يرجع لعلو شأن صاحب هذه الخطة، كما أن أغلب القضاة في أصلهم مدرسين أضيفت لهم هذه الوظيفة لتوفر الشروط الواجبة فيهم من علم وتقوى، وقد سَهل انعقاد مجلس القضاء بالمسجد المهمة لهؤلاء القضاة الذين كانوا كذلك أئمة وخطباء كما يبرزه الجدول، فالمدرس الواحد جمع بين عدة خطط دينية على شاكلة محمد بن صالح الكناني[1]، والفقيه أبي العباس الغبريني قاضي الجماعة ببجاية وخطيب المسجد الأعظم ومدرسه[2].

جمع الكثير من المدرسين بين خطط دينية وأخرى إدارية سمحت للسلطة باستمالتهم لها[3]، وتكوين علاقة ودية معهم لاستغلالهم في ربط علاقاتها أو تحسين صورتها من خلال السلطة العلمية وما كان يحظى به الفقهاء من منزلة عند السلاطين، فكانوا رسلها إلى بلاطات تلمسان و فاس وألمرية وحتى تونس، فكان الغبريني رسولا إلى الحاضرة[4]، والباهلي إلى فاس، عشرة سفراء من الفقهاء المدرسين، وهو عدد كبير يدل على استعمالهم بدلا من الحجاب والكتاب أو ما يمكن أن أطلق عليه الزمرة السياسية القريبة من الوالي البجائي، والذي أعرض عن جعلهم سفراءه في العواصم السابقة لعلمه مسبقا اهتزاز هيبتهم عند السلاطين، لما كان يحدث من سعايات وحتى مغريات وخيانات في البلاطات المغربية وسهولة انقياد هؤلاء أمام ما يقدمه البلاط الآخر عكس الفقهاء الأكثر ثباتا في مثل هذه المواقف.

جعل ولاة بجاية من أحد عشر مدرسا مشاورين لهم في أمورهم السياسية وحتى الشرعية لكسب ثقتهم، حتى وإن دعت الضرورة زيارتهم في بيوتهم كما فعل الوالي البجائي مع الفقيه المدرس المفتي والمشاور يعقوب بن يوسف الزواوي[5]، إلا أن ذلك لا يعني أن هذا التقدير كان في كل الحالات بأهداف سياسية، فقد الولاة عرف عنهم

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص104.

([2]) عرف عن الغبريني تدريسه لكتبه ككتاب "**المورد الأصفى**" وكتابه "**الفصول الجامعة**"، علما أنه من البجائيين الذين اشتهروا بالتأليف في علوم شتى دون أن ننسى " عنوان الدراية" الذي اشتهر به، يراجع : ابن القاضي : **درة الحجال**، ص12، وكذلك : **برنامج الوادي آشي**، ص43-44.

([3]) نماذج منهم عند الغبريني، ص85-89، 93، 112-113، 129-131.

([4]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص462.

([5]) الغبريني، ص226.

احترامهم وتعظيمهم للفقهاء وزياراتهم لهم بحسن نية ودون خلفيات، تبركا بهؤلاء وطلبا لدعائهم ونصيحتهم، فوالي بجاية أبو زكريا يحي على ما عرف عنه حبه للعلم والعلماء كما ذكر بن خلدون، كان يسر بلقاء الفقيه علي بن أبي نصر (ت 656 هـ/1258) ويرتاد داره بانتظام لفضله وعلمه ساعيا في قضاء حوائجه، علما أنه لم يرتبط بأي وظيفة في البلاط مكتفيا بالتدريس[1]. الإفتاء والمشاورة بالديوان لم تمنع الفقيه عمر بن عزون السلمي (ق7هـ/13م) من التجارة، والذي كان يملك متجرا بسوق قيسارية ببجاية لممارسة نشاطه التجاري، وعرف عنه تفوقه العلمي، وكانت دروسه مستحسنة بين طلبته[2].

الأطباء كذلك اشتغلوا بتدريس الطب واللغة العربية، في شخص الفقيه الطبيب محمد بن أحمد المعروف بابن اندراس (ت 674هـ/1275م)، دخل بجاية سنة 660هـ/1261م فكان " طبيبا باحثا جيدا وله معرفة باللغة العربية"[3]، قرأ عليه الغبريني وأثنى على دروسه في اللغة، ولتفوقه في الطب عد من خواص الأطباء بالقصر الأميري ببجاية، ثم استدعي من السلطان المستنصر ليصبح من أطبائه وخواص مجلسه[4].

سيطرة الأندلسيين على التدريس وتقلدهم للوظائف دون هوادة، محاولة لإثبات تفوقهم العلمي على العنصر المحلي، وحدوث نوع من الصراع بين الجانبين تجلى خاصة في الوظائف الإدارية، إلا أنني لمست إعراض العنصر البجائي عنها، ربما كان ذلك تحريا وابتعادا عن ضغوط السلطة، وهو ما يفسر إقبالهم على الخطط الدينية دون السلطانية كما سماها ابن خلدون، وقد استطاعت الفئة الأندلسية المثقفة ببجاية أن تحظى بمباركة السلطة وشملتها برعايتها، فالفقيه ابن محرز (ت 655هـ/1257م) رغم أنه لم يزاول سوى التدريس بالمساجد إلا أنه كان يحظى باحترام رجال البلاط البجائي، ولعل مشيخته ورئاسته للجماعة الأندلسية ببجاية كانت السبب في هذه التجلية والاحترام[5]. كما كانت لابن الأبار وابن سيد الناس وابن عميرة الذين كانوا يجتمعون في دار الفقيه ابن محرز[6]، علاقات جيدة مع السلطة في بجاية فهل شفعت لهم هذه القرابة عند السلطان الحفصي حين أبدوا معارضتهم له؟

بروز المدرسة البجائية في التدريس بفقهاء وأساتذة ذاع صيتهم بشكل واضح في القرنين 8و9هـ/14و15م، كأحمد بن إدريس وعبد الرحمن الوغليسي ومحمد بن أبي القاسم المشدالي، مما جعل بجاية قبلة الطلبة من مناطق كثيرة مع تراجع السيطرة الأندلسية على التعليم العالي بدت واضحة في القرن 7هـ/13م.

2- المدرسون بين الإعراض عن الخطط وعصا السلطة (عينات ونماذج) :

لم تستطع السلطة ترويض الكثير من المدرسين سواء من المتقلدين لمناصب هامة أو المقتصرين على التدريس، رغم إلحاحها عليهم بالجاه والمال، وتفضيلهم التعليم دون أجر عن تقاضي مالا يرونه محاولة لاستمالتهم خاصة

([1]) الغبريني : المصدر السابق، ص142.

([2]) المصدر نفسه، ص218.

([3]) المصدر نفسه، ص101.

([4]) المصدر نفسه، ص101-102، محمد الشريف : **بجاية في العهد الحفصي**، ص212.

([5]) عنوان الدراية، ص242.

([6]) المصدر نفسه، ص243.

الصوفية منهم، فقد رفض زكريا بن محجوبة (ت677هـ/1278م) المرتب الشهري الذي عرضته عليه السلطة من الديوان[1]، ورغم علو شأن أبي الحسن بن الزيات العلمي إلا أنه امتنع عن الخطط الكثيرة التي عرضها عليه البلاط[2]، ولم يكن لابن تونارت الدكالي بُدا في المناصب والوظائف المقترحة عليه متفرغا لتدريس المدونة كما سبق وأن أشرت[3]، وزهد بعض الأندلسيين المنتصبين للتدريس عن هذه الخطط كذلك على غير عادتهم، وأقصد به سعيد بن زاهر (ت654هـ/1256م) الذي لم يكن له "عمل ولاحرفة "[4] وتخططه بالعدالة وأرجح أنها كانت تطوعا لما أثر عنه من زهد في الدنيا.

الإشكال الذي اعترضني في التوصل إلى التعرف على الفقهاء الذين ناهضوا السلطة، واتخذت ضدهم إجراءات ردعية، هو سكوت المصادر بمختلف أصنافها عن الحديث في هذا الموضوع، وهو ما يشكل عائقا أمام الباحث للتوصل إلى معرفة الحقيقة، ولعل ذلك يعود إما إلى أن من كتبوا في هذه الفترة خافوا أن تصلهم مثل تلك الإجراءات ووقوعهم تحت طائل عقوبات السلاطين، أم أنهم من الموالين للبلاط أو حتى من صناع القرار، وبالتالي فنحن أمام كتابة تاريخية موجهة لخدمة السلطة القائمة.

النماذج التي اخترتها لتناول هذه القضية من الفقهاء المدرسين تبرز بشكل واضح ذلك الإشكال، فسياسة البطش والإقصاء التي مارستها السلطة في بجاية وصلتنا عنها إشارات بسيطة لكنني حاولت من خلالها فهم طرق الردع وأسبابه والنتيجة التي آلت إليها هذه السياسة.

فالفقيه أبو علي حسن بن حسين (ت 754هـ/1353م) إمام المعقولات في بجاية بعد أستاذه ناصر الدين المشدالي كما سماه المقري[5]، والفقيه المحصل كما حلاه ابن القنفذ[6]، أورد عنه ابن القنفذ إشارة بسيطة مفادها أن والده الفقيه حسن بن علي[7] وصله وهو بقسنطينة خبر وقف راتب مدرسه السابق ببجاية الفقيه حسن بن حسين، وأحجم عن ذكر المتسبب في هذا الإجراء ولا من اتخذه ولماذا؟ رغم علمه بذلك، فتعهد خطيب جامع القصبة بدفع مرتب الفقيه البجائي كاملا غير منقوص من ماله الخاص، مبديا استياءه لما حصل لأستاذه[8]، وكان له ذلك إلى أن توفي والد ابن القنفذ سنة 750هـ/1349م، ومن المؤكد أن هذا الأجر كان الفقيه يتقاضاه من وظيفة

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص120.

([2]) **المصدر نفسه**، ص179.

([3]) **المصدر نفسه**، ص222

([4]) **المصدر نفسه**، ص225.

([5]) **نفح الطيب**، ج5، ص265.

([6]) **الوفيات**، ص357.

([7]) الفقيه حسن بن علي والد ابن القنفذ، ولد سنة694هـ/1294م بقسنطينة، رحل إلى المشرق للدراسة والحج، كان خطيبا بجامع القصبة بقسنطينة، درس ببجاية على شيوخها كناصر الدين المشدالي وابن غريون، وأبي علي حسن بن حسين، وهو صاحب كتاب "المسنون في أحكام الطاعون" وكتاب "المسائل المسطرة في النوازل الفقهية"، يراجع : ابن قنفذ : **الوفيات**، ص355-356.

([8]) وأورد ابن قنفذ النص بصيغة والده " قطع مرتبك وساءني ذلك وإني التزمت أداءه على قدره من مالي كل شهر"، **أنس الفقير وعز الحقير**، ص 87.

التدريس لأنه لم يشغل وظيفة أخرى حسب المصادر، ويذكر كذلك أن الفقهاء استحسنوا هذا الفعل من والده وتضامنوا مع الفقيه في محنته[1]، فهل كان توقيف راتبه بسبب مواقف سياسية معينة؟، علما أن المصادر التي ترجمت له لم أجد فيها ما يدل على أنه كان معارضا للولاة الحفصيين[2]، أم كانت له مواقف معادية للوجود المريني ببجاية قبل 750هـ/1349م تاريخ وفاة والد ابن قنفذ، أم أنه وقف في وجه السلطة القائمة ببجاية، في ظل اتساع الهوة بين أهل المدينة والسلطة والتطاحن على حكم الولاية بين أفراد البيت الحفصي للوصول إلى القصر الأميري بالقصبة، مما ساهم في تفاقم الوضع الاجتماعي المزري الذي آل إليه البسطاء من البجائيين من ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة وانتشار الأمراض، ، فهل كان هذا الفقيه لسان حالهم؟ خاصة وأن النص التراثي اعتبر الفقهاء هم لسان حال الضعفاء للدفاع عنهم أو التوسط لهم عند الساسة، ومما ساعده على ذلك أنه كان مرجعية مالكية يعتد بها في بجاية القرن 8هـ/14م، أم أنه مجرد إجراء اتخذه أحد المناوئين له من الفقهاء بسعاية من السلطة؟، علما أن البلاط البجائي في هذه الفترة شهد كثرة الدسائس التي راح ضحيتها فقهاء كبار نتيجة سعاية ووشاية خصوم لهم من الفقهاء أنفسهم عند أصحاب النفوذ، وقد أرجعها البعض إلى الحسد[3]، سواء لمكانة وحظوة الأخر عند ذات السلطة، أو لتفوقه العلمي ومحبة الناس له كما عرف عن الفقيه.

ما يفيدنا في محنة هذا الفقيه هي أن وقف الأجر وقطع مصادر الرزق عن المعارضين أو المناوئين للسياسة العامة للحكم أسلوبا لجأت إليه السلطة لتخويف وردع الخارجين، وأن هناك عينات من الفقهاء لم يرضوا بالواقع وأحسوا بتقصيرها تجاه العامة فوقفوا إلى جانبهم لتحصيل حقوقهم.

النموذج الثاني الذي اخترته كعينة للمعارضة الممثلة في الفقهاء المدرسين، الفقيه أبو موسى عمران المشدالي (ت 745هـ/1344م)، الذي تلقى تعليمه في بجاية على ثلة من فقهائها وعلى رأسهم صهره ناصر الدين المشدالي[4]، المصادر التي ترجمت له لا تفيض عن حياته ببجاية إلا بمعلومات شحيحة، مركزة على المرحلة التلمسانية من نشاطه، عرف عنه ضلوعه في الفقه وعُد أفقه الناس بالمذهب المالكي بين معاصريه[5]، ووصف بالحافظ لأقوال فقهاء المالكية[6]، ووشحه ابن مخلوف بالقول "العالم الكبير المحقق العمدة الشهير"[7]، وقد عايش هذا الفقيه الظروف الصعبة

([1]) ابن قنفذ : **المصدر السابق**، الصفحة نفسها، وكذلك : **مقدمة الفارسية**، ص43.

([2]) من هذه المصادر والمراجع : المقري : **أزهار الرياض**، ج5، ص59، التبكتي : **نيل الإبتهاج**، ص158، **كفاية المحتاج**، ص 177، ابن القنفذ، **الوفيات**، ص 357، ومن المراجع : ابن مخلوف : **المرجع السابق**، ص232، الحفناوي : **المرجع السابق**، ص383.

([3]) عمار طالبي : « الحياة العقلية في بجاية»، **مجلة الأصالة**، العدد 19، ص141.

([4]) يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج1، ص130.

([5]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([6]) ابن مريم : **المصدر السابق**، ص155.

([7]) **شجرة النور**، ص229.

التي سادت بجاية جراء التحرشات الزيانية والحصار الذي قاده السلطان أبا تاشفين سنة 726هـ/1325م[1]، هذا الحصار اشتدت وطأته على البجائيين لطول مدته فتدهورت حالتهم الاقتصادية والاجتماعية، ويصف صاحب بغية الرواد وضعهم سنة 729هـ/1328م قائلا " واشتد الحصار على أهل بجاية فغلت أسعارهم ووهنت قواهم"[2].

في ظل هذه المعطيات لم تعد بجاية مكانا آمنا للفقهاء، مما جعل عمران المشدالي يخرج من المدينة نحو الجزائر، التي كانت مجالا زيانيا، لكن هذا الخروج أصطلح عليه تلميذه المقري الذي كان معاصرا للأحداث بالفرار بقوله : "فر من حصار بجاية"[3]، مما جعلني أتساءل عن دوافع فراره من بجاية التي نشأ ودرس وأقرأ بها طوال هذه المدة[4]؟

محاولة الإجابة عن هذا التساؤل تجعلنا نعود إلى قراءة التاريخ السياسي لهذه الفترة، وبالعودة إلى الأحداث السابقة، نجد أن السلطان الزياني راسل أهل بجاية لمساعدته في دحر المقاومة الحفصية وضم المدينة، وقد كان له ذلك بحيث استجيبت دعوته "عورها واستقدموا واستقدموه"[5]، ومن المعلوم أن العامة لا تنقاد إلا بزعامة سياسية أو دينية فكان التمرد على الحفصيين والتحالف مع الزيانيين هو الحل لفك الحصار المفروض عليهم في ظل عجز السلطة المحلية في دفع الخطر عنهم وتوفير المؤونة لهم، فهل كان المشدالي هو المحرض لهؤلاء على التعاون مع الزيانيين بطلب من أبي تاشفين؟.

هناك عدة قرائن تسوقنا إلى تأكيد ذلك، خاصة وأن المشدالي كان يحظى باحترام البجائيين، فهو يمثل السلطة الدينية والعلمية التي كان يحتكم إليها هؤلاء في شؤونهم، كما أنه لم يرتبط بالوظائف التي انخرط فيها الكثير من الفقهاء فكان مهابا محترما، كل الشروط متوفرة عند فقيه قارب الستين من العمر لإقناعهم على هذا الموقف، الأحداث السياسية المتوالية قلبت ظهر المجن للزيانيين وجاءت عكس توقعاتهم، فكان دخول الحاجب الحفصي ابن سيد الناس إلى المدينة قبل أبي تاشفين، ليقوم الحاجب بتصفية المعارضة التي تواطأت مع الزيانيين قتلا[6]، والمرجح أن عمران المشدالي فر قبل حدوث التصفية متجها نحو الجزائر، ليتراجع الزيانيون ويولوا الأدبار إلى العاصمة تلمسان، وما يرجح كذلك ما ذهبت إليه أن أسرة الفقيه خرجت بأكملها من بجاية، فقد وجد معه أخوه الفقيه أحمد المشدالي الذي تولى التدريس في تلمسان بعد وفاة أبي موسى[7]، وكذلك والدهما الفقيه الصالح الزاهد أبي عمران

([1]) علما أن محاولات الزيانيين لاحتلال بجاية بقيادة هذا السلطان بدأت سنة720هـ/1320م، وتكررت عدة مرات ليبدأ أطول حصار لها سنة 726هـ /1325م ويستمر إلى غاية 730هـ/1329م، وفي ظل استماتة المدينة وصعوبة دخولها بنى مدينة تامزيردكت وجهزها بالعسكر والمؤونة، أنظر عنها : ابن خلدون، **العبر**، ج7، ص144، ويحيي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج1، ص217.

([2]) **المصدر نفسه**، ج1، ص217، وأنظر كذلك، **العبر**، ج7، ص144.

([3]) **نفح الطيب**، ج5، ص223.

([4]) علما أنه من مواليد 670هـ/1272م.

([5]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج7، ص145.

([6]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها، يحيي بن خلدون، **المصدر السابق**، ج1، ص218،

([7]) أنظر ترجمته عند : **المصدر نفسه**، ج1، ص131.

موسى[1]، في نفس الفترة بالجزائر وتلمسان مما يدل على أن الخروج التام للعائلة سببه الخوف من بطش السلطة الحفصية ببجاية بهم نتيجة تواطئه مع الزيانيين.

كما أن سرعة انتقاله من الجزائر إلى تلمسان بطلب من أبي تاشفين والتي عبر عنها المقري بعبارة "بعث فيه أبو تاشفين" تجعل القارئ يخمن إن كانت هناك سابق معرفة بينهما حتى يستدعيه، مع الكيفية التي استقبل بها بتلمسان بعد نزوله بها، والمكانة التي حظي بها في مجلس السلطان وبسرعة فائقة، ليصبح أبي عمران في ظرف قصير من خاصة أبي تاشفين بعد أن " أنزله من التقريب والإحسان بالمحل المكين"[2]، وعينه مدرسا بمدرسته الجديدة التي أسسها بتلمسان[3]، درس بها الكثير من العلوم كالفقه والحديث وأصول الدين والجدل والمنطق[4]، أثرى بمناقشاته العلمية وجداله الفكري مجالس السلطان وفاق علماء تلمسان بآرائه الاجتهادية[5]، ولقي الحظوة من الجميع، جزاء لصنيعه مع السلطان وتعاونه معه وربما جاء ذلك التكريم لحاجة ونية السلطة الزيانية ليكون واسطتها مستقبلا لمحاولة دخول بجاية تحت لواء المغرب الأوسط.

نستنتج مما سبق أن السلطة في بجاية لم تستطع بشكل أو بأخر أن تفرض أوامرها على المدرسين بالمساجد أو حتى في ما يدرس من علوم، وتوجيهها في خدمة مشروعها السياسي، عكس ما فعلته مع المدارس في تونس في عهد السلاطين الأوائل بتوجيهها مذهبيا، و لم تتعدى وصايتها على المؤسسات التعليمية ببجاية صفة المراقبة، مخافة أن ينتحل هذه الوظيفة من هم ليس أهلا لها، لذلك حاولت احتواء المدرسين من خلال إسنادهم الوظائف الإدارية والخطط الدينية، وقد نجحت إلى حد كبير في هذه السياسة خاصة مع الفئة الأندلسية ببجاية، واكتست العلاقة مع هذه الفئة بطابع المتانة وتبادل المصالح، وقد نفر العنصر البجائي من الوظائف الإدارية لما لوحظ من ضغوط مورست على أصحابها واكتفوا بالدينية، إلا أن البعض منهم رفض هذه الخطط كلية وأعرض عن مغريات السلطة واندرج في التعليم الحر، حتى في بعض المساجد الجامعة دون مبالاة أو مراعاة للولاة، في حين وقف قلة من المدرسين في وجه السياسة العامة لهؤلاء بسبب الوضع الاجتماعي والسياسي المتدهور الذي وصل إليه أهل بجاية.

السياسة التعليمية والمناهج المدرسة ببجاية ابتعدت كلية عن المذهب الموحدي، وغياب المدرسة ببجاية دلالة على الرفض العام لعقيدة الموحدين وهو الدور الذي تكفلت المدارس في تونس وقسنطينة التي أخذت على عاتقها تدريس العقيدة الموحدية[6]، وتجرد الفقهاء البجائيين من الولاء السياسي والمذهبي وعودة المنطقة بسرعة إلى الحضيرة المالكية، مع نشاط الدراسات في هذا المذهب وأصبحت بجاية مركزا ببلاد المغرب يستقطب فقهائه، وبروز ثلة منهم كان لهم الدور في إدخال مختصر ابن الحاجب إلى بجاية ونشره وتدريسه بحواضر المغرب، وطغت

([1]) ترجمته عند : يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج1، ص121.

([2]) المقري : **المصدر السابق**، ج5، ص223.

([3]) التنسي : **المصدر السابق**، ص141.

([4]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([5]) عبد العزيز فيلالي : **تلمسان في العهد الزياني**، ج2، ص322.

([6]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص300.

كتب المالكية على التدريس بالمساجد والزوايا كالرسالة لأبي زيد القيرواني (ت401هـ/1010م)، وتهذيب المدونة للبرادعي (ق5هـ/11م) وغيرهما[1]، ولم تستطع السلطة الوقوف في وجه زحف المالكية لقوة ممثليه كناصر الدين المشدالي وأحمد بن إدريس وعبد الرحمن الوغليسي، أو التدخل لفرض تدريس مواد معينة تخدم مصالحها المذهبية، وعد ألفرد بال هذه السيطرة الكبيرة للمذهب المالكي وابتعاد التعليم عن الصبغة الرسمية بمثابة نهاية لإصلاح الموحدين الفاشل في جانبه العقدي بكل بلاد المغرب[2].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) عن كتب المذهب المالكي المدرسة ببجاية يراجع : **برنامج مشيخة الغبريني**، ص307-323.

(2) **الفرق الإسلامية**، ص306.

ثالثا : المؤسسة القضائية تجسد الاستقلالية عن السلطة

من المؤسف أننا نفتقد في موضوع القضاء ببجاية دراسات سابقة سوى ماكتبه برونشفيك ضمن القضاء في الدولة الحفصية عموما[1]، وما تناوله بعيزيق بشكل مقتضب على أهميته [2]، عكس ما كتب عن تلمسان في هذا الموضوع[3]، كما أن المصادر لم تول أهمية للقضاة في هذه الفترة في الحواضر مكتفية بالترجمة لقضاة الجماعة، إلا أن الغبريني كان له الفضل في الإتيان على قضاة بجاية في القرن 7هـ/13م بمعلومات أفادتني في الموضوع. ولأهمية خطة القضاء الدينية وجلالة قدرها وبالنظر إلى شروط متقلدها[4] ن السلاطين الحفصيين أولوا لها أهمية قصوى، من حيث صفة المعينين لتوليها أو في المهام المسندة والصلاحيات الممنوحة لهم، لأن القاضي يجسد سياسة السلطة العدلية في رعيتها، كما أن تسيب القضاء وجور القائمين عليه يخلق القلاقل.

لتناول علاقة القضاة بالسلطة ببجاية وجب طرح إشكاليات رأيتها أساسية في الموضوع، فهل كان ببجاية قاضي المدينة أم قاضي الجماعة؟ من هي السلطة المخولة بتعيينه؟ هل كان التعيين يأخذ صفة الجبرية أم الخيار؟ ماهي صلاحياته؟ هل كان لبجاية قضاة في أكوارها؟ أصولهم الجغرافية ؟ ما مدى استقلالية القضاء عن السلطة الرسمية ببجاية؟ ألم يقع الصدام بين الطرفين؟ .

1- قاضي المدينة أم قاضي الجماعة ببجاية؟

سبق وأن طرح برونشفيك هذا الإشكال ولم يجب عنه[5]، وسمى بعيزيق قضاة المدينة بقضاة الجماعة دون التفصيل في ما ذهب إليه[6]، وانطلاقا من بعض المصادر خاصة كتب التراجم في القرنين 8و9هـ/14و15م التي تناولت حياة بعض القضاة ببجاية بصيغة قضاة الجماعة بالمدينة[7]، وبالرجوع إلى الكتب التراثية التي تناولت هذه الخطة نجدها قالت بوجود قاضي جماعة واحد يمثل سلطة الدولة في كامل ترابها وهو الممثل لسياستها القضائية يساعده قضاة الأقاليم، ففي وجود قاضي الجماعة بالحاضرة الحفصية فمن الصعب الحديث عن آخر ببجاية

([1]) وضمنه الحديث عن القضاء ببجاية في إطار السياسة العامة لهذه المؤسسة في العهد الحفصي، يراجع، **تاريخ افريقية في العهد الحفصي**، ج2، ص114-136.

([2]) **بجاية في العهد الحفصي**، ص421-423.

([3]) ممن تناولوا موضوع القضاء في تلمسان على سبيل المثال لا الحصر : عبد العزيز فيلالي : **تلمسان في العهد الزياني**، ج1، ص 231-233، وخص بالشرح ولاية المظالم وكذلك : صابرة خطيف : **فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية**، ص 133-159.

([4])و للتفصيل في شروط القاضي يراجع : ابن أبي الدم : **المصدر السابق**، ص 70 ، الماوردي : **الأحكام السلطانية**، ص 132-134، الفراء : **المصدر السابق**، ص 60- 64، النباهي : **تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا)** : ضبطه وشرحه وعلقت عليه : مريم قاسم الطويل،ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1995م/ 1415 هـ، ص17، ابن فرحون : **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام** ، تحقيق ، عبد الرؤوف سعد، ط1، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة،1986، البرزلي : **المصدر السابق**، ج 4، ص، 6.

([5]) محتملا أن ذلك قد يكون أخذ صفة الرسمية أو غير الرسمية من السلطة الحفصية، يراجع : الهامش41، ج2، ص 123.

([6]) **بجاية في العهد الحفصي**، ص421.

([7]) على سبيل المثال : السخاوي في ترجمته للقاضي سليمان بن يوسف الحسناوي قال عنه "جا ية ماعة ببجاية"، أنظر : الضوء اللامع، ج3، ص270، والتنبكتي في ترجمته لمحمد بن يحي الباهلي فيقول عنه "قاضي الجماعة ببجاية"، **نيل الابتهاج**، ص402، وأطلق ابن قنفذ التسمية على أبي العباس الغبريني، أنظر، **الوفيات**، ص،332، وعلى القاضي أبي عمار المسيلي، يراجع : **المصدر نفسه**، ص377.

وقسنطينة وغيرها من الحواضر التابعة للحفصيين، فذلك ينافي العرف القضائي الإسلامي ويدل على تشتت الدولة وصورة من صور الانفصال وضعف المركز وتمرد الأطراف.

لعل بروز بجاية كمدينة ثانية من حيث الأهمية بعد تونس في هذه الفترة، وانفصالها عنها في كثير من الحالات واتخاذها عاصمة للسلطنة الغربية كان سببا في هذا الخلط، كما أن صفة هؤلاء القضاة والصلاحيات الممنوحة لهم وعدم قدرة قاضي الجماعة بتونس التحكم في كل الحواضر لسبب جغرافي أو حتى سياسي[1]، أوهم البعض بأن من كان ببجاية هم قضاة جماعة خاصة التآليف المشرقية، ويبدو أنهم أطلقوا عليهم هذا النعت بصفة غير رسمية إكبارا لبعض القضاة الذين ذاع صيتهم كالغبريني وابن الغماز، فالصفة أخذت صبغة شكلية لا جوهرية وهو ما أرجحه بشكل أساسي خاصة عند مؤرخ كابن القنفذ المعاصر للفترة والذي من المفروض أن لا تغيب عنه مثل هذه الأشياء، كما أنه لو كان ببجاية ذلك لما أغفله الغبريني الذي ترجم لثماني قضاة من القرن7هـ/13م سماهم بقضاة بجاية، ونفس الشيء يسري على ابن خلدون المواكب للأحداث والعارف بشؤون بجاية، فعند حديثه عن أبي العباس الغبريني لم يذكر أنه كان قاضيا للجماعة وسماه بالقاضي إفرادا[2]، فقد كان إذا لكل حاضرة حفصية قاضيها الخاص و لم يكن إلا قاضي جماعة واحد في الفترة الحفصية، وهؤلاء يعتبرون نوابه في الأقاليم على حد تعبير برونشفيك[3]، والاحتمال المرجح كذلك أن بجاية كان لها قاضيا للجماعة في فترة استقلالها عن السلطنة الحفصية وقيادتها للجهة الغربية كعاصمة مما استوجب وجود تلك الوظيفة, في حين اكتفت بقاضي المدينة أثناء تبعيتها لتونس.

2- قضاة بجاية سلطة التعيين والشروط المطلوبة :

القراءة المتأنية لتراجم القضاة البجائيين المعينين لمباشرة هذه الخطة، جعلتني أصل إلى أنهم كانوا يعينون من السلطان نفسه بظهير على شاكلة قاضي الجماعة بتونس، فالسلطان المستنصر كتب إلى الفقيه عبد الحق بن الربيع ببجاية بالقضاء عليها[4]، ويكون ذلك باقتراح من قاضي الجماعة وباستشارة ا لخط الدينية الخطط الدينية بالعاصمة[5]، وفي حالة عدم قيام السلطان بذلك لعذر ما، تتعدى صلاحية التعيين إلى الوالي ببجاية[6]، وهو السلطة الأولى المراقبة للقاضي في عمله، ويكون ذلك بظهير سلطاني، والسلطة المخولة بالتعيين هي التي لها حق العزل إذا اقتضت الضرورة لذلك، فالقاضي محمد بن علي القصري عزل من السلطان بظهير على رواية الغبريني[7]، ونفسه

([1]) خاصة أثناء الاضطرابات الحاصلة في بجاية جراء التحرشات عليها من الزيانيين أو الاحتلال المريني لها، وحتى الصراع بين أفراد البيت الحفصي على الولاية.

([2]) **العبر**، ج6، ص462.

([3]) **تاريخ افريقية**، ج2، ص127.

([4]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص88.

([5]) برونشفيك :المرجع السابق، ج2، ص121، وأنظر كذلك : محمد فتحة : **النوازل الفقهية : أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى القرن 9هـ/12-15م**)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1999.، ص32.

([6]) بعيزق : المرجع السابق. ص421.

([7]) **عنوان الدراية**. ص171.

للقاضي أحمد بن عبد السلام المعروف بابن الطير[1]. هذا التعيين أخذ صبغة الاختيار وعدم جبر الفقيه على قبول الوظيفة في حالات، فالفقيه عبد الحق بن الربيع الذي ذكرته آنفا رفض تلبية دعوة المستنصر بقضاء بجاية ثم قسنطينة معتذرا له[2]، ويعوز تعيينه لما رأى فيه من صفات تؤهله لذلك المنصب فقد كان على حد تعبير الغبريني "ابن مقلة زمانه"[3]، هذا الرفض يبدو تحريا وخوفا من تحذيرات الشارع من قضاة الجور والترهيب من هذه الخطة وعظمتها عند الله، أو زهدا فيها وهي الصفة التي عرف بهذا الفقيه المتفرغ للتدريس، ويدعم هذا الرأي الفقيه محمد بن علي القصري الذي رد بنفس الموقف على والي بجاية، على ما أثر عنه زهده وانقطاعه للعبادة والتدريس[4]، عدم تلبيته لشغل القضاء قد تكون سببا في رفض الوالي لطلب القصري بتزويده بالكتب من مكتبة القصر الأميري[5]، وربما صعبت على بعض الفقهاء ما تفرضه الخطة على صاحبها بتقليل مخالطة العامة والجلوس معهم وارتياد أماكنهم كالظهور في الأسواق، فقد ذكر النباهي أن قاضي بجاية أبي العباس الغبريني لما ولي قضاءها "ترك حضور الولائم ودخول الحمام وسلك طريق اليأس من مداخلة الناس"[6]، خصوصا الذين اندمجوا مع المجتمع البجائي على بساطتهم.

السلطة أخذت على عاتقها إكراه بعض الفقهاء البجائيين على تولي القضاء دون رغبتهم، فالقاضي ابن أبي الطير ولي مكرها، حتى أنه سجد شكرا لله عندما وصله قرار العزل تحريا ونزاهة[7]، كما فرضت السلطة على الفقيه سليمان بن يوسف الحسناوي قبول قضاء بجاية دون موافقته[8]، ولم يغري هؤلاء الفقهاء هذا المنصب الذي عد عند الفقهاء التونسيين آنذاك تتويجا لحياة إدارية ناجحة وتحصيل لسلطة عالية عند ولاة الأمر، فلم يرفضوا تولية القضاء في الحاضرة بل ربما سعوا بوساطتهم لتقلده[9]، وكثيرا ما كان تحصيله يتم بعد التدرج في وظائف إدارية أقل شأنا كالخطابة والتدريس، وحتى قضاء الأنكحة الذي كانت لصاحبه حظوظ أكبر ليتولى قضاء الحواضر والجماعة[10]، فالفقيه أبو فارس عبد العزيز كان قاضيا للأنكحة ببجاية ليعين بعدها قاضيا في بسكرة ثم قسنطينة وانتهاءً بالجزائر[11].

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص194.

([2]) **المصدر نفسه**، ص86.

([3]) **المصدر نفسه**، ص88.

([4]) **المصدر نفسه**، ص170.

([5]) **المصدر نفسه**، ص170.

([6]) **المرقبة العليا**، ص132.

([7]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص194.

([8]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج3، ص270.

([9]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص116.

([10]) جرت العادة أن يتولى قاضي الأنكحة قضاء الجماعة، ولكن ذلك لم يكن قاعدة ثابتة، **المرجع نفسه**، ص115-116.

([11]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص 91.

مشمولات القاضي البجائي في تلك الفترة كانت على مدينة بجاية وما يتبعها، وصلاحياته هي تقريبا نفس صلاحيات قاضي الجماعة بتونس[1]، كالنظر في الخصومات ومشاكل الميراث والشكاوى والتعازير والحدود، وهو مجرد من النظر في قضاء المظالم الذي يعود إلى السلطان نفسه أو قاضي الجماعة بتخويل منه[2]، وقد ينظر هذا الأخير في بعض القضايا التي أشكلت على قضاة الأقاليم،كما أن لقاضي بجاية سلطة تعيين قاضي الأنكحة[3] وقاضي الأحكام ويساعده الشهود والموثقون ويعملون تحت وصايته، كما يعين قضاة الأكوار وله الحق في عزلهم.

بالمقارنة مع الشروط التي نصت على من يتولى القضاء[4]، فإن أغلبها انطبقت على القضاة البجائيين، فقد وصف عبد المنعم الغساني أنه كان نزيها عفيفا، ساهرا على تطبيق حدود الله مشاورا للفقهاء في ما ينطق به من أحكام[5]، واعتبر محمد بن عبد الرحمن الخزرجي "قائما بالحق وقافا مع الصدق"[6]، هذه الصفات أهلتهم للبقاء في مناصبهم لمدة طويلة، فاكتسبوا ثقة السلطة وجسدوا العدل في الناس، كما أن عدلهم ووقوفهم مع الحق وتواضعهم جعل البجائيين يطمئنون لأحكامهم، على شاكلة ابن الغماز الذي كان قريبا من أهلها حتى أحبوه[7]، فالسلطة لم تسير على العرف الموحدي القائل بأن لا يبق القاضي في منصبه أكثر من سنتين، فقد طالت مدة عبد الله بن حجاج[8]، وتولاها الحسناوي سنتين أو أربع[9]، وعين فيه أحمد بن عيسى الغماري مرتين[10]، وتولاها الغبريني في العديد من النواحي آخرها بجاية[11].

للقاضي البجائي حق تعيين نائبا ينوب عنه دون إذن من السلطة في حالة الغياب لعذر أو مرض، يعينون وقد أحصيت اثنان تولاها محمد بن صالح الشاطبي لمدة قصيرة لكثرة مشاغله، والراجح أن متولي قضاء الأنكحة هو من

([1]) أنظرها عند : برونشفيك، **المرجع السابق**، ج2، ص125-126

([2]) للتفريق بين مشمولات نظر القاضي ووالي المظالم ، العودة إلى : ابن رضوان : **المصدر السابق**، ص325-327

([3]) الذي يختص بأمر الزواج والطلاق أو ما يطلق عليه اليوم الأحوال الشخصية وأرجع برونشفيك ظهوره عند الحفصيين إلى سنة 660هـ/ 1262م على عهد المستنصر الحفصي، أنظر : ج2، ص120.

أنظره بنوع من التفصيل عند : محمد فتحة : **المرجع السابق**، ص45.

([4]) كالعلم بالأحكام الشرعية والقيام على تطبيق الحدود، والتزاهة والصدق، التقوى، من أهل العدل، أنظر : سليمان الباجي : **فصول الأحكام**، تحقيق : محمد أبو الأجفان، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص128-129، وكذلك : ص 37 من هذه الدراسة.

([5]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص123-124.

([6]) **المصدر نفسه**، ص. 126

([7]) الغبريني : **المصدر نفسه**، ص130.

([8]) **المصدر نفسه**، ص215.

([9]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج3، 270.

([10]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص113.

([11]) النباهي : **المصدر السابق**، ص168.

ينوب القاضي، كحالة هذا الفقيه (الجمع بينهما)[1]، وناب علي بن عبد الله " نيابة مطلقة تنزلت منزلة الأصـــالة"[2]، وترجع قلتهم بسبب إسناد النيابة تقليديا إلى قاضي الأنكحة.

3- انتماءاتهم الجغرافية :

توصلت إلى التعرف على سبعة وعشرين قاضيا، منهم عشرون لمدينة بجاية وسبعة لأكوارها[3]، تعدد انتماءاتهم الجغرافية، واختلف توزيعهم عبر القرون الثلاثة محل الدراسة، ولكن هذا الاختلاف له دلالات كثيرة يمكن قراءتها من خلال الجدول والشكل البياني الذي ينصب على قضاة بجاية فقط دون أكوارها فجاء توزيعهم كالآتي :

الأصل الجغرافي	العدد	توزعهم عبر القرون الثلاثة			النسبة الكلية
		ق7هـ/13م	ق8هـ/13م	ق9هـ/13م	
بجاية	7	1	4	2	%35
المغرب الأوسط	6	3	2	1	%30
الأندلس	2	2			%10
تونس	2	2			%10
المغرب الأقصى	1	1			%5
لم نتعرف عليهم	2		2		%10
المجموع	20	9	8	3	%100

الجدول

1 : توزيع القضاة وأصولهم على القرون الثلاثة

هناك انتماءات جغرافية متباينة، شكل منها المغرب الأوسط الغالبية 65%[4]، بينما 35% من خارجه، وجاءت بجاية في المرتبة الأولى من حيث العدد الإجمالي بـــسبع قضاة أي ما نسبته 35%، مع غياب شبه تام لهم في القرن

([1]) الغبريني : المصدر السابق، ص106.

([2]) المصدر نفسه، ص218.

([3]) وقد كان لبجاية قضاة في أكوارها أو النواحي والجهات على تعبير الغبريني، ويبدو من خلال ترجمة هؤلاء أنهم كانوا على منـــاطق ذات كثافة سكانية معتبرة، حيث تتطلب بعض القضايا خاصة الجنح النظر بسرعة ولا تحتمل التأخير، فكان لبني حسن قاضيا من أهلها وهو الفقيه محمد بن علي الحسناوي (ت 885هـــ/1480م)، السخاوي : **المصدر السابق**، ج8، ص291، وولي محمد الصدقاوي الـــزواوي (ت حوالي 853هـــ/1439م) قاضيا على زواوة لكثرة سكانها، **المصدر نفسه**، ج 1، ص149.

وولي في القرن 7هـــ/13م كلا من الفقيه يوسف بن سعيد على بعض النواحي، والفقيه عبد الله بن محمد ، وولي أبو علي عمـــر بـــبعض الأكوار ثم استدعي لقضاء الأنكحة، وعبد الحق بن يوسف الغبريني ، ومحمد بن يحي الدلسي (ق7هـــ/13م) أنظرهم على التـــوالي عنـــد الغبريني، ص103، ص196، ص216، ص268، ص294.

([4]) لتسهل العملية الإحصائية جعلت بجاية تابعة للمغرب الأوسط جغرافيا وللأدنى سياسيا ليشكلا معا ما مجموعه 65%.

7هـ/13م، فمن تسع قضاة وجدت فقط قاضيا بجائيا واحدا، بينما شكل العنصر الأجنبي البقية، عكس القرنين 8و9هـ/13و14م، الذي نجد فيه سيطرة لقضاة بجائيين، فمن أحد عشر قاضيا كان منهم ست من بجاية، وثلاث من المغرب الأوسط[1]، مع غياب العناصر الأخرى بصفة كلية، وقد خدم ذلك البلاط البجائي من حيث انقياد البجائيين بصورة مطلقة للأحكام القضائية الصادرة عن هؤلاء القضاة وعدم إبداء معارضتهم لها، ويمكنني أن أستنتج أن بجاية استطاعت في هذين القرنين أن تصنع نخبا محلية أخذت على عاتقها تولي شؤونها بنفسها، ويعود ذلك إلى بروز مدرستها بشكل واضح وتراجع سيطرة العناصر الأخرى، خاصة الفئة الأندلسية التي لاحظناها بشكل جلي في القرن 7هـ/13م والتي اندمجت في المجتمع البجائي، وكان لها باعا كبيرا في تكوين النخبة العلمية المحلية.

الأصول الجغرافية لقضاة بجاية

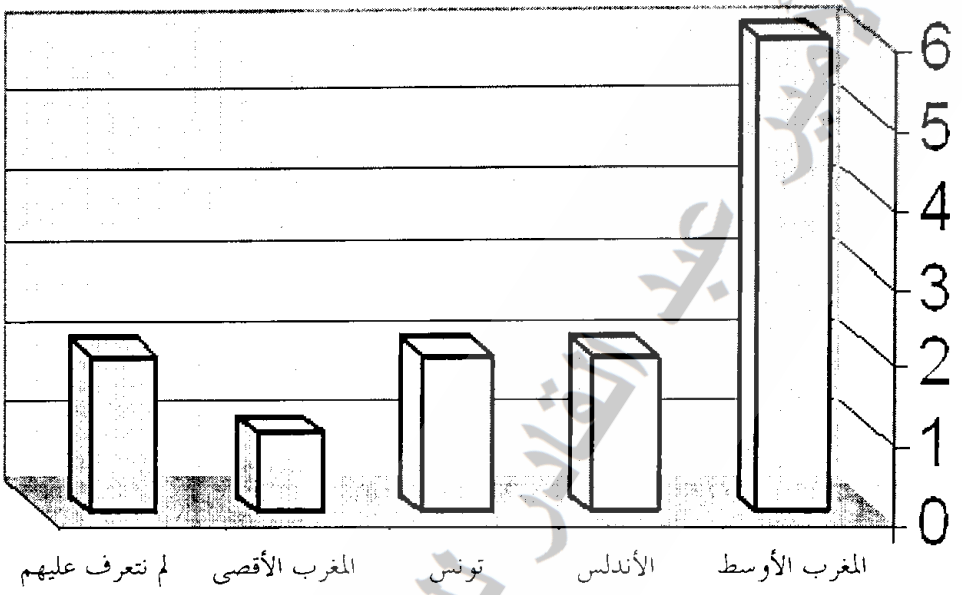

4- القضاة البجائيين قراءة في دورهم وعلاقتهم بالسلطة :

جمع قضاة بجاية بين عدة وظائف و تقلدوا بعضها قبل تتويجهم بالقضاء، تميزوا بحرصهم على استقلالية القضاء عن السلطة، دون الإخلال بمهامهم المسندة لهم، فإلى أي مدى استطاع قضاة بجاية العمل دون الاستجابة لضغوطات السلطة؟ وما [illegible] ماهها؟ لمحاولة الإجابة عن هذا الإشكال والأسئلة التي طرحتها سابقا، قمت باستقراء شامل لعشرين قاضيا كما يبرزه الجدول 2 محاولة للوصول إلى إجابات دقيقة عن هذه الإشكالات وتحديد طبيعة هذه العلاقة.

(1) مجموع قضاة المغرب الأوسط هم ستة ، أربعة من الجزائر، واحد من تلمسان وأخر من المسيلة، أنظرهم في الجدول 2.

اسم القاضي	الأصل الجغرافي	دوره وصفاته في العمل القضائي.	علاقته بالسلطة	الوظائف المسندة	مصيره	المصادر
أحمد بن عيسى (ت682هـ/1283م[1]	المغرب الأقصى	مدافعا عن الوالي والموظفين أمام السلطان.	مناصبا للأمراء ومناصفا لهم وسيوسا.	التدريس، السفارة.		عنوان الدراية، ص 112 - 113.
محمد بن عبد الرحمن الخزرجي (ت 691هـ/1291م)[2]	الأندلس	- كان في قضائه على سنن الفضلاء وطريق الأولياء، قائما بالحقوق وقافا مع الصدق. - متشددا في أمر الشهادة.	- معارضا للولاة فيما يخالف الشرع ومباينا لهم . - رفض شهادة أحد الشهود بتونس لتوسط السلطان فيها.	التدريس، السفارة.		عنوان الدراية، ص126-127.
عبد المنعم بن محمد الغساني (ت670هـ/1271م)	الجزائر	- القيام بالحق، ومشاورة العلماء، نزاهة وطهارة وعفاف. - طريقة سحنون في القضاء.	معظما عند أهل بلده وعند ولاة الأمر.	التدريس، التوثيق، الكتابة السلطانية، العدالة.		عنوان الدراية، ص123-124.
أحمد بن الغماز (ت693هـ/1293م)[3]	الأندلس	- ظهر من نبله في القضاء ومعرفته بوجوه الرد والإمضاء ماعجز عنه من تقدمه. - الدفاع عن مدينة بجاية. - محبوبا عند الناس لقربه منهم.	صلابة وسياسة ووقوف مع الحق.	التدريس، الخطابة، الإمامة، السفارة، العدالة، التوثيق.		عنوان الدراية، ص129-130.
عبد الله بن أحمد المعروف بابن الطير[4](ق7هـ/13م)	تونس	- نزاهة ورئاسة وعلو همة - شُكر أهل بجاة والثناء عليهم أمام السلطان.	أكره على تولي القضاء.	التدريس، العدالة.	العزل	عنوان الدراية، ص194-195.
عبد الله بن حجاج[1] (ت	الجزائر	وقافا مع الحق، مشاورا لأهل العلم.	الصدقة بمرتب القضاء.			عنوان الدراية، ص215.

(1) سبق وأن تقلد القضاء في جهات أخرى قبل بجاية، الغبريني : **المصدر السابق**، ص113.

(2) من بيت قضاء، فأبوه كان قاضيا، ارتحل إلى تونس وولي بها قضاءها، **المصدر نفسه**، ص126-127.

(3) تولى القضاء سبع مرات إلى أن توفي، اشترط على المستنصر شروطا ليتولى قضاء الجماعة بتونس أنظرها عند : النباهي : **المصدر السابق**، ص122-123أ وتولى كتابة العلامة بالحاضرة كذلك، يراجع : ابن الأحمر : **المصدر السابق**، ص32.

(4) اختصر كتاب " المستصفى"، الغبريني : **المصدر السابق**، ص195.

بعد 640هـ/1242م)						
عبد الواحد بن عبد الله بن حجاج (ق7هـ/13م)[2]	الجزائر	من الصلحاء الفضلاء.	لا تأخذه في الله لومة لائم.	الخطابة.		عنوان الدراية، ص215.
الحسن بن موسى بن معمر (ق7هـ/13م)	تونس	حسنت سيرته واستحسنت طريقته.	مكرما عند المستنصر.	العدالة، السفارة، كتابة العلامة[3].		عنوان الدراية، ص255-256.
عبد العزيز بن كحيلا (685هـ/1286م)	بجاية[4]			التدريس، الإفتاء		الوفيات، ص333
أبو العباس الغبريني (ت 704هـ/1304م)	بجاية	كان في حكمه شديدا مهيبا كبير بجاية وصاحب شوراها	ترأسه لوفد بجاية لتهنئة السلطان أبي زكريا	التدريس،الخطابة، المشاورة، السفارة	الاغتيال	المرقبة العليا، ص168، العبر، ج6، 462، الفارسية، ص148-149.
سعيد العقباني[5] (ت811هـ/1408م)	تلمسان[6]	- خاتمة قضاة العدل - حمدت سيره عدلا	مكرما عند السلطان المريني	التدريس، الخطابة.		البستان، ص106-107ـ بغية الرواد، ص123.

([1]) بيت قضاء، فوالده استقضي بالجزائر، وأولاده الخمسة ولي منهم ثلاثة القضاء ببجاية وهما : أبو محمد عبد الواحد، والفقيه أبو علي عمر، أما أبو زيد عبد الرحمن فولي قضاء قسنطينة والجزائر، **المصدر نفسه**، ص215-216.

([2]) ابن القاضي عبد الله بن حجاج، تولى القضاء أكثر من ثلاثين سنة، **المصدر السابق**، ص215.

([3]) أرسله المستنصر سفيرا له إلى المغرب، كما كان كاتب علامته، **المصدر نفسه**، ص256، وكذلك، ابن الأحمر، **المصدر السابق**، ص32.

([4]) ذكر ابن رشيد الذي قرأ عليه ببجاية أنه من تلمسان و لم يوضح لنا تفاصيل ذلك لفقدان جزء الرحلة الخاص بذلك، لكن ابن القنفذ نسبه إلى بجاية وهي الأرجح، لأنه بها نشأ وقرأ على شيوخها، ليتولى التدريس بها، وقرأ عليه الغبريني كتاب "التبصرة" ببجاية، وذكره في برنامجه، أنظره في ، أحمد حدادي : **رحلة ابن رشيد**، ج1، ص295-296، ابن القنفذ : **الوفيات**، 333، الغبريني : **برنامج مشيخته**، ص316، ابن القاضي : **درة الحجال**، ص344.

([5]) تولى القضاء ببجاية لأبي عنان المريني أثناء احتلاله له، كما استقضي بتلمسان وسلا ومراكش ووهران وهنين، أنظر : ابن مريم : **المصدر السابق**، ص106-107، يحي بن خلدون : **المصدر السابق**، ص123.

([6]) من أصول أندلسية من قرية عقبان، من مواليد سنة 710هـ/ 1310م بتلمسان له عدة مؤلفات منها "**شرح الحوفي**" و "**شرح جمل الخونجي**"، وشرح "**تلخيص ابن البناء**" في المنطق، وشرح " **العقيدة البرهانية**"، أنظر عنه : ابن مريم : **المصدر السابق**، ص107، ابن القاضي : **المصدر السابق**، ص431.

سليمان بن يوسف الحسناوي (ت887هـ/1482م)	بجاية		أكره على القضاء.	التدريس، الإفتاء	أعرض عن القضاء متفرغا للتدريس.	الضوء اللامع، ج3، ص270، نيل الإبتهاج، ص186.
محمد بن يعقوب المنجلاتي (ت730هـ/1329م)	بجاية			التدريس، السفارة	عزل وشق عليه ذلك.	درة الحجال، ص188، نيل الإبتهاج، ص389-390.
محمد بن يحي الباهلي (ت 744هـ/1343م)	بجاية	- كثير التواضع والملاقاة - يتولى قضاء حوائجه في السوق بيده		التدريس، الإفتاء، السفارة.		جذوة الإقتباس، ص296-297، نيل الإبتهاج،ص401-402.
إبراهيم بن أحمد (ت 866هـ/1461م)	بجاية			التدريس.		الضوء اللامع، ج1، ص10.
عيسى بن أبركان (ت753هـ/1352م)	بجاية			الإفتاء	توفي شهيدا	الوفيات، ص357.
أحمد بن أبي القاسم المسيلي[1] (ت 789هـ/1387م)	المسيلة			التدريس		الوفيات، ص377.
ابن فركان أم مركان (753هـ/1352م)	مجهول		تشيع للمرينين لما دخلوا بجاية سنة 753هـ.		قتل	العبر، ج6، ص533.
محمد بن عمر (حيا سنة 753هـ/1352م)	مجهول		تشيع للمولى فارح ووقف ضد الوجود المريني ببجاية.		الإعتقال والنفي إلى المغرب.	العبر، ج6، ص534.
المنعم بن عتيق (حيا سنة	الجزائر		قتل البجائيون ابنه لتدخله في شؤونهم السياسية.		رحل إلى بلده الجزائر.	برونشفيك، ج1، ص118.

الجدول2 : قضاة بجاية الدور والعلاقة بالسلطة

(1) له تفسير للقرآن الكريم قيده عن الفقيه التونسي ابن عرفة، توفي قاضيا ببجاية، العودة إلى : عبد الوهاب بن منصور : **أعلام لمغرب العربي**، ج4، ص373.

أ- دور سياسي و أمني تحت عناية سلطانية :

حسب النصوص التي نملكها على قلتها فإن القضاة اضطلعوا بأدوار سياسية واجتماعية وحتى عسكرية، ويتبين منها أن القاضي شخصية نالت الحظوة من السلطة والسكان، فالدور السياسي أو ما يحلو لنا تسميته بالدبلوماسي في مثل هذه الحالة جسده الغبريني الذي أخصه الوالي البجائي على رأس وفد من الفقهاء لعيادة السلطان أبي زكريا بن أبي إسحاق (683-700هـ/1249-1277م) وتهنئته بشفائه من مرضه بقسنطينة، ويصور لنا ابن القنفذ المشهد مندهشا لتقدير الوفد البجائي لقاضيهم وتقدمه عليهم للتسليم على السلطان، عكس صورة الوفد القسنطيني بقيادة قاضيهم ابن الدبم[1]، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن الغبريني كان من المقربين لأبي زكريا ومن صناع سياسته أثناء فترة حكمه والتي أعلن فيها الانفصال عن الحاضرة جاعلا من بجاية عاصمته، هذا الإكبار جعل ابن خلدون ينعته "كبير بجاية وصاحب شوراها"[2].

كرس قاضي بجاية ابن الغماز سلطته الفعلية وأبرز قدراته القيادية في غياب والي بجاية الذي خرج رفقة الجيش الحفصي لإخماد ثورة مليانة سنة 659هـ/1260م[3]، حيث استغل الغوغاء غياب الجيش ليعيثوا فيها فسادا، فيقوم ابن الغماز بصفته قاضي المدينة بقيادة وتوجيه أهلها وتشييد أسوارها، ليقضي على المفسدين ويعيد الأمن إلى المدينة، هذا الموقف يفهم منه أن مكانة القاضي تلي الوالي في هرم السلطة، ويعود نجاحه إلى أنه جمع بين سلطة المنصب الإدارية، وسلطته الدينية كفقيه، هذا الصنيع لابن الغماز زاده محبة عند الناس " وظهر مني فضله ...ما حمد به أمره وجل به قدره"[4]، وكان سببا في استدعائه من المستنصر إلى الحاضرة[5]، ليتبين لنا دور القاضي الأمني والسياسي بالمدينة في غياب السلطة المخولة لها الدفاع وحماية السكان. هذه الثقة التي كسبها قضاة بجاية تعدت إطارها الجغرافي لتشمل الفضاء الحفصي ممثلة في أعلى مركز في الدولة الحفصية، بعناية السلطان نفسه بالقاضي أحمد بن عيسى الغماري لما دخل قسنطينة، وسؤاله عن والي بجاية وعن إسراف مشرفها فأجاب بجواب فصيح مليح مدافعا عنهما وعن أهلها فاستحسن السلطان جوابه[6].

من الجدول نلاحظ أن ست قضاة بجائيين كانوا رسلا سواء من الوالي البجائي أو للسلطان الحفصي، فكانوا خير سفراء ووفقوا في أغلب مهماتهم، لحكمتهم "أرسل حكيما ولا توصه"، ولامتلاكهم أدوات الإقناع، كما أنهم برهنوا عن اخلاصهم في وظائفهم، هذه السفارات قربتهم من البلاطات الخارجية وجعلتهم مقدمين عن

([1]) الفارسية، ص148-149.

([2]) العبر، ج6، 462.

([3]) أعلنت مليانة الإنفصال عن الحفصيين بزعامة الفقيه أبو العباس المليانى، واستطاع الجيش الحفصي هزيمة المليانيين بعد حصار المدينة، أنظر بالتفصيل : المصدر نفسه، ج6، ص420-421.

([4]) الغبريني : المصدر السابق، ص129.

([5]) قلده قضاء الجماعة، واشترط على السلطان شروطا لقبوله المنصب، كالدخول على السلطان دون إذن، وأن يجيبه على ما يشكل عليه في حينه، أنظر : ابن القاضي : المصدر السابق، ص157-158.

([6]) على مارواه الغبريني أن المستنصر قال للقاضي : " سمعنا أن والي بجاية وأهلها لو أراد أن يبنيها لبنة فضة ولبنة ذهبا لفعل، فقال له مبادرا : يا مولانا يكون ذلك بالتفاتكم إليها وعطفكم عليها فسكت"، عنوان الدراية، ص113.

أصحاب الخطط السلطانية في البلاط البجائي، والنماذج كثيرة نذكر منهم : محمد بن يعقوب الزواوي الذي كلف سنة 715هـ/1315م بالسفارة إلى السلطان المريني عن والي بجاية[1]، وتوجه القاضي أحمد بن عيسى الغماري سفيرا عن المستنصر إلى المغرب عدة مرات نجح في معظمها[2]، وكلف قاضي بجاية الغبريني سنة 704هـ/1304م للتوجه مع شيخ القرابة أبي زكريا يحيي إلى السلطان الحفصي بتونس محاولة لبناء علاقات ودية مع أبي البقاء خالد الوالي المستقل ببجاية[3]، وسافر الباهلي إلى فاس سفيرا عن والي بجاية[4].

ب- معاقبة القضاة كسبا للعامة :

هذا لا يعني أن العلاقة بين الطرفين أخذت الصبغة السلمية في كل المراحل ومع كل القضاة، خاصة في ظل التشدد الذي أبدوه في تطبيق الأحكام بشدة، وممارستهم لمهامهم بكل دقة، وما عرف عنهم من صلابة وقوة[5]، ومعارضتهم للولاة ومناصبتهم لهم في أمور الشريعة والحرص على تطبيق الأحكام بحرفية، خاصة في حالة تعارض السلطة مع قرارات القاضي، و من الأمثلة عن ذلك أن الفقيه الصوفي محمد بن علي القصري اختلف مع قاضيا بجائيا ووصل أمرهما إلى السلطان فعزل القاضي من منصبه وانتصر للفقيه الصوفي على كثرة أتباعه[6]، ويعد العزل أصعب العقوبات تأثيرا على القضاة لما تجلبه هذه الوظيفة من سمعة لصاحبها، ويؤكد ذلك البيت الشعري الذي كتبه ناصر الدين المشدالي يرثي فيه الفقيه محمد بن يعقوب الزواوي لما عزل من منصب القضاء بقوله :

يعز علينا أن نرى ربعكم يبلى وكانت به آيات حكمكم تتلى[7]

حرص الولاة الحفصيون في نفس الوقت على إرضاء العامة من خلال مؤسسة القضاء بالسهر على سريان تطبيق الحدود والأحكام بين الناس بالعدل وعدم الشطط، فذلك تكريس لنجاح سياسة السلطة القضائية، لهذا لم تتوان لحظة في التضحية بالقضاة الذين كانوا محل الشكاوى، فقامت بعزل القاضي ابن الطير من وظيفته، ونفهم من ترجمة الغبريني له أن خلافا وقع بين القاضي وبعض المتظلمين فساءت نظرة الناس لأحكامه، وخرج من المدينة مباشرة بعد عزله، إلا أنه أثنى عليهم أمام السلطان، علما أنه أكره على تولي الوظيفة[8].

مما توصلت إليه من خلال تراجم قضاة بجاية، أن أكبر هاجس عانت منه السلطة كان موالاة القاضي وتحيزه لسلطة على حساب أخرى، لأن ذلك تبريرا قضائيا وتشريعيا لشرعية سلطة على حساب أخرى، ويظهر الجدول 2 النهاية المأساوية للقاضي ابن مركان[9]، الذي قتل سنة 753هـ/1352م من صنهاجة بإيعاز من المولى فارح

([1]) ابن القاضي : **المصدر السابق**، ص188.

([2]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص113.

([3]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص462.

([4]) التنبكتي : **نيل لإبتهاج**، ص413.

([5]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص129.

([6]) **المصدر نفسه**، ص170-171.

([7]) ابن القاضي : **المصدر السابق**، ص188.

([8]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص194- 195

([9]) لم أعثرله على ترجمة له فيما وقع بين يدي من المصادر.

بسبب وقوفه مع الوجود المريني ببجاية[1]، وفي الجهة المقابلة وقف القاضي محمد بن عمر مع المولى فارح ضد المرينيين الذين سيعتقلونه سنة754هـ/1353م جراء موقفه السياسي المتحيز في نظر المرينيين ويرحل إلى المغرب الأقصى[2]، هذا البطش تعدى إلى أبناء القضاة الذين تدخلوا في الشؤون السياسية مستغلين جاه وسلطة أبائهم ومنصبهم، فقد عزل القاضي المنعم بن عتيق ورحل إلى الجزائر بسبب ابنه الذي أغضب عامة بجاية ورحل القاضي إلى بلده الجزائر بتعبير الزركشي[3].

ج- استقلالية القضاء البجائي :

الحديث عن استقلالية القضاء البجائي ربما يجعل القارئ يحس بنوع من التناقض، لأن ما ذكر سابقا يوهم أنه لا توجد استقلالية في ظل النهاية المؤلمة لبعض القضاة، إلا أن ما أوردته آنفا لا علاقة له بالأحكام الصادرة وتطبيقها ولا في كيفية إدارة الجلسات القضائية، أو في ما مدى مذهبية القضاء؟ وهل كان القاضي يتعرض لضغوط خارجية؟

المادة التي جمعتها مكنتني من الإجابة عن الإشكال، فالقاضي ببجاية استطاع من موقعه تغيير مواقف سياسية وساهم في إبطال قرارات وفرض أخرى، بنية خدمة الناس دون اعتبارات مصلحية، علما أن السلطة تنساق وراءهم كمحاولة لكسب المصداقية عند المحكومين، فالقاضي ابن يوسف[4]، قاد أهل بجاية "تعنتا وملالا"[5] ضد الحاجب أبو محمد ابن تافراجين الذي استبد بحجابة الوالي مانعا أهل بجاية من ملاقاة صاحب الأمر "لما نكروا من الأبهة والحجاب"[6]، فاستجيبت مطالبهم وعزل الحاجب، رغم أنه كان كبير الموحدين إلا أن ذلك لم يشفع له بالبقاء، ولعل هذه الاستقلالية تبرز بشكل جلي في الأحكام التي كانت تسري على المذهب المالكي و لم تتدخل السلطة في فرض مذهبيتها، وقد أثر عن القاضي عبد المضاء أنه كان يعمل على طريقة سحنون في القضاء ويفضلها[7] دون حرج وبحرية تامة.

لعل حرص القضاة على تحري نزاهة أحكامهم واستقامتهم، والوقوف ضد أي شكل من أشكال الضغوط، كان وراء تصدق القاضي عبد الله بن حجاج بمرتبه كاملا والعيش من أموال العقار الذي ورثه عن والده بالجزائر، خاصة وأن القاضي كان يقبض مرتبا قدره خمسة عشر دينارا اعتباريا في الشهر إضافة إلى علف بغلته والذي سيقطع منه لاحقا[8]، وهو مبلغ ليس بالطائل، وقد عانى الكثير منهم من شظف الحياة كسليمان بن يوسف

([1]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص533.

([2]) **المصدر نفسه**، ج6، ص534.

([3]) **تاريخ الدولتين**، ص48-49.

([4]) لم أجد ترجمة له من المصادر التي اضطلعت عليها.

([5]) ابن خلدون : **المصدرالسابق**، ج6،ص115.

([6]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([7]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص124.

([8]) ابن فضل الله العمري : **المصدر السابق**، ج4، ص158.

الحسناوي الذي تولى القضاء والإفتاء ببجاية إلا أنه عانى من ضيق العيش إلا أن مات[1]. وبالتالي فحرص السلطة على الاستقلالية لم يكن في كل الحالات نشرا للعدل بين الناس بقدر ما كان جلبا لمصداقيتها وحماية سمعتها وضمان ثقة الرعية فيها من خلال نزاهة قضاتها وسلامة أحكامهم وخلوها من المحاباة وسريان القانون على الجميع.

5- العدالة :

تابعة للقضاء يعمل العدول تحت تصرف القاضي وهو الذي يثبت إن كان فعلا عدلا ليصبح مؤهلا للتوثيق[2]، عرفها ابن خلدون بالقول أنها "القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملا عن الإشهاد وأداء عند التنازع"[3]، يقوم متوليها إضافة للشهادة بتدوين وتسجيل الوثائق والعقود، مما ألزم عليه أن يكون فقيها بالأحكام في حدود عمله[4]، ويشترط فيه العلم بصنعته، سليم اللغة واللسان، حسن الخط[5]. وهي الشروط التي توفرت في عدول بجاية، فقد كان عبد الحق بن الربيع ذا معرفة باللسان والمعاني مما أهله لأن يتقلد كتابة الوثائق ببجاية وعلو كعبه في ذلك باعتراف الفقيه أبي مطرف بن أبي عميرة[6]، ووصف عمر بن ملك المرساوي (ق7هـ13م) بأنه كان فصيحا وطليق اللسان، وله علم بأصول الدين، تميز بالعدل "خطة وصفة"[7]، ويشترط في صاحبها كذلك النزاهة في الشهادة[8]، لدى وجدت أن أغلب العدول البجائيين الذين ترجمت لهم كتب التراجم والطبقات وصفوا بالخيرية والتقوى والزهد، فكان علي بن عمران (ت670هـ/1358م) كما وصفه الغبريني "من عدول بجاية وخيارها"[9].

يقوم العدول بتسجيل هذه الشهادات ويقدمونها للقضاة[10]، وعلى أساسها يقوم القاضي بإصدار الأحكام، كما وجب أن يكن للخط يدين للخط لقيامه على التوثيق وتدوين السجلات بأنواعها كعقود الزواج والطلاق وتوثيق العقود التجارية من بيع وشراء، والظاهرة الملفتة للنظر ببجاية في تلك الفترة هي بروز نخبة من العدول المتميزين في التوثيق، فقد عرف عن محمد بن حسين الخشني (ق7هـ/13م) أنه كان " في صناعة التوثيق إماما...

- وهو ما يعادل 150درهما، أي أنذاك يساوي حسب بعيزق ثلاثة أقفزة من القمح أو الشعير، 187,5رطلا من لحم الضأن، أو 75 دجاجة جيدة، أنظر : **بجاية في العهد الحفصي**، ص423.

([1]) السخاوي : **المصدر السابق**، ج3، ص270.

([2]) عيسى الحريري : **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني**، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1985، ص273.

([3]) **المقدمة**، ص215.

([4]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها، وكذلك : صابرة خطيف : **المرجع السابق**، ص159.

([5]) **المرجع نفسه**، ص159.

([6]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص87.

([7]) **المصدر نفسه**، ص 198.

([8]) الرصاع : **الفهرست**، ص15.

([9]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص199.

([10]) ذكر ابن خلدون أن لهم دكاكين ومصاطب في جل الأمصار لتدوين الشهادات وتقييدها في سجلات، أنظر : **المقدمة**، ص215.

وله خط بارع"[1]، وعدها الغبريني علم قائم بذاته يتطلب من صاحبها الكثير من الفطنة "نباهة ومعرفة ثابتة بعلم الوثائق"[2]، وتتفرع الوثائق إلى ما يكتبه العدل للقضاة من عقود وأحكام، والوثائق التي يكتبها للعامة من تظلمات بشأن قضاياهم المختلفة[3]، واشتهر بعض العدول ببجاية بتحكمهم في صنعة التوثيق[4]، كما تتطلب العدالة من صاحبها الليونة في المعاملة والسماحة[5] للتواصل مع الغير لكي يسهل على العدل القيام بوظيفته على أكمل وجه، تكمن أهمية هذه الوظيفة في أنها تحفظ حقوق الناس، فعلى مدارها يقوم العدل، أما مكانة متوليها فقد أرجعها بعيزق لسببين اثنين، أولهما ديني اجتماعي يتمثل في الاعتراف بشهادتهم لأنهم قدوة وخيرة المجتمع، والأخر رسمي سياسي بقبول السلطة ببجاية بوثائقهم كوثائق رسمية صادقة لا يرقى إليها أدنى شك[6].

أحصيت خمسة عشر عدلا ببجاية، جلهم كانوا فقهاء، وربما ذلك وراء تأهيل ثمانية منهم إلى تقلد منصب القضاء أو نيابته مما يوحي ثقة السلطة فيهم بما قدموه من خدمة للقضاء، تعدى اعترافها بهم إلى تنصيب البعض منهم كتابا في ديوان الوالي، أو ما يسميه الغبريني الكتابة الشرعية[7]، فعين الفقيه أبو محمد عبد الله بن علوان (ق7هـ13م) شيخا للكتاب بديوان الوالي البجائي، وكان البلاط يعول عليه "وعلى شهادته العمل بالديار السلطانية"[8]، وبعضهم مشاورين للوالي في ديوانه كعبد الحق بن الربيع الذي كان عدلا ومشاورا ويأخذ برأيه في معظم الأحوال خاصة في الأمور الشرعية[9].

يفهم مما سبق أن العدول ببجاية انتزعوا اعتراف السلطة بهم ونالوا المصداقية عندها بتعويلها على شهاداتهم واعترافها بوثائقهم ليكون ذلك دعما للقضاء، بل تعدى إلى ترقيتهم إلى قضاة أو نواب ردا للجميل الذي قدموه لها في الوظائف التي باشروها، رغم أن حالتهم المادية لم تكن بأحسن حال[10]، فالمصادر لا تتحدث عن غنى أي عدل ببجاية في الفترة المدروسة.

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص219.

([2]) **المصدر نفسه**، ص220.

([3]) **المصدر نفسه**، ص241.

([4]) أجادوا أحكام كتابة الوثائق بشكل فائق حتى أن محمد بن محمد القلعي سماه الغبريني "موثق الوقت"، وقال عن وثيقته بأنها محكمة، **المصدر نفسه**، ص227.

وكان الفقيه عبد المنعم بن محمد الغساني ثانيا في التوثيق إحكاما وشهرة ببجاية بعد عبد الحق بن الربيع، يراجع : **المصدر نفسه**، ص123.

([5]) **المصدر نفسه**، ص107.

([6]) **بجاية في العهد الحفصي**، ص424.

([7]) في ظل وجود الكتابة الأدبية التي عرف بإجادتها الفقيه الأندلسي ابن عميرة ببجاية ثم بتونس تمعية لفقيه عبد الحق بن الربيع، أنظر: الغبريني : **المصدر السابق**، ص87.

([8]) **المصدر نفسه**، ص262.

([9]) **المصدر نفسه**، ص86.

([10]) يقاضى دينارا واحدا مقابل شهادته، أنظر : بعيزق : **المرجع السابق**، ص425.

الفصل الرابع

النخبة والسلطة من خلال الجهاز الإداري العسكري والتجاري

أولا :

الجهاز الإداري والتمردات المتكررة على الأمراء

ثانيا :

النخب العسكرية بين ولاء القادة المحليين وهيمنة الموالي

ثالثا:

التجار الكبار يساهمون في صنع ملك بجاية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : الجهاز الإداري والتمردات المتكررة على الأمراء

يعد الجهاز الإداري أداة تستخدمها الدولة لبسط نفوذها وتركيز سلطتها، بفضل موظفيها القادرين على مباشرة الخطط الإدارية، وبقدر ولائهم لها تزيد امتيازاتهم ويقوى جاههم، فهل كان هؤلاء كذلك في بجاية على العهد الحفصي؟ أم طغت مصالحهم الشخصية على حساب مصالح سلطة الدولة في المدينة؟.

1- الحجابة بين نفوذ الأشياخ وسلطة الأندلسيين :

عرفها ابن خلدون بأنها "وساطة بين السلطان وأهل دولته"[1]، اشترط في متقلدها مجموعة من الشروط[2]، وقد علا شأنها في الدولة الحفصية حتى أن الحاجب استأثر في بعض الأحيان بالمدينة وأعمالها وأصبح هو المدبر لشؤونها دون الوالي، فمن كان يعين الحاجب؟ وممن كانوا يختارون؟ أمن الأشياخ الموحدين أم من الأندلسيين؟ وهل عرفت بجاية حجّابا مباشرة بعد قيام الدولة الحفصية أم تأخروا؟ ولماذا؟ هل وصل العنصر المحلي إلى هذه الوظيفة؟ وهل ساهم الحجّاب البجائيون في تنفيذ سياسة السلاطين؟ أم كانوا سببا في بث القلاقل والصراعات؟ هل بقيت سلطة الحاجب رهينة شخصه أم تعدت إلى الغير؟ وكيف؟

على غرار ما ذهب إليه ابن خلدون فإن الحاجب لم يعرف كمصطلح في عهد السلاطين الثلاثة الأوائل (أبو زكريا، المستنصر، الواثق)، إنما كان الأمر لما سماه القهرمان[3]، وسماه ابن فضل الله العمري (ت749هـ/1348م) بوزير الجند[4]، يُدخِل رجال الدولة على السلطان ممن يستدعيهم على عهد أبي زكريا أول سلاطين بني حفص، ومن خلال المهام المسندة له يتبين مطابقتها لوظيفة الحاجب.

وفي تعداده تراتبيا لأصحاب المناصب العليا عند الحفصيين في القرن 10هـ/16م، ذكر حسن الوزان في مقدمتهم "المنفذ"[5] الذي يأتي بعد السلطان ثم "المزوار" وهو بمثابة وزير الجند كما يشرف بصفة مباشرة على

([1]) الرحلة، ص95.

([2])في شروط توليته العودة إلى : ابن الأزرق : المصدر السابق, ج1، ص354

ولا بأس أن نورد هنا مقولة موجزة للهروي أجمل فيها المواصفات التي وجب توفرها في الحاجب ومهامه ، فيقول موجها كلامه للسلطان : " فيختار أغزرهم عقلا وأشدهم دينا وأوفاهم ورعا وأعظمهم من الله خوفا وأصوبهم رأيا حجّابا له ليكشفوا إليه أحوال الرعية وأمور الناس ومظالم العباد ولا يجعل زمام الأمور بأيديهم ولا يركن بالكلية إليهم " أنظر : علي بن أبي بكر الهروي : **التذكرة الهروية في الحيل الحربية** ، نشر في : - *Bulletin d'études orientales*, XVII (1961-1962) p. 262.

([3]) وإن كنت استبعد أن يقوم من يشرف على لباس ونفقة وحتى اصطبلات حيوانات السلطان على الحجابة وحتى كتابة العلامة على رأي ابن خلدون، علما أن الوصول إليها يتطلب شروطا لا تتوفر في القهرمان، أنظر ما كتبته في شأنها ص 35 من المذكرة، وإذا حدث فلعله كان يشرف على الجزء البسيط الذي ذكرته وترك الأمور الأخرى إلى المؤهلين من رجال الدولة.

وذهب برونشفيك إلى أنه لو قام بأمرها القهرمان لكان ذلك لفترة قصيرة فقط، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، هامش 38، ج2، ص55، وأنظر في أمر القهرمان، المقدمة، ص229.

([4]) الذي يختص بأمر الجيش والحرب، ، وإدخال الفقهاء وشيوخ القبائل والموحدين على السلطان أنظر : **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ج4، ص162.

([5]) يشرف على تعيين الموظفين بعد استشارته للسلطان ومراقبة الأمور الإدارية، يراجع : **وصف إفريقيا**، ج2، ص78.

حرس السلطان[1]، وثالثهم "قائد القصر"[2]، ولا نجد في العشرة الذين عدهم بعض الألقاب كشيخ الموحدين ووزير الجند، ولم يورد بينهم الحاجب، ولعل ذلك يعود إلى توزع مهامه بين الثلاثة الأوائل بالمقارنة بين ما أسند إليهم من مهام ووظيفة الحاجب.

يعود الفضل في موضوع الحجابة ببلاد المغرب في الفترة محل الدراسة إلى العلامة ابن خلدون سواء في المقدمة أو العبر أو الرحلة، والذي فصل بشكل مستفيض في أدوار الحاجب في نطاق السياسة العامة للدولة الحفصية، وينطبق ما جاء عنده من تأخر ظهور المصطلح رغم وجود الوظيفة التي أسندت إلى الوزير التاريخ السياسي للبيت الحفصي، فأول ظهور للحاجب سيكون في عهد السلطان أبي إسحاق الذي عين أبا القاسم بن الشيخ من أهل الأندلس حاجبا له في منتصف ذي الحجة 678 هـ/1279م بعد دخوله تونس سلطانا[3]، واعتبرها برونشفيك من تقاليد الأندلسيين الوافدين[4]، وإن لم يدلل على قوله هذا، ومنذئذ أصبح للحجابة شأن ولصاحبها الوجاهة والنفوذ، ولم تكن من قبل إلا وظيفة بسيطة في قصر السلطان.

على نفس الشاكلة سارت بجاية قاعدة الملك الثانية كما يسميها العمري[5]؛ حيث عين السلطان أبو زكريا لولده أبي يحيى والي بجاية سنة 633 هـ/1235م يحيى بن صالح بن إبراهيم الهنتاتي وزيرا يستشيره في شؤونه ويقوم على بابه، وعين له عبد الله بن أبي تمدى مشاورا، وعبد الحق بن ياسين على الجباية[6]، والثلاثة من الأشياخ الموحدين، الذين استأثروا بالوظائف الثقيلة ببجاية في ظل الرعاية والحظوة التي لقيتها هذه الطبقة في بداية الدولة على عهد السلاطين الأوائل، لسابقتهم في الفكرة التوحيدية ودورهم في القيام بأمر الدولة الفتية.

لا شك أن سيطرة عائلة أبي هلال الهنتاتية على ولاية بجاية انطلاقا من الوالي أبي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي (660هـ/1262م إلى673هـ/1275م) [7]، ثم ابنه محمد إلى غاية 678هـ/1279م[8]، هي السبب في عدم تعيين وزراء آخرين لتركيز سلطة الأشياخ في البلاط، ويعبر ذلك عن مدى إخلاصهم للمركز ووثوق السلاطين الثلاثة (أبي زكريا، المستنصر، الواثق) بهم، لما قدموه لهم من خدمات جليلة[9]، رغم المكائد التي كان يدبرها كبير الدولة

([1]) الحرس الملكي كما سماهم الوزان، **المصدر السابق**، ج2 ص77، أما عند المرينيين فالمزوار يعني الحاجب ، أنظر : **المقدمة**، ص229.

([2]) يشرف على شؤون القصر والسجناء ويفصل في بعض قضايا الرعية، أنظره عند : الوزان : **المصدر السابق**، ج2، 79.

([3]) بعد أن انخلع له الواثق عن الحكم ودخل الحاضرة سلطانا، أنظر : ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص436.

([4]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص54.

([5]) **مسالك الأبصار**، ج4، ص145.

([6]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص383.

([7]) **المصدر نفسه**، ج6، ص421، 434.

([8]) وقعت تصحيفا 676هـ/1277م عند بن خلدون والصواب 678هـ/1279م لأن نهايته كانت قتلا بأمر من السلطان أبي إسحق لما تولى أمر السلطة في نفس السنة، يراجع : **المصدر نفسه**، ج6، ص436,

([9]) على سبيل المثال لا الحصر الدعم العسكري الذي قدمه عياد بن سعيد للمستنصر لإخضاع الجزائر سنة 671هـ/1282م، **المصدر نفسه**، ج6، ص431، ودورهم في استتباب الأمن بين القبائل وبسط نفوذ الدولة على مناطقهم، كإخمادهم ثورة الذواودة ، ج6، ص424.

ابن الحبر[1]، للإطاحة بالجناح الموحدي ببجاية، محاولة منه لنقل القيادة بها للعنصر الأندلسي؛ فقد قام بتنصيب أخيه أبي العلاء إدريس على ولاية الأشغال ببجاية منافسة لعائلة أبي هلال، لكن تصرفات أخيه في المال وسخطه للمشيخة وإغضابه أعيان بجاية[2]، وكبره واستبداده الذي عاد وباله على الدولة جلب له الويل من البجائيين قيادة وعامة، وأحسن ابن قنفذ تعبيرا بوصف أفعاله فقال" اقتنى بها مالا وأذل رجالا وأساء العشرة مع أهلها"[3]، ليتم تصفيته من بطانة الوالي الهنتاتي في ذي القعدة 677هـ/1279م[4]، فبعث السلطان الواثق قاضي الجماعة ابن الغماز[5] للتحقيق في الاغتيال[6]، لكن بحكم القاضي من الأندلسيين المهاجرين ومخافة التحالف على أبي هلال بادر الوالي إلى الاتصال بأبي إسحاق إبراهيم عم الواثق بتلمسان ودعوته باسم البجائيين ليدخل المدينة أواخر ذي القعدة 677هـ/ 1278م[7]، وبايعه أهل المدينة[8] وآزره الأشياخ الموحدين[9] لتشكيل جبهة بجائية ضد ابن الحبر، الذي استبد بالأمر حتى بدا السلطان الواثق أمامه "كالمحجور في يد الوصي"[10]، ويقبض على القاضي ابن الغماز ويبقيه حبيس داره[11]. سيكون ذلك الحدث بداية الصراع بين سلطة الأشياخ الموروثة والنخبة الأندلسية الوافدة على المدن الحفصية المشمولة بالرعاية السياسية، ويفهم من هذا التعيين تدخل كبار رجال الدولة في المركز بنفوذهم في تعيين أقربائهم في وظائف هامة بالمدن الحفصية للتدرج منها لمناصب أكبر، كما يهدف إلى تقوية نفوذ هؤلاء المتنفذين في الحاضرة وحماية أنفسهم من الوشايات للبقاء لمدة أطول في المنصب.

من خلال قراءتي للتاريخ السياسي لبجاية وتتبع الأحداث متحريا الدقة بقدر المستطاع توصلت إلى إحصاء ستة عشر حاجبا في مدة قرن وأربع وأربعين سنة (من 633هـ/1235م إلى 777هـ/1375 م)، منهم شخص واحد تقلدها لفترتين مختلفتين[12]، أي بمعدل تسع سنوات لكل حاجب، مع عدم تغطية جزء من

([1]) من أعمال مدينة مرسية الأندلسية يكنى بأبي الحسين ، تقلد عدة وظائف على عهد المستنصر ثم الواثق، استبد بأمر الدولة بعد الوشاية بسعيد بن أبي الحسين منافسه عند الواثق الذي أمر بقتله ذي الحجة سنة 676هـ/ 1277م ليستبد ابن الحبر بالدولة والسلطان على قول ابن خلدون، انظر في أمره : **العبر**، ج6، 433-434.

([2]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص105.

([3]) **الفارسية**، ص135

([4]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص434.

([5]) تقلد قضاء الجماعة بتونس بعد رحيله من بجاية باستدعاء من المستنصر، بعد عزل ابن الخباز رمضان 662هـ/ 1263م ليتم عزله شهر شوال 667هـ/1268م ، أنظر : الزركشي : **تاريخ الدولتين**، ص38.

([6]) ابن قنفد : **المصدر السابق**، ص136.

([7]) وقيل عيد الأضحى من عام 677هـ/ 1278م، **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها..

([8]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص42.

([9]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص435.

([10]) ابن قنفذ : **المصدر السابق**، ص135.

([11]) **المصدر نفسه**، 136.

([12]) وهو الحاجب محمد بن فرحون، تقلدها المرة الأولى من 727-735هـ/1326-1334م ، ثم الثانية من 741هـ/1340م إلى قبل 747هـ/1346م ، العودة إلى : ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص515-516.

ق8هـ/14م و ق9هـ/15م لفقدان المادة التاريخية، فالزركشي المصدر الوحيد للقرن 9هـ/15م ركز في تاريخه على الحكام وبشكل أقل للولاة دون الاهتمام بفئة الحجّاب في الولايات، كما أن ابن خلدون شغلته ربما الأحداث الكبرى فلم يعرّج في أحيان كثيرة على بعض الحجّاب ببجاية خاصة بعد خروجه منها والتي شغل بها هذا المنصب وتفرغه للتأليف، أو لهامشية دور من لم يذكرهم وتركيزه على صناع الحدث، لدى وجدت الكثير من الفراغات والفجوات التي لم استطيع ملأها بأصحابها في ظل عوزي للمادة الخبرية، والجدول التالي يبرز بشكل واضح وبالأرقام مجموعة من المعطيات عن حجّاب البلاط البجائي والتي تفيدنا في الكثير من القراءات والتحليلات التاريخية :

إجمالي الحجّاب	النسبة	أطول وأقصر مدة	انتماءاتهم السياسية والجغرافية				الأسر المتقلدة وعدد حجّابها	النهاية والمصير
			الأندلسيين	الموحدين(حاجبين)	العنصر المحلي (حاجب واحد فقط)	العلوج (حاجب واحد)		
16	9سنوات لكل حاجب	أطولهم 15سنة[1] أقصرهم لم يتعدى السنة[2]	(12 حاجبا)				- بيت ابن خلدون 2 - بيت ابن سيد الناس2 - عائلة ابن غمر 2	نتيجة الوشاية (3)، النقل (1)، حجّابا للحاضرة (1)، العزل (3)، القتل (1).

ابن خلدون نهاية مخيبة لطموح سياسي مشروع :

الملاحظة الأولية من خلال الجدول تبرز لنا أن الأندلسيين يشكلون غالبية الحجّاب البجائيين باثني عشر حاجبا، منهم بيتين وعائلة سيتقلدون الوظيفة بحاجبين لكل واحدة منهم فما سبب ذلك يا ترى؟ أول هذه البيوت بيت ابن خلدون، حيث تقلد محمد بن أبي بكر الجد الأقرب للعلامة عبد الرحمن لحجابة الوالي أبي فارس سنة 679هـ/ 1280م[3]، بتعيين من السلطان أبي إسحاق[4]، علما أن والده أبا بكر كان في نفس الفترة صاحب

([1]) وهو أبو القاسم بن أب جي تحجب بين 690-705هـ/ 1291-1305، أنظر : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص452-453، 462.

([2]) وهو محمد بن قالون تحجب سنة 720هـ/1320م, العودة إلى : **المصدر نفسه**، ج6، ص486.

([3]) عكس ما وردت عند بن خلدون تصحيفا سنة 669هـ/1270م, فالسلطان أبو إسحاق لم يول أمر الدولة إلا سنة678هـ/ 1279م ، يراجع : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص436، **الرحلة**، ص34.

([4]) جاء تعيينه على بجاية لأجل التخفيف على ما أصابه من أسى وحزن على اغتيال السلطان لأحمد بن سيد الناس حاجب أبي فارس سنة 679هـ/1280م، صديقه وحميمه على تعبير برونشفيك، والذي تربى في القصر مع أولاد السلطان وتعلق به الوالي البجائي وأحبه، فالهدف كان "تأنيس ابنه ومسح الضغينة على صدره" ، أنظر : **ابن خلدون : المصدر السابق**، ج6، ص438-439، الزركشي : **المصدر السابق**، ص44، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص112.

الأشغال (المالية) [1]، التي كانت حكرا على الأشياخ الموحدين[2]، بعد أن عينه السلطان نفسه عند دخوله تونس منتصف ذي الحجة 678هـ/1279م[3]، وقد كان لمكانة البيت الخلدوني أصيل إشبيلية عند الحفصيين دورا في تقليدهم الوظائف وتقريبهم ورعايتهم لسابق أفضال هذا البيت عليهم[4]، وعبر أحد المؤرخين عن حظوتهم فقال: "وكان بنو خلدون ينعمون في رعاية الدولة...ويتداولون في ظلها مراتب الجاه والنفوذ"[5]، وكان للوسط الاجتماعي وعراقة النسب والعصبية وبعض الاعتبارات العلمية والمالية والسوابق التاريخية دورا في تقلد الوظائف السامية عند الحفصيين.

لا يصرح ابن خلدون عن المدة التي قضاها جده حاجبا لأبي فارس ببجاية ولكني أرجح أن المدة لم تطل كثيرا، إذ طلب الإعفاء من وظيفته وقد وافق السلطان على ذلك، لأن السلطة المخولة بالتعيين هي التي لها حق العزل، وعاد إلى الحاضرة[6]، لنتساءل عن الأسباب التي جعلته يطلب الإعفاء؟، رغم أن الحجابة من الوظائف التي كان العنصر الأندلسي خاصة يسعى للاستحواذ عليها لأفضالها على متوليها، لكن هذا اللُبس ينمحي عندما نعلم أن محمد بن خلدون لم يكن من شاكلة المهرولين أو الساعيين لتحصيل المناصب على ما عرف عنه، فقد رفض منصب حجابة السلطان أبي يحي أبي بكر بالحاضرة 727هـ/1326م بعد أن دعاه لتوليها، ودله على محمد بن الحسين بن سيد الناس بدلا عنه[7]، ومن المؤكد أن العلائق بين أبي فارس وحاجبه لم تكن على مايرام، فالوالي الذي

ل إلى بجاية مغاضبا من جراء ما حصل لابن سيد الناس لم يرقه حاجبه الجديد، بدليل أنه قبض عليه لما دخل بجاية ثانية في ذي القعدة 681هـ/1282م مع السلطان أبي إسحاق الفار من الدعي ابن أبي عمارة[8]، وهي الأسباب التي تجعلني أقول أن حجابة محمد بن خلدون ببجاية لم يكتب لها النجاح و لم تطل لتعكر الجو بين الحاجب والوالي.

عكس حجابة عبد الرحمن بن خلدون، فقد عاد هذا البيت إلى تقلد المناصب لدى الحفصيين لكن هذه المرة بشكل لا نظير له من نواحي مختلفة، علاقته مع بجاية ستكون على كرتين فدخوله الأول لبجاية أيام كانت تحت السيطرة الزيانية سنة 753هـ/1352م، ينتقل منها إلى فاس ويضمه السلطان أبو عنان إلى مجلسه

([1]) العبر، ج6، ص436، الرحلة، ص34.

([2]) العبر، ج6، ص436.

([3])وقد وفد أبو بكر مع والده الحسن بن محمد من إشبيلية على السلطان أبي زكريا، ليرحل الحسن إلى المشرق للحج، لكن بعد ذلك نجد تلفتين ففي العبر يذكر أن الحسن قضى نحبه بالمشرق، أما في الرحلة فيروي أنه عاد واتصل بخدمة السلطان أبي زكريا حتى توفي ببونة ودفن هناك وهي الرواية الأصوب أنظر :/ **المصدر نفسه**، ج6، ص436، وكذلك : **الرحلة**، ص34.

([4]) يروي ابن خلدون في ترجمته للبيت أن أحد أجداده أهدى الأمير أبا زكريا يحيي جارية كانت له أم ولد وانجبت له أبا يحي ولي العهد كانت تسمى بأم الخلائف أو الخلفاء، أنظر تاريخ البيت وكيفية انتقالهم إلى العدوة المغربية عند : **المصدر نفسه**، ص32-34.

([5]) عبد الله عنان : «ابن خلدون في بجاية»، **مجلة الأصالة**، العدد19، ص183.

([6]) **الرحلة**، ص34-35.

([7]) **المصدر نفسه**، ص35-36.

([8]) ليخرج من بجاية مع أبي حفص بن أبي زكريا وأبي الحسين بن سيد الناس والفازازي إلى قلعة سنان، **المصدر نفسه**، 35.

755هـ/1354م[1]. عودة الأمير أبي عبد الله وتمكنه من استرجاع بجاية 765هـ/1363م، ويعود الفضل إلى ابن خلدون الذي داخل السلطان المريني أبا سالم في إعادته إلى ولايته[2]، وكان الأمير قد عاهد عبد الرحمن برسم خطه أن يعهد له بالحجابة، ولعل ذلك مكافأة له على صنيعه في فاس في عهد أبي عنان وفعلته الثانية مع أبي سالم، مما يؤكد صحة التدبير الذي كان بينهما في الفرار، وبعث معه أخاه يحيي"حافظا للرسم"[3]، فهل باشر يحيي بن خلدون خطة الحجابة للأمير أبي عبد الله قبل مجيء عبد الرحمن[4]؟

لبى ابن خلدون دعوة أبي عبد الله وانتقل في منتصف 766هـ/1364م[5] من الأندلس إلى بجاية، ولقي ترحابا وتكريما كبيرين من أميرها وأعيان دولته وأهلها، حتى أنه تفاجأ بالاستقبال الذي حظي به، ويصف بأسلوب بليغ تلك الحفاوة والهبّة لتحيته في ذلك اليوم المشهود كما سماه فيقول "وأركب أهل دولته [أي الأمير] للقائي، وتهافت أهل البلد علي من كل أوب يمسحون أعطافي ويقبلون يدي"[6]، وخصه أبو عبد الله بالتجلية والتقدير، خاصة وأن أفضال ابن خلدون عليه كثيرة "حيا وفدى وخلع وحمل"[7]، وتولى منصب الحجابة الذي كان طموحا سياسيا ينشده[8] للوصول إلى ما هو أفضل منها لأن "حب الرياسة تمكن من خلده"[9].

كان له دور بارز في سياسة أميره وفي إدارة شؤون بجاية، واستقل على تعبيره بأمور الملك، وتم له التفويض بإدارة المدينة وتدبير شؤونها بحرية[10]، موجها وناصحا ووسيطا لما عرف عنه من سابقة في المدينة، وتمرُس في شؤون الحكم ببلاط فاس وبلاط بني الأحمر بالأندلس، فلم يدخر جهدا في خدمة ولي أمره. لم يبق رهين القصر بالقصبة كما هي عادة الحجّاب الذين سبقوه، بل خاطب العامة والخاصة من الفقهاء والأعيان والشيوخ وكبار رجال البلاط من فوق منبر جامع القصبة الأميري، وتواضع تواضع العلماء بجلوسه للتدريس بنفس الجامع دون فتور طول النهار بعد انهاء مهامه الإدارية غداة[11] سلطانية و الدينية والسلطانية والتي لم تسعف الكثير ممن جاءوا قبله،

([1]) وبفاس يتصل بالأمير البجائي السابق أبي عبد الله محمد الذي أشخصه السلطان أبو عنان إلى المغرب بعد أن دخل بجاية، ليتم اتهام بن خلدون والوالي على التآمر والتفكير بالهرب لاستعادة إدارة بجاية، مع وعد أبي عبد الله لابن خلدون بتقليده حجابته عند استعادة ملكها، **المصدر السابق**، ص67.

([2]) **المصدر نفسه**، ص94، **العبر**، ج6، ص547.

([3]) ابن خلدون : **الرحلة**، ص95.

([4]) جاء على لسانه في بغية الرواد أن السلطان المريني أرسله مع الأمير أبي عبد الله "معينا بحجابته"، أي على السبيل المساعدة، وكان ذلك سنة 761هـ/1359م، ريثما تتهيئ الظروف بحضور أخيه عبد الرحمن، ويبدو أنه لم يباشرها، لأن بجاية استصعبت على أبي عبد الله و لم يفلح في دخولها إلا في رمضان 765هـ/1363م، فقلدت لصاحب العبر، أنظر : **بغية الرواد**، ج2، ص 123.

([5]) وفي العبر كتبت تصحيفا 756هـ/ 1355م، أنظر: ج6، ص548.

([6]) ابن خلدون : **الرحلة**، ص95.

([7]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([8]) الجابري : **المرجع السابق**، ص53.

([9]) ابن الأحمر : **المصدر السابق**، ص65.

([10]) الشوكاني : **البدر الطالع**، ج1، ص337.

([11]) **المصدر نفسه**، ص95.

وقد ساعده في سهولة التواصل ومخاطبة الجميع امتلاكه أدوات الإقناع من علم شرعي وتاريخ وفهمه لطبيعة المجتمع المغربي القبلي، ومخالطته أهل السياسة وحنكة الحياة الإدارية في دواليب القصور على قصرها، ويفهم من ترجمته الذاتية أن فترة الحجابة ببجاية بدل فيها كل وسعه واستنفذ كل طاقاته لإنجاح سياسة أميرها ولعل في ذلك سر ما؛ فيقول باعتراف منه "استغرقت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه"[1].

كما كان لبجاية دور في بلورة نظرية الجاه عند ابن خلدون، بالعودة إلى التعريف الذي وضعه للجاه حيث يقول: "هو القدرة الحاملة للبشر عن التصرف في من تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة"[2]، ولعل حياته البجائية وتقلبه في دواليب السلطة كانت محصلة لذلك التعريف، حيث أصبح الآمر الناهي ومدبر الأمور في دولة الأمير أبي عبد الله، مفوضا له تسيير المدينة وعمالاتها، علما أن الجاه يحتاج إلى الإكراه لممارسة السلطة الفعلية التي تعد مصدره الرئيسي[3]، وقد ساعده الجمع بين السلطة السياسية كحاجب، والسلطة الدينية والتربوية كخطيب ومدرس بقدرته على التأثير في السامعين، لتكون له سلطة الأمر والمنع قولا وفعلا على رجال الدولة وعلى العامة كخطيب بجامع القصبة، دون العودة إلى الأمير في حالات كثيرة، ويبدو أن التجربة الشخصية له والواقع الذي عايشه ببجاية واستحواذه على السلطة جعله يخلص إلى أن الحجابة ببلاد المغرب استبداد بالدولة حقيقة.

وبالنظر للشروط التي وضعها لتحصيل الجاه، كالخضوع والتملق للملوك، وأنه لا يمكن للمترفعين والمبتعدين عن موائد السلطان أن يحصلوا على الجاه[4]، فعبد الرحمن سعى بمدينة فاس إلى الاتصال بأبي عبد الله وتم الاتفاق بينهما على أن يوليه حجابته مقابل خدمات يقدمها له، وجعل العلم أحد الشروط اللازمة له خاصة العلوم الدينية، خاصة وأنه عايش في مرحلته الأولى ببجاية سلطة الفقهاء الذين جلبهم السلطان أبي عنان والذين استفاذ منهم بن خلدون بشكل بارز، ولعله هو نفسه توفر فيه الشرط العلمي لينسحب عليه الجاه، كخطيب من على منبر جامع القصبة ومدرس في نفس الجامع بدروس لا يحضرها إلا الخاصة من الطلبة، فقد اجتمعت الأسباب المجلبة للجاه في شخصه.

استمرت حجابته ما يناهز العام إلى أن دخل أبو العباس والي قسنطينة المدينة شعبان 767هـ/1365م، ولاقى عبد الرحمن منه التكريم والتنويه بخصاله، وكانت السعاية به عند أبي العباس سببا في استئذانه بالخروج منها، فالتحق ببسكرة عند أحمد بن يوسف بن أبي مزني[5]، واضعا حدا لطموحه السياسي بعد أن أصيب بخيبة الأمل وفشله في تحقيق ما كان يصبو إليه، فتجافى بجاية بتجعله يط لّ عله يطلّق البلاط ووظائفه ليتفرغ لحياة التأليف والقراءة، لا يشارك إلا بما يضمن له سلامة النفس، أو يجيب مضطرا لدفع الشبهات والبلايا عنه، دون الولوج

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص95.

([2]) المقدمة، ص362.

([3]) عبد السلام الشدادي : **المرجع السابق**، 26-28.

([4]) المقدمة، ص 363.

([5]) الرحلة، ص96.

الكلي في السلطة الذي عرف به من قبل، فرب ضارة نافعة فلعل هذا الفشل كان حتما مقدرا لنعرف عبد الرحمن عالم العمران والمؤرخ.

ويعد ابن خلدون الوسيط الناجح في استمالة المعارضة السياسية والعسكرية التي أبداها نخبة المجتمع الريفي، خاصة بعد التجربة الناجحة مع الذواوذة المقيمين بضواحي بجاية والتي غالبا ما كانت ندا للسلطة، وتليين خاطر القبائل وكسب طاعتها، لأنه فهم نزاعاتها وأهوائها[1] فانتزع منها الجباية برضاها وجمع الأموال بعد أن جفت خزينة الأمير أبي عبد الله[2]، وأعاد الود بينها وبين ممثلي السلطنة الحفصية، مما يظهر أن ابن خلدون قد فهم طبيعة التركيبة العقلية لشيوخ القبائل ونمط تفكيرهم، وأحسن فهم النظام القبلي كمؤرخ وعالم عمران، فقد كثرت عليه الطلبات من مختلف الكيانات السياسية ببلاد المغرب ليكون رسولها عند شيوخ القبائل، ليصبحوا سندا قويا للسلاطين والأمراء دفاعا عن كراسي الحكم وتحقيقا لطموحاتهم التوسعية، كل هذا التسابق على هذه الشخصية سببه المكانة التي حظي بها ابن خلدون بين هؤلاء الشيوخ وتأثيره القوي ونفوذه الكبير بينهم، فقد امتلك دربة الحوار وحنكة المفاوضات الجادة معهم حتى في أحلك الظروف التي عاشتها قبائل المغرب الأوسط. هذه الوساطات الكثيرة شرحها بشكل مستفيض في ترجمته الذاتية، فنجده ينتقل من سلطة إلى أخرى لكن مع نفس الشيوخ والقبائل من الذواوذة وبني مزني، والذين لم يخيبوا دعواته ولبوا نداءاته واستجابوا لطلباته وانضموا لأي سلطة دعاهم إلى تزكيتها ومساعدتها.

هذا النجاح الكبير الذي ذاع صيته ببلاد المغرب الأوسط جعل النظام السياسي الزياني يستنجد به لكسب قبائل رياح[3]، فقد راسله السلطان أبي حمو موسى بعد مقتل أبي عبد الله أمير بجاية ليكون سفيره عند شيوخهم للزحف على بجاية وانتزاعها من قاتله أبي العباس[4]، وتم اختياره لهذه الشخصية لسابق معرفتها بشيخ الذواوذة وبني مزني[5]، فاستجاب للدعوة كما جاء على لسانه : "أخذ في استئلاف قبائل رياح ...وخاطبني في ذلك لقرب عهدي باستتباعهم وملك زمامهم ورأى أن يعول علي في ذلك"[6]، وربما لإغرائه بقبر استدعاه فإنه استدعاه ليكون حاجبه وكاتب علامته في 17 رجب 769هـ/1368م[7]، وفق بفضل سمعته الطيبة بين الشيوخ وبراعة

([1]) بتعبير أحد الباحثين، ينظر : محمد سعيد رعد : «إقامة بن خلدون في بجاية ودوره فيها»، **مجلة الأصالة**، العدد 19، ص222.

([2]) ابن خلدون : **الرحلة**، ص 96، **العبر**، ج6، ص550-551.

([3]) يذكر ابن خلدون أن السلطان أبي حمو قد استدعاه للعمل في البلاط الزياني قبل حادثة التنكيب بأهله واعتقال أخيه يحيي ببونة مصادرة مساكن البيت الخلدوني من قبل أبي العباس، يراجع في ذلك : **الرحلة** ، ص96، 98.

([4]) لقد جزع السلطان أبي حمو لمقتل صاحب بجاية أبي عبد الله من قبل الأمير أبي العباس لما كان بينهما من مصاهرة، فصمم على الانتقام لمقتله، أنظر : **المصدر نفسه**، ص97.

([5]) علما أنه نزل عند يعقوب بن علي شيخ الذواوذة بعد خروجه من بجاية سنة 767هـ/ ثم انتقل إلى ضيافة شيخ بني مزني أحمد بن يوسف والذي كان معه في غاية الكرم وحسن المقام، أنظر : **المصدر نفسه**، ص 98-99.

([6]) **المصدر نفسه**، ص 98.

([7]) أنظر الكتاب الذي أرسله السلطان لاستدعائه لحجابته في : **المصدر نفسه**، ص98-99.

وسائله في المفاوضات وحسن إدارتها في كسبهم وتأليبهم على أبي العباس حليفهم السابق[1] فرافقه ثلة من شيوخ رياح الذين أبدوا ولائهم للزيانيين[2]، ودّعم من بني مزني وساروا جميعا مع السلطان أبي حمو نحو بجاية في منتصف 769هـ/1367م[3].

في كل مرة كان أبي حمو يريد العودة إلى مناجزة بجاية أو محاربة ابن عمه أبي زيان يلجأ إلى ابن خلدون لمصانعة شيوخ القبائل الذين يصلون في كل مرة إلى تلمسان تلبية لمساعيه كما حدث أواخر 771هـ/1369م، والظاهر أن عددهم كان كبيرا من خلال العبارة التي أوردها بقوله "فوفدت عليه بطائفة من الذواوذة من أولاد عثمان بن يوسف بن سليمان"[4]. وأصبح من عادة ابن خلدون أن يكون المفاوض القادر على كسب هؤلاء الشيوخ دون معاناة، لأن حوائجهم وطلباتهم كانت تقضى من هذا الوسيط البارع الذي لا يرد له طلب عند السلطة الزيانية[5]، وهي الأسباب التي ساعدته في انجاز مهماته دون صعوبة، إضافة إلى الاستقرار الذي عرفته قيادة القبائل التي بقيت ثابتة وكذلك لسابق معرفته وتاريخه معها.

رغم انقطاعه للعلم والتدريس إلا أن السلطة المرينية المحتلة لتلمسان استدعته على الفور ليكون رسولها إلى شيوخ الذواوذة، فقد بعث إليه السلطان عبد العزيز بالأمر لما رأى أنه الأجدر على مساعدته ومطاوعة القبائل للانضمام إلى صفه في حرب أبي حمو والسيطرة على المغرب الأوسط "لأوطد أمره وأحملهم على مناصرته... بما كان السلطان أنس مني من استتباع رياح وتصريفهم فيما أريده من مذهب الطاعة"[6]، فأوكل له مهمة الاتصال بالشيخ يعقوب بن عمر كبير الذواوذة وشيخ بني مزني لمساعدته في القبض على أبي حمو المحتمي ببني عامر فاستجاب لطلب السلطان في عاشوراء سنة 772هـ/1370م، وعند وصوله المسيلة دعاهم إلى الطاعة فوافقوه إلى مراده وخرجوا عن موالاتهم للزيانيين ودعوه إلى دخول بلادهم ومناصرته في قتال بني عبد الواد[7]، فكان كرم السلطان المريني معه كبيرا فخص بالعطاء والجاه عند دخوله تلمسان لجلالة الخدمات التي قدمها "فوسعنا من حبائه وتكرمته ونزله ما بعد العهد بمثله"[8].

لم يستطع عبد الرحمن رد الدعوات التي وصلته من مختلف الأطياف السياسية ببلاد المغرب ليكون رسولها عند شيوخ القبائل، فوجدناه مخلصا للأمير البجائي أبي عبد الله ثم متفانيا في خدمة الزيانيين بكل ما أوتي من جرأة في

([1]) لم يستجب لأمر الحجابة وبعث بدلا عنه أخاه يحيى، أنظر : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص 99.

([2]) ومنهم : يعقوب بن علي شيخ أولاد محمد وعثمان بن يوسف كبير أولاد سباع بن يحيى، **أنظر : المصدر نفسه**، ص119.

([3]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([4]) **المصدر نفسه**، ص119.

([5]) في نفس الوقت راسل السلطان الحفصي أبو إسحاق إبراهيم (750-770هـ/1350-1369م) ثم ابنه من بعده السلطان أبي البقاء خالد الثاني (770-772هـ/1369-1370م) ابن خلدون لكسب ود البجائيين والقبائل للقضاء على الأمير أبي العباس الذي استقل بقسنطينة وبجاية عن المركز، يراجع : **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([6]) **المصدر نفسه**، ص121.

([7]) **المصدر نفسه**، ص121-122.

([8]) **المصدر نفسه**، ص123.

استمالة الذواوذة، منصاعا لأوامر المرينيين ضد بني عبد الواد، جاعلا سلطته ونفوذه في خدمة كل كيان سياسي يريده بشرط أن يتوفر على القوة، ولقد وجدت قيادات القبائل فيه الوسيط الراعي لمصالحها والمدافع عن حقوقها والذي لا تتردد السلطة في رد طلباته أبدا، ولعله كان يسعى من هذا الدور إلى تحصيل مكانته وتحقيق طموحاته السياسية، فسهلت عليه مهمة الوسيط وأداها على أحسن ما يرام[1]، ولعل استجابة هؤلاء مردها إلى أن الوساطة كانت جزءً من النشاط الإداري الذي مارسته تلك النخب في البلاطات، ليتم استغلالهم من السلطة لسمعتهم الدينية ومنصبهم الرفيع في القصر، لأجل تحقيق مصالحها مع النخبة الريفية مقابل العطاء والهيبات والجاه الموصول لتلك الشخصيات، كما أن اللجوء لتلك النخب لم يقتصر على السلطة الحفصية ببجاية لوحدها، بل كثيرا ما أفلح الزيانيون والمرينيون في استمالة الذواوذة وبني مزني.

ابن سيد الناس والمساهمة في انفصال بجاية عن المركز :

يعود الفضل في زحزحة المشيخة الموحدية عن حكم بجاية والتصرف فيها، وتحول القيادة وصناعة القرار بها إلى الجالية الأندلسية لعائلة ابن سيد الناس، التي تعد من البيوتات المعروفة بإشبيلية، وذلك بوصول أبي الحسين بن سيد الناس إلى حجابة بجاية سنة 684هـ/ 1285م، فكيف كان ذلك؟، وما دور هذا البيت في المدينة؟ وكيف كانت نهايته؟

هذا البيت أصيل مدينة اشبيلية الأندلسية، له سابقة مع الحفصيين كبقية بيوتها، أيام كان أبو زكريا بن عبد الواحد واليا على بعض مدن الغرب الأندلسي للموحدين[2]، وبسقوط المدينة سنة 649هـ/1249م سينتقل أهلها إلى العدوة المغربية[3]، يرتفع شأن هذا البيت بأبي الحسين الذي سينجو من بطش ابن أبي عمارة من واقعة

([1]) كما أشير إلى أن أخاه يحيى لعب دورا فعّالا في الوساطة للسلطة الحفصة ببجاية ، فقد أرسله الأمير أبو عبد الله في صفر 764هـ/ نوفمبر 1362م إلى تلمسان لطلب مساعدة أبي حمو موسى الزياني لأجل أن يسهيل عليه إخضاع بجاية والتي صعبت عليه لعدة مرات، شارك يحيى في ثلاثة منها ورغم أنه نجح في استخلاص وعود من صاحب تلمسان بمساعدة أميره إلا أنها مجرد تطمينات فقط لم ترق إلى التجسيد العملي لارتباط أبي حمو بمعاهدة صلح مع السلطان أبي إسحاق الحفصي، وهو السبب نفسه الذي جعل السلطان الزياني يرد الوفد الذي جاء بقيادة الأمير أبي عبد الله نفسه مع يحيى بن خلدون في جمادى الثانية 764هـ/ ويفشل في هذه المحاولة، لأن السلطان أبي إسحاق بعث برسله إلى تلمسان لتجديد الصلح مع أبي حمو مع وعده بمنع الأمير أبي زيان المطالب بكرسي الحكم عنه فقبل صاحبها بهذا العرض الذي جنبه الكثير من مشاكل ابن عمه، للإستزادة أنظر : يحيى بن خلدون : **المصدر السابق**، ج2، ص123، ص131- 133.

([2]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص437.

([3]) منهم أبو بكر بن سيد الناس المحدث والراوي الذي حط الرحال ببجاية وتولى الخطابة والتدريس بالجامع الأعظم، ولذياع صيته بين الناس عن علمه في الحديث خاصة وخلقه وصفاته السجية، كل ذلك جعل المستنصر الحفصي يدعوه إلى الحاضرة من بجاية ويعينه مدرسا بمدرسة الهوا التي بنتها أم الخلائف والدة السلطان، توفي أبو بكر سنة 659هـ/ 1260م وترك ولدين أحمد والحسين، ولمكانة والدهما عند [illegible] أولاده في القصر مع أولاد السلطان وكبار رجاله وموظفيه، ونشؤوا في "جو الدولة وحجر كفالتها"[3] على مراسيم الحكم وتقاليد الملك. وعلى رأي ابن خلدون فإن العائلة بعد أبي بكر تتحول من التوجه الديني إلى الشق السياسي، بالتطلع إلى المناصب وطلب الجاه "عدلوا عن طلب العلم إلى طلب الدنيا وتشوقوا إلى مراتب السلطان"[3]، وتربا برعاية السلطان أبي إسحاق، أما أحمد فإن مصيره كان القتل كما بينت سابقا على يد رجال أبي إسحاق وحزن عليه أبو فارس فقد كان حاجبه، وتولى عبد الوهاب بن قائد الكلاعي الوشاية به عند السلطان ليقتل سنة 679هـ/1280م، يراجع في أمره : **المصدر نفسه**، ج6، ص438.

مرماجنة[1]، ويلتحق بتلمسان بأبي زكريا بن أبي اسحاق، وهناك سيبرز دوره في إقناع وتشجيع الأمير بضرورة طلبه لملكه المغصوب، ويبدو جليا أن أسرة أبي إسحاق لم يعد لها من المال شيء، بسبب سرعة فرارها من الحاضرة بأقل الخسائر، مما جعل أبا زكريا يفتقد لأهم شرط لاستعادة السلطة، فدور المال تمثل في استمالة القبائل وكسب ولائها وطاعتها ووضع سيوفها تحت خدمة طالب الملك، وهي المهمة الصعبة التي سيضطلع بها ابن سيد الناس، حيث قام بقرض المال من كبار تجار بجاية لصناعة أبّهة الملك لصاحبه على حد قول بن خلدون " جمع الرجال واصطنع الأولياء"[2]، لتأخذ قبيلتا الذواوذة وسدويكش على عاتقها مهمة إيصاله إلى الحكم بدخول بجاية سنة 684هـ/1285م، ليستولي على كامل تراب الجهة الغربية للدولة الحفصية ويعلن الانفصال عن تونس جاعلا من بجاية عاصمة السلطنة الحفصية الغربية، ونصب من كان له الفضل في هذا الانجاز، أبا الحسين بن سيد الناس حاجبا له، فقام على أمره أحسن قيام، حيث "رسخ ملكه وملّك بنيه بهذه الناحية الغربية"[3].

لم يتوان الحاجب البارع كما يسميه برونشفيك[4]، في صناعة ملك أبي زكريا فحسب، بل كان المهندس لانفصال بجاية عن المركز، ولثقته فيه وإخلاصه لأميره سيتنازل له عن صلاحيات كثيرة هي من اختصاصاته "وعقد له على بابه وأجراه على رياسته"[5]، وقد ساعده في نجاح مهمته وبروز دوره خلو الجو له من مزاحمة المشيخة الموحدية، وهي الحقيقة التي أقرها ابن خلدون بقوله "لجلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزاحمونه"[6]، واستعمل صاحب العبر مصطلح الاستيلاء ليعبر عن النفوذ الذي وصله هذا الحاجب في دولة بجاية والتي بسطت هيمنتها على أهم مدن الجهة الغربية كتدلس والجزائر وقسنطينة[7].

أظهر ابن سيد الناس قدرات وكفاءات عالية في الإدارة والتسيير، وقام على أمر باب أميره أحسن قيام، وأصبح حديث العام والخاص ببجاية "وانصرفت إليه الوجوه وتمكن في يده الزمام"[8]، ليصبح في ظرف وجيز من أهل الحل والعقد بالمدينة، ويعد بعد أبي زكريا شرفا ومكانة ورياسة السلطنة الحفصية الغربية صلا للجاه والسلطة للبيت كله إلى أن توفي سنة 690هـ/1291م[9].

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص448

ومرماجنة معركة جرت قرب قلعة سنان بين الدعي بن أبي عمارة وأبي فارس والي بجاية في ربيع سنة 682هـ/1283م، هزم فيها أبو فارس وقتل، ونجا منها عمه أبو حفص وأبو زكريا بن أبي إسحاق مع أبي الحسين بن سيد الناس، أنظر عنها : **المصدر نفسه**، ج6، 445.

([2]) **المصدر نفسه**، ج6، ص 449.

([3]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص449.

([4]) **تاريخ افريقية في العهد الحفصي**، ج1، ص140.

([5]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص452.

([6]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([7]) المطوي : **المرجع السابق**، ص268.

([8]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6،ص452.

([9]) **المصدر نفسه**، ج6، 452.

يمتد عقبه في الرياسة وتولي المناصب، في شخص ابنه محمد الذي سيتولى الحجابة كوالده بداية من 720هـ/1320م، نشأ في كفالة السلطان أبي يحيى بن أبي بكر الذي كان أخا له من الرضاعة رفقة أبنائه في قصر الملك بالناحية الغربية مترددا بين قسنطينة وبجاية، شب على تقاليد الحكم ومراسيم الأبّهة[1]، منعرج الحياة السياسية لمحمد بن سيد الناس ببجاية كان توليه الحجابة بتعيين من السلطان أخيه من الرضاعة أبي يحيي أبي بكر لابنه الأمير أبي زكريا بعد أن صرف عنها ابن القالون سنة 720هـ/1320م، في ظروف سياسية وعسكرية صعبة تميزت بتكاثر المحاولات الزيانية الرامية إلى ضم بجاية، وكثرة الوشايات داخل البلاط البجائي التي كانت وراء إقالة الحاجب ابن القالون، في ظل الشكوك التي راودت السلطان في رجال دولة ابنه لاستبدادهم بالأمر دونه لصغر سنه وتقوية نفوذهم على حسابه فشك في نواياهم وخاف على الدولة منهم.

كانت ولاية ابن سيد الناس فرصة لإثبات قدراته في تسيير المدينة وتصفية الأجواء السياسية ودفع الخطر الزياني المتربص بها، فقام بأمره أحسن قيام بتفويض من السلطان نفسه "فاستبد بها على السلطان وحماها دون عساكر زناتة"[2]، وأضاف له حجابة قسنطينة لولا أن مشيخة المدينة صرفت الأمر إلى ظافر الكبير من موالي السلطان[3]، ولعل الحرية المطلقة في تسيير شؤون بجاية من قبل الحاجب دون أميرها الذي كان صغيرا مرده إلى العلاقة التي تربط الحاجب بالبيت الحفصي وموروث والده تجاههم، هذا النفوذ سبب له حسد كبار دولة أبي زكريا وحملوا له ضغينة هذا الاستحواذ الذي دام أكثر من سبع سنوات.

كان من نتائج هذه الثقة أنه استطاع إفشال الحصار الزياني و لم تقو الجيوش الزناتية على دخول المدينة لقوة الخطة التي وضعها ابن سيد الناس، ولأهمية المدينة استراتيجيا فإن الدعم العسكري والمالي وحتى المعنوي كان يصلها من الحاضرة بإشراف من السلطان نفسه يوصي أميرها وحاجبها وقادتها العسكريين بالصبر والجلد أمامهم، لإدراكه مدى خطورة سقوط بجاية وأثاره على الدولة الحفصية كلها، فقال ابن خلدون معبرا عن ذلك "وسُرب إليهم المدد من الأموال والأسلحة والجنود وتعهد إليهم بالصبر والثبات في المواطن"[4]، فزاد نجاحه في كسب ثقة السلطان فأولى له قيادة الجيش الذي خرج لمقاتلتهم سنة 724هـ/1324م لكنه سيهزم أمام السلطان الزياني أبي تاشفين.

تعدت شهرته وقوة نفوذه المجال المحلي، حيث يذكر الباحث صالح بعيزيق أن هذا الحاجب راسل ملك أرغون خاييم الثاني باسمه في رسالة بعثها له في 2 صفر من عام 723هـ/1323م، ورسالة أخرى أرسلها قادة برشلونة إلى قناصلهم بالدولة الحفصية بتاريخ 16 رجب 726م الموافق 18جوان 1326م يوجهونهم إلى التفاوض في شؤون أسراهم مع السلطان الحفصي والحاجب البجائي محمد بن سيد الناس[5]. لعلو شأنه وتحكمه في تسير وإدارة

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص499.

([2]) **المصدر نفسه**، ج6، ص500.

([3]) **المصدر نفسه**، ج6، ص486.

([4]) **المصدر نفسه**، ج6، ص491.

([5]) بعيزيق : **المرجع السابق**، ص407.

المدينة وقوة رأيه واستجابة السلطان لطلباته مما جعل ابن خلدون يسميه في تاريخه "بصاحب الثغر الغربي"[1]، ويصفه ابن بطوطة بالأمير رغم تحامله وظلمه[2].

يبدو أن هذا الحاجب اغتر بهذا التفوق، واستغل الثقة التي وضعها فيه بيت المُلك مع صغر سن الوالي وبعد المدينة عن المركز والظروف التي تهددها، ونسي الخدمات التي قدمها له السلطان أخوه من الرضاعة لتدعيمه وصناعة نجاحه ليفكر في الاستقلال بالمدينة والانفصال عن الحاضرة وهو النفاق السياسي الذي عرفته السلطة الحفصية وتنامي في القرن 8هـ/14م بشكل حاد، أو ما سماه المطوي بفساد الخلق السياسي والإداري للنخب السياسية[3]، فيتآمر محمد بن سيد الناس مع قائد الجيش الزياني موسى بن علي وحدثت بينهما مداخلة بتعبير ابن خلدون[4] بخروج كل منهما والثورة على سلطانه، ومن المؤكد أن هذا التدبير وقع حين خروج الجيش البجائي بقيادة الحاجب لملاقاة الزيانيين بتيكلات سنة 727هـ/1326م[5]، ولكن أمرهما سينكشف بسرعة[6]، ويبرز ذلك نزوع الحجّاب إلى التفكير في الاستقلال بالأمر لأنفسهم وسواد فكر الثورة حتى على من كان لهم الفضل عليهم، وتغاضى السلطان عن حاجبه واستدعاه فوق ذلك لولاية حجابته بالحاضرة في محرم 728هـ/ نوفمبر1327م[7]، لينتهي دوره ببجاية وتبدأ المرحلة التونسية التي كانت نهايتها مؤلمة لابن سيد الناس نتيجة ماضيه البجائي، حيث "أقذع فقتل شذخا بالعصب وجر شلوه فأحرق خارج الحضرة وعفا رسمه كأن لم يكن"[8].

نستخلص من قصة هذا الحاجب أن السلطة لا تغتفر في النهاية لأخطاء رجالاتها حتى وإن خدموها بأقصى ما يستطيعون، فحفاظا على مصالحها تضحي بمن أدوا أدوارهم ليخلفهم آخرون، وقصة ابن سيد الناس تصور ما آلت إليه الإدارة الحفصية بصفة عامة من فساد وتآمرات نتيجة غياب السلطة المركزية الرادعة، وغلبة المصالح الشخصية والذاتية في التسيير.

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص492.

([2]) ابن بطوطة : **المصدر السابق**، ص 10.

([3]) **السلطنة الحفصية**، ص351-352.

([4]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص500.

([5]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص492.

([6]) نكب السلطان أبو تاشفين بقائده موسى بن علي بسبب فعلته، أنظر : **المصدر نفسه**، ج6، ص500.

([7]) يضطرب ا بن خلدون في تاريخ التولية فيجعله تارة سنة 727هـ / 1326م، وتارة 728هـ/1328م وهو الأصوب لأن فيها يعين بدله ابن فرحون على بجاية، راجع في ذلك : **المصدر نفسه**، ج6، ص494، 500.

وتمت توليته لمدة خمس سنوات فوض له فيها السلطان الأمر كله، لكن الوشاية وتذكير بطانة البلاط بما فعله ببجاية جعله يقبض عليه ربيع سنة 733هـ/ 1332م، ويعذب ليقر بما فعله وينبأ عن مكان الأموال التي جمعها ببجاية، لكنه لم يظهر شيئ، و لم تشفع له قرابته من السلطان وسابقة بيته في منع مصيره المؤلم، أنظر في ذلك : **المصدر نفسه**، ج6، ص500-501.

وذهب ابن القنفذ أن سبب قتله ما اجترأ بلسانه و لم يصرح بشيئ عن هذا الإجتراء، وأن العامة أحرقته بالنار، يراجع : **الفارسية**، ص165، وذكر الزركشي أنه "قتل وصلب وأحرق بالنار"، **تاريخ الدولتين**، ص69-70، وينظر في أمره كذلك : برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص182.

([8]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص500-501.

أبو القاسم بن أبي جبي ضحية الوشايات :

لم تخرج الحجابة بعد وفاة أبي الحسين بن سيد الناس سنة 690هـ/1291م من الأسر الأندلسية، حيث سيتولى أبي القاسم بن أبي جبي أصيل الأندلس هذه الوظيفة[1]، يتم ترشيحه بعد أن اختبر في المهام الإدارية وأداها على أكمل وجه من قبل صاحب بجاية أبي زكريا بن أبي إسحاق لحجابته بعد وفاة ابن سيد الناس سنة 690هـ/1291م[2].وأبقاه أبو البقاء حاجبا له بعد تقلده لأمور بجاية بعد وفاة أبي زكريا سنة 700هـ/1300م، لوفائه وفضله عليه فهو الذي أخذ له البيعة من المشيخة الموحدية ومن الجند واستدعاه من قسنطينة لتولي أمر المملكة الحفصية الغربية المستقلة عن المركز منذ 684هـ/1285م.

لحاجب في قدرته على تجنيب بجا نيب بجاية من الخطر المريني الذي كان بإيعاز من السلطان أبي عصيدة صاحب تونس لضرب القيادة البجائية المنفصلة عنه وإرغامها على التراجع وتوحيد الدولة تحت قيادته، ولقي هذا التحالف استجابة سلطان فاس الطامع في السيطرة على المغرب الأوسط مما نتج عنه كثرة التحرشات المرينية ببجاية حتى أنهم "دوخوا نواحيها"[3]، دلالة على كثرة المحاولات لاحتلالها، والتي أزعجت ابن أبي جبي الذي سعى بالوسطات عند السلطان الحفصي لثني المرينيين عن تلك الأفعال، وقد باشرها بنفسه فسافر إلى تونس سنة 704هـ/1304م [4] لأجل إبرام الصلح والسلام بين أبي البقاء والسلطان أبي عصيدة[5] وإصلاح العلاقات بين قسمي الدولة، بعد أن فشلت سفارة الغبريني في تحقيق اتفاق يرضي الطرفين ويشيع السلام بين الحفصيتين[6]، ويصور ابن خلدون حفاوة الاستقبال الذي حضي به حاجب بجاية بالحاضرة والترحاب الذي لقيه عند أبي عصيدة بشكل فائق "فاهتزت له الدولة ولقي بما يجب له ولمرسله من البر"[7]، واستقبل في دار شيخ الموحدين أبي يحيى

([1]) لا نملك معلومات وافية عن ماضي أسرته، ويقتصر ابن خلدون بالقول أنه نشأ بالقصر الأميري ببجاية في كنف ورعاية الحاجب السابق الذكر، فعلمه قوانين الإدارة وتمرس عليه في شؤونها، وتدرب على أدوات التسيير، ليعينه كاتبا له، ويفهم من هذا التعيين والرعاية على حرص العائلات الأندلسية حصر المناصب فيها وتفادي خروجها لعناصر أخرى.

استطاع هذا الموظف في ظرف قياسي أن يكشف عن فطنة وذكاء في فهم وتفعيل المهام الموكلة له من حاجبه فقربه منه أكثر لعله كان يريد استخلافه في منصبه من بعده لدى فإنه "رقاه واستخلصه لنفسه، وأجره رسنه، وتناول زمام الدولة من يد ابن سيد الناس، فقادها في يد مظفر" نجح بشكل قل نظيره حتى أنه جلب إليه أنظار رجال الدولة حسدا ونكاية في هذا التفوق "اجتمعت عليه الوجوه وأمله الخاصة"، يراجع : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص453.

([2]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([3]) **المصدر نفسه**، ج6، ص 462.

([4]) أورد ابن خلدون أن السفارة كانت سنة 705هـ/ 1305موالصواب أنها سنة 704هـ/1304م، قبل ثورة ابن الأمير صهر الحاجب ابن أبي جبي التي كانت في نفس السنة ولكنها اندلعت بعد الوشاية بالحاجب في نفس العام، أنظر : **المصدر نفسه**، ج6، ص463، 465-466، وأنظر كذلك : برونشفيك : **المرجع السابق**، الهامش9، ج1، ص145.

([5]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص462.

([6]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص144.

([7]) ابن خلدون : **المصدر السابق**،ج6، ص463.

زكريا اللحياني الذي أكرم ضيفه وأبلغ في ذلك، ونجح في مساعيه الرامية إلى الصلح بين الحفصيتين[1]، لولا مساعي الفتنة التي أثارها بعض رجال أبي البقاء بالبلاط البجائي[2].

استغلوا غياب الحاجب عن بجاية ليوغروا صدر أبي البقاء بالكذب و الافتراء على حاجبه والذي كان يحقر رجاله وتمكنت روح العداوة والانتقام في نفس أبي البقاء "فألح له العداوة في كل جانحة "[3]، والتهمة التي وجهوها له كانت التآمر مع سلطان تونس أبي عصيدة و تحريضه على ملك قسنطينة أو بجاية وهي نفسها التي رمي بها الغبريني قبله[4]، مستندين على أن الاتفاق تم مع صهره صاحب قسنطينة ليسلم له المدينة وكان توليته عليها تهدف لتحقيق هذا الغرض، ولعل الاستقبال الذي حضي به الحاجب في تونس تم الاستدلال به على أنه لم يكن بريئا ويعد تواطئا صريحا لابن أبي جبي مع الحاضرة، ولكي لا يتكرر الدرس الذي حدث مع الغبريني استأذن الحاجب من الأمير أبي البقاء بالخروج لأداء فريضة الحج بعد فتور العلاقة بينهما[5] متوجها إلى تونس ومنها إلى الحج ليعود من المشرق ويحط بتلمسان في خدمة السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني[6].

تدل قصة ابن ابي جبي على دور بطانة السوء المحيطين عن طريق مجموعة من التهم مجموعة من التهم الجاهزة، والهدف بلا شك من كل ذلك أن يجدوا أمكنة لهم في السلطة والتقرب من السلطان بدعوى الحفاظ على عرشه من المعارضين والخصوم، وسيلقى الكثير منهم نفس المصير على من كانوا حلفائهم في نفس المؤامرة، لينتهي دور ابن أبي جبي الذي قدر له على رأي أحد الباحثين أن يصل بفضل أسرة أندلسية ويسقط بأخرى كذلك، فوصل بابن سيد الناس ونزل بابن غمر[7]، لنستنتج حدة الصراع بين الأسر الأندلسية لتبوء المكانة والحصول على الوظائف ببجاية ونتائجه على الخاصة والعامة فيها.

أبو العباس الغبريني ومصير الفقيه السياسي :

نورد هنا قضية الغبريني ليس عرضا في خضم الأحداث، ولكن لنتساءل عن دور الحاجب كجزء من السلطة وعلاقته بالفقيه؟ وما دوره في المصير المؤلم لقاضي بجاية؟ كنموذج حي لمشاركة السلطة العلمية في الحكم ونتائجه عليها؟

([1]) في نفس الوقت كان الأمير البجائي يرسل سفارات إلى السلطان المريني، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص144.

([2]) منهم على سبيل المثال كاتبه عبد الله الرخامي ويعقوب بن غمر الذي سيولى الحجابة بعده، ابن خلدون : **المصدر السابق** ، ج6، ص463.

([3]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([4]) **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها .

([5]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص145.

([6]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص463.

– وشارك مع ابن أبي حمو موسى الزياني في حصار بجاية سنة 711هـ/1311م وتوفي في هذه العملية بمنطقة الزاب ، **المصدر نفسه**، ج7، ص137.

([7]) بعيزيق، **المرجع السابق**، ص411.

لاشك أن التركيبة البشرية التي كان تقوم عليها الحكومة الحفصية ببجاية المكونة في أساسها من الأندلسيين، كانت وراء عملية التصفية التي تعرض لها الفقيه القاضي أبو العباس الغبريني، الذي أرسل بحكم مرجعيته العلمية كفقيه والوظيفية كقاضي ومعرفته بدربة النقاش، وسابقته عند أبي بي زكريا فكان مقربا لديه وكان يزوره بقسنطينة التي كانت محببة عند السلطان[1]، هذه المكانة استمرت مع خلفه لأبي البقاء وأهل بجاية فهو على حد تعبير ابن خلدون كبير بجاية، لما تحمله هذه الشخصية من مؤهلات تجعله قادرا على النجاح في مهمته، فوقع عليه الاختيار من قبل أبي البقاء خالد، وكان معه في هذه السفرية شيخ القرابة أبو زكريا يحيي بن زكريا للوساطة عند السلطان أبي عصيدة بعد أن وصل إلى حكم بجاية سنة 700هـ/1300م[2].

في غيابه تتحرك الأنفس التي طبعت على حياكة الدسائس ببجاية لتوهم الأمير البجائي بأن الغبريني خائن ومتآمر مع أبي عصيدة للقضاء عليه، وتولى تلفيق هذه التهم القائد ظافر الكبير، مذكرا بماضيه وأنه كان وراء تحريض قومه بني غبرين بقتل السلطان أبي سحاق سنة 682هـ/1283م[3]، ولعل هناك تهما أخرى لم تصلنا جمعت لتلفق إلى الفقيه القاضي، فكانت إذا تهم التآمر والخيانة والماضي الأسود كلها أسبابا جعلت أبا البقاء يصدق بطانته ويسجن الغبريني ثم يقتل في سجنه من المولى منصور التركي سنة 704هـ/1304م[4].

لا شك أن رجال أبي البقاء الذين ذكرهم ابن خلدون في قضية الغبريني لم يأت فيهم اسم الحاجب ابن أبي جي، لكن بحكم سلطته ونفوذه يكون سببا في هذه النهاية المؤلمة للغبريني، ولما لا أنها جزء من الصراع داخل البجائي بين الأندلسيين والعناصر المحلية، فقاضي بجاية يبدو من العناصر التي عرفت بزهاتها على عهد أبي زكريا ثم أبي البقاء خاصة وأن ابن خلدون يصفه بأنه كان مشاورا لدى السلطة في أمورها السياسية، هذا التفوق أصبح يزعجهم فكانت النتيجة التخلص من كبير بجاية، لنصل إلى أن الفقيه لا يضاهي السياسي خاصة إذا أخذ صفة المغالبة.

ابن غمر مهندس الانقلابات الناجحة :

اطلع ابن غمر بمهمة السعاية بحاجبه ابن أبي جي، فما هي دواعي هذه السعاية؟ وكيف استطاع ابن غمر تركيز نفوذه ببجاية حتى أصبح الرجل الأول بها دون الوالي والسلطان نفسه حتى سماه ابن قنفذ بالرئيس[5]؟

([1]) في الحفاوة التي استقبل بها الغبريني ووفد بجاية وتبجيلهم عند زيارتهم لأبي زكريا بقسنطينة بعد شفائه من مرضه، العودة إلى : ابن قنفذ: **المصدر السابق**، ص148-149.

([2]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص462.

([3]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

الكثير من الأدلة ترد هذه التهمة الباطلة عن الغبريني، من بينها أن الذين قبضوا على أبي إسحاق ببني غبرين هم جنود متآمرون مع الدعي ابن أبي عمارة وبعض البجائيين على قول ابن القنفذ وليس من الغبرينيين، و لم تكن أرض القبيلة إلا المكان الذي قبض فيه على أبي إسحاق، كما أنه يمكن أن يقبض عليه في مكان أخر فهل يتهم أهل ذلك البلد بالتواطىء في هذا العمل لمجرد هذا السبب المردود ؟، يراجع : **الفارسية**، ص143.

([4]) ابن قنفذ : **المصدر السابق**، الصفحة نفسها.

([5]) **المصدر نفسه**، ص156، وحلاه برونشفيك بالوزير الطموح، ج1، ص182.

أوليات هذا البيت وتاريخ هذه الشخصية كفيلة بالإجابة عن هذه الإشكاليات[1]، منذ البداية كان هدفه حكم بجاية لوحده دون وجود موظفين آخرين يعلون عليه، لدى سيطيح بكل رجال الدولة الذين رأى فيهم خطرا يهدده، وكان صاحب أشغاله عبد الله الرخامي أحدهم[2].بعد أن تتم تصفيته هؤلاء يستأثر بأمر الدولة لنفسه وأصبح ثانيا بعد أبي البقاء، ذا نفوذ قوي ببجاية بفضل تغلغله الذكي الممزوج بكثير من المكر والتآمر على رجال أمير، وجه سياسة أميره بالكيفية التي أراد بعد أن فوضه أميره في إدارتها وأعطاه صلاحيات الحكم باسمه كما يفهم من كلام بن خلدون "الإبرام والنقض، فحول المراتب بنظره وأجرى الأمور على غرضه"[3]، فسيطر كليا على أجهزة السلطة بإدارتها وموظفيها مستعملا أسلوب القوة والقهر والسخط على كل من يبدي معارضته لعمله[4].

استمر في تصفية المعارضين حتى ممن كان لهم الفضل عليه كمرجان الخصي الضحية التالية[5] للحاجب المتسلط على كل شيء، فلم يبق ببجاية من يجاريه خوفا على الأنفس من الإزهاق على ما عرف بقدرته على إقناع أبي البقاء بالخطر الذي يشكله عليه حتى أخلص رجاله وأقرب مقربيه، ليتفرد بالحل والعقد دون غيره[6]، ويعود هذا التواطؤ لأبي البقاء معه بظني لأنه كان يرى في أعماله إخلاصا وحبا له وتمكينا لملكه وإخلاصا لحكم الجهة الغربية مستقلة عن المركز، ولعل تعيينه حاجبا له بتونس لما دخلها سلطانا ووحد الدولة الحفصية تحت إمرته في ربيع الثاني 709هـ/1309م[7] تدخل في إطار الاعتراف بأفضال ابن غمر في هذا الانجاز.

الهدف الأكبر كان تدبيره الانقلاب على السلطان نفسه، بعد الخدمات التي قدمها بحجابته للأمير أبي بكر صاحب قسنطينة ولنجاحه في إدارة شؤون من قبله يقنعه بالثورة على أخيه السلطان بالحاضرة، فأعلن ابن غمر

---

(1) فهو يعقوب ابن أبي بكر بن محمد ابن عمر السلمي المكني بأبي عبد الرحمن، أصل هذا البيت من مدينة شاطبة، استقر جده بتونس على عهد السلطان أبي عصيدة (693-709هـ/1295-1309م)، أما ولداه أبوبكر ومحمد فحطا المقام بقسنطينة في كنف واليها أبي زكريا بن أبي إسحاق، تدرج هذا البيت في تقلد الوظائف فأسندت لوالدهما أبي بكر رئاسة الديوان والذي كان كثير التردد على بجاية وبها يتصل بمرجان الخصي لتتم مصاهرة ابنه يعقوب باحدى بنات القصر، فينشأ في قصر القصبة ببجاية على تقاليد الملك ويصبح من المقربين لقهرمان البلاط المسمى بالحاج فضل، وهنا يبدأ ابن غمر في لفت الأنظار له بعد أن نجح في إتمام صفقة تجارية لصالح أبي زكريا بالأندلس.

إثر هذا النجاح يقلده أبي زكريا على الجباية ليرقى بسرعة إلى ولاية الأشغال، أظهر في هاتين الوظيفتين تفوقا متميزا على غيره من رجال الأمير فتبدأ الغيرة وتتحرك البطانة بالوشاية وعلى رأسها الحاجب ابن أبي جي، فينجح في إقناع الأمير بنفيه إلى الأندلس، شخصيته الطموحة والمتحدية في نفس الوقت تأبى المنفى، تنجح مساعيه الخبيثة مع أبي البقاء الذي وصل إلى حكم بجاية سنة 700هـ/ 1300م ويعود على القصر بدافع الانتقام ممن كان سببا في نفيه بما عرف عنه حسب المصادر أنه صاحب مكر وحيل لينكب بابن أبي جي ويعزل من وظيفته ويعين ابن غمر حاجبا بدله لأبي البقاء لتبدأ مرحلة استبداده ببجاية دون أصحابها، تراجع أخباره عند : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص464، وكذلك : ابن قنفد : **المصدر السابق**، ص156.

(3) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص465.

(4) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص147.

(5) نهاية مؤلمة لمرجان الخصي، حيث أغرى به أبي البقاء وأقنعه أنه يشكل خطرا عليه، فأمر بإلقائه في البحر، العودة إلى : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص465.

(6) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(7) **المصدر نفسه**، ج6، ص470.

خلع طاعة أبي البقاء وأخذ البيعة لأبي بكر سنة 711هـ/1311م بقسنطينة وإعلان الانفصال عن تونس ليعود الانقسام بعد سنتين من الوحدة، وقد بلغت الثقة في ابن غمر إلى حد أن أبي بكر رفض شرط ابن مخلوف بتنازله عن بجاية لصالحه مقابل عزله لحاجبه[1]، ولعل هذا الرفض تعبيرا عن القدرة التي وصلها ابن غمر بالتحكم في الأمراء والسلاطين وإيهامهم أنه صانع ملكهم وحاميه، وأنه صانع إنفصال الناحية الغربيةلأبي بكر أبي بكر.

انتقل بعدها إلى بجاية مع بقائه حاجبا لأبي بكر بقسنطينة ومطلعا بأمره مستبدا بالمدينتين، ومشرفا بنفسه على جمع أموال الجباية من القبائل[2]، جامعا إلى جانب الحجابة الوظائف الأخرى دون أصحابها، واستمر في سياسة إبعاد وإقصاء العناصر التي رأى فيها خطرا على مسيرته[3].

ولعل هذه الفترة كانت الأخصب لابن غمر لجمع الثروة وتحصيل المال في ظل غياب سلطة أعلى منه تراقبه فيما يفعل فهو الآمر الناهي، ولا يستبعد استخدامه للموظفين الصغار لتحقيق مآربه، مستغلا الفوضى التي عرفته الجهة الغربية بعد إعلان أبي بكر انفصاله عن الحاضرة.

هذا الاستبداد بأمر بجاية امتد حتى على السلطان نفسه، فقد ذكر ابن خلدون أن ابن غمر تحكم في زمام الأمر بيده وصار يغري أبا بكر برجاله ويسخطهم الواحد تلوي الأخر كما عرف عنه "لم يزل ابن غمر مستبدا على السلطان يرى أن زمامه بيده وأمره متوقف على إنفاذه فصار يغريه ببطانته فيقتلهم ويغرمهم"[4]، والراجح أن السلطان لم تكن له الجرأة وحتى القدرة للوقوف في وجه ابن غمر، سرعته في كشف المؤامرات الرامية للإطاحة به، وإبعاد أصحابها قبل أن تصل إلى أبي بكر رغم أنها أخذت شكل التكتل إلا أنها فشلت في تحقيق هدفها[5]، يدل ذلك على أنه كان يتحكم في مجموعة من الموظفين مهمتهم جمع المعلومات وترصدها لصالحه، ليصبح الخبير الملم بكل ما يجري بداخل القصر وخارجه.

طموح ابن غمر للسلطة وسعيه لنيل الملك والاستقلال بالثغر الغربي بداية من بجاية دون البيت الحفصي يظهر أنها الغاية من كل مسيرته كحاجب، لما لا والكثير ممن ليسوا من الشجرة الحفصية حققوا ذلك على شاكلة الدعي ابن أبي عمارة، ، ويتبين ذلك جليا من خلال رفضه لأوامر أبي بكر بعد أن أحس بأن رأيه فيه قد تغير وأنه يريد التخلص منه، ولإشغاله عن ملك بجاية وجهه لما هو أعظم ملك الحاضرة وكل الحفصية، أغراه على ذلك وهون عليه أمرها، مجهزا له كل الدعم العسكري والمالي والمعنوي لنجاح العملية "وجهزه بما يصلح من الآلة والفساطيط

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص473.

([2]) **المصدر نفسه**، ج6، ص476.

([3]) وفي هذا المضمون يذكر ابن خلدون بعض ضحايا هذا الحاجب من عائلة بني ثابت والتي قضى على شيوخها السلطان أبو بكر بإيعاز من ابن غمر بفرجيوة سنة 713هـ/1313م، بعد أن سلب أموالهم لتساءل عن مصير تلك الأموال؟، كما انه سعى عند السلطان لنفي ظافر الكبير قائد قسنطينة إلى الأندلس، يراجع في ذلك : **المصدر نفسه**، ج6، ص476-477.

([4]) **المصدر نفسه**، ج6، ص478-479.

([5]) أنظر على السبيل المثال سعي بعض النخب القسنطينية سنة 713 هـ/1313م عند السلطان أبي بكر لاغتيال ابن غمر وكيف كانت نهايتهم على يده، أنظر : **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

والعساكر والخدام ورتب له المراتب"[1]. وقد نجح في إبعاد أنظار أبي بكر عن بجاية مرتحلا إلى قسنطينة سنة 715هـ/1315م[2] ، واستمر كذلك إلى أن توفي سنة 719م بعد أن عهد لابن عمه علي على ولاية بجاية[3]، وقد جمعت ثرواته كلها والتي اعتبرها ابن خلدون كثيرة من الصامت والذخيرة وأعيدت إلى تونس[4].

كان لابن غمر قدرة كبيرة على المكر والخداع والتآمر والتنكيل بالغير والتخلص من خصومه ليصفو له الجو , وكان يمتلك حنكة سياسية في إدارة شؤون بجاية والدفاع عنها ضد الزيانيين والاستقلال بالجهة الغربية وتعددت صلاحياته عندما شغل عدة وظائف استغلها في جمع الثروة وتحصيل الجاه , ويعتبر ابن غمر مثالا حيا لقدرة الحجاب المصطنعين لبطانتهم في تسيير بجاية والإنفراد بها والتنكيل بكل من تسول له نفسه التقرب من مصالح الحاجب حتى ولو كان هذا الشخص من رجال السلطان نفسه ومن تجرأ على ذلك كان مصيره النفي أو التعذيب أو القتل.

ابن فرحون إخلاص ووفاء العنصر المحلي :

لقد أدت سيطرة العنصر الأندلسي على الحجابة منذ 684هـ/1285مإلى رسم تقاليد إدارية تميزت بكثرة الوشايات والاغتيالات المتكررة ففسدت العلاقات بين النخب، استغل الزيانيون هذا الوضع فحاولوا السيطرة على بجاية طيلة العقود الثلاثة الأولى من القرن 8هـ/14م، واستشرى الفساد خاصة على عهد الحاجب ابن غمر لأكثر من أربعة عشر سنة كما سبق وأن شرحت، ثم مع محمد بن سيد الناس حوالي ثمانية سنوات، كل تلك الظروف جعلت السلطان أبا بكر يزهد في العناصر الأندلسية، فساعد ذلك على بروز عائلة ابن فرحون في إدارة المدينة، بتعيين محمد بن فرحون حاجبا للوالي أبي زكريا سنة 728هـ/1328م من السلطان، في نفس الوقت الذي كان أخوه زيدا رئيسا للبحر، فما الدور الذي قام به محمد بن فرحون في وظيفته؟ وهل سار على نفس النسق الإداري للأندلسيين؟ وكيف كان مصيره؟ وما سر نزوع السلطة للعناصر المحلية؟.

للأسف الشديد لا نمتلك معلومات وافرة ودقيقة عن ماضي هذه العائلة، عكس ما كتب عن أغلب البيوتات الأندلسية والموحدية في تلك الفترة، وهي ميزة الكتابات المصدرية التي أهملت دور هذه الأسر في الحياة السياسية

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص479.

([2]) لتقر عين ابن غمر ببجاية دون السلطان مكتفيا بتقديم العون المالي والعسكري لصاحب قسنطينة، ووصل به الحد إلى غلق أبواب بجاية في وجه السلطان ومنعه من دخولها لما عزم على ذلك سنة 717هـ/ 1317م، ولم يواجهه أبو بكر بل أضاف له حجابة قسنطينة ليصبح الوالي عليها، مستقلا بالجهة الغربية للحفصية وهي بنظري ما كان يصبو إليه الوزير الطموح منذ أن تحجب سنة 705هـ/1305م، ليستقل بالمنطقة ماليا فكتب اسمه على السكة وهو ما لم يبلغه حاجب في الدولة الحفصية "مقتصرا على ذكر السلطان في الخطة واسمه في السكة"، أنظر أخباره : **المصدر نفسه**، ج6، ص484.

قدرة هذا الحاجب وحنكته السياسية والعسكرية ظهرت جليا في إفشاله للمحاولات الزيانية لدخول بجاية من 713هـ/1313م إلى 719هـ/ 1319م، وحسن إدارته للمدينة أثناء الحصار الزياني لها.

([3]) **المصدر نفسه**، ج6، ص485.

([4]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

لبجاية الحفصية إذا استثنينا ما كتبه بن خلدون والذي لا يكفي للإلمام بدراسة هذه الشخصيات التي كان لها دورا بارزا في سياسة المدينة[1].

تم توظيفه في ظروف صعبة حيث الإصرار الزياني على افتكاك بجاية لازال مستمرا "وعساكر زناتة تجوس خلالها ومعاقله تأخذ بمخنقها"[2]، ليقوم ابن فرحون بالدفاع عن المدينة وصد العدوان الزناتي عنها وشاركه في هذه المهمة العسكرية كاتبه أبو القاسم بن مريد[3]، كما أنه اطلع بكفالة الأمير البجائي أبي زكريا لصغر سنه[4]، ، ولا شك أنه كان من المساهمين مع السلطان ووالي بجاية في تخريب مدينة تميردكت سنة 731هـ/ 1330م والتي كانت معقلا وحصنا للجيش الزياني[5].

وبالتالي كان أمر تدبير شؤون بجاية يرجع إليه بتسييرها إداريا وعسكريا واستمر في أداء دوره إلى سنة 735هـ/1335م حين استدعاه السلطان لحجابة ابنيه عزوز وخالد بمدينة سوسة والمناطق الساحلية التونسية، ويعد هذا التعيين لولدي السلطان الصغيرين لما أظهره ابن فرحون من إخلاص في الفترة البجائية وكفالته لصاحبها وقيامه على أمره أحسن قيام، فتكون له قيادة المناطق الساحلية التونسية واستبداده بالأمر، بعدها تسند له مهمة مرافقة الأسطول البحري الذي أرسله السلطان أبو بكر لمساندة الأسطول المريني بقيادة أبي الحسن سنة 740هـ/ 1339م للمشاركة في معركة طريف ضد الأسبان، بمعية أخيه زيد الذي كان قائدا لهذا الأسطول[6].

بعد عودته من هذه السفرية استدعاه صاحب بجاية سنة 741هـ/1340م لحجابته ثانية مما يدل على أن البيت الحفصي وجد في ابن فرحون ما لم يجده عند الأندلسيين، لتميزه بصفاء السريرة والبعد عن حبك المؤامرات والدسائس التي ميزت فترة الحجابة على عهدهم، وعرف البلاط البجائي في عهده الاستقرار الإداري بدليل أن الحجاب الذين خلفوه بعد انتقاله للمناطق الساحلية التونسية لم يرض عنهم السلطان وصرفهم[7] وعين بدلهم سنة

([1]) من خلال ما جاء به صاحب العبر نفهم أن زيد بن فرحون قد تدرج في الوظائف كعادة كل الموظفين الكبار الذين شغلوا هذه الوظيفة، يصل إلى الحجابة سنة 728هـ/1327م بتولّية من السلطان أبي بكر بعد إزالته بمحمد بن سيد الناس الذي استدعاه إلى حجابته بتونس. أورد ابن خلدون أن ابن فرحون من صنيعة ابن سيد الناس، فنستخلص من هذه العبارة أنه تربى في قصر القصبة ببجاية أثناء حجابة صاحبه من 720-728هـ/1320-1327م ولا يستبعد تقلده لبعض الوظائف قبل أن يعين في الحجابة للعادة التي جرى عليها أغلب الحجاب بارتقائهم في الوظائف ووصولا إليها، يراجع : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص494.

([2]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([3]) **المصدر نفسه**، ج6، ص494.

([4]) **المصدر نفسه**، ج6، ص500.

([5]) **المصدر نفسه**، ج6، ص498.

([6]) المصدر نفسه، ج6، ص516.

([7]) حيث قلد كلا من أبي إسحاق بن علاق سنة 735هـ/ 1334م حاجبا لولده أبي زكريا و لم تطل مدته ليعوض بأبي العباس أحمد بن أبي زكريا الرندي الذي تربى ببجاية إلى غاية 740هـ/ 1339م ولكنه لم يكن راضيا عن دورهم في حجابة ابنه لما أبدوه من طغيان عليه و استبدادهم بشؤونها دونه، يراجع : **المصدر نفسه**، ج6، ص515.

740هـ / 1339م، أبا محمد بن تافراجين[1]، والمرجح أن ابن فرحون لم يدم طويلا في حجابته الثانية وتوفاه الأجل وهو في وظيفته.

رغم قصر مدة حجابة ابن فرحون إلا أنه أبدى إخلاصا لا نظير له للسلطة من خلال دوره الإداري والعسكري، قائما على أوصياء السلطان من أمراء بجاية وسوسة والسواحل التونسية أحسن قيام، كما خلت فترته من جو الدسائس والوشايات التي عهدها البجائيون مع سلفه من الحجاب.

من كل ما سبق يتبين لنا أن الحجابة منصب تقاتل عليه كبار رجال الدولة، لما كان لها من أهمية فصاحبها يرتب الثاني بعد الوالي، كما أن قوة نفوذ بعضهم وصلت إلى حد الوقوف في وجه السلطان نفسه كما حدث مع ابن غمر، واستغلوا هذا النفوذ لقضاء مصالحهم بجمع الثروة وتحصيل الجاه، ويلاحظ غياب العناصر المحلية عن الحجابة وسيطرة الأندلسيين عليها، سوى شخصية محلية واحدة كانت نموذجا للتفوق الإداري والإخلاص للسلطة، نافست البيوتات الأندلسية ووضعت حدا لهيمنتها على هذا الوظيفة.

2- الهيمنة الأندلسية على المالية (صاحب لأشغال) :

يمثلها صاحب الأشغال أو ما يطلق عليه برونشفيك بوزير المالية[2]، انطلاقا من التعريف الذي قدمه ابن خلدون فهو الذي "يشرف بالنظر على الدخل والخرج من ديوان المال"[3]، ويسمى بصاحب الأشغال من العهد الموحدي، يعين من السلطان بالحاضرة، تتعدى صلاحيات المالية إلى معاقبة المفرطين في المال، يشرف على جبايته باستخلاص الضرائب الشرعية " ماسب ويستخلص الأموال ويعاقب "[4]، ويحاسب ولاة المدن والأمصار عن المال كيف جمع وفيما أنفق[5]، كما أنه يشرف على نفقات القصر الأميري ويوزع الهبات التي يحددها السلطان أو الوالي، وأصبح منذ عهد السلطان أبي فارس عبد العزيز (796-837هـ/1394-1434م) يسمى بالمنفذ[6].

كانت هذه الخطة تسند إلى أشياخ الموحدين في بداية الدولة الحفصية، لكن اتساع رقعة الدولة وحاجتها لمختصين في الشؤون المالية والاقتصادية لتسلم هذه الوظيفة على أهميتها التي تكمن في توفير المال للسلطة، لكسب طاعة الأولياء والقبائل وتجنيد الجند، لتخرج رويدا رويدا عن شيوخ الموحدين إلى إداريين أكفاء في هذا المجال.

---

(1) يعتبر وصول محمد بن تافراجين إلى حجابة بجاية انتصارا لشيوخ الموحدين الذين غابوا عن إدارة المدينة بتفوق العنصر الأندلسي عليهم منذ 684هـ/1285م ، وكان ابن تافراجين كبير المشيخة بتونس، وقد قام بدور هام لأمير بجاية فقد " أقام أحوال ملكه وعظم أبهة سلطانه"، وأخضع الكثير من المناطق التي خرجت عن السلطة البجائية لكنه لم يمر عليه الحول ليثور عليه أهل المدينة، لما لمسوا فيه من كبر وأبهة ومنعة عليهم ملاقاة اميرهم عكس ما كان على عهد ابن فرحون من حرية، فاسخط من سكانها بقيادة القاضي ابن يوسف، فعزله السلطان وعاد إلى الحاضرة ، العودة في أمره إلى : **ابن خلدون : المصدر السابق**، ج6، ص515.

(2) **تاريخ افريقية**، ج2، ص56.

(3) **المقدمة**، ص228.

(4) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(5) أبو حمو موسى : **المصدر السابق** ص82.

(6) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص57-58.

اعتبر برونشفيك هذه الوظيفة من أخطر المناصب لأن صاحبها كان معرضا دوما للوشايات لإشرافه على جمع الأموال وتخزينها, جامعا بين المنصب السياسي القريب من هرم الحكم والمالي[1] لإشرافه على الخارج والداخل من أموال الدولة، والتجاري لمسؤوليته على ديوان البحر[2]، مما جعله عرضة للحسد من غيره، كما أن حاجة السلطان أو الأمير لهذه الأموال التي تتعرض في أحيان كثيرة إلى المصادرة منع على هؤلاء ممارسة خطتهم البحرية، و لم تكن مسؤوليتهم على المال إلا بتوجيه من السلطة الحاكمة.

أحصيت ببجاية من خلال ابن خلدون أربعة من الذين شغلوا هذه الوظيفة السلطانية، والعدد قليل بالنظر للفترة المدروسة ولعل سبب ذلك يعود إلى أن المنصب لم يكن له علاقة بالحدث العسكري والسياسي بشكل مباشر، وطبيعة الكتابة التاريخية التي ركزت على المؤثرين في الأحداث الكبرى، كما أن طغيان الحاجب على الموظفين جعل المؤرخين لا يتناولون صاحب هذه الخطة إلا ضمن الإطار العام للتاريخ السياسي البجائي على العهد الحفصي. ارتقوا في المناصب حتى وصلوا إلى المالية أو وظائف أخرى، والجدول التالي يبرز هذا التدرج ويبين الأدوار التي قاموا بها :

الشخصية	الفترة	الأصل	المناصب الإرتقائية والنهائية	المصير
أبو العلاء إدريس	677هـ/1278م	الأندلس		القتل[3]
يعقوب ابن غمر	قبل 700هـ/1300م	الأندلس	الجباية، الأشغال، الحجابة[4]	
عبد الله الرخامي	704هـ/1304م	الأندلس	وزير المالية	النفي[5]
عبد الواحد بن أبي العباس الغماري	بعد 704هـ/1304م إلى710هـ/1310م	المغرب الأقصى		قبض عليه[6]

الجدول : النخب المتقلدة للأشغال ببجاية

غالبية المتقلدين لخطة الأشغال من أصول أندلسية، وعلل ابن خلدون ذلك على أن أهل البيوتات الراحلين إلى المدن الحفصية ولوا بالنظر على الأشغال في مدنهم[7]، وسيطروا كذلك عليها بتونس[8]. أولهم ارتبط بتعيين من أبي

([1]) **تاريخ افريقية**، ج2، ص57.

([2]) بعيزيق : **المرجع السابق**، ص217، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص67.

([3]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص434.

([4]) **المصدر نفسه**، ج6، ص464.

([5]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([6]) **المصدر نفسه**، ج6، ص473.

([7]) **المقدمة**، ص232.

([8]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص57.

أبي الحسن ابن الحبير الذي كان وزيرا للسلطان يحيى الواثق (675-678هـ/1277-1279م) الذي عين أخاه أبا العلاء إدريس على ولاية الأشغال ببجاية، استبد بالأمر وأذل شيوخ الموحدين، ولم يستطع التصرف في بيت المال فبذر و أسرف الأموال في غير صالح البجائيين[1] على تعبير ابن خلدون أنه" أفنى الأموال"، يفهم من الفناء كثرة المال المبذر، زيادة على استبداده وإذلاله لشيوخ الموحدين بحكم أنه من الأندلسيين، فكان مصيره القتل على يد رجال الوالي محمد بن أبي هلال في ذي القعدة سنة 677هـ/1278م[2].

يعتبر الحاجب ابن غمر مثالا عن طموح الموظف الذي ارتقى وتدرج في الوظائف الإدارية للوصول إلى ما يصبو إليه، فقبل أن يكون حاجبا مر بعدة وظائف كما يبرزه الجدول، وكانت خطة الأشغال إحداها، حيث تقلدها لصاحب الثغر الغربي الأمير أبي زكريا بن أبي إسحاق، وكان حسن أدائه فيها ومن قبلها على الجباية لكنه من الأمور المالية وإدارتها السبب في إغواء بطانة الأمير به ونفيه إلى الأندلس[3]، أو السعي لاستغلال المنصب لجمع الثروة ومصادرتها لصالحه هي السبب في نكبته، خاصة وأنه ضبطت عند هذا الحاجب ثروة كبيرة بعد وفاته.

يبدو أن صاحب الأشغال كان دائما تحت أنظار أصحابه من الموظفين الكبار فإذا لم يخدمهم سعوا للسخط عليه، هذا النموذج يبرز ببجاية في شخصية عبد الله الرخامي الذي عينه أبوالبقاء خالد سنة 704هـ/ 1304م وزيرا لماليته فأصبح "رديفا لابن غمر و غص بمكانه"[4]، فسعى به ابن غمر عند أبي البقاء خالد، متهما أياه أنه يكن العداوة للأمير ويفكر في الثورة عليه، فكان مصيره النفي إلى ميورقة, ويبدو أن الرخامي كان من الأندلسيين القلائل الضالعين في الأمور المالية والجباية وفنون إدارتها مما جعل السلطان المريني يوسف بن يعقوب يفتديه من الأسر ويعيده إلى فاس، ليعينه على ولاية الأشغال[5].

يتقلد بعده هذه الخطة الفقيه عبد الواحد بن القاضي أبي العباس الغماري[6] لأبي البقاء صاحب بجاية إلى غاية 710هـ/1310م بعد أن قبض عليه المزوار يعقوب بن خلوف الذي استخلفه أبو البقاء على بجاية لما ارتحل إلى تونس سلطانا، والظاهر أن الغماري كان من أتباع صاحب قسنطينة أبي بكر، ومن المؤيدين لحركة الاستقلال التي قادها هذا الأمير للانفصال عن تونس في حدود سنة 710هـ/1310م.

لا نجد بعد تلك الفترة ذكر لحجاب ببجاية، وذلك يعود إلى تقلص هذه الخطة، وإذا أخذنا بعين الاعتبار رواية الوزان في القرن 10هـ/16م والتي تعتبر امتدادا للقرن 9هـ/15م الذي عرف تقهقر هذه الخطة منذ عهد السلطان أبي فارس، فإن السبب يعود إلى توزعها على عدة وظائف، فقد اختص المنفذ بنفقات الجيش، والمزوار على أجور

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6،ص434.

([2]) **المصدر نفسه** ، ج6، ص434.

([3]) **المصدر نفسه**، ج6، ص464.

([4]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([5]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([6]) هو ابن الفقيه أبو العباس أحمد بن عيسى الغماري (ت 682هـ/1380م)، الذي استقر ببجاية وولي القضاء بها، أنظر ترجمته عند : الغبريني : **المصدر السابق**، ص112-113.

الجند، ، ومدير المكشف الذي يقوم بجباية الضرائب على السلع الداخلة والخارجة من وإلى بجاية، وكلف الأمين أو الوزير الأول بأخذ المال من الجباة ثم توزيعه بحسب أوامر السلطان[1]، هذا الأخير جعله برونشفيك هو صاحب الأشغال المعروف مع تضييق صلاحياته[2].

يفهم من هذا أن ولاية الأشغال لأهميتها وارتباطها بالمال فقد أسندت إلى بعض المخلصين من الأندلسيين, و لم يتقلدها أحد من شيوخ الموحدين على ما جرت عليه العادة بالحاضرة في بداية الدولة الحفصية, ولعل حساسية هذه الخطة على اعتبار أن صاحبها يستحوذ على فرصة هامة لجمع الثروة والربح هي سبب تنامي الصراع الدائر بين الموظفين لتسلمها، لهذا فإن معظم الذين تقلدوها كانت نهايتهم مؤلمة بالقتل أو التعذيب أو بالنفي أو تصادر أمواله كما يبرزه الجدول، كما يدل ذلك على غياب سلطة الوالي لمراقبة الموظفين الكبار.

لم يبرز دور صاحبها في ظل النفوذ الكبير الذي عرفه الحاجب مما جعل متوليها ينضوي تحته، وظل تابعا له و لم يستطع مجاراته في سياسة بجاية، أغلب من أراد أن تكون له المكانة بها كان مصيره القتل أو النفي والسجن على أقل تقدير، فتعطلت الكثير من رسوم الملك ومنها هذه الخطة[3].

3- الكتاب المحليون ينافسون الأندلسيون :

نظرت كتب مرايا الملوك للكاتب وصفاته ومهامه، وللكتابة وأهميتها لأية سلطة سياسية وحددت العلاقة بين الكاتب والسلطان، اشترط في الكاتب جودة الترسل والحفاظ على الأسرار، وتتعدد دواوين الكتابة من ديوان الرسائل الذي يختص صاحبه بتحرير المراسلات الرسمية وتدوينها الوثائق العمومية والمصادقة عليها[4]، وغالبا ما قد تمند له ، وقد تسند له «كتابة العلامة» في الغالب، وقد يستقل بها الكاتب لوحدها، إلا أنه استبد بها الحاجب آخر الدولة الحفصية، وأصبح هو الذي يكتب الإمضاء بالخط الذي يريده ويأمر الكاتب بوضع العلامة[5]، وهي صورة من صور سيطرة الحاجب على أمور الدولة وهناك كاتب ديوان البحر الذي يختص بالإشراف على ما يدخل ويخرج في ميناء بجاية ويدونه في سجلات خاصة ويوثق العقود المبرمة بين المتعاملين أنفسهم أو بين أصحاب السلطة في المدينة مع غيرها من المدن أو الدول في معاملاتها التجارية، ووجدت ببجاية كتاب تخصصوا بالكتابة للحجاب الذين فوضهم الأمراء أو السلاطين بالمراسلات بين الولاية والحاضرة أو حتى مع ملوك من ممالك أو دول أخرى خاصة للذين استبدوا بها دون ولاتها، ولفهم أدوارهم وعلاقتهم بالسلطة ببجاية وأصناف الدواوين التي عملوا بها ارتأيت تبويبهم في الجدول التالي :

([1]) وصف افريقيا، ج2، ص78-79.

([2]) تاريخ افريقية، ج2، ص58.

([3]) المقدمة، ص232.

([4]) برونشفك : المرجع السابق، ج2، ص61.

([5]) ابن خلدون : المقدمة، ص233-234.

الكاتب	الأصل الجغرافي	الديوان الذي شغل به	أسلوبه في الكتابة ودوره ببجاية
محمد بن ابراهيم الوغليسي (ق7هـ13م)	بجاية	– ديوان الرسائل – الكتابة للقضاة	إليه كان يهرع أهل البلد فيما يحتاجون إليه من الوثائق المحكمات[1].
محمد بن أحمد الأريسي (ق7هـ/13م)	المغرب الأوسط	شيخ كتبة ديوان البحر.	من أدباء الكتاب، مليح الكتابة، حسن الوراقة في البطاقة[2].
عبد الله بن علوان (ق7هـ/13م)	بجاية	ديوان الرسائل	على شهادته العمل في الديار السلطانية[3]
أبو القاسم أحمد بن سعيد (حوالي 693هـ/ 1293م)	الأندلس	ديوان الإنشاء والرسائل	له نبل وذكاء، استكتب واستنبل لشيخ الموحدين ببجاية[4].
ابراهيم ابن الحاج النميري (ت بعد774هـ/ 1372م)	الأندلس	ديوان الرسائل والإنشاء[5]	
محمد بن أحمد التجاني (ت712هـ/	تونس	ديوان الإنشاء[6]	
أبو القاسم بن يحيى البرجي (ت786هـ/	الأندلس	ديوان الإنشاء[7]	بادرت أهل الدولة إلى اصطفائه[8]
عبد الله الرخامي (حيا 704هـ/ 1304م)	الأندلس	كاتب الحاجب	خدم حاجبه ثم سعى به[9]
أبو القاسم بن أبي جي (ت 711هـ/1311م)[10]	الأندلس	ديوان الإنشاء	استكتبه ثم رقاه واستخلصه لنفسه[11]
أبو القاسم بن أبي مريد (حيا	الأندلس	كاتب الحاجب[12]	
عبد الله بن هلال (حيا 712هـ/		كاتب القائد	حرض أبي حمو على احتلال بجاية[13]

(1) الغبريني : **المصدر السابق**، ص241.

(2) **المصدر نفسه**، ص287.

(3) الغبريني : **المصدر السابق**، ص262.

(4) ابن قنفذ : **الفارسية**، ص146.

(5) ابن الأحمر : **المصدر السابق**، ص69، ابن الخطيب : **الإحاطة**، ج1، ص342.

(6) التجاني : **المصدر السابق**، ص17، ابن الطواح : **المصدر السابق**، ص165.

(7) ابن خلدون : **الرحلة**، ص71، ابن الأحمر : **المصدر السابق**، ص56-57.

(8) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص71.

(9) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص463-464.

(10) المصدر نفسه، ج7، ص137.

(11) المصدر نفسه، ج6، ص453.

(12) المصدر نفسه، ج6، ص494.

(13) المصدر نفسه، ج7، ص137.

الجدول : كتاب بجاية وأدوارهم الإدارية والسياسية

يمكن من الجدول تصنيف الكتاب ببجاية حسب أنواع الكتابة والدواوين التي شغلوا بها لابراز دورهم تجاه السلطة من خلالها وهي :

أ- كتاب ديوان الرسائل والإنشاء :

يسمى صاحبه «كاتب السر»، وإذا جمع بين تحرير الرسائل وكتابة العلامة يطلق عليه «صاحب العلامة والإنشاء»[1]، وإن كان الغالب هو الجمع بينهما، رتبه حسن الوزان خامسا عند حديثه عن نظام الحكم عند الحفصيين وسماه «الكاتب الأعظم»[2] له ارتباط مباشر بالوالي لأنه يختص بالمراسلات الصادرة منه ومن أكابر الموظفين معه والواردة إليه باعتباره المسؤول عن المدينة وأعمالها، يخير كتابه من خيرة الفقهاء والإداريين الذين تتوفر فيهم الشروط اللازمة في هذه الخطة، وقد يخضعون لاختبار قبل التحاقهم به، على رواية ابن القنفذ الذي قال أن المستنصر الحفصي أخضع كاتبه أباالقاسم أحمد بن سعيد (ت حوالي 693هـ/1293م) للامتحان قبل أن يوليه ديوانه[3]. أغلبية من تقلدوا الإنشاء ببجاية أندلسيين، فحسب الجدول من أصل سبعة كتاب في هذا الديوان وجدت أربعة أندلسيين وواحد تونسي واثنان من بجاية، وأوعز ابن خلدون ذلك إلى ضعف شيوخ الموحدين في الترسل فهل كان كذلك بالنسبة للبجائيين[4]؟

ليست قاعدة عامة بدليل وجود الكثير من الفقهاء البجائيين أو بالأحرى من المغرب الأوسط الذين تقلدوا الكتابة في هذا الديوان لأنهم يدركون أهميتها ويعرفون حفظ الأسرار ويجيدون الخط والتعبير بالصيغ البلاغية, وقد برز منهم محمد بن إبراهيم الوغليسي (ق7هـ/13م) الذي عرف بقدرته على الترسل في كتاباته، عليه يعتمد بديوان الإنشاء في كتابة الرسائل والرد على الأخرى "إنشاء وجوابا"[5] ولعل نباهه ونزاهته وهمته على وصف الغبريني[6] هي الشروط التي أهلته للترشح لهذه الوظيفة، كما أن الوجاهة التي وصل إليها بين البجائيين قد يكون سببها هذه الخطة التي جعلت صاحبها يعرف أسرار القصر الأميري بالقصبة فهو يشرف على ماسماه برونشفيك

([1]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص61.

-أملسي ، قدكيفية الكاتب محرر الوثيقة، ط مغربي أو مشرقي أو أندلسي ، قد يكتبها الكاتب محرر الوثيقة، وقد تسند لغيره، وتنقسم إلى قسمين : العلامة الكبرى التي الصادرة عن السلاطين والملوك، تكتب في آخر أو أول الرسالة، وعادة ما تحتوي على لقب واسم السلطان ونسبه بعبارة موجزة وبليغة والعلامة الصغرى وتصدر عن وزير الجند ويكلف بها كاتب الجند، ، يراجع فيها : ابن خلدون : **المقدمة**، ص233-234، برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص62-63.

([2]) **وصف افريقيا**، ج2، ص79.

([3]) **الفارسية**، ص147.

([4]) إضافة إلى البلاغة و والتخلق بالأخلق الفاضلة وحفظ أسرار المُلك، **المقدمة**، ص224.

- كما أن ابن خلون ربط الكتابة والخط وتطورهما بتطور العمران وعظمة الملك وتوسعه وكثرة العلوم مما يزيد في نسخ الكتب ورواجها، والعكس مع البداوة ونقص العمران، أنظر : ابن خلدون : **المصدر السابق**، 386-389.

([5]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص241

([6]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

بأمانة سر الدولة[1]، وكذلك شأنه علو محمد عبد الله علوان (ق7هـ/13م) الذي اختص بالكتابتين الشرعية والأدبية، جمع بين الفقه والأدب، ويبدو تفرده في تخصصه فالغبريني قال عنه أنه شيخ الكتاب على عهده[2].

هذا التواجد للعناصر المحلية في الكتابة على عكس الوظائف الإدارية الأخرى، قد نفسرها بأن الكتابة لم تأخذ صفة الخطة المتنازع عليها، كما أنها لم تكن الوظيفة التي تجلب لصاحبها النفوذ والجاه وحتى المال مقارنة بالحجابة والأشغال، وإن كانت تجعل صاحبها في اتصال مباشر مع الأمير البجائي فقد رتبه أبو حمو الأول دخولا عليه "لتلقي...ما أردت من سرك ويعرض عليك الكتب الواردة ..."[3].

أما العناصر الأندلسية التي تولت ديوان الإنشاء ببجاية فنجد منها شخصية في القرن 7هـ/13م وهو الفقيه أبو القاسم بن الشيخ أحمد بن سعيد (ت حوالي 693هـ/1293م) وأصله من دانية[4]، يذكر ابن القنفذ أن الوالي أبا عبد الله ابن ياسين الهنتاتي عينه كاتبا له ببجاية, وعرف عنه الذكاء والنبل فقدمه للمستنصر الحفصي الذي جعله كاتبا بالحاضرة[5]، ويتضح من قصته أن بجاية كانت منبعا لاكتشاف النخب الإدارية ثم صقلها ليتم نقلها إلى تونس للاستفادة منها، وتولاها كذلك الكاتب أبي القاسم النميري المعروف بابن الحاج (ت 768هـ/1366م)[6] الذي اشتغل في عدة وظائف وفي الكثير من البلاطات منتقلا بين قسنطينة وبجاية وفاس، بعد أن خرج من الأندلس سنة 734هـ/1343م[7], إقامته ببجاية جاءت بعد أن استكتب للحفصيين بقسطينة 739-740هـ/ 1338م، وبعد عودته من رحلة الحج الثانية سنة 750هـ/1349م يتولى ديوان الرسائل والإنشاء لأمير بجاية أبي عبد الله محمد إلى

([1]) **تاريخ افريقية**، ج2، ص61.

([2]) **عنوان الدراية**، ص262.

([3]) **واسطة السلوك**، ص82.

([4]) دخل بجاية واشتغل بالعطارة قبل أن يتولى الكتابة، أنظر : **الفارسية**، ص147.

([5]) ثم تحجب للدعي بن أبي عمارة المغتصب لملك الحفصيين (681-683هـ/1283-1284م)، واختفى مدة ليعود إلى خدمة السلطان أبي حفص عمر (683-694هـ/1284-1295م) لمدة حوالي عشر سنوات ليتوفى ويدفن بمقبرة الأشياخ، **الفارسية**، ص146.

- وحسب ابن خلدون أنه تحجب للسلطان أبي إسحاق إبراهيم لما دخل تونس سلطانا في منتصف ذي الحجة سنة 678هـ/1279م، أنظر : **العبر**، ج6، ص436.

([6]) من أهل غرناطة من مواليد سنة 712هـ/ 1312م، خرج من الأندلس سنة 734هـ/ 1333م، ثم حاجا سنة 737هـ/ 1336م رفقة الرحالة خالد البلوي وبعد العودة عين كاتبا للأمير أبي عبد الله ابن أبي يحيى صاحب قسنطينة سنة739هـ/، ثم أبي زيد عبد الرحمن، ثم الفضل إلى غاية 740هـ/1339م، وحج ثانية سنة 747هـ/ 1346م، ليعود ويستقر ببجاية، وبعد دخول أبي الحسن المرين المدينة سنة 748هـ/1347م يتحول مع أميرها إلى تلمسان ثم إلى فاس ليتولى كتابة العلامة ورئاسة ديوان الإنشاء، خرج مع أبي عنان نحو قسنطينة والزاب سنة 758هـ/1356م، ودون رحلة سلطانه الموسومة "فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب" أنظر ترجمته في : ابن الخطيب، **الإحاطة**، ص342-363، نفسه : **الكتيبة الكامنة** : تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963، ص 260-261 ، يحيى بن خلدون : **المسند**، ج1، ص376، مقدمة تحقيق رحلة **فيض العباب**، 25-27، ابن القاضي : جذوة **الاقتباس**، ص92، الكتاني : **فهرس الفهارس**، ج1، ص120.

([7]) ابن الخطيب : **الإحاطة**، ج1، ص342.

سنة 752هـ/1351م[1]، مصطنعا بالكتابة بها على تعبير ابن القاضي[2]، ولا نمتلك معلومات عن مرحلته البجائية، ولعل قصر مدته في الديوان والسيطرة المرينية عليها غطى على تاريخ الكثير من رجال البلاط ببجاية في تلك الفترة بالضبط، جل المصادر التي ترجمت للنميري تبرز الخصال والصفات التي أهلته للكتابة، فقد تميز برئاسته للنظم شعرا ونثرا، وقوة الحفظ وحسن البلاغة[3]، وكثرة العلوم التي أخذها[4]، حتى لقبه ابن القنفذ بالكاتب الشهير[5].

ويبدو أن فترة حكم الأمير أبي زكريا بن يحي ببجاية (720-747هـ/1320-1346م) عرفت نقصا في تقدير ابن خلدون حيث قال "على حين أقفرت من رسم الكتابة والبلاغة"[6] في ظل نفور والده السلطان أبي يحي أبي بكر من العناصر الأندلسية وشيوخ الموحدين، وفي غياب العناصر المحلية التي ابتعدت عن هذه الوظائف، لكن طبيعة تكوين الفقيه والقاضي الأندلسي أبي القاسم محمد بن يحيى البرجي (ت 786هـ/1384م) جعلت أبي زكريا يبعث له عندما حل ببجاية قادما من الأندلس[7]، وقد أهلته الكثير من المواصفات لقلد الكتابة لأمير بجاية في حدود (740هـ/ 1339م)، من قوة الترسل وتفوقه في الأدب شعرا ونثرا "الفائق بين أرباب القلم بأبرع نثير و نظيم"[8]، كما أن أخلاقه وحسن مزاجه ميزات جذبت إليه أبي زكريا وزادته تقربا منه فقد عرف عنه "حسن المعاشرة، لين الجانب، وبذل البِشر والمعروف"[9]، حتى أن ابن الأحمر سماه بصاحب القلم الأعلى[10]، دلالة على تفوقه في الكتابة على أقرانه.

كل ذلك جعل السلطة ببجاية تسارع إليه على حد تعبير بن خلدون "فبادرت أهل الدولة إلى اصطفائه إيثاره بخطة الإنشاء"[11] مما يوضح حاجتها إلى كتاب من أمثاله من الأندلسيين الذين نقلوا الكثير من تقاليد الكتابة معهم إلى بجاية وغيرها[12] وقد نجح مع الأمير أبي زكريا في ديوان الرسائل وقدم خدمات جليلة للسلطة فجددت فيه الثقة

([1]) المصدر نفسه، الصفحة نفسها، التنبكتي : **كفاية المحتاج**، ص90.

([2]) **جذوة الاقتباس**، ص92.

([3]) وشحته الكثير من المصادر بتعريفات جميلة نذكر منه قول ابن الأحمر "شاعر حاطم وبحر كتب موجه متلاطم وجعجعة بها طحن"، نثير **فرائد الجمان**، تحقيق رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1967، ص313، وقال عنه كذلك "فحل النثار والنظام ورأس أهل البلاغة العظام امتطى من ديوان الإنشاء جوادا"، **مستودع العلامة**، ص69.

([4]) ابن الخطيب : **أوصاف الناس**، ص64.

([5]) **الفارسية**، ص172.

([6]) **الرحلة**، ص71.

([7]) نسبة إلى مدينة برجة شرق الأندلس ولد بها سنة 710هـ/ 1310م، درس بها على الكثير من الشيوخ، أرز في الأدب نظما ونثرا، ولي الكتابة لأبي عنان المريني ثم ولي قضاء الجيش لخلفه السلطان أبي سالم، يراجع ترجمته عند كل من : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص71-72، ابن الأحمر : **مستودع العلامة**، ص57، ابن الخطيب : **الإحاطة**، ج2، ص215، التنبكتي : **كفاية المحتاج**، ص352.

([8]) ابن الأحمر : **المصدر السابق**، ص57.

([9]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص71.

([10]) ابن الأحمر : **المصدر السابق**، ص56.

([11]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص71.

([12]) العروي : **مجمل تاريخ المغرب**، ص216.

بعد وفاة أميرها واستمر على الديوان مع ابنه الأمير محمد (747-748هـ/1346-1347م) إلى أن احتل أبي الحسن المريني بجاية سنة 748هـ/1347م لتبدأ مسيرته الثانية مع الكتابة والقضاء بفاس[1].

واحد فقط من البلاد التونسية تولى هذا الديوان ببجاية وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد التجاني (ت 712هـ/1312م)[2]، للوالي أبي فارس بن أبي إسحاق (679-682هـ/1280-1283م)[3]، عرف عنه قول الشعر بطلاقة "صاحب الشعر النفيس المجري كنفيس"[4]، وقال عنه أنه كان كاتب العلامة ببجاية والراجح أنه جمع بين كتابة الرسائل والعلامة في فترة الأمير الحفصي المستقل بالثغر الغربي أبي زكريا أبي إسحاق الذي جعل بجاية عاصمته منذ سنة 684 هـ/1385م[5], لكننا لا نمتلك معلومات عن تاريخ توقفه عن العمل بالديوان لأنه كان دائم الترحال بين بجاية وقسنطينة أيام هذا الأمير.

عرف عنه في مدة توليه ديوان الرسائل والإنشاء حسن الترسل والتمكن من تحرير الرسائل بأسلوب راقٍ، وقد لقيه ابن الطواح وأجازه ووصفه بالوقار والصدق والاسترسال بالكتابة[6]، كل هذه المميزات أهلته المكوث بالديوان لمدة طويلة دون علمنا بنهايتها، إلا أننا نرجح بقائه كاتبا للعلامة فقط لأبي زكريا إلى غاية وفاة أميره سنة 700هـ/ 1300م، لاستئثار أبي القاسم بن أبي جي بالكتابة قبل 690هـ/ 1291م لنفس الأمير[7]، كما أننا لا نجده في قائمة رجال دولة أبي البقاء الذين عدهم ابن خلدون لما خلفه على بجاية مستقلا بها سنة في نفس السنة[8]، وبوصول السلطان أبي زكريا اللحياني إلى الحكم بتونس سنة 711هـ/1311م أسند إليه خطة في ديوان الرسائل إلى أن توفي سنة 712هـ/ 1312م[9].

ب- كتاب ديوان البحر :

يعرف بعيزيق ديوان البحر بأنه مؤسسة إدارية ومالية[10]، وقد أرجع برونشفيك المسؤولية عليه لناظر الديوان أو صاحب الديوان[11]، الذي له كامل الصلاحيات على موظفيه، وتتطلب مهام هذا الديوان وجود إدارة قارة بالميناء، يضم كتابا وشهودا عدول وأعوان آخرين[1]، للإشراف على العمليات الإدارية ذات الطابع التجاري.

([1]) وبلاط فاس التقى به ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص71.

([2]) هو والد صاحب الرحلة، أبو محمد عبد الله التجاني حيا 717هـ/1317م ، أنظر مقدمة تحقيق **رحلة التجاني**، ص25.

([3]) ابن الطواح : **المصدر السابق**، ص166.

([4]) ابن الأحمر : **مستودع العلامة**، ص65.

([5]) مقدمة تحقيق **رحلة التجاني**، ص17.

([6]) **سبك المقال**، ص166-167.

([7]) بتعيين من الحاجب أبي الحسين بن سيد الناس فيب 690هـ/ 1292م، وهوالكاتب الوحيد الذي ارتقى من الكتابة إلى الحجابة لأبي البقاء في نفس السنة، ولعل تمرسه في الديوان ومعرفته بشؤون الإدارة كان عاملا في طول مدته حاجبا لأكثر من أربعة عشر سنة، ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص452-453.

([8]) أنظرهم في : المصدر نفسه،، ج6، ص461-462.

([9]) مقدمة تحقيق رحلة التجاني، ص17.

([10]) بجاية في العهد الحفصي، ص217.

([11]) تاريخ افريقية، ج2، ص68.

المصادر لا تترجم لكتاب ديوان البحر، اللهم ما ذكره الغبريني عن الفقيه أبي عبد الله محمد الأريسي (ق7هـ/13م)، الذي قال عنه أنه كان شيخ كتبة الديوان[2]، مما يوحي أنه عدد الكتاب كان كثير، وربما يعود ذلك لكثرة الحركة التجارية بالميناء[3]، ولتحديد السلع الداخلة والخارجة ومقدار المكوس والضرائب على البضائع، كل ذلك تطلب عددا من الكتاب ورئيسا عليهم يراقب العمل المنجز ويوقع المراسلات، والمرجح أن المعاهدات المبرمة مع المدن الأوربية كانت تحت إشرافه، في وجود الشهود العدول الذين أضفوا عليها طابع الاعتراف الرسمي من سلطة الطرفين، ولا يستبعد أنه كان بالديوان أرشيف لحفظ هذه العقود.

من الإشارة التي أوردها الغبريني يتبين أنة التي جمعها أبا مرتبا عاليا، بالنظر للثروة التي جمعها أبا محمد عبد الله القلعي (ت 669هـ/1271م) من مشاورته وشهادته بالديوان، حيث اكتسب ستة ألاف دينار من وظيفته[4]، علما أن الشهادة كانت أقل مرتبة من الكتابة مما أهل هؤلاء لاكتساب الثروة من وظائفهم بالديوان الذي يبدو من كل ذلك أنه إدارة كاملة تحتوي على رئيس الكتبة ومجموعة من الكتاب والشهود العدول وأعوان إداريين أخرين.

ج- كتبة الحجاب :

بحكم الاستبداد الذي أبداه الحجاب ببجاية وكثرة مهامهم الإدارية فأصبحوا أصحاب الحل والربط فاحتاجوا إلى كتابا خاصين، كاتبين اثنين اشتغلا لصالح الحجاب أولهم الكاتب عبد الله الرخامي الذي كان كاتبا للحاجب أبو القاسم بن أبي جبي (690-704هـ/ 1291-1304م) وقد استأثره بنفسه على سابقة الصداقة التي كانت بينهما[5]، وبمرور الوقت سيكون هذا الكاتب طرفا مع ابن غمر في إغارة صدر أبي البقاء ضد حاجبه الذي يعزل سنة(704هـ/ 1304م), وبرز الكاتب متكتلا ضد حاجبه لظهور بوادر فقدانه لقوته محاولة منه للحفاظ على مصالحه وقربه من الموظفين الجدد الذين سيتحكمون في أمر بجاية فأصبح تحت سلطة الحاجب ابن غمر مباشرة ليثاب على فعله من القيادة الجديدة بترقيته إلى ولاية الأشغال[6].

واتخذ الحاجب ابن فرحون له كاتبا هم أبو القاسم بن مريد وقد نسبه ابن خلدون إليه فقال عنه "صنيعته محمد بن فرحون ومعه كاتبه أبو القاسم بن أبي مريد"[7]، ويفهم من النص أن الكاتب تابع للحاجب ومؤتمر بأوامره وتنحت سلطيه المباشرة لقوة نفوذ الحاجب واستبداده بشؤون الدولة الإدارية، لهذا نجده يخرج مع حاجبه لمواجهة الزيانيين المتربصين ببجاية[8].

([1]) برونشفيك : **المصدر السابق** ، ج2، ص68.

([2]) **عنوان الدراية**، ص287.

([3]) بعيزيق : **المرجع السابق**، ص226.

([4]) **عنوان الدراية**، ص93.

([5]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، 463.

([6]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([7]) **المصدر نفسه**، ج6، ص494.

([8]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

يبدو من خلال هذه النموذجين أن سلطة اقتراح الكتاب المباشرين لمهامهم لدى الحجاب كانت من هؤلاء الحجاب أنفسهم، وتتم أخذ موافقة الوالي عليهم بعد أن يكونوا قد تدرجوا في الوظائف الإدارية خاصة مع الأندلسيين، ونلاحظ في القرن 8و9هـ/14و15م غياب العناصر المحلية عن هذه الوظيفة وانفراد الأندلسيين بهه، ولعل الفساد الإداري وسوء الأخلاق التي انتشرت في جهاز الحكم ببجاية كانت وراء ابتعاد الفقهاء عن هذه الوظيفة وغيرها، والتي كانت تتطلب الأمانة وحفظ أسرار السلطة.

بعض الاختيارات لم تكن ناجحة مع بعض الكتاب الذين باعوا تلك الأسرار هربا من واقع صعب وطمعا في آخر جديد مشرق، على شاكلة الكاتب عبد الله بن أبي هلال الذي استكتبه القائد ابن خلوف قائد بجاية، وبعد مقتل أميره سنة(712هـ/ 1312م)، فر كاتبه إلى تلمسان فاحتضنه أبو حمو موسى الزياني وحثه على احتلال بجاية، العرف السياسي يسمي ذلك خيانة، لأنه مما لا شك فيه أن أبا هلال كشف أسرار السلطة البجائية المنهزمة كما أنه يكون قد أعطى لأبي حمو الحلول العسكرية للتمكن منها، وصور له اضطراب أهل بجاية حالتهم بعد دخول ابن غمر لها، كلها هي الأسباب التي جعلت أبي حمو يستجيب لدعوة الكاتب ويتحرك بجيشه نحوها على قول ابن خلدون أنه "لك جمع الجموع...وأمر بحصار بجاية"[1].

يمكن الخلاصة إلى أن خطة الكتابة تميزت بفترتين متباينتين، فترة السيطرة البجائية خلال القرن7هـ/13م على ديوان الإنشاء وديوان البحر من قبل فقهاء متمرسين، خدموا السلطة من خلال هذه الوظيفة وحصلوا حظوتها ببعض جاهها وبمكانة اجتماعية، أما الفترة الثانية فتميزت بسيطرة العنصر الأندلسي الذي استغلها لخدمة مصالحه وتقوية نفوذه في خضم الصراع الدائر بينهم للسيطرة على الوظائف، فكان الكاتب أحد صناع تلك الفوضى.

لقد استغلت النخب المقربة من السلطة لوظائفها ونفوذها لقضاء مصالحها ولجمع الثروة، والتمكين لعائلاتها وأصهارها بالوظائف والثروة والإقطاعات، مما أدى إلى اشتداد حدة الصراع بين الموظفين من الفئة الأندلسية والوشاية ببعضهم البعض لأجل الإنفراد بالمناصب وتحصيل الجاه، واستخدام كل الطرق مهما كانت صفتها للوصول إلى أهدافها، وعلى حد تعبير الطالبي أن الجالية الأندلسية فازت بقصب السبق في حياكة السعايات والدسائس واعتبرها أجود مدرسة لتخريج صناع تلك المؤامرات[2]، ونجاحهم في إبعاد العناصر الأخرى من هذه الوظائف، مروجين لثقافة الاختلاس والمصادرة والتعذيب والكيد[3]، وعلى قول ابن خلدون أنهم "تعلقوا بأذيال الدولة"[4] للحصول على الامتيازات التي تدرها على أصحابها، كما أنها جلبت المكانة الاجتماعية لهم، خاصة الحجابة لما لمتوليها من أهمية عند أمراء بجاية.

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج7، ص137.

([2]) **الهجرة الأندلسية**، ص180-181.

([3]) نللي سلامة العامري : **الولاية والمجتمع**، ص67.

([4]) **المقدمة**، ص389.

صارت الكثير من تقاليد الحكم والأعراف السياسية التي أدخلها الحجاب وبعض الموظفين الأندلسيين إلى بجاية ومنها إلى الحاضرة عرفا سياسيا وإداريا حفصيا، ومجاراة بجاية وتفوقها أحيانا على تـــونس في الجانـــب الإداري، ووصول الكثير من البجائيين المتمرسين إلى تقلد الوظائف الكبرى بالحاضرة دلالة على صحة تكوينهم وتفـــوقهم على النخب المركزية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا : النخب العسكرية بين ولاء القادة المحليين وهيمنة الموالي

يعتبر الجيش الحفصي وريث الجيش الموحدي من حيث تركيبته البشرية، فقد شكلت القبائل الموحدية ركيزته الأولى، إضافة إلى القبائل الأخرى التالية بالتوحيد سواءً كانت بربرية أو عربية وتشكيلات من المشارقة والأندلسيين وعدد معتبر من النصارى الذين أسلموا من الموالي والعبيد الذين سيكون منهم أغلبية القادة خاصة خلال القرن 8هـ/14م[1]، وقد حال هذا التنوع دون اتفاق هذه العناصر على قلب نظام الحكم[2]، أو تأييد طرف في السلطة على أخر خارجها.

من الصعوبة معرفة وتحديد المعايير التي نستند إليها لتصنيف النخبة العسكرية في الدولة الحفصية لأنه لا توجد معطيات عن الترقيات داخل هذا الجيش، لكن وانطلاقا من أن القادة العسكريين وجب أن يتوفروا على شروط تؤهلهم للقيادة، كالحزم والمعرفة بشؤون الحرب[3] التي تبرهن عليها من خلال الخدمات التي تقدمها للملك ومدى ولائها للسلطة وفي حروبها مع الأعداء ومن مسيرتها مع صاحب الملك كما أوصى أبي حمو موسى"صادقين في محبتك وافين بعهدك"[4]، ويسدون الثغور ويقاتلون العدو تحت قيادة تستطيع في حالة ما "إذا بعث العدو جيشا لفساد البلاد قابلته بقائد من هؤلاء القواد"[5]، مع مراعاة طبيعة الانتماءات العرقية والحزبية لتلك الشخصيات وضعف العصبيات التي تنتمي إليها لكي لا تشكل خطرا عليها.

إذا هي ثلاثة أسس التي استقيتها من خلال المنهج الإحصائي التحليلي للعسكريين القادة، لأخلص بتصنيفهم إلى ثلاثة أصناف هي:

الصنف الأول :

القيادات ذات الولاء المذهبي والسياسي المفتخرة بموروثها السالف وإنجازاتها السابقة لآبائها وأجدادها المتمثلة في المشيخة الموحدية الذين استطاعوا أن يجمعوا بين القيادة الإدارية كولاة والعسكرية كقادة عسكريين لبجاية، تميزوا بقوة نفوذهم وولاء مطلق للسلطة المركزية وسعيهم لإخماد كل الثورات التي قادها بعض شيوخ القبائل وأخذوا على عاتقهم توسيع رقعة الدولة، شكلوا كما يبينه الشكل البياني 21% من مجموع القادة، برز منهم الشيخ أبو هلال عياد بن سعيد الهنتاتي (660هـ-673هـ/1262-1275م) الذي كان له الفضل في إخماد ثورة الجزائر سنة 671هـ/1272م، وتوفي وهو عائد من تلك المهمة[6]، ثم ابنه محمد بن أبي هلال (67-678هـ/1275-1279م) يعينون مباشرة من السلطان الذي يعد القائد الأعلى للجيش والمسؤول الأول عن

([1]) للتفصيل في أمرؤ هذا الجيش وتركيبته المختلفة أنظر : برونشفيك : **تاريخ افريقية**، ج2، ص75-81.

([2]) أحمد بن عامر : **المرجع السابق**، ص37.

([3]) أبي حمو موسى الزياني : **المصدر السابق**، ص62.

([4]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([5]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([6]) في منطقة بني ورا سنة 673هـ/1262م، ج6، 431، وعن دوره في القضاء على بعض المعارضين من مشيخة الذواودة يراجع : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص45-46.

العمليات العسكرية مساعدا من وزير الجند[1]، عملوا على تركيز السلطة ببجاية، تميزوا بروح عسكرية عالية وطاعة كبيرة لسلاطنيهم، بحكم أنهم جزء من نظام الحكم الحفصي، فدعموا المركز بجيش بري وبحري من بجاية حسب ابن خلدون من أجل محاربة الخارجين عن السلطة، هذا الدعم الذي كان يصل بأمر من السلطان كما جاء على لسان المستنصر الحفصي أنه "أوعز إلى عامل بجاية بإنفاذ عسكر آخر"[2].

الصنف الثاني :

بروز قيادة عسكرية محلية على قلتها 14% فقط لأكثر من نصف قرن تميزت كقيادة عسكرية بحرية وبرية وسيطرتها على الجيش، أبرزت إخلاصها وتبعيتها المطلقة تمثلت في زيد بن فرحون ومحمد بن أبي مهدي من 740هـ/1339م إلى 805هـ/1402م، وهو الصنف الذي أبلى بلاءً حسنا وساهمت مجموعة من العوامل في تفوقه، لا تفكر في الانفصال و لم تستغل حب البجائيين لها لتحقيق مطامعها الشخصية، استطاعت أن تصنع لنفسها مكانة محلية وفضاءً دوليا.

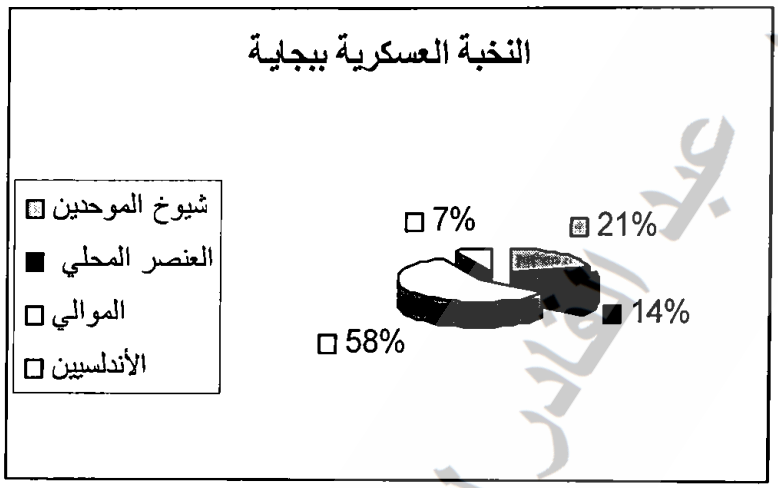

الصنف الثالث :

سيطر طيلة القرن9هـ/15م تقريبا قادة عسكريون جلهم من الموالي الذين دخلوا الإسلام على القيادة العسكرية لبجاية، فمن مجموع أربعة عشر قائدا كان منهم ثمانية من الموالي أي ما نسبته58%، جمع بعضهم الإشراف الإداري والعسكري أو ما أسميتهم كما يبينه الجدول التالي (الولاة القادة)، عينوا من السلطان إما كوصايا على بعض الولاة من البيت الحفصي لصغر سنهم أو للوقوف في وجد بعض الخارجين وطلاب العرش من الحفصيين والقضاء على تمردات القبائل وصد العدوان الزياني والتحرشات المرينية على بجاية، أظهروا ولائهم للمركز ووثق السلاطين فيهم لضمان تبعية بجاية لهم، ولاحظ الوزان في القرن 10هـ/16م لما زار تونس أنهم لم يعدوا فقط حراسا شخصيين للسلاطين بل مارسوا مهنا أخرى كانوا يتقنونها أفضل من أهل المنطقة[3]، ويعود الفضل في التأريخ لهذه الفئة للزركشي الذي رغم أنه ذكرهم في خضم الأحداث العامة للتاريخ الحفصي إلا أنه

([1]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص88.

([2]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، 431.

([3]) **وصف افريقيا**، ج2، ص74.

أفادنا كثيرا لاستنتاج وإدراك الكثير من النقاط المهملة في تاريخ الموالي ببجاية. ولفهم الأدوار التي أنيطت بالنخبة العسكرية والمهمات التي قاموا بها ببجاية، ومعرفة انتماءاتها ارتأيت تبويبها في هذا الجدول لتسهيل عملية المقاربة التحليلية لأهم احداث[1] :

القائد	الأصل	الوظيفة	الدور والمهمة
محمد بن يحيي الأنصاري (ت نحو 721 أو 722هـ/ 1321 أو1322م)[2]	الأندلس	قائد أسطول بجاية	
زيد بن فرحون (حيا 741هـ/ 1340م)	عنصر محلي	قائد الأسطول	قيادة الأسطول الحفصي المشارك مع المرينيين سنة 740هـ/1340م[3]
محمد بن ابي مهدي (ت805هـ/ 1402م)	عنصر محلي	قائد الأسطول	القائم بأمر صاحب بجاية وزعيم البلد[4]
ظافر الكبير	من الموالي	من القادة ببجاية	الوشاية بالغبريني[5]
ظافر السنان	من الموالي	قائدا على عسكر بجاية	لمساند الوالي أبي زكريا سنة 733هـ/ 1332م[6]
ظافر أبو النصر	من الموالي	الوالي القائد[7]	عين للقضاء على ثورة الأمير أبي عبد الله محمد سنة 809هـ/ 1406م[8]
أبو النعيم رضوان	من الموالي	الوالي القائد	عين خلفا للأمير المعتمد الذي طمع في ملاية العهد سنة833هـ/ 1429م[9]
أحمد بن بشير	من الموالي	قائد عسكري	مساعدة الوالي في مقاتلة الأمير أبي الحسن سنة 850هـ/ 1446م[10]

(1) استثنيت من الجدول القادة من شيوخ الموحدين الذين كانوا ولاة على بجاية لأنني تناولت أدوارهم في الفصل الثاني من البحث.

(2) ابن القاضي : **درة الحجال**، ص171.

(3) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص516.

(4) **المصدر نفسه**، ج6، ص574، ابن قنفذ : **الفارسية**، ص186.

(5) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص462.

(6) **المصدر نفسه**، ج6، ص515.

(7) أطلقت هذه التسمية على القادة الذين جمعوا بين مهمة الوالي والقائد العسكري في نفس الوقت.

(8) الزركشي : **المصدر السابق**، ص124.

(9) **المصدر نفسه**، ص 128-129.

(10) **المصدر نفسه**، ص142.

القائد نبيل	من الموالي	قائد عسكري	إخراج الأمير أبي الحسن من بجاية سنة 850هـ/ 1446م[1]
أحمد بن فرج	من الموالي	قائد عسكري	ولي عليها بعد إخراج أبي الحسن سنة 850هـ/1446م[2]
أبو علي منصور المزوار	من الموالي	الوالي	ولاه السلطان على بجاية سنة بعد نجاحه في إنهاء ثورة أبي الحسن نهائيا سنة 856هـ/1452م[3]

يبدو من خلال الجدول أن العناصر الأندلسية لم تتواجد في قيادة الجيش بعكس الوظائف الإدارية والدينية، يعود ذلك برأي إلى طبيعة هؤلاء المهاجرين الذين لم يكونوا من أفراد الجيش الذي كان يقاتل في الأندلس إلى غاية سقوط غرناطة 897هـ/1492م، وأن أغلبية النخب المهاجرة كانت من الفقهاء والإداريين، وقد لاحظ برونشفيك وجود أقلية أندلسية بقيادة أبي الحسين بن سيد الناس على أيام أبي زكريا الأول ثم خليفته المستنصر[4]، وقد أثارت هذه الأقلية من القادة العسكريين نشوزا وإعراضا من المشيخة الموحدية، وكانت السبب في حدوث الانشقاق داخل قيادة الجيش بين الفئتين[5].

هذه الأقلية يوضحها الجدول، حيث تعرفت على قائد واحد فقط من أصول أندلسية عين رئيسا للأسطول البجائي هو محمد بن يحيي الأنصاري، وإن كان أخواله من المغرب الأوسط من عرب رياح[6]، والواضح من الترجمة التي أوردها له ابن القاضي أن الحاجب ابن غمر[7] هو الذي اكتشف هذه الشخصية عندما دخل المرية رسولا للحفصيين، وعرف مؤهلاتها وطموحها للإمارة[8]، ثم نجده يولى الزكاة والمواريث ببجاية، ثم يرقى بعد أن أثبت إخلاصه ليولى قيادة الأسطول البحري بها، ثم استدعي للحاضرة لولاية الحجابة للسلطان أبي يحيي أبي بكر (718-747هـ/1318-1346م)، إلى أن توفي وهو على ذلك سنة721هـ/ 1321م أو 722هـ/1322م[9]، والراجح أن المناصب التي تولاها ببجاية كانت على عهد الحاجب ابن غمر وهو الذي رقاه في هذه الوظائف، معضدا به جانبه على ما عرف عنه من قدرة على صناعة الموالين لسياسته وضرب معارضيه، ثم يكون قد أرسله

([1]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص142.

([2]) **المصدر نفسه** الصفحة نفسها.

([3]) **المصدر نفسه**، ص146.

([4]) أثرا في القرنين لهم أثرا في القرن 8هـ/14م، أنظر : برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص80.

([5]) أنظر : **بحوث ندوة الأندلس**، ص80.

([6]) أمه أسماء من سبايا عرب إفريقية من بن رياح، اشتراها أبوه، ثم اعتقها وتزوجها، أنظر : ابن القاضي : **درة الحجال**، ص171.

([7]) يسميه ابن القاضي بابن القمر والأصوب هو ابن غمر، أنظر : **المصدر نفسه**، ص172.

([8]) يذكر ابن القاضي في الترجمة أن أبا يحيي هذا سأل ابن غمر عن بلاد المغرب، متشوقا للدخول إليها ومعرفتها والعمل بها، وقد دخلها في بداية أمره في صفة تاجر، **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([9]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

مع السلطان أبي بكر سنة 718هـ/1318م مع النخب الإدارية والعسكرية والعلمية التي أخذها معه من قسنطينة وبجاية لتكون أساس إدارته في الحاضرة.

1- الأسر المحلية تتفوق قيادة وولاءً :

رغم أن القيادة العسكرية للمحليين اختصرت في شخصيتين فقط، إلا أن طول مدتهما التي تعدت النصف قرن، والدور الذي قاما به كلا من زيد بن فرحون ومحمد با أبي مهدي فاق ربما جهود النخب العسكرية مجتمعة في سمعتها وفضائها الذي جاوز الإطار المحلي الجهوي إلى الفضاء الدولي، فما الدور الذي اطلعت به هاتين الشخصيتين؟ وما هي الأعمال التي قدماها للسلطة حتى جددت ثقتها فيهما؟ وكيف كانت مجازاتهما مقابل ولائهما؟

لا يمكن الإجابة عن هذه الإشكاليات الفرعية إلا بتتبع مسيرة القائدين ومحاولة تشخيص ترجمتهما إلى قراءة تحليلية تمكننا من فهم تلك الأدوار، وكما سبق وأن أشرت في موضوع الحجابة لشخصية محمد بن فرحون الذي أثبت نجاحا إداريا في وظيفته، وتزامنا مع نفس الفترة ستشهد بروز أخاه زيدا كقائد للأسطول البحري البجائي، وإن تعددت المصطلحات المطلقة على صاحب هذه الوظيفة «قائد البحر، قائد الأسطول، صاحب البحر»، ورغم ان ابن خلدون قلل ية هذا المنصب لأنه يرجع بالنظر إلى سلطة صاحب السيف (قائد الجيش البري) ببلاد المغرب[1]، إلا أن الواقع التاريخي البجائي دل على أن قائد الأسطول ببجاية لم يكن تابعا لقائد الجيش البري مع هاتين الشخصيتين، خاصة إذا علمنا أن قائد البحر يضم تحت تصرفه الشؤون العسكرية مكلفا بحماية السواحل من الأعداء، ويشارك في رد العدوان وغزو البحر، ويشرف على الشؤون التجارية فهو رئيس ديوان البحر[2]، الذي يكلف بمراقبة حركة ميناء بجاية في كل الأمور التجارية كما سنأتي عليه في موضعه، وبالتالي فهو يجمع بين الناحية العسكرية والشؤون المدنية في الشق الثاني.

تعوزنا المعلومات حول تعيين زيد بن فرحون قائدا لبحر بجاية، إلا أننا نستنتج من كلام بن خلدون أنه توافق مع حجابة أخيه محمد من 728-733هـ/1327-1232م، واستمرت قيادته إلى غاية تكليفه بقيادة الأسطول الحفصي الذي أرسله السلطان أبي بكر سنة 740هـ/1340م للسلطان أبي الحسن المريني لمحاربة القشتاليين في طريف[3]، بأسطول بحري أو ما يطلق عليه برونشفيك "عمارة بحرية"[4] قوامها ستة عشر سفينة حفصية اجتمعت من طرابلس، قابس، جربة، تونس، بونة وبجاية مع أسطول مريني بلغ في مجموعه مائة سفينة.

يعد تعيين زيد بن فرحون على رأس هذا الأسطول اعترف بكفاءة هذه الشخصية وقدرتها على القيادة والمشاركة في معارك على نطاق خارجي تتطلب قيادة محنكة لمجابهة أسطول إسباني استطاع الانتصار على المرينيين،

([1]) **المقدمة**، ص238.

([2]) للتفصيل في أمر ديوان البحر، يراجع : بعيزيق : **المرجع السابق**، ص223.

([3]) يذكر برونشفيك أن مساهمة الأسطول الحفصي تمت في معركتين، معركة جبل طارق التي انتصر فيها أبي الحسن ومعركة طريف التي هزم فيها، يراجع : برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص193-194.

([4]) **المرجع نفسه**، ج2، ص95.

وقد ساعده في هذا التألق أن بجاية كانت المدينة البحرية الأولى في الجهة الغربية للدولة الحفصية وفي المغرب الأوسط عرفت بهياكل قاعدية ودار لبناء السفن، لتكون هذه القيادة بمثابة اعتراف لقائد محلي على مستوى متوسطي والثقة في قدراته خاصة وأنه على قول بن خلدون أنه "من صنائع دولتهم"[1]، أي أنه تربى وتهيأ للقيادة في البلاط البجائي للحفاظ عل مصالحهم والذود عن ملكهم فلم يخيب ظنهم فيه، لنكون في النهاية أمام هيمنة عسكرية وإدارية ولما لا اقتصادية على بجاية وأعمالها في ظروف صعبة لعائلة ابن فرجون لأكثر من أربعة عشر سنة، يعضد أخاه محمد صاحب الحجابة، مع تراجع السيطرة الأندلسية والموحدية لصالح العنصر المحلي إلى حين.

هذه الزعامة ستتولاها عائلة محلية أخرى، تمثلت في القائد محمد ابن أبي مهدي، المعلومات التي بحوزتنا عنه أوردها ابن خلدون وابن القنفد دون الحديث عن ماضيها، المؤشرات توحي أنها عائلة محلية والمرجح أنها بجائية على رأي برونشفيك[2]، كما أن بن خلدون قال أنه "زعيم البلد"[3] أي بجاية ولعله يقصد بالزعامة هنا أنه من قدفيها و قائد ن قاتها، يفد ترجحنا هذا أن ابن ا لقنفذص فه من وصل ا لوالي الوالي[4] أبي عبد الله محمد (785هـ/1370-1383م) الذي جنح والده السلطان أبو العباس إلى تعيين رجالا لدولة ابنه الوالي البجائي من المخلصين من العناصر المحلية[5].

وبناءً على قراءتنا السابقة للصراع الأندلسي داخل البلاط وما انجر عنه من مساوئ على الدولة الحفصية ككل مما أجبر السلطان أبا بكر على إزاحة هذا العنصر من القيادة ببجاية وتحويل الدور إلى الأسر المحلية كما عرفنا مع محمد ابن فرحون بداية من 728هـ/1327م، ودأب السلطان على تقريب الكفاءات وجلبها إلى قصر بالقصبة، مما يوحي بما لا يدع مجالا للشك على أن ابن أبي مهدي من صنع القصر الأميري ببجاية فقال عنه ابن خلدون أنه من صنائع دولة الموحدين، تربى على شؤون القيادة العسكرية البحرية، وأبدى ولاءه للسلطة القائمة ليصبح في أعين السلطان أبي العباس (772-796هـ/1370-1346م) متقدما على أهل بجاية وصالحا للقيادة والريادة والكفالة لأنه عد من" أهل الشطارة والرجولة من رجال البلد ورماتهم"[6].

هذه الثقة تكمن في عدة مظاهر ستظهر من قبل السلطان أبي العباس الذي سيوصي ابنه الأمير أبي عبد الله الذي كان واليا على بجاية (772هـ/1370م) بإشراك ومشورة محمد بن أبي مهدي والرجوع إليه في إدارة شؤون

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج7، ص

([2]) **تاريخ افريقية في العهد الحفصي** : ج1، ص226.

([3]) **العبر**، ج6، ص574.

([4]) **الفارسية**، ص186.

([5]) والأرجح أن محمد بن أبي مهدي نشأ منذ صغره على البحر وانضم إلى الأسطول البحري عن بكرة أبيه كبقية البجائين الذين كان يجند منهم الشجعان والأكفاء من الرجال للانضمام إلى الجيش كما ورد عن ابن خلدون "ويتخيرون له أبطال الرجال"[5]، وارتقى داخل هذا التنظيم في الرتب، ويبدو أن شهرته ذاعت على نطاق السواحل الحفصية وأن إمارته للبحر سبقت التعيين الرسمي الذي كلف به من قبل السلطان، ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص578.

([6]) **المصدر نفسه**، ج6، ص574.

بجاية باعتباره زعيم البلد[1]، يفهم من ذلك طاعة البجائين له وانصياعهم له لتقدمه عليهم لأنه أصبح من أهل الحل والعقد وقد كفى ووفى كما يقال في خدمة أميره وخدمة السلطة واستتباب الأمن ببجاية ونواحيها، ويبدو أن الجو خلا له من عناء الوشايات والسعايات، حتى أننا لا نجد في المصادر التاريخية ذكر لحجاب أو إداريين استبدوا بالأمر كما سبق فيمن قبله، وهذا يرجع إلى أن أبا مهدي نظم شؤون إدارة واليها وتحكم في موظفيها، وعبر ابن خلدون عن هذا الدور بقوله : "فكان يجري في قصوره و أغراضه ويكفيه مهمة في سلطانه"[2]، وقد عرف هذا الوالي فضل هذا القائد عليه، ليبدأ انسياب الجاه نحو ابن أبي مهدي لاعتراف السلطة بجلالة خدماته المقدمة "والأمير يعرف لـه ذلك ويوفيه حقه"[3]، من المال والجاه والسلطة والرئاسة.

عينه السلطان في نفس السنة أي 772هـ/ 1370م رئيسا لبحر بجاية وقائدا لمنجرتها على تعبير ابن القنفـد[4]، جامعا بين الجانب الرسمي الإداري في القصر الأميري ببجاية و الشؤون العسكرية متمثلـة في القيـادة البحريـة للأسطول البجائي، وقد نجح في سياسة بجاية رفقة أميرها الذي توفي سنة 785هـ/1383م تاركـا وراءه ذكـرا واسعا بين البجائين الذين أحبوه وكذلك السلطان والده الذي توفي وهو راض عنه وعن سياسته لأهل بجاية[5].

تستمر مهام ابن أبي مهدي مع خلفه الأمير أبي العباس أحمد ابن الوالي الراحل الذي عينه الـسلطان في نفـس السنة التي توفي فيها والده 785هـ/1383م، وبحكم صغر سنه سيقوم قائد بحر بجاية بكفالته، لتبدأ مرحلـة قـوة نفوذ القائد البجائي وقيادته للثغر الغربي"مستبدا عليه"[6]، لكن برأيي أن هذا الاستبداد لا يعني الظلم والاسـتغلال والسعاية المعتادة من الحجاب الأندلسيين، بل بمفهوم الرجوع بالأمر إليه دون الوالي الصغير، هادفـا إلى إصـلاح البلاد وخدمة أهل بجاية، لتستقيم سياسة الجهة الغربية بفضل الحكم الراشد الذي برهن عليه هذا القائد الذي جمع بين الزعامة السياسية والعسكرية، وتركيزه لملك البيت الحفصي وإخماده لمظاهر التمرد والوقوف في وجه الخارجين عن طاعة السلطة، فجلب الرضا عنه من الحاضرة وعلى رأسها السلطان أبي العباس أحمد.

كل هذه الثقة جعلته يتصرف في بجاية ويتخذ القرارات دون الرجوع إلى أميره أو سلطانه، بحكم نجاح سياسته ة وصوبك إجـ اءا ته، فنجده يسمح بتزو ول السلطان الزياني المخلـوع أبي حمـو ببجايـة[7] أواخـر سـنة 789هـ/1387هـ، وجعله يقيم في قصر الرفيع معظما مكرما دون الاستئذان من السلطة المحلية أو المركزية التي شكرت له صنيعه هذا وأثنى السلطان على فعله وأمره بأن يجعل في خدمته عساكر بجاية ويوفوه إلى مبتغاة[8]، دلالة

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق** ، ج6، ص574.

([2]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([3]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([4]) **الفارسية**، ص186.

([5]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص574.

([6]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها، وفي موضع أخر "مستبدا بأميرها"، ج7، ص193.

([7]) بعد أن استولى ابنه أبا تاشفين على كرسي الحكم فخرج أبي حمو إلى المشرق، أنظر : **المصدر نفسه**، ج7، ص192-193.

([8]) **المصدر نفسه**، ج7، ص193.

عن سلطة التفويض التامة والحرية في التسيير التي منحت له، واستمر على نفس الشاكلة في أداء مهامه إلى أن وافاه الأجل ببجاية في ذي القعدة سنة 805هـ/1403م.

ولا يستبعد أنه كان وراء الغزوات البحرية في المتوسط التي كان يقوم بها البجائيون نحو سواحل برشلونة والبندقية وجنوة، هذه العمليات التي تطلق عليها بعض الكتابات بالقرصنة[1]، أو الجهاد البحري بالمنظور الأخر تطابقا مع نص ابن خلدون لنفس الفترة بأنهم كانوا متفوقين بفضل "طائفة من غزاة البحر يصنعون الأسطول ويتخيرون له أبطال الرجال"[2]، فكانت النتيجة من وراء ذلك كثرة الأسرى من النصارى والعودة بالغنائم "حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأساهم تضج طرق البلاد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجتهم"[3]، تعبيرا عن كثرتهم ببجاية، وكان الأوربيون يدفعون الأموال لفديتهم والتي تعود على الخزينة بالوفرة، وأرجع برونشفيك ذلك النشاط البحري وتلك الأفعال إلى التأثير الذي مارسه ابن أبي مهدي على السلطة وإغرائها بما تجنيه من وراء تلك العمليات[4]. ووفاءً له ولما أظهره من حنكة في إدارة الأسطول وإعانة أمير بجاية فقد عين السلطان ابن أخته القسطلوني قائدا للبحر بها ويبدو أنه من تربية خاله أبي مهدي، لكننا نفتقد لمعلومات أخرى عنه فهل واصل القيادة لفترة طويلة ليكون بذلك مواصلا لهيمنة العنصر المحلي على بجاية؟.

من كل ما سبق يتبين لنا أن العائلات المحلية بينت حسن قيادتها ومقدرتها وكفاءتها في إدارة وحماية بجاية، وأبدت إخلاصها وخدمتها للسلطة، وعملت على تبعيتها للمركز، دون إثارة الفوضى وبث القلاقل، بعيدا ع ن التفكير في الاستقلال بالجهة الغربية، رغم توفر الشروط التي تساعدها على ذلك من أهم أعيان البلد، وطاعة السكان لهم وتحكمهم في قيادة الجيش والإدارة، مما يؤكد على أن الخلل الذي أصاب الفئة الأندلسية لم تصل عدواه للبجائيين، هذه المكانة جلبت لتلك العائلات الاحترام من السلطة بالمركز وببجاية، حاصلة على ما لم تتمكن منه وهي خارج قصر القصبة، فتصبح عائلات ذات الجاه لأنها من بطانتها على رأي بن خلدون، لكثرة غنائم الدولة واتساع جبايتها وزيادة أموالها الذي بدا واضحا ببجاية، بهدف كسب أكبر لولائهم لخدمة سياستهم ومشروعهم ككل "فيعظم حال حاشيته، ويتسع جاههم ويقتنون الأموال ويأتونها"[5].

2- هيمنة الموالي على قيادة الجيش :

وصل الكثير من قدماء العبيد من النصارى الذين اعتنقوا الإسلام من جنسيات أوربية متعددة[6]، والذين يعرفون باسم العلوج أو الأعلاج[7]، القائمين على أمور السلاطين في قصورهم[8]، إلى تقلد عدة وظائف في الدولة الحفصية

([1]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص227.

([2]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6،ص578

([3]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها

([4]) **تاريخ افريقية في العهد الحفصي**، ج2، ص227.

([5]) المقدمة، ص266.

([6]) فيلالي عبد العزيز : **تلمسان في العهد الزياني**، ج1، ص184.

([7]) بعيزيق : **المرجع السابق**، ص451.

([8]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص47،

سياسية وعسكرية (قيادة الجيش)[1]، حيث شكل أغلبية قادته من العينات التي عملت عليها فمن مجموع أحد عشر قائدا ثمانية منهم من الموالي، يعود هذا الاستحواذ برأينا إلى عدة أسباب أهمها: افتقاد هذه العناصر إلى العصبية التي تحميها أو تآزرها في حالة تفكيرها بمعارضة السلطة، أي فقدانها للعصبية على نظرية ابن خلدون، كما أن تبعيتها المطلقة وتنفيذ الأوامر الموكلة إليها جعل الحفصيين يعدونهم البديل عن شيوخ الموحدين في غياب القيادة العسكرية المحلية ذات التخصص في المجال البري،كما لا ننسى نتائج الصراع داخل البلاط والذي أسهم في توجيه الأنظار نحوهم، وأكسبهم ذلك طابع الصبغة الرسمية في أوساط أصحاب الملك[2]، وأرغم طبيعة موقع بجاية وأهميتها للحاضرة القيادة المركزية على وضع خطة عسكرية للدفاع عنها مخافة السقوط، فكان من ضمنها تعيين قادة أكفاء لرد محاولات العدوان أو الثورة من الداخل، فما هو دور هؤلاء العلوج ببجاية؟ وما جزاؤهم على ما قدموه للسلطة؟

بعضهم انخرط في مؤامرات السلطة وسعايتها لضرب بعض النخب التي نافست بعض الموظفين الكبار بفضل إخلاصها، شأن العلج ظافر الكبير[3] الذي ارتقى في المناصب الإدارية إلى أن تولى حجابة قسنطينة للأمير أبي عبد الله سنة 720هـ/1320م[4]، ولعل هذا التألق نتيجة أفعاله حينما كان من طبقة القواد المشاركين في حكم بجاية رفقة الحاجب ابن أبي جبي، حيث قام بدور إغراء أبي البقاء وتحرشه بالقاضي أبي العباس الغبريني وحرضه على التنكيل بكبير بجاية وصاحب شوراها حتى "استوحش منه السلطان"[5] ليتم قتل الغبريني سنة 704هـ/1304م.

هذا التآمر جعل الحفصيين يعتقدون في إخلاص الموالي لهم، ليتم تعيين العلج ظافر السنان[6] سنة 733هـ/1232م لابنه صاحب بجاية الأمير أبي زكريا لما استبد بأمره لقيادة الجيش البجائي لأميرها[7]، والراجح أن ولاقي بجاية وعمل بها على عهد الحاجب ابن غمر، فقد بعثه مع كبار رجال الدولة في المدينة لدعم السلطان أبي بكر عندما رحل من قسنطينة لدخول تونس سنة 717هـ/1317م[8].

باستثناء هاتين القيادتين من العلوج الموالي في القرن 8هـ/14م لا نجد أثرا للقيادة العسكرية دون سواها ،مما يوحي كما سبق وأن أشرت إلى سيطرة العناصر المحلية على القيادة العسكرية والإدارية ببجاية متمثلة في عائلتي ابن فرحون وابن أبي مهدي .

([1]) كان لهم حيا خاصا للسكن بتونس على العهد الحفصي، وفيهم بعض التجار والقلة من رجال الدين، يراجع : إبراهيم جدلة : **السكان الحضر بإفريقية**، ص91.

([2]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص81.

([3]) كان من موالي الأمير أبي زكريا بن أبي إسحاق ببجاية، أنظره في : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص486، بعيزيق، **المرجع السابق**، ص89، برونشفيك، **المرجع السابق**، ج1، ص161.

([4]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص486.

([5]) **المصدر نفسه**، ج6، ص462.

([6]) من موالي أبي زكريا بن أبي إسحاق، **المصدر نفسه**، ج6، ص516.

([7]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([8]) **المصدر نفسه**، ج6، ص482.

الهيمنة الكلية لهؤلاء على قيادة بجاية عسكريا بدت واضحة في القرن 9هـ /15م، ويعود اصطناع الدولة لهؤلاء الموالي في جل تلك الفترة بحسب نظرية ابن خلدون لدخول الدولة طور المجد على عهدي السلطانين أبو فارس عبد العزيز (797-837هـ/1394-1434م) وأبو عمرو عثمان (839- 894هـ/1435-1488م) للدفاع عنها من الخارجين، بدلا عن العناصر السابقة من الأندلسيين وشيوخ الموحدين التي استفردت بالوظائف الثقيلة في الدولة واستبدت بها فتتغير الوجهة نحو الموالي لأنهم "من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولهم دونهم"[1]، لتتم توليتهم جل المناصب ومنها قيادة الجيش مما سيؤثر عليها ويضعف عصبيتها على حد قوله "وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها لفساد العصبية"[2]. ذلك التهميش طال حتى بعض الأمراء الذين خرجوا عن المركز في الولايات الحفصية المختلفة، واستشرى ذلك في هذا القرن رغم الحزم الذي أبداه السلطانين السابقين في استعادة مجد وقوة الدولة الحفصية، هذه التمردات المتكررة جعلت السلطة تسند مهمة القضاء عليهم للقادة العلوج.

يتم تكليف القائد أبو النصر ظافر الوالي القائد ولاية بجاية من 805-810هـ/1402-1407م[3]، ورغم عزله عن وظيفته من السلطان إلا أنه كلفه بقيادة المحلة التي خرجت بقيادته بعد العزل مباشرة لمواجهة الأمير أبي عبد الله محمد المدعم من المرينيين وأعراب افريقية لاحتلال بجاية[4]، لكنه هزم أمامه واحتلت المدينة، فاضطر السلطان أبي فارس إلى قيادة الجيش بنفسه واستعادتها ليتم القضاء على هذا الثائر من البيت الحفصي[5]، ويبدو أن هذا الأمير كان مدعما من داخل المدينة من كبار الاشبيليين لمساعدته على استعادة حكم بجاية ومحاولة منهم للعودة إلى مراكزهم ونفوذهم التليد، حيث يذكر الزركشي أن السلطان قبض عليهم وأرسلهم إلى تونس[6]، فزاد ذلك من تصاعد نسق قيادة الموالي.

هذا النسق برز بشكل واضح على عهد السلطان أبي فارس الذي يعين الوالي القائد أبي النعيم رضوان سنة 833هـ/1430م بدلا من ابنه المعتمد الذي حكم بجاية من 824هـ/1421م، بعد أن ظهرت بوادر طمعه في ولاية العهد إثر وفاة أخيه[7]، وقد استطاع هذا المملوك القائد أن يسير بجاية إداريا وعسكريا إلى غاية عزله من

---

(1) المقدمة، ص178.

(2) المصدر نفسه ، ص178.

(3) وكان قبلها قائدا على قسنطينة، ابن قنفذ : الفارسية، ص199.

(4) كان هذا الأمير واليا على بجاية (772-785هـ/1370-1383م)، وبعد عزله يخرج ضد السلطة التي هزمته في معركة رمضان 797هـ/ 1394م ليرحل إلى فاس مستنجدا بالمرينيين لاستعادة إمارته على بجاية، ليكلف من صاحب فاس بقيادة العرب الذين طلبوا معونة السلطان المريني ضد الحفصيين كذلك ، الزركشي : المصدر السابق، ص123- 124.

(5) قتل من الوالي أبي العباس أحمد واجتز رأسه وأرسل إلى السلطان بالحاضرة والذي بعثه بدوره إلى فاس ليكون عبرة لحلفائه الزيانيين، راجع : الزركشي : تاريخ الدولتين، ص124، برونشفيك : المرجع السابق، ج1، ص245.

(6) الزركشي : المصدر السابق، ص124

(7) جاء المعتمد في فرقة كبيرة من الجيش من بجاية لتعزية والده السلطان، ولما وجد أن أخاه المنتصر أخذ مكان ولي العهد الراحل أبطأ في العودة إلى بجاية، فقبض عليه أبي فارس وسجنه بتونس، المصدر نفسه، 128-129.

السلطان أبو عبد الله المنتصر سنة 837هـ/1434م وأبدله بعمه أبي الحسن[1]، ليتبين لنا أن نظام الحكم استنجد بالعلوج في ساعة العسرة للقضاء على المناوئين للسلطة من البيت الحفصي نفسه وكلفهم بأمور الولاية، لكنهم كانوا يعودون في ساعة اليسر وبعد أن تهدأ الأوضاع إلى أمراء من الأسرة لتبقى ولاية المدن موروثة بينهم.

كما أسهموا بشكل جلي في القضاء على ثورة لأمير السابق لبجاية أبي الحسن التي أنهكت السلطة الحفصية محليا ومركزيا بالنظر إلى طولها وقوة صاحبها التي تكمن خصيصا بنجاحه في كسب الكثير من القبائل في صفه مستغلا نقمة الكثير منها على الحفصيين، لهذا سيدخر لها السلاطين كل الإمكانات لإخمادها، ومن ذلك تعيينهم لقادة عسكريين أثبتوا مقدرتهم العسكرية في مثل هذه الحالات[2].

استطاع الموالي بفضل الولاء الذي أبدوه للسلطة أن يكونوا بديلا عن العناصر الأخرى كشيوخ الموحدين، ليصبحوا بنظر السلطان الحفصي "أولياؤه الأقربون ونصحاؤه المخلصون"[3]، ولجأت إليهم لما أبدوه لها من إخلاص دون إتعابها بالمشاكل التي اعتادتها من الفئة الأندلسية خاصة، وكانوا سببا في القضاء على الخارجين من البيت الحفصي أو من القبائل والوقوف في وجه التحرشات الخارجية، ليصبحوا جزءا من كيانها، ويشملون بالرعاية والتمكين الاجتماعي يخصهم بمزيد من التكرمة والإيثار المادي ويكثر من أقطاعاتهم لاستمالتهم في المدافعة عن ملكه "ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه"[4]، ويحصل لهم الجاه المفقود دون غيرهم قبل أن كانوا عبيدا أصبحوا قادة مبجلين "أولى إيثارا وجاها"[5]، وعُد القرن 9هـ/15م ببجاية قوتهم الحقيقية.

([1]) الزركشي : **المصدر السابق** ، ص131.

([2]) أمثال القائد أحمد بن بشير الذي فشل في صد أبي الحسن بن علي بن أبي فارس عن بجاية التي دخلها سنة 850هـ/1446م، ولم يمكث بها سوى عشرين يوما، حيث انتزعها منه السلطان بقيادة القائد نبيل، لتتم تولية المولى محمد بن فرج عليها للوقوف في وجه هذا الأمير حفاظا على المدينة من السقوط ثانية، برونشفيك، المرجع السابق، ج1، 142.

وكان أبي الحسن عين سنة 837هـ/1434م واليا على بجاية، لكنه يخلع بيعة السلطان بعد وفاة عبد الله محمد المنتصر سنة 839هـ/1435م معلنا انفصال بجاية عن تونس وخروجه عن السلطان أبي عمرو عثمان مدعما من قبيلة أولاد أبي الليل[2]، وحكم بجاية مستقلا بها إلى غاية 843هـ/1433م، ليتمكن السلطان من هزمه ودخول بجاية، ويبدو من كلام الزركشي أن البجائيين سئموا من أبي الحسن بسبب ما نتج عن حروبه ضد السلطة من فقدانهم للأمن والتضييق على تحركاتهم وتجارتهم وتضييع ممتلكاتهم وأموالهم، ولما لا نظرة الريبة والشك من السلطة المركزية تجاههم، ويتضح موقفهم الرامي لإنهاء تمرده قياسا على قوله "وخرج أهلها للقائه فأمن السلطان جميعهم في أنفسهم وأموالهم"، الزركشي، **المصدر السابق**، ص137-140.

اهتدت السلطة للقضاء عليه بالتحالف مع بعض شيوخ القبائل مستعملة الحيلة للإطاحة به، وبفضل ما أحبكه القائد المزوار أبو علي منصور من خطة معه نجحت في إنهاء ثورته نهائيا في عيد الفطر من سنة 856هـ/1452م[2]، وتم تعيين القائد منصور واليا على بجاية اعترافا بفضله وجهوده في إنهاء قصة هذا الأمير الذي دامت ثورته أكثر من سبعة عشر سنة ولخدماته المقدمة سلفا بقسنطينة، وعزل الأمير أبو محمد عبد الملك الذي تلكأ في تجديد العهد للسلطان فكان مصيره القتل في شوال 856هـ/أكتوبر 1452م[2]، كما أنه عقد على قسنطينة للقائد فارح ابن القائد منصور نظرا لجميله في القضاء على الأمير الذي أنهك الحرث والنسل، تراجع أخباره عند : **المصدر نفسه**، ص146.

([3]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص178.

([4]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص178.

([5]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

يتبين لنا أن النخبة العسكرية البجائية انحسرت في فئتين أساسيتين، العنصر المحلي الذي أكد على صلاحياته للقيادة البحرية التي أهلته لإدارة الشؤون الإدارية لبجاية بإخلاص ووفاء قل نظيره عند العناصر الأخرى وذلك طيلة القرن 8هـ/14م تقريبا، والفئة الثانية من النخبة العسكرية كانت من الموالي الذين كانوا سيف السلطة في ضرب المعارضة السياسية التي أبداها بعض طلاب الملك، وأثبتوا جدارتهم في خدمتها والحفاظ على كيانها من الانهيار، وبدت سيطرتهم المطلقة على قيادة الجيش خلال القرن 9هـ/15م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا : التجار الكبار يساهمون في صنع ملك بجاية

يعرف ابن خلدون التجارة بالقول أنها "محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء"[1], وهو المعنى العام الذي ينسحب على كل من يمارسها, لكن الحديث في موضوعنا يتطلب تحديد من هي النخبة التجارية التي تمس الموضوع؟

المقصود بهم التجار الكبار الذين استطاعوا بفضل أموالهم التدخل في شؤون السلطة بشتى الطرق والتأثير فيها، الذين اعتبروا من خاصة القوم بأموالهم[2] , أما النوع الثاني وهم رجال السلطة أنفسهم ابتداء من والي بجاية إلى كبار الموظفين الذين استغلوا مراكزهم لممارسة التجارة لينشأ عن ذلك تأثير نفوذهم في النشاط التجاري، والصنف الثالث الفقهاء التجار الذين لم يكن همهم منها جمع الثروة بقدر ما كانت وسيلة للبعد عن موائد السلطان وعطاياه. فهل كان للموقع البجائي المميز دور في تكوين تكتل تجاري لكبار التجار؟ وهل منعت السلطة العلمية للفقهاء من أن يكونوا تجارا؟

اجتمعت مجموعة من العوامل الطبيعية والإستراتيجية[3] وحتى السياسية لتجعل من بجاية قوة اقتصادية كان لها الدور في صناعة النخب التجارية بها, فميناء بجاية وما يقوم به من مبادلات تجارية من وإلى بجاية جعلها تندمج مع مدن أوربا المتوسطية، في ظل نشاط الحركة التجارية القائمة مع المدن الجنوبية لأوروبا، كل ذلك أسهم في خلق جماعة كبار التجار بالمدينة الذين أثروا بشكل أو بآخر على سياستها, ببروز نقابات مهنية وتجارية «كأمين الأمناء»[4] و «المشرف»[5]، في ظل صعوبة الحديث عن التجار ببجاية لقلة المعلومات عنهم في المصادر التي أرخت لهذه الفترة، وغياب دراسات سابقة خصت موضوع كبار التجار باستثناء ما كتبه صالح بعيزيق في السياق العام لهم ببجاية أثناء تناوله للنشاط الاقتصادي.

1- نخبة فقهية وتجارية :

النماذج والعينات التي عملت عليها لتحديد النخبة التجارية شملت بعض الفقهاء على قلتهم، إلا أن ممارسة البعض منهم التجارة يمكن استنباط منها بعض صور العلاقة بالسلطة، شجعهم على مباشرتها حث الشارع على مزاولتها والمباركة فيها[6]، فالفقيه محمد عبد الله الشريف (ق7هـ/13م) على علمه وتقواه وزهده كان يشتغل

([1]) المقدمة، ص366.

([2]) بعيزيق : **المرجع السابق**، ص434.

([3]) حول موقع بجاية المتميز جهويا ومحليا وأهمية موانئها في التجارة المتوسطية، يراجع : **المرجع نفسه**، ص207-217.

([4]) سفيتلانا : **العمران البشري في مقدمة ابن خلدون**، ترجمة رضوان إبراهيم، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ص45.

([5]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص271.

([6]) في فضل التجارة ومحاسنها أنظر : الدمشقي : **الإشارة إلى محاسن التجارة**، تحقيق : محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، 1999، ص62.

بتجارة الصوف بسوق بجاية للصوافين[1]، هذه التجارة التي عرفت بها بجاية لوجود الماشية بأنواعها حتى أنها كانت تصدر إلى أوربا بكميات كبيرة[2].

عدم تعارضها مع الوظائف الحرة كالتدريس الإفتاء، والقدرة على ممارستها إضافة إلى ما سبق هي العوامل التي تركت الفقيه أبو علي عمر السلمي (ق7هـ/13م) يكون تاجرا كان تجارة الحرير وا لقمثل التي الذي كان يستورد من أوربا وبلاد المشرق[3]، وإذا سلمنا بالقول أن هذا النوع من التجارة من المهن النفيسة التي لا تمارس إلا من قبل خاصة القوم[4] يجعلنا نصنف الفقيه السلمي منهم بنوع من الحذر.

مباشرة هذين الفقيهين للتجارة لا تعني في كل الحالات الغنى وجمع الثروة وبهدف تحصيل الجاه، وإن كان البعض فسر أفعال الفقهاء ومواقفهم الفقهية بأنها جزء من صراعهم مع التجار لمن تكون له الوجاهة عند صاحب الأمر ويحظى بالمكانة أكثر من الآخر[5]، بقدر ما أراها طريقة تغني الفقهاء عن ما تدره السلطة من أموال على بعضهم لاستقطابهم، أو هروبا من الوظائف التي كانت تعرض عليهم، كما أنها تحفظ لهم مكانتهم الاجتماعية لكي لا يقعوا تحت تأثير أصحاب المال والنفوذ ولا يسألوا الناس قضاء حوائجهم، علما أن المعروف في تاريخ هذه المجتمعات أن وجاهة الفقهاء وجاههم وحظوتهم مصدرها علمهم وتقواهم وفقههم وتعليمهم الناس دينهم، وهو ما جعل السلطة تهابهم لوقوف الناس في صفهم وطاعتهم لهم، ويمكننا تصنيفهم في فئة التجار المتوسطين أو الصغار، حيث لا تذكر كتب التراجم أنهم كانوا أغنياء.

2- دور المال في صناعة الملك مقابل تحصيل الجاه :

أ- التنظير الخلدوني والواقع البجائي :

تناول ابن خلدون العلاقة بين المال والملك، ورأى أن المال وحده لا يكفي لصاحبه لامتداد أعين السلطان ويديه إليه، وبالتالي يحتاج صاحبه التقرب إلى الملوك والسلاطين للحصول على الجاه ليضمن حماية ماله وملكه,

---

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص177.

([2]) احتلت بجاية المرتبة الأولى في تصديرها لهذا المنتوج في البحر المتوسط إلى جنوة بنسبة 48,11%، ثم بعدها تونس20,8%، أنظر : بعيزيق، **المرجع السابق**، ص342.

([3]) كانت لهذه التجارة سوقا خاصة ببجاية تدعى سوق القيسارية، تعرض فيها السلع للبيع ويأتيها التجار من كل البلدان، أنظر تفصيلا ماكتب : **المرجع نفسه**، ص181-182.

([4]) **المرجع نفسه**، ص435.

([5]) اعتبر بعيزيق أن فقهاء بجاية وشيوخها تقربوا من أمراء بجاية لتكن لهم الحظوة والجاه، مستدلا برأيهم في معاهدة الصلح التي وقعها المستنصر مع الصليبيين سنة 669هـ/1270م، حيث عدوه "صلاح وسداد في حق المسلمين"، أنظر في أمر هذا الصلح : الغبريني : **المصدر السابق**، ص116، بعيزيق : **المرجع نفسه**، ص230.

– وإن كان هذا الاستدلال لا يمكن تفسيره تفسيرا ماديا وأن للفقهاء مصلحة فيه وأنه تزلفا للسلاطين لسببين، أحدهما أن السداد والصلح في قول الفقهاء ينبني على قواعد المصلحة الشرعية في هذا الصلح وليس هوى متبع أو محاباة من فقهاء عرف عنهم التزامهم، وثانيهما أن الفقيه الذي ورد في ترجمته هذا الأمر وهو أبو القاسم أحمد بن عجلان (ت 675هـ/1324م) لم يشهد على هذا الصلح أمام المستنصر ما يدل على أن الإشهاد غير متوفر و غير متوفر وأن هناك اختلاف بين الفقهاء فيه، يراجع : الغبريني : **المصدر السابق**، ص116-117.

"فلابد حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة في العمران من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه"[1]، ويضمن الترف بامتلاكه السلطة والحماية التي توفرها لأصحابه[2]، ويحدد نوعية هذه الحمية ويربطها بمن هم في سدة الحكم من كبار رجالها أو من القبيل ذوي العصبية يتفادها السلطان فتكون حاميته منه "من ذوي قرابة للملك أو خالصة أو عصبية يتحاماها السلطان"[3].

فإن غاب هذين العنصرين فإن مصيره الفقر لنهب ثروته وماله والاستحواذ عليه لجور الأحكام السلطانية الصادرة في حقه من قبل السلطة "وإن لم يكن ذلك أصبح نهبا بوجوه التخيلات وأسباب الحكام"[4], فنعمة المال والثروة وحدها لا تكفي بل وجب الحفاظ عليها والإكثار منها وزيادتها ولا يتم له ذلك إلا بالقربة من الحكام والتزلف إليهم لتحصيل الجاه، خاصة وأن السلطة المشمولة بهذا الجاه يتقرب لها هؤلاء ويخدمونها بحكم الضرورة والحاجة، مما يجبرهم على السعي لدى الملوك للحصول على المكانة والرفعة المناسبة وإلا فقدوا العنصر الأساس لحماية ثروتهم، وجعل ابن خلدون التجار الفاقدين للجاه لا تعظم ثروتهم عادة والعكس للحاصلين عليه، حيث يزداد مالهم وينمو[5]. فلماذا يبذل أصحاب المال الجهد للحصول على الجاه إذا؟ية الخلو نية لمدونية المتعلقة بالجاه، فإن أصحاب الأموال الحاصلين على الجاه يستفيدون من :

الحفاظ على ثرواتهم و أموالهم و خيراتهم وتنميتها ، ويتقرب الناس إليهم طمعا في أموالهم وأعمالهم بهدف تحقيق مصالحهم ودفع المضار التي تلحق بهم, وينتج عن ذلك فوائد مالية كبيرة عليهم جراء الخدمات التي يقدمونها لهم "الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه"[6].

افتقاد الجاه يؤدي بصاحب المال إلى الفقر وفقدانه لثروته للأسباب المذكورة بل يصل به إلى حد الخصاصة، وعد التجار من هؤلاء "وفاقد الجاه وإن كان له مال فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه...كأكثر التجار...فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر"[7].

الحصول على السعادة و الوصول إلى الخير من وراء الجاه " الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله"[8], وبالتالي بهدف حماية المال وللحصول على امتيازات أكبر وسلطات أفضل وجب التقرب إلى السلطة للحصول على جاهها ذلك سبيل التجار للوصول إلى مرتبة الخاصة ونيل الرتبة الاجتماعية والمنزلة الرفيعة.

القوة المادية للتجار وجاههم مصدران استمدا منه هؤلاء قوة تأثيرهم في الملك، مما جعل ابن خلدون يرتبهم مع الخاصة، ومن حقهم إجلال السلطان وتقديره لهم للمنافع التي تقع في دولته جراء سعيهم بأموالهم، ووضعهم مع

([1]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص342.

([2]) عبد السلام الشدادي : **المرجع السابق**، ص37-38.

([3]) **المقدمة**، ص 342.

([4]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([5]) **المصدر نفسه**، ص361، وأنظر كذلك ما كتبه : بعيزيق : **بجاية في العهد الحفصي**، ص388.

([6]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص362.

([7]) المصدر نفسه، 363.

([8]) المصدر نفسه، 363.

أصناف خدمت السلطة بكيفيات متباينة بقوله "من خلال الملك إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأصل الأحساب وأصناف التجار"[1]، وسبب هذه التبجلة أن الدولة تستفيد من أموالهم وتجارتهم، فيمتد نشاطهم في دولته ويعم الخير على رعيته[2]. فهل هناك أدلة على وجود فئة التجار الكبار أصحاب الأموال ببجاية؟ وهل سعوا لتحصيل الجاه من السلطة ؟ وهل استغلت السلطة جبروتها للهيمنة على التجارة؟

هناك عدة قرائن يمكننا الاستدلال بها على وجود فئة كبار التجار أصحاب الأموال الطائلة ببجاية ومنها أن الغبريني أورد أن التجار البجائيين كانوا يملكون سفنا تجارية ببجاية[3]، وتوصلت بعض الدراسات أن بعضهم كانت لهم أجفانا لنقل البضائع والسلع، واستولى البحارة الأوربيون على كثير من السفن التجارية تابعة لبعض تجار بجاية على السواحل الجنوبية لأوربا محملة بالسلع والأموال[4]، وتم القبض على جفن لأحد تجار بجاية محملا ببعض البضاعة من قبل سفينة ميورقية بساحل بترت سنة 707هـ/1307م[5]. اشتروا كذلك قطعا وأجزاء لإصلاح بعض أجفانهم[6]، كما أن تجار بجاية اكتروا السفن الأوربية لنقل بضائعهم وسلعهم وحتى المسافرين والحجيج في السفرات الطويلة والشاقة[7]، دلالة على ملكهم لأموال طائلة لغلاء هذه السفن، ويبين قوة التجارة البحرية البجائية استيرادا وتصديرا، وكانوا يسلحون هذه السفن لمواجهة البحرية الأوربية في البحر وصولا إلى السواحل الشمالية للمتوسط[8].

والملاحظ أن جل هؤلاء التجار اختصوا بالتجارة البحرية بحكم أن بجاية اشتهرت بنشاطها عبر ميناءها، ولعل ارتباط هذا النوع من التجارة بالصراع في المتوسط مع البحرية الأوربية حول مناطق النفوذ والسيطرة على البحر هو السبب في التأريخ لتلك الفئة من التجار دون غيرها، في ظل الافتقار إلى معلومات عن القوة الفلاحية بالمدينة

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ص143.

- عكس ما جاء في إحدى الدراسات أن ابن خلدون لم يرتبهم مع الخاصة لافتقادهم للمعايير الأخلاقية التي تتصف بها هذه الطبقة، والعكس أنه رتبهم على أساس قوتهم المادية والجاه الموصول بالسلطة وحاجتها لهم، أنظر في هذا الشأن : **إلهام حسين دحروج : مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية**، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، 1421هـ/ 2000م، ص163.

([2]) ابن خلدون : **المرجع السابق**، ص144.

([3]) توثيق الفقيه عبد الحق بن الربيع (ت675هـ/ 1276م) لعقد بيع سفينة بكل ما عليها، والعقد تم بين تاجران بجائيان، الغبريني، عنوان الدراية، ص86.

([4]) بعيزيق : **المرجع السابق**، ص230.

([5]) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

([6]) **المرجع نفسه**، ص232.

([7]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص97.

- وإن كان ذلك يدل من جهة أخرى على ضعف الأسطول الحفصي عموما والسيطرة النصرانية على البحر وتفوقهم بقوة سفنهم.

- وعن الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي جعلتهم يكترونها أنظر : بعيزيق : **المرجع السابق**، ص232.

([8]) الوزان : **وصف إفريقيا**، ج2، ص50.

رغم اشتهارها ببساتينها ومنتجاتها، ولا يستبعد وجود قوة مالية تضم الفلاحين والمهن الأخرى، فقد وصف الوزان أهل مدينة بجاية بأنهم أغنياء[1]، مما يوحي أن مصادر الغنى لم تكن التجارة البحرية لوحدها.

لا نظرته للجاه وا لمال على بجاية بشكل كل في نظرته للجاه والمال على بجاية بشكل كاف, إلا أن بعض الأخبار الواردة عنده تجعلنا نقوم بتفكيكها وبنائها على المنظور الخلدوني، بشكل يجعل نظريته أكثر واقعية. هذه الأدلة تبين أن الكثير منهم انساقوا للتقرب من السلطة لتحصيل الجاه لأجل حماية تجارتهم وأموالهم بحسب التنظير الخلدوني السابق، فتجار بجاية هم الذين صنعوا الملك للأمير أبي زكريا بن أبي إسحاق وأوصلوه إلى كرسي الحكم ببجاية سنة 684هـ/1285م، حيث يروي ابن خلدون أن ابن سيد الناس التحق بأميره إلى تلمسان وحثه على طلب ملك أباه المغتال ببني غبرين 682هـ/1283م، واحتاج إلى المال "لإقامة أبهة الملك"[2] ليتم إقراض المال من تجار بجائيين كبار إن ببجاية أو بتلمسان أو معا، ليتم التحضير لدخول المدينة، ونستشف أن الإعداد لهذا الأمر تطلب الأموال الطائلة لتكوين الجيش وتأليف قلوب القبائل معه، وفي مقدمتها الذواوذة وسدويكش اللتان كانتا ركيزته في هذه الجيش والتي كانت لا تنصاع إلا بالأموال الكثيرة.

استطاع بفضل تلك الثروة المجموعة أن "جمع الرجال واصطنع الأولياء"[3]، مما يدل على أن المال المقرض كان كثيرا، وإن كُنت أستبعد فكرة الإقراض لأن هؤلاء التجار حدث لهم شبه اليقين بنجاح أبي زكريا في مهمته، بهدف تحصيل الجاه من السلطة القادمة حماية لأموالهم وتنمية لتجارتهم، كما أنه لا يوجد ضمان باستعادة أموالهم من قبل هذه السلطة مستقبلا بحكم سلطة التغلب، واعتبر ذلك المال تقربا لأبي زكريا لأن صاحب الجاه مخدوم بهذه الأعمال "في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه"[4]، وحاجتهم لحمايتها والدفاع عن مصالحهم التجارية في إطار الصراع مع الدول الأخرى في البحر المتوسط، فقد تدخل السلطان أبي بكر سنة 714هـ/1314م عند الملك خاييم الثاني (690-727هـ/1291-1327م) بهدف إعادة سفينة تجارية لبجائيين كانت أسرت من بحارته، وتدخل الأمير البجائي أبي العباس سنة 769هـ/1367م عند حاكم بلنسية لأجل إطلاق سراح سبعة تجار بجائيين قبض عليهم[5]، مما يدل أن السلطة القائمة كانت تتدخل لحماية تجارها على المستوى الدولي بأسلوب دبلوماسي والتفاوض من مركز قوتها لحل المشاكل التي تقع لهم مع جيرانها، مما يبرز تبادل المصالح بين السلطة والتجار الكبار ببجاية لنكون في النهاية أمام نتيجة مفادها أن :

شرعية الملك + مال = أميرا لبجاية

مال + جاه = من التجار الكبار ذوي النفوذ

([1]) الوزان : **المصدر السابق**، ج2، ص50.

([2]) **العبر**، ج6، ص449.

([3]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([4]) "فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري أو حاجي أو كمالي" ابن خلدون : **المقدمة**، ص361.

([5]) بعيزيق : **المرجع السابق**، ص438.

ب- رجال السلطة تجارا وأصحاب ثروة :

ترابط الملك والمال وتكامل العلاقة بينهما، زيادة على أن تقلد ا لوظائف مجرد الانتهاء من تقلد الوظائف الكبرى للولاة والموظفين يؤدي إلى تقلص امتيازاتهم، هي الدواعي التي جعلتهم يدركون مدى أهمية استعمال سلطتهم وقوتهم في الحكم لأجل جمع الأموال وتنمية ثرواتهم، فجعلوا من ممارسة التجارة أسلوبا لتحقيق ذلك، مستغلين هذا النفوذ لتذليل الصعاب التي تقع لهم أثناء مباشرتهم لها أو بواسطة عملائهم وشركائهم بتسهيل المرور عبر الطرق البرية والبحرية وعدم دفعهم للمغارم.

رغم قلة المعلومات عن تجارة رجال السلطة ببجاية بحكم ما ينطوي عليه الموضوع من أخطار جعلت المصادر تتكتم عليه وطبيعة الكتابة التاريخية الموجهة، إلا أن بن خلدون أشار في معرض حديثه عن الحاجب ابن غمر أثناء ارتقائه في الوظائف أنه نجح في إبرام صفقة تجارية للأمير أبي زكريا بن أبي إسحاق بالأندلس بعد وفاة قهرمان قصره الحاج فضل الذي كان مشرفا على تجارته باستيراد الثياب والحرير منها وجلب الثياب من تونس[1]، وهو ما يؤكد أن هذه التجارة النفيسة لا يمارسها إلا الخاصة من الناس ورجال السلطة واحتكارهم لها، نظرا للفوائد المالية التي تدرها عليهم بسبب فقدانها في السوق البجائية وكثرة الطلب عليها.

كما أن تكليف ابن غمر بإتمام الصفقة التجارية لأبي زكريا بعد وفاة قهرمانه ونجاحه فيها وسرور الأمير بذلك وتقريبه لهذا الموظف بسبب ذلك وترقيته "فحلي بعينه وخفي عليه"[2]، دلالة على ضخامة الأموال العائدة من هذه الصفقة، فتجارة الولاة والسلاطين كانت أضخم من حيث التمويل والأرباح، خاصة وأن الوالي البجائي هو المسؤول الأول عن الجباية وجمع الضرائب ومداخيل البحر، وقد تدخل في ثرواته أموال الموظفين المغضوب عليهم والتي تصادر لصالحه ظنا منه أنها من صنع دولته أو ممن هم قبله "يرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها[3] وينتزعها منهم لنفسه شيئا فشيئا"[4].

الراجح من كلام ابن خلدون أن الحاج فضل كان المسؤول عن تجارة أميره وأنه اختص في هذه التجارة لمدة طويلة دون انقطاع لكثرة تردده على الأندلس إلى غاية وفاته[5]، ولعلمنا أن أبا زكريا اقترض من تجار بجاية المال لدخولها يبين ذلك إدراكه لأهمية المال والحاجة إليه مما يجعلنا نرجح أنه مباشرة بعد وصوله إلى الحكم وإعلانه الانفصال عن الحاضرة سنة 684هـ/1285م بدأ في ممارسته لهذه التجارة مستغلا نفوذه كأمير على الجهة الغربية لإنجاحها، في شكل شركة تجارية كبيرة بالنظر لوجود القائم بأعمالها الحاج فضل ومساعده ابن غمر والعمال

([1]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص464.

([2]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([3]) اصطلمها أي أبادها من أصلها، أنظر : ابن منظور : **لسان العرب**، مادة صلم، ج12، ص340.

([4]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص266.

([5]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

القائمين على أمر السفن التي تحمل هذه الثياب، علما أن قهرمان قصره كان أصلا تاجرا[1]، مما رشحه القيام على تجارة أميره بهدف تحصيل الجاه المطلوب منه.

الولاة البجائيون استغلوا إدارتهم للمدينة كبقية أفراد الأسرة الأميرية بالمدن الحفصية الأخرى بهدف جمع الثروة والحصول على الامتيازات في فترة ولايتهم على هذه الأقاليم قبل أن يعزلوا عنها أو تتوقف ولايتهم لأسباب، مستغلين مناصبهم كأمراء لخدمة مصالحهم التجارية، رغم الأضرار التي تنتج عن ممارسة رجال السلطة لهذا النشاط على التجار أنفسهم وعلى أهل البلد وعلى مداخيل بيت المال.

حذر ابن خلدون من النتائج السلبية الناتجة عن ممارسة السلطان للتجارة نتيجة امتناعه عن دفع الجباية مما يؤدي إلى قلة أموال الخزينة، وسيطرته على الأسواق فيضعف التجار الصغار في معاشهم وكسبهم[2]، وتنمو تجارته ويزيد استثماره بسبب امتناعه عن تسديد مستحقاته من الضرائب وتحكمه في الأسعار وبقاء السوق حكرا عليه "ليحصل على غرضه من جمع المال سريعا ولاسيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس فإنها أجدر بنمو الأموال وأسرع في تثميره"[3].

هذا النماء في الأموال نتيجة ممارسة التجارة جعل كبار الموظفين يسيرون في نفس الاتجاه مستغلين قوة نفوذهم وعلاقاتهم لبسط هيمنتهم، ففي بجاية مارس الحاجب ابن غمر التجارة لأميره أبي زكريا بالأندلس، ويبدو أن قوته وسيطرته على بجاية دون السلطان نفسه، جعله يبذل الجهد ليجمع الثروة ويحصل على المال بطرق متعددة فكانت التجارة إحدى تلك السبل، ونجح في جمع ثروة كبيرة أثناء توليه الحجابة ببجاية أكثر من خمسة عشرة سنة، وبأمر من السلطا لحفص محمد بن محمد بن سيد الناس سنة 719هـ/1319م باستخراجها وجمعها بعد وفاة ابن غمر وأرسلها إلى تونس "فاستوفى من ذلك فوق الكثرة من الصامت[4] والذخيرة"[5].

لعل خبرته بالتجارة التي باشرها لأميره ونجاحه في إبرام صفقات كثيرة في الثياب و الحرير جعلته يستمر في هذا النوع بعد أن صار كل شيء ببجاية في خدمته وتحت إشرافه، ليصبح الأقل جاها ممن هم تحته خدامه بهدف التقرب منه تحصيلا لرضاه ورعايته وحظوته و خوفا من بطشه حفاظا على أرواحهم.

ومن المرجح أن قادة البحر ورؤساء دواوينه مارسوا التجارة أمثال زيد بن فرحون ومحمد بن أبي مهدي لخبرتهم في ميدان البحر وغزوهم لسواحل المدن الأوربية مع كثرة السبي والغنائم التي كانوا يجلبونها وتحكمهم في الحركة التجارية لميناء بجاية واستغلالهم لنفوذهم وجاههم لتحسين أوضاعهم المادية.

([1]) بعيزيق : **المرجع السابق**، ص397.

([2]) **المقدمة**، ص264.

([3]) **المصدر نفسه**، ص265.

([4]) الصامت : هو العين والورق وسائر المصوغ منه، أنظر : الدمشقي : **المصدر السابق**، ص13.

الصمت : الذهب والفضة، ابن منظور : **لسان العرب**، مادة صأي، ج14، ص449.

([5]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص458.

استغل رجال السلطة مراكزهم ونفوذهم لممارسة التجارة واكتساب الثروة والحصول على امتيازات الحكم لأجل تسهيل أنشطتهم الاقتصادية، وقد سمحت طبيعة بجاية البحرية واتساع سوقها التجارية في ممارسة تجارة الثياب والحرير على نطاق كبير، كما كان غزو البحر يدر الأموال المحصل عليها كغنائم أو من جراء افتداء الأسرى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الخامس

تبلـــور المعـــــارضـــة الحـــضـــرية

أولا :

التيار الصوفي والمعارضة الصامتة للسلطة

ثانيا :

نخبة المجتمع الريفي يحاولون كسر شوكة السلطة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : المتصوفة و المعارضة الصامتة للسلطة

حاولت لإبراز العلاقة بين المتصوفة والسلطة الحفصية ببجاية أن أحيد عن أسلوب الشمولية في اتخاذ وتحديد هذه العلاقة، متجنبا أخذ عينات لمحاولة فهم تلك العلاقة، لأني أراها قاصرة تخص الجزء دون الكل، لهذا ركزت على دراسة كل المتصوفة البجائيين الذين ترجمت لهم كتب الطبقات والتراجم واحدا بواحد محاولة للوصول إلى تحديد نوع العلاقة التي ربطتهم بالسلطة الحفصية، متخذا من المعطيات الإحصائية المستخرجة من النصوص الطريقة الأنسب لتسهيل العمل وتحويل الأرقام بناء على المعطيات التاريخية إلى قراءات يمكننا منها استنباط الكثير من الأحكام القابلة للتمحيص والدراسة كما يبرزه الجدول التالي :

العدد الإجمالي 33 شخصية موزعين كالآتي:	أصولهم الجغرافية				لهم كرامات	الخطط والوظائف المتقلدة	لم يتشغلوا خططا	التدريس الحر
ق7هـ =27 ق8هـ =5 ق9هـ =1	المغرب الأوسط 17	الأندلس 9	المغرب الأقصى 2	تونس 1	17	الإدارية : 2 الدينية :4	27 دون وظيفة	22 صوفي

الجدول : معطيات إحصائية عن متصوفة بجاية

تمكنت مني التعرف على ثلاث وثلاثين شخصية صوفية ببجاية، توزعت كما يبينه الجدول على القرون الثلاثة بشكل غير منتظم، غالبيتهم من القرن 7هـ/13م بسبعة وعشرون شخصية، ويعود هذا البون الشاسع بين القرون لاعتبارين إثنين :

أحدهما أن الفضل يعود إلى الغبريني الذي ترجم لغالبية المتصوفة إن لم نقل كلهم في القرن 7هـ/13م والذين عاصر أكثرهم وقرأ على بعضهم، وترجم لحياتهم وكراماتهم وأورد نصوصا قيمة كشفت لنا الكثير من تاريخهم ببجاية ساعدنا في فهم علاقتهم بالسلطة الحفصية، والسبب الثاني يعود إلى كثرة الصوفية القادمين إلى بجاية من المغرب الأوسط أومن الأندلس لاعتبارات سياسية واقتصادية وحتى روحية، والتدفق نحو مدينة أبي مدين الغوث وعبد الحق الاشبيلي وأبي زكريا الزواوي أقطاب التصوف في القرن 6هـ 12م ببجاية تبركا وقداسة وإقامة وبروز تلاميذ الحرالي والسجلماسي بهذه المدينة.

الدراسات السابقة عن التصوف والصوفية ببجاية درست بعضها العلاقة بين هذه الشريحة من المجتمع البجائي بسلطته إلى حدود القرن 7هـ/13م في معرض الحديث عن التصوف في المغرب الأوسط ككل[1]، أو في تلمسان الزيانية بصفة خاصة[2]. ومن خلال الدراسة الإحصائية حاولت الإجابة عن إشكاليات تخص الموضوع لمعرفة طبيعة

([1]) كما فعل الطاهر بونابي في دراسته : **التصوف في الجزائر**، ص205-209.

([2]) بعض الإشارات عن صوفية بجاية عند : آمال لدرع : **المرجع السابق**، ص60.

العلاقة بين تيار المتصوفة والسلطة الحفصية ببجاية في الفترة المدروسة، فهل استطاعت هذه السلطة أن تحتوي هذا التيار وتجعله في خدمة مصالحها؟ وما هي الوسائل التي اتخذتها لأجل جلب متصوفة بجاية إلى صفها؟ هل أثرت الظروف المتعددة في صناعة موقف الصوفية تجاه الحكم الحفصي؟ ما هي أشكال ومظاهر الرفض التي أبداها المتصوفة تجاه البلاط البجائي؟

1- محاولات التقريب والاحتواء :

كثيرا ما ربطت محاولات تقريب المتصوفة من الأنظمة القائمة ببلاد المغرب الأوسط بشخصية السلاطين من حيث زهدهم وورعهم واعتقادهم في المتصوفة[1]، كما فسر البعض الآخر تقدير السلطة لهم وخدمتهم بدعوى أنهم لم يعارضوها سياسيا، واهتموا الروحي بالإنسان وكيفية تقوية إيمان المسلم بعيدا عن متاهات السياسة، فكافأتهم السلطة على ذلك خاصة وأنهم فئة واسعة يكن لها المجتمع الاحترام والتبجيل وحتى التقديس[2].

إلا أن هذه القراءات الهادفة لمعرفة العلاقة بين المتصوفة والسلطة بهذه الطريقة تحتاج إلى كثير من التمحيص والتدقيق، لأن غياب الاحتكاك والمواجهة المباشرة بين الطرفين لا يعني دوما قدرة السلطة في السيطرة على الصوفية ولا يفهم منها استطاعتها على ترويضهم والسير على نهجها بل بالعكس، فمن خلال الجدول الإحصائي يتبين لنا أن من ثلاث وثلاثين صوفيا لم يتقلد تسعة وعشرون منهم أي وظيفة دينية أو إدارية لدى السلطة الحفصية ، و لم يقبل بهذه الوظائف سوى ستة شخصيات، هذه المناصب لم تكن لها علاقة بالسلطة بشكل مباشر، رغم جهودها في جلبهم إلى صفها والسعي لإرضائهم بهذه المناصب، خاصة على عهد السلطانين أبي زكريا ثم ابنه المستنصر اللذين كانا يمثلان ذروة التدين والتقشف والزهد مقارنة ببقية سلاطين بني حفص، وكذلك عرف عن الأمير البجائي أبي يحيي زكريا (633-646هـ/1236-1248م) الذي سار على خطى والده أبي زكريا خلقا وسياسة وتعاملا مع المتصوفة بتقريبهم والتودد لهم بشكل قل نظيره عند الولاة الذين تعاقبوا على بجاية.

إحصائيات المتصوفة التي نحاول منها معرفة علاقتهم بالسلطة تبرز بشكل واضح أن محاولات الاحتواء التي انتهجها ولاة بجاية والموظفين الكبار لم تجد نفعا، فمن أربعة عشرة عرض على صوفية المدينة لتقلد مختلف الوظائف خاصة القضاء أو طلب زيارتهم أو لقائهم أو قضاء حوائجهم لم تنجح السلطة إلا في خمس مرات فقط، هذا النجاح لا يعني الولوج الكلي في قصر القصبة، بقدر ما كان قبولا بهدايا مقدمة من طرف السلطان أو بزيارته لبعض الفقهاء الصوفيين أدبا معه كولي للأمر، كما جرى مع الشيخ علي بن أبي نصر (ت 652هـ/1254م) الذي كان السلطان المستنصر يزوره في بيته ببجاية طالبا دعواته ونيلا لبركاته، مقدما له بعض العطايا والحاجات كرما منه "ويتلقى باليد والقبول حاجته"[3].

([1]) أنظر مثالا عن ذلك تقريب سلاطين بني زيان لصوفية تلمسان وتبجيلهم واحترامهم عند : عبد العزيز فيلالي : **تلمسان في العهد الزياني**، ج2، ص389، وكذلك : الطاهر بونابي : **المرجع السابق**، ص202-204، وأيضا : آمال لدرع : **المرجع السابق**، ص268-271.

([2]) أنظر هذا التفسير عند : بعيزيق : **المرجع السابق**، ص431.

([3]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص142.

حاول سلاطين بني حفص معرفة المستوى المعرفي والمقدرة العلمية لمتصوفة بجاية بالمناظرة والمحاورة مع فقهاء الحاضرة، لأجل ذلك بعث السلطان أبي زكريا يحي ا لعبل حمد ا لمتيي بد المتوسي (ت 644هـ/1246م) بالحضور إلى مجلسه وقد أبان عن تمكنه وتفوقه على فقهاء تونس، فلم يتكلم عند خوضهم الحديث في المبادئ التي لا تظهر علم صاحبها فأجله الحضور وفي مقدمتهم السلطان وخرج منتصرا من هذا الامتحان[1].

لا يمكننا أن نستدل بهاتين الحالتين على أنهما أيدا السلطة الحفصية بقدر ما نعده تقديرا لشخصية الفقيهين أبي نصر والمتوسي كما ترجم لهما الغبريني على أنهما كانا على علم ووجاهة وديانة واجتهاد، فسلطتهما العلمية ببجاية سبقت تصوفهما، ويفسر هذا السعي الحثيث من نظام الحكم ببجاية لجلب المتصوفة إلى صفه لما كان يتمتع به هؤلاء من حب الناس لهم وتقديرهم واحترامهم[2]، والاعتقاد في ولايتهم وقداستهم، محاولة منهم لاستثمار هذا الولاء لصالحها لكسب مصداقيتها عند العامة بتلبية طلبات شيوخ التصوف وزيارتهم والتواصل معهم ودمجهم في المنظومة الإدارية والدينية التابعة للبلاط.

الانتصار لهم في مواقف كثيرة ولو على حساب الفقهاء، شكلا من أشكال الولاء والرضا عنهم، فقد وقف السلطان المستنصر قي صف الصوفي أبي عبد الله محمد بن علي القصري (ق7هـ/13م) على حساب قاضي بجاية، حيث عزل من وظيفته لسوء تعامله مع القصري[3]، وتظهر هذه الصورة محاولة السلطة المركزية التدخل لصالح متصوفة بجاية ولو كان على حساب شخصية مرموقة إداريا ودينيا كالقاضي.

نجحت السلطة في كسب القلة منهم وتأييدهم لسياستها بمباركتهم لخطتها والدعوة لها بمنظور كرامي، إلا أن صور الولاء قليلة ونادرة مقارنة بمظاهر الرفض، على شاكلة الصوفي أبي عبد الله الشريف (ت 666هـ/1267م) الذي كان تاجرا للصوف ببجاية، وإذا سلمنا بدلالات تأويل رؤيته التي رواها الغبريني وتفكيك رمزيتها السياسية التي رأي البعض أنها تأخذا أبعادا وإيحاءات باطنية[4]، والتي رأى فيها أن القيامة قامت فوجد أن لبعض تجار السوق الذي يعمل معهم حسنات في موازينهم في حين لم يكن في ميزانه شيئا، ففسرها تلميذ أبي الحسن الشاذلي بأن هؤلاء كانوا يدفعون المكوس ومغارم تجارتهم للسلطة البجائية في حين أعفي منها لنسبه الشريف وعلمه ووجاهته[5]، ليقرر أداء ما عليه من الضرائب المستحقة[6]، وهي دعوة إلى شرعية المكوس والجباية المفروضة على

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص172.

([2]) ابن صعد : **المصدر السابق**، ص15.

([3]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص170-171.

([4]) أنظر في ذلك : مقدمة تحقيق كتاب : التميمي : **المستفاد في مناقب العباد**، ص161.

- كما أن الكرامة السياسية تأخذ في رمزيتها معارضة السلاطين والحكام فإنها تتجه نحو إبداء النصيحة لهم، أنظر عن ذلك : بوتشيش : **تاريخ الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، بيروت، 1994، ص115-116.

([5]) ويفسر هذا التقدير بمنطق العقلية الدينية لحضور ما يسميه أحد الباحثين الهم الإسكاتولوجي أو الآخروي للحكم على الناس في الدنيا، أنظر : نللي سلامة العامري : **المرجع السابق**، ص415.

([6]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص178.

البجائيين والتي عارضها الفقهاء والصوفية أنفسهم لعدم توافقها مع الشريعة الإسلامية وبطلانها[1]، فشجع هذا الموقف السلطة بالاستمرار في فرض هذه المكوس على أهل بجاية، وربما كانت هذه الخدمة المقدمة للنظام الحفصي من أحد أقطاب التصوف ببجاية إضافة إلى علمه ونسبه الشريف بخطابه المنقبي ذي البعد الروحي والمبطن بهالة القدسية للشيخ سببا في تعيينه من السلطان المستنصر إماما بمسجد الهوا ومدرسا بالمدرسة التوفيقية بشكل رسمي[2]، القلة منهم قبلوا بالوظيفة مما يعبر عن سياسة الرفض والابتعاد عن كل ما يمت إلى السلطة بصلة، والجدول التالي يبرز الفقهاء الصوفيين الذين شغلوا بعض المناصب :

الشخصية الصوفية	الوظيفة	أخلاق وصفات المتصوف	المصادر
أبو النجم هلال الغبريني (ق7هـ/13م)	الإمامة	منقطعا عن الناس، يعيش من مستغلات أرضه.	الغبريني، ص169.
عبد الحق بن الربيع (ت675هـ/1276م)	العدالة، نيابة القضاء	كان إذا أولى المعروف لا يذكره وربما من فعله لا يعلم أنه هو الفاعل له.	الغبريني، ص86-90.
أبو محمد عبد الله بن عبادة (ت669هـ1270م)	مشاورا شاهدا بالديوان	- اعتزل عن العمل في الديوان - مات على انقطاع الدنيا وتخل عنها واشتغال بنفسه.	الغبريني، ص93.
محمد بن عمر المليكشي (ت740هـ/1339م)	الكتابة	اعتقل بقصبة بجاية.	ابن الخطيب، ج2،ص563.
أحمد بن إدريس الإيلولي (ت بعد 760هـ/1358م	الفتيا	جمع بين العلم الغزير والدين المتين، كان كثير الصوم والصدقة، كثير التواضع، عالم زاهد ورع.	ابن فرحون، ص138. التنبكتي، ص99.
عبد الرحمن الوغليسي (ت 786هـ/1384م)	الإمامة، الخطابة، الفتيا	الفقيه العالم الصالح.	ابن قنفد : الوفيات، ص 123.

الجدول : الوظائف التي شغلها المتصوفة البجائيين

يبين الجدول أن خمسة لديهم الدينية، التي لا تعني دوما خدمة السلطة فأحمد بن إدريس البجائي (ت بعد 760هـ/1358م) وتلميذه عبد الرحمن الوغليسي (ت 786هـ/1384م) شيخ الجماعة ببجاية[3]

([1]) بونابي : **المرجع السابق**، ص209.

([2]) ألفرد بال : **المرجع السابق**، ص304-305.

([3]) ابن مخلوف : **المرجع السابق**، ص237.

تحررا من فكر الوظيفة الخادمة إلى نشر العلم والإفتاء بحرية تامة دون أخذ الإذن من السلطة باعتبار الشعبية التي حظيا بها من البجائيين لتتحقق استقلاليتهم وتحررهم من قيود السلطة، وهو السبب الذي نفسر به ارتفاع عدد المدرسين من الصوفية لأنهم كانوا يزاولون تدريس التصوف خصوصا والتركيز على الرقائق والابتداء بها[1]، وقد دَرَس الغبريني على ثلة منهم علم التصوف والفقه وعلوم أخرى وذكرهم في برنامج مشيخته[2]، كما أن التدريس يتم أغلبه في الزوايا والمساجد المحسوبة على تبعيتها لمتصوفي بجاية انشاءً وتعليما وحتى تموينا كزاوية ومسجد أبي زكريا الزواوي ومسجد المرجاني والنطاعين وغيرها.

أخذت الوظيفة عندهم صبغة الاستقلالية المالية، فالصوفي الفقيه أبي النجم هلال الغبريني رغم أنه ناب عن الإمامة بالمسجد الأعظم إلا أنه كان لا يعول على السلطة ماليا، بل كان يعيش من أرضه، ويتصدق بأغلبيه ما يعود عليه من أجر الإمامة وعطاء أرضه، زاهدا في الدنيا ملتمسا بركة أجر الصدقة وفعل الخير[3].

رغم تقلد ابن عبادة (ت 669هـ/1270م) الرئاسة والشهادة في ديوان البحر إلا أنه اعتزل الوظيفة بعيدا عن السلطة ومجانبتها، ويعد هذا الفعل عند الصوفية توبة وتطليق للدنيا وملذاتها والإقبال على الآخرة بنشر العلم والتدريس وإلا صنف مع فقهاء الدنيا الباحثين برأي المتصوفة عن شهواتها بقبولهم عروض السلاطين وكثرة التردد على مجالسهم ليفسدوا دينهم بدنياهم[4]. الوظيفة الإدارية التي تقرب بها صاحبها إلى الأمير البجائي ونال الرضا منه، كانت الكتابة بديوان الإنشاء في شخص الصوفي محمد بن عمر المليكشي (ت 740هـ/1339م) الذي خدم السلطة من وظيفته فأكرم بالجاه وأغدق عليه بالمال[5]، تقديرا لجهود صوفي متميز في أداء دور قل نظيره بين أصحابه البجائيين.

تولي الصوفية إذا للوظائف لا يعني دوما السير في تيار السلطة والمشاركة معها في إدارة شؤونها والدفاع عنها بقدر ما عبر في أحيان كثيرة عن المعارضة من داخل جهاز الحكم نفسه وإن كانت ضمنية أو بطريقة مباشرة كرفض العطايا والاستقالة من الوظائف. السلطة البجائية ليست وحدها التي داهنت التيار الصوفي لاحتوائه، بل حتى المرينيين الذين احتلوا بجاية حاولوا أخذ الصبغة الشرعية لهذا الاجتياح من متصوفة بجاية وأوليائها، بالتقرب منهم وزيارة قبورهم والتبرك بهم إما اعتقادا في كارزماتية الولي والشيخ[6]، بقدرته على قضاء الحوائج بقوة سحرية وأداء بطولي متميز لا يقدر عليه غيره[7]، أو كسبا للعامة وخطبا لودهم خاصة المريدين أتباعهم وهم كثر ببجاية،

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص93.

- تركيزا على رسالة القشيري (ت 465هـ/1072م)، وكان الصوفي أبو عبد الله القصري من المتأثرين بها، عالما بمعانيها مدركا لمبانيها، **المصدر نفسه**، ص 170، وكذلك ما كتبه : عمار طالبي : **المرجع السابق**، ص161.

([2]) **برنامج الغبريني**، ص309.

([3]) الغبريني : **عنوان الدراية**، ص170.

([4]) **المصدر نفسه**، ص95.

([5]) ابن الخطيب : **الإحاطة**، ج2، ص563.

([6]) عبد العزيز فيلالي : «**الزاوية الملارية**»، ص38.

([7]) نللي سلامة العامري : **المرجع السابق**، ص299.

تلك الأسباب كانت وراء زيارة المجاملة التي قام بها السلطان المريني أبي عنان لما دخل بجاية سنة 758هـ/ 1356م زكر الصوفي أبي زكريا يحي الزواوي (ت611هـ/1214م) وأدائه لصلاة العصر في مسجده[1] من باب نيل بركة هذا الصوفي وقدسية مقامه عند البجائيين. طالب السلطان نفسه لقاء الولي أبي عبد الله محمد بن موسى اليجري[2]، نيلا لبركته ودعائه المستجاب وسؤاله عن والده أبي الحسن لأنه كان يخبر عن أحوال الموتى، ولبى دعوة السلطان والتقى به مكرما معززا بعد أن " أظهر السمع والطاعة لمقامه الفخم"[3]، ولعل طلب لقائه والسعي لنيل رضا هذا الولي لما عرف بصدق أخباره عن الغيب، فقد حذر والده من قبل السلطان أبي الحسن لما دخل بجاية سنة 748هـ/ 1347م من ملاقاة القبائل العربية في القيروان لكنه لم يسمع لنصيحته فهزم أمامها[4]، رغم أن بعض المتصوفة تقلدوا الوظائف وأدوا نزر قليل من الخدمة للسلطة ببجاية، إلا أن عددهم يبقى قليلا جدا بالمقارنة مع جهود أمراء بجاية وموظفي السلطة الكبار في تبجيلهم وتقريبهم ووصلهم بالعطايا ومجالستهم، متخذين من أسلوب الوظيفة الحرة البعيدة عن الميول السياسية والمتجردة من الحسابات المذهبية والصراعات الفئوية والجغرافية هدفهم الوحيد.

اضطرت السلطة العودة إليهم لحل مشاكلها السياسية فكان بعضهم وسيطا لها عند المعارضة العسكرية ذات التوجه السياسي التي أبدتها بعض الأطراف الفاعلة في بجاية، خاصة الذين عرفوا بزهدهم وتقواهم فعدهم السلاطين والأمراء الحفصيين رموزا للبركة والدعاء والتقديس، وكانت مكانتهم الإجتماعية وشعبيتهم سببا في هذا التبجيل فنالوا الإجماع من الخاصة والعامة، ويعد الصوفي والولي يوسف بن يعقوب الملاري (ت764هـ/1362م واحد من الذين حصلوا على هذه المكانة فكان أمير قسنطينة والسلطان فيما بعد أبي يحيي أبي بكر لا يرد له طلبا[5]، كذلك كان يفعل أبي العباس ويسعى في قضاء حوائجه، وعبر حفيده ابن قنفذ عن ذلك بالقول" ووضع الله له القبول عند الأمراء الراشدين ...وعند ولاتهم في قضاء الحاجات وقبول الشفاعات"[6]، فهو صوت الضعفاء والعامة عند السلطة مفرجا عن كربهم ومصائبهم ساعيا في حل مشاكلهم "فكان يدخل بذلك على المكروبين المسرات"[7]، وتعدت أعماله إلى حد إطلاق سراح بعض المساجين[8]، هذه الثقة وذلك الإكبار استغلته السلطة لتحقيق بعض مآربها السياسية، فكان رسول السلطان الحفصي أبي يحيي أبي بكر للوساطة مع السلطان الحفصي أبي حمو موسى الثاني

([1]) ابن الحاج النميري : **المصدر السابق**، ص267.

([2]) من بني يجر وهي تابعة لقبيلة زواوة، ابن الحاج النميري : **المصدر السابق**، ص254.

([3]) **المصدر نفسه**، ص254.

([4]) يحيي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج1، ص467.

([5]) ابن قنفد : **الفارسية**، ص164.

([6]) **أنس الفقير**، ص 83.

([7]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([8]) ابن قنفد : **المصدر السابق**، ص83-84.

(حكم 707-718هـ/1307-1318م) بعد أن استشار الفقيه ناصر الدين المشدالي في الأمر[1]، ووفق في الصلح بينهما وإحلال السلام بين الدولتين لعشر سنوات[2].

استعان به أبي يحيى لما كان أميرا على قسنطينة في حربه ضد زعيم صنهاجة المزوار ابن خلوف الذي عهد له أبي البقاء خالد بحكم بجاية سنة 709هـ/ 1309م بهذا الصوفي بعد أن استصعب عليه الحل العسكري والمواجهة المباشرة واقتناعه بفشل صد جيش القبائل التي التفت حول قائد بجاية، ولعلم صاحب قسنطينة بقدرة هذا الشيخ على إقناع ابن خلوف الذي شمر لحربها فقد أرسله وسيطا للتفاوض معه ومحاولة إرضائه بالتي هي أحسن، فوصل الصوفي بجاية رفقة أحد شيوخ الذواوذة[3]، ونجحا في إقناعه على وقف الحرب وتحقيق وعد أبي يحيى بالعفو عنه وحجابته وسار ابن خلوف مع الملاري إلى قسنطينة لإبرام الصلح مع صاحبها الذي خرج لملاقاته بفرجيوة التي كانت نهاية ابن خلوف المؤلمة بها على يد رجال الأمير القسنطيني الذي أمر بتصفيته سنة 712هـ/ 1312م دون شفقة ولا رحمة[4].

يفهم من هذه الوساطة الناجحة من جهة والفاشلة من الطرف الأخر بعد أن أخلف أبي يحيى الوعد الذي قطعه مع ا لذين تعبوا لها في إثارة الشاكل وأن السيف أطلق مارة المشاكل وأن السيف أصدق أمانة من الكلمة، وتسكت المصادر عن ردود فعل الملاري جراء إخلاف الأمير لعهد الأمان الذي أعطاه لابن خلوف ومصير وساطته، و لم يورد حفيده ابن قنفد شيئا عن هذا الأمر، فهل كان هذا الصوفي متواطئا مع أميره ضد شيخ صنهاجة لما أثارته هذه الحرب من سفك للدماء؟

2- المعارضة الصامتة :

الغالبية من شيوخ التصوف البجائيين لم ينساقوا في صفوف السلطة وحاولوا الابتعاد عن كل ما يمت إليها من علاقة وصلة، خوفا من نجاحها في احتوائهم وضياع سمعتهم بين الناس، أو مخافة وقوع المواجهة المكشوفة التي لا يحبذها المتصوفة عموما، شكلوا نوعا من المعارضة الصامتة، لأنها لم تصل إلى حد الصدام بين الطرفين وتميزت بالتعايش الهادئ، مفضلين رد كل أصناف الإغراءات التي قدمت لهم، وقد تعددت مظاهر الرفض التي أبدوها حيال السلطة الحفصية ببجاية كما يبرزه الجدول :

العدد الإجمالي	لم تكن لهم خططا	أشكال ومظاهر الرفض المختلفة				
33 متصوفا	27 متصوفا	رفض زيارة السلاطين والولاة	رفض الوظائف	رفض العطاء والأجر	الاستقالة من الوظيفة	الاعتقال

(1) ابن قنفد : **المصدر السابق**، ص95.

(2) عبد العزيز فيلالي : **الزاوية الملارية**، ص39.

(3) سبق وأن أشرت إليه في البحث وهو الشيخ عثمان بن شبل بن عثمان بن سباع، أنظره : ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص474.

(4) جره بعض موالي الأمير إلى معاقرتهم الخمر في أحد أروقة إقامته ثم طعنوه بعدة طعنات بالخناجر، ثم قبضوا على أهله وحاشيته وأهل قبيلته، يراجع : **المصدر نفسه**، ج6، ص474.

		3 مـــرات مـــن أربعة	5 من 7	2 من 3	1	1

الجدول : مظاهر وأشكال تحاشي الصوفية للسلطة

يبين الجدول صور متنوعة تبرز تحاشي الصوفية للسلطة والابتعاد عنها، ولعل الأرقام قد تبدو قليلة لكن بالنظر إلى العروض المقدمة فإن سلبية الردود الموجهة للنظام السياسي القائم شكلت الأغلبية، كما أن الذين لم يشغلوا أي خطة إدارية أو دينية عددهم كان مرتفعا (27)، زهد خمسة متصوفة من أصل سبعة في هذه المناصب التي أغـــرت الكثيرين والتي تسابق عليها الأندلسيون وشيوخ الموحدين وردها المتصوفة وامتنعوا عن الدخول في الصراع الـــذي كان يحدث داخل البلاط البجائي، فقد امتنع الفقيه الصوفي عبد الحق بن ربيع (ت 675هـــ/1276م) تولي قـــضاء بجاية الذي اقترحه عليه الوالي البجائي، كما أنه رد طلب السلطان المستنصر الحفصي بقضاء قـــسنطينة بتلطـــف ووقار دون أن يجبر على ذلك أو يعنفه عن جوابه، وزاد في نظر الناس همة وارتفع منزلة[1].

نفس الشأن للصوفي أحمد بن عجلان (ت 675هـــ/1276م) الذي رفض عرض المستنصر كذلك بقضاء تونس لعلو شأنه وعلمه وذياع صيته ببجاية، ومحاولة السلطة المركزية استقطاب أحد أعمدة وشيوخ التصوف ببجاية في القرن7هـــ/13م، كما رفض طلب نفس السلطان الذي بعث له بالحضور لتونس لملاقاته والجلوس إليه، ثم عـــاود الكرة بأن يأتيه المستنصر نفسه إلى بيته ببجاية للقائه والدعاء له فأبى ذلك متحججا بأنه لا يصلح للقاء الـــسلاطين وأنه لا يعرف كيف يقابلهم ويتحدث إليهم[2]، وهي صورة جلية لإصرار الفقيه على عدم مجالسته للأمراء وزهـــده بـ برؤيتهم فما بالك العمل في أجهزتهم. ووصل الحد بأبي عبد الله محمد الـــسجلماسي (ق7هـــــ/13م) أن لا يقوى حتى إلى النظر إلى ممثلي السلطة الحفصية ببجاية ولا يسمح لنفسه حتى بالتفكير فيهم وفي مُلكهم[3]، تعـــبيرا عن البون الشاسع الذي كان بين المتصوفة والنظام السياسي الحفصي.

برز هذا الموقف الحاد بالامتناع عن الولوج في السلطة داخل التيار الصوفي الذي لم يكن مهيكلا ظاهريا إلا أنه مواقفه الموحدة تبرز توافق أفكاره ورؤاه بشكل كبير في الدولة الحفصية، وعلل الصوفي عبـــد الله بـــن شـــعيب (ق7هـــ/13م) الذي كان رفض منصب قضاء تونس، بأن السلاطين والولاة لا يحبذون تطبيق الأحكام الـــشرعية ويحيدون عنها وأن أمثاله لا يصلحون لمثل هؤلاء، وقبل بمنصب المحتسب لكنه عزل عنه[4]، واتخذ بعض المتـــصوفة

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص88.

([2]) **المصدر نفسه**، ص116.

– رغم أننا نشك في صحة الكثير من كرامات وخروقات الصوفية، التي كانت ربما من نتاج خيال كتابها لتبرير قدرة تلك الفئـــة، خاصـــة الذين كانوا يؤمنون بها على شاكلة الغبريني.

([3]) **المصدر نفسه**، ص133.

([4]) **المصدر السابق**، ص173-174، وكذلك : آمال لدرع : **المرجع السابق**، ص60.

سياسة رد كل ما يقترح من الولاة البجائيين من الخطط كلية، حفاظا على المكانة التي حظوا بها عند الناس جـــراء علمهم وأخلاقهم وزهدهم[1].

البعض منهم تراجع عن عمله واستقال من الوظائف، وهي بمنظور الفكر الصوفي توبة، لأنها مظهر من مظاهر الجري وراء ملذات الدنيا، وتتناقض وحياة الزهد والتقشف التي تميزهم عن الفقهاء برأيهم، ولدينا حسب الجدول حالة واحدة، في شخص الفقيه الصوفي أبو محمد عبد الله بن عبادة (ت 669هـ/1270م) الذي استقال من ديوان البحر الذي كان به شاهدا ومشاورا حسب الجدول ، رغم الكسب المادي الذي كان يجنيه من وظيفته مفـــضلا التدريس على الوظيفة السلطانية، معرضا عن الدنيا مقبلا على أفعال الآخرة بقوله "حديث بدينار أشـــرف مـــن دينار"[2]، كما عرف عنه انقطاعه عن الدنيا واشتغاله بالآخرة، ويبرز ذلك أن المتصوف دائم التفكـــر في أخطائـــه والتراجع عنها بالتوبة إلى الله بتطليق الدنيا والزهد فيها والمبادرة إلى أفعال الخير لتقبل عودته إلى عالم التـــصوف، وسلك طريق التقشف لجلب محبة وتقدير العامة والتوسل إليهم لحل معضلاتهم[3]، ونلمس فيها فكرة تجديد الإيمان لأنه يبلى كما يبلى الثوب، والعودة إلى الله بترك كل ما له صلة بالحياة الزائلة كالوظيفة و المال وغيره.

هذا الانقباض عن السلطة الذي شكل ذروته في القرن 7هـ/13م، لم ينحصر في المناصب بل امتد إلى رفـــض عطايا وهدايا وأموال السلطة، مفضلين التقشف والزهد عن ما تدره عليهم، فقد رد الصوفي أبي زكريا يحيي بـــن محجوبة (ت 677هـ/1278م) عرض الأمير البجائي أبي يحيي زكريا بأن يخصص له مرتبا شهريا دائما من الديوان، مفضلا ديوان الآخرة عن ديوان الدنيا بقوله "إن اسمي في ديوان الوجود المطلق فلا أجعله في الـــديوان المقيـــد"[4]، ويقصد بالمقيد الدنيا المحدودة بأجل قصير أما المطلق فهي الآخرة الأبدية التي يؤجر فيها بزهده في المحـــدود، طلبـــا للحصول على المطلق الذي لا يتحقق بنظر الصوفية إلا بترك كل ماله صلة بالدنيا . ورفض الـــشيخ أبي زكريـــا المرجاني (ق 7هـ/13م) المؤونة التي بعثها له السلطان المستنصر زاهدا فيها مقتنعا بما أعطاه الله في قوله"ي ما ما عند الجواد"[5].

كما أن متصوفة بجاية لم ينحازوا إلى بعض المواقف التي اتخذها الفقهاء وقالوا بجوازها رغم علمهم برأي الفقه فيها، ربما كان السبب مخافة الوقوع في الزلل أو الشبهة بنظر الصوفي الفقيه ابن عجلان الذي استدعي إلى مجلـــس السلطان المستنصر مع ثلة من الفقهاء الكبار للشهادة على الصلح الذي عقده السلطان مـــع المارســـيليين ســـنة 669هـ/1270م، فتماطل في إبداء رأيه في الصلح رغم أن الفقهاء قالوا له أنه صلاح وخير فأبطئ في الرد حـــتى

([1]) أمثال أبو الحسن علي الشهير بالزيات (ق 7هـــ/13م) الذي عرف عنه قطعه لأي صلة بمن هم في السلطة، رغم أنه كان قادرا على طلب أيا من الوظائف وأخذ الموافقة الفورية حتى من السلطان، متفرغا للتبحر في الفقه المالكي الذي كان متضلعا فيه، ورتبه الغبريني بعـــد ابن عجلان في علمه وتدينه، أنظر : **الغبريني**، ص179.

([2]) **المصدر نفسه**، ص93.

([3]) بوتشيش : **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص137.

([4]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص120.

([5]) ورفض هذا الصوفي تفسير بعض الكرامات التي وقعت له ببجاية، عندما وصل خبرها إلى المستنصر الذي بعث بـــوزيره مـــن تـــونس للمرجاني ببجاية ليسأله عن تأويلها، فرد عليه بأنها بين العبد وربه، أنظر : **المصدر نفسه**، ص165.

أمر السلطان المجلس بالانصراف، وقد سُر بعدم شهادته على ذلك الصلح "فانفصل و لم يشهد وحمد في جوابه ومقاله"[1]، فهو لم يرد أن يعطي رأيه في الأمر تحريا ومخافة أن يستغل لأهداف ومطالب أخرى من السلطة الحفصية، أو يفسر تفسيرا يخدم مصالحها.

هذه التقاليد لصوفية بجاية لم تبق حكرا على نطاق التعامل مع الحفصيين بل عرف هؤلاء المتصوفة أينما حلوا طلبا للعلم أو التجارة أو في رحلاتهم للحج وحيثما استقروا بنفس المواقف تجاه الملوك والسلاطين قناعة بصحة ما يفعلونه وأنه الأصوب والأحق لدينهم، على شاكلة الشيخ أبو علي حسن الوجهاني (ت بعد690هـ/1291م) الذي ارتحل إلى الحج في حدود 660هـ/1261م، استقر بمصر وعرف فيها واشتهر بزهده وتقواه ووصلت أخباره للسلاطين الأيوبيين فحاولوا أن يزوروه ويطلبوا دعائه وينالون بركته إلا أنه رفض مقابلتهم معرضا عن جاههم، وصل بهم الحد إلى أن رغبوا في حمله فوق رؤوسهم وهم ملوك مصر وهو ممتنع عنهم "قصدا للخلاص والسلامة"[2]، لأن الموافقة على طلبهم من شهوات النفس وملذات الدنيا وقد يولد له الكبر والغرور وحب الدنيا والركون إليها برأي الصوفية.

حالة واحدة حسب الجدول وصلت إلى حد التوتر والصدام رغم الخدمات والولاء المقدم من الصوفي محمد بن عمر المليكشي (ت 740هـ/1339م) الذي اشتغل كاتبا بديوان الإنشاء ولقي الحظوة إلا أنه اعتقل بقصبة بجاية من الحاجب محمد بن سيد الناس (720-728هـ/1320-1327م)، ومن ترجمته لا يظهر أن الاعتقال سببه مواقف سياسية معادية للسلطة لهذا الصوفي بقدر ما هي أخلاق اتصف بها الحاجب البجائي من ظلم وتعدي، ورغم هذه المحنة لهذا المتصوف الشاعر إلا أن ما أورده ابن الخطيب من قصيدته التي كتبها لأحد أصحابه من سجن القصبة تظهر طبيعة الخطاب الصوفي المتزن والهادئ البعيد عن التجريح بالمتسببين في حالته، بل تتضمن المدح والثناء على الأمير البجائي أبي زكريا بن أبي يحيى (720-747هـ/1320-1346م) وحلاه باسم "مولى الموالي"[3]، ورغم إقراره بتقصير الوالي بالنظر في أمره وان اعتقاله ظلم في حقه ودعواته المتكررة بإطلاق سراحه، وبع اليأس في الاستجابة رد الأمر إلى قضاء الله وقدره وأنه محنة وابتلاء منه تكفيرا لذنوب هذا الصوفي فما عليه إلا الصبر، وهو تفسير الصوفية للبلاء[4].

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص117.

([2]) **المصدر نفسه**، ص181.

- رغم أن هذه الكرامة وغيرها تحوي في مضمونها الكثير من المبالغة.

- خاصة وأن العلاقات الحفصية المملوكية عرفت تطورا ملحوظا في تلك الفترة، وعنها أنظر : يوسف عابد : **العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية 648-694هـ/ 1250-1296م**، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، 1416هـ/1995م.

([3]) بقوله في مطلعها :

شرح حالي لمن يريد سؤالي إنني في اعتقال مولى الموالي
مطلق الحمد والثناء عليه وهم للعطف والجميل موال

- أنظرها عند : ابن الخطيب : **الإحاطة**، ج2، ص564.

([4]) في قوله : لا أرى في الولاة في احتكاما وولي حال على كل حال

كل هذه المظاهر وغيرها تجمع على أن متصوفة بجاية ابتعدوا عن كل ماله صلة بالسلطة الحفصية، برد الوظائف ورفض الزيارات واللقاءات والعطايا بأنواعها، ولم تستطع جرهم إليها كلية في القرن 7هـ/13م، واستمر الأمر كذلك خلال القرن 8هـ/14م بتبلور مدرسة بجائية عمادها الصوفي أحمد بن إدريس الأيلولي البجائي وتلميذه عبد الرحمن الوغليسي اللذان يمثلان التصوف السني القائم على محاربة الوضع الأخلاقي والإجتماعي المتردي الذي آلت إليه بجاية، فكانت الوغليسية تعبيرا عن رفض ذلك الوضع المتدهور الذي تسببت فيه السلطة بشكل مكشوف، وجاء تلاميذ الوغليسي من بعده على شاكلته لا يخالطون الأمراء ولا يكلمونهم مخافة على دينهم من دنيا هؤلاء، على حد وصف الفقيه المفسر عبد العزيز الثعالبي لما دخل بجاية سنة 802هـ/ 1399م بالكثرة وأنهم "لا يعرفون الأمراء ولا يخالطونهم"[1]، فكيف يفسر هذا الإعراض الحاد منهم وسلبية التعامل مع السلطة؟ هل كانت الظروف التي عرفتها المدينة دخلا في ذلك؟ وما هي البدائل التي قدموها الصوفية لأهل بجاية لتخليصهم من محنهم؟

3- أزمة مجتمع والصوفية بديلا لغياب السلطة :

أ – أوضاع بجاية ودورها في بروز التيار الصوفي :

لا يخفى علينا الضعف الذي شهدته الدولة الحفصية في مراحل كثيرة من تاريخها إذا استثنينا حكم السلاطين الثلاثة الأوائل (أبي زكريا، المستنصر والواثق)، وما انجر عنه من تدهور الوضع السياسي وما لحقه ببجاية، تجلى في الصراع بين أفراد البيت الحفصي حول حكم المدينة كما حدث مع الأمير أبي الحسن وثورته التي دامت أكثر من إحدى عشر سنة (846-857هـ/ 1442-1453م)كمثال حي عن تردي الأحوال، واستغلال ضعف السلطة بالمدينة لنشر الفوضى وبث القلاقل من الأطراف، وزادت الإنفصالات التي أعلن عنها بعض الأمراء الطين بلة جراء التحالفات التي عقدها المركز مع الزيانيين والمرينين لاستعادة بجاية إلى الحضيرة المركزية، ونتج عن كثرة الحصار والتحرشات المتتالية للقبائل العربية والبربرية بالمدينة ونواحيها[2]، وتأثيره على الجانب الاقتصادي بتراجع مصادر رزق السكان ونهب مواردهم[3]، وغلاء الأسعار ونقص السلع[4].

ارتجي بالمصاب تكفير ذنبي حسبما جاء في الصحاح العوال
فاغتنم ساعة الوصال وكم من محنة وهي منحة من نوال

- أنظرها في : **ابن الخطيب : المصدر السابق** ، ج2، ص564.

([1]) الثعالبي : **المصدر السابق**، ج 4، ص159.

([2]) أمثلة عن ذلك أنظر : انظر : ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص477-478، 498، 533، ج7، 137، 144-145، الونشريسي : **المصدر السابق**، ج2، ص435.

([3]) تعرضت المواشي للسرقة والمحاصيل الزراعية للنهب والإتلاف بسبب الصراع القبلي الذي عرفه المغرب الأوسط في تلك الحقبة، أنظر عنه : المازوني : **المصدر السابق**، ج1، ص28.

([4]) يحيى بن خلدون : **المصدر السابق**، ج1، ص217، وأنظر كذلك، **العبر**، ج7، ص144.

فقدان الأمن وتراجع التجارة البرية لتعرض أصحابها إلى النهب والسلب من قطاع الطرق ومن القبائل البدوية وسفكهم لدماء الناس وفرضهم للضرائب الجائرة على العابرين والتعدي على الحرمات وهتك الأعراض وانتشر الخوف بين الناس، ذلك هو الوضع الذي آل إليه المغرب الأوسط في نهاية القرن 8هـ/14م فاضطر الناس لمقاتلتهم[1]، ولجأ أصحاب القوافل إلى الأولياء والفقراء لمرافقتهم ضمانا لسلامة تجارتهم وإنقاذا لأرواحهم التي طالها الخطر جراء تدهور الأوضاع الأمنية.

على المستوى الاجتماعي برزت الفوارق الطبقية بين الفئة المالكة لزمام السلطة ومعهم الموظفين والتجار الكبار ببجاية لمال والجبل لا صلين للجاه، في وجود طبقة أخرى معدمة تعرضت لها كتب التراجم والطبقات من العامة المعوزين[2] الذين وقع عليهم الظلم الجبائي خاصة فئة الفلاحين[3]، انتشار الفقر وتدهور المستوى المعيشي[4] وغلاء الاسعار[5]، انتشار الرشوة والمحاباة في الوظائف وأكل أموال الناس[6]، والمرجح أن تلك الأسباب كانت وراء إلتفاف الغوغاء ببجاية المكونين من مجموعة من أشرارها ودعارها[7] على قائدهم و عريفهم علي بن صالح[8]، الذي استغل خروج المرينيين وعودة الحفصيين إلى حكم بجاية 761هـ/1360م ليشكل منهم جماعة قوية "أصبحت لهم شوكة كان له بها تغلب على الدولة"[9]، مما يدل على وجود تنظيم جمع الكثير من العامة الرافضين لوضعهم الاجتماعي السيئ والسعي لتغييره بالقوة . هذا التدهور الأمني والثورات المتكررة على السلطة يعبر بشكل واضح عن الضعف الذي وصل إليه جهاز الحكم ببجاية إلى حد أن أمثال هؤلاء منعوا الأمير البجائي من تسيير المدينة بالمضايقة عليه في شوال 858هـ/ جوان 1454م فتدخل السلطان بنفسه لوقف هذه الاضطرابات[10].

([1]) وقد كتب أهل المغرب الأوسط إلى الإمام ابن عرفة يسألونه عن جواز مقاتلتهم، وقد عدوهم بحوالي عشرة ألاف قاطع طريق وهو عدد كبير يوحي بالتلاشي الأمني والتدهور الخطير الذي وصل إليه البلد، وأفتى بأن مجاهدتهم وقتالهم حق وواجب حقنا لدماء المسلمين التي هدرت، أنظر الفتوى عند : المازوني : **المصدر السابق**، ج1، ص309-311.

- ويذكر الرصاع في فهرسته أن البرزلي دعا على الأعراب المناوشين لتونس بالخذلان وبالنصر للسلطان أبي عمرو عثمان ليتشتت شملهم ويولون الأدبار، أنظر : **فهرست الرصاع**، ص63-71.

([2]) أنظر عن ذلك : برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص169-174.

([3]) سالم حميش : **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، دار الطليعة بيروت، 1998، ص119.

([4]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص 134، 150، 161.

([5]) يحيي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج1، ص217.

([6]) ابن الطواح : **المصدر السابق**، ص206.

([7]) الدعار : قطاع الطرق والمفسدين، أنظر : ابن منظور : **لسان العرب**، مادة : الدعر، ج4، 286.

([8]) من زعانفة بجاية كان عريفا لغوغاء بجاية وأشرارها، قاد ثورة ضد السلطة الحفصية بالمدينة، لكنها فشلت وقضي عليها من قبل أبي إسحاق وقبض على قائدها وقتل مع الكثير من أنصاره في رمضان 765هـ/ 1363م، يراجع عنه : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص 542، 547.

([9]) ابن خلدون : **المصدر السابق** ، ج6، ص542.

([10]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص148.

كل تلك الأسباب مجتمعة كانت وراء تفشي الكثير من الظواهر غير الاجتماعية كالزنا وشرب الخمر وبيعه علنا خاصة بباب البحر الذي يعج بالبجائيين[1]، وفي الفنادق المنتشرة ببجاية وتونس وقسنطينة للجالية الأوربية المتكونة في أغلبها من التجار[2]، برعاية من السلطة لأهداف جبائية ومخزنية[3]، إلى حد التغني به شعرا على حد قول أبي عبد الله محمد الأريسي (ق7هـ/13م) داعيا إلى تناولها :

واشرب صبوحك من سعودك واغتبق خمر المسرة روقت في الكاس[4].

انتشار تعاطي الحشيش واشتهار فئة معروفة ببجاية بإقبالها على الشهوات وارتكابها للمعاصي دون رادع من السلطة يوقفها عند حدها على تعبير ابن الطواح الذي شاهدهم لما دخل بجاية سنة 698هـ/ 1298م ووصفهم بالقول "المنهمكين في الشهوات يبالغون في الأراجيف... تشيعوا في النبات المعروف بالحشيش الذي يتعاطاه أهل الفسوق"[5]، وعدم تطبيق الولاة للحدود الشرعية[6] وكثرة الضرائب والمكوس والمغارم بغير حق والتي أثقلت كاهل البجائيين البسطاء[7]، والفساد السياسي داخل البلاط البجائي والصراعات التي نتج عنها نهب الأموال ومصادرة الأملاك وقتل المعارضين.

كل تلك الظروف مجتمعة خلقت أزمة على أصعدة متعددة[8]، وفي ظل الفراغ الذي تركته السلطة من جهة والفقهاء بنسبة أقل، سيستغل الصوفية هذا التفاقم في الوضع لحل أزمات الناس بخطاب جديد يميل إلى تجديد العهد مع الله والإنابة إليه والدعاء طلبا لتفريج الهموم وإزالة الأحزان، بأسلوب هادئ يدغدغ العواطف محاولا التخفيف من حدة المشاكل، ليصبح الصوفية والأولياء ببجاية البديل الذي يحتضن البجائيين وينقذهم من التهميش، لتأتي الكرامة الصوفية حلا لمشكلاتهم، فإلى أي مدى وفق الخطاب الكرامي في حل الأزمة؟ وهل كان أداة لنقد السلطة وكشف عجزها أمام البجائيين؟

ب- الكرامة تملأ فراغ السلطة : تعرف الكرامة على أنها "كل بعد خارق للعادة ظهر على يد عبد ظاهر الصلاح في دينه متمسك بطاعة الله في أحواله"[9]، وسماها ابن خلدون باسم الخوارق التي تأخذ معنى التحدي

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص152، وأنظر كذلك : ص159، 295، 300.

([2]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص120.

- وعن هذه الظاهرة ببجاية : أنظر : بعيزيق : **المرجع السابق**، ص249.

([3]) نللي العامري : **المرجع السابق**، ص292.

([4]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص300.

([5]) ابن الطواح : **المصدر السابق**، ص207.

([6]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص126.

([7]) **المصدر نفسه**، ص178.

([8]) عن دور الأزمات الإقتصادية والتدهور الإجتماعي والتفسخ الأخلاقي في نشأة التصوف بالمغرب الأوسط العودة إلى : الطاهر بونابي : **المرجع السابق**، ص90-101، وكذلك : آمال لدرع : **المرجع السابق**، ص97-114.

([9]) بوتشيش : **المرجع السابق**، ص141.

والإعجاز[1]، و لم ينكرها على مدعيها[2]، واشترط ابن قنفذ في صاحبها الولاية في قوله "يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية"[3].

كل الظروف السابقة التي عرفتها بجاية شكلت بيئة خصبة لنشأة الخطاب المناقبي في صورة فعل سحري مثالي لحل مشكلات العامة واستيعابها بمنظور الكرامة، يعبر حقيقة عن البديل الذي ينشده الفقراء والمريدين والعامة ككل لإصلاح أحوالهم انطلاقا من قداسة الولي واستجابة دعائه. من خلال الغبريني الذي يروي كرامات الأولياء البجائيين وهو مؤمن بها[4] نلاحظ غياب شبه كلي للكرامة السياسية لمتصوفة بجاية وأوليائها مما يجعلنا نؤكد بعدهم عن التفكير بالسلطة حتى بالرؤية الخيالية، إذا استثنينا رؤية أبي عبد الله الشريف التي زكت أداء المكوس والمغارم.

حضور الكرامة ذات الأبعاد الاجتماعية بشكل قوي عند أولياء بجاية، لإنقاذ الناس من محنهم والتخفيف من معاناة الفقر التي عاشتها فئة عريضة من العامة، فلجئوا إليهم للدعاء بالتفريج عن كربهم ودفع الضر عنهم، ولفهم الميادين الاجتماعية والأخلاقية لهذه الكرامات بوبتها على النحو التالي[5] :

إطعام الطعام والإعالة على الفقر	2
الإعانة في تحصيل الرزق	1
إنزال الغيث وسقي الأرض	1
الإعانة من الفاقة المالية	1
محاربة الفساد الأخلاقي	4
التسكين من الخوف	1
المجموع	8

واضح من الجدول أن ستة كرامات من أصل ثمانية أخذت طابعا اجتماعيا، تعددت بين ما هو تخليص من الفقر والإعالة بالقوت والتي وردت كرتين، إحداها وقعت للصوفي أبي الحسن علي بن محمد الزواوي (ق7هـ/13) الذي حل مشكلة غذائية لعائلة بجائية جاءت تشكوه العوز، فأمدها الشيخ بأربعة أمداد من القمح

([1]) المقدمة، ص97.

([2]) المصدر نفسه، ص438.

([3]) أنس الفقير، ص 24.

([4]) البعض على الغبريني ورماه بالسذاجة لإيمانه بالكرامات رغم أن الكثير من أهل العلم لم ينكروها، أنظر ما كتب عنه : عبد العزيز قلقيلة : **من التراث الأدبي للمغرب العربي**، عالم الكتب، القاهرة، 1979، ص81.

([5]) اقتصرت فقط عل بعض الكرامات التي تخدم الموضوع لفهم التقصير الحاصل من السلطة البجائية وتدخل الصوفية لملأ الفراغ.

خلصتها من أزماتها، واكتفت لحوالي خمسة أشهر أو أكثر[1]، لتطرح قضية البركة بالقليل من القوت وتجاوز أزمة الفقر، وأن خير الله لا يفنى في خدمة المحتاجين[2].

في نفس المعنى وإعانة على العوز الذي عانت منه إحدى العائلات البجائية الموهوبة بمرزوق جديد، يلجأ رب الأسرة إلى مسجد النطاعين لينساق له الرزق الذي ينتظره من الصوفي أبي الفضل قاسم بن محمد القرطبي (ت 662هـ/1263م)، عبارة عن سرة من الدراهم أنفق منها على عياله وابتاع ما يشاء دون أي ينقص منها شيئ، مشترطا عليه أن لا يعدها فلما فعل نفذت كلها[3]، يبين ذلك ضرورة الالتزام بشروط الولي لتحصل الاستجابة لأن صفة الولاية تقتضي من صاحبها القدرة على التصرف في ما يفعله لتكون من باب الكرامات وإلا عدت من أفعال الناس العاديين، و يعوّ صاحبها إما بصرف النعمة عنه أو بالأذى من وراء عدم التزامه بأوامر صاحبها.

تأتي كذلك في صورة الإعانة على تحصيل الرزق بعد سعي أصحابه وفشلهم في مهمتهم، وتفعيل المتصوفة للدعاء ، كما حصل مع قاسم بن محمد القرطبي الذي خرج مع بعض البجائيين في رحلة صيد فاشلة، ليتدخل بالحديث في علم التصوف ومعارف الأولياء ثم أدى بهم صلاة الفريضة وينتهي بالدعاء قائلا : "الآن يفتح لكم به" حتى امتلأ الزورق بالحوت[4]، القصة يفهم منها أن فعل الولي واستجابة الدعاء مقرونا بالطاعة وأداء الفروض، وهي رمزية تدل على أن التوفيق في تحصيل الرزق مرهون بطاعة الرازق، وكثيرا ما جاءت الكرامات في سياق مواجهة بعض الظواهر الطبيعية، كنقص المطر (الجفاف)، ليتدخل الأولياء لمواجهة هذه الأخطار، وما حدث لأبي الحسن الحرالي (ت 637هـ/ 1239م) ببجاية ينصب في الموضوع بعد أن شكاه أهلها نقص الماء نتيجة الجفاف حتى وصل بيع الزق بأربعة دراهم، وهنا يتجلى دور الدعاء لحل أزمة الماء في غياب السلطة الحفصية التي لم تهتم بأمر الناس منهمكة في الصراعات حول العرش والتسابق على الوظائف، فما كان من الحرالي إلا أن "رمق السماء بصره ودعا الله تعالى...فانعقدت السحب وتراكمت...وروى الناس وأغدقوا"[5]. وأخذت البعد الأخلاقي بتقويم المجتمع وإعادة المنحرفين إلى جادة الصواب بعد انهيار قيم الكثيرين، فكان على صوفية بجاية محاربة ظاهرة الخمور والزنا والرشوة وتعاطي الحشيش، بهدف الوصول إلى مجتمع خال من الأمراض ينشد الآخرة ويزهد في الدنيا، في ظل الرعاية التي أبدتها السلطة لبعض هذه الظواهر كالخمر بالترخيص ببيعه للأوربيين، أو تقصيرا منها لضعفها فلم تقف في وجع المشيعين للفساد الأخلاقي بالمدينة وتحديهم لها وللمجتمع بأفعالهم[6].

استخدم الصوفية أسلوب سلمي دون اللجوء إلى القوة أو المواجهة مع هؤلاء المسلطةوتجنب نب أسلوب الردع، ووجدت أمثلة كثيرة ذكرها الغبريني لكنني اقتصرت على أربعة فقط حسب الجدول، منها اثنتين حدثت

([1]) من أواخر فصل الشتاء إلى بداية الصيف، أنظر : الغبريني : **المصدر السابق**، ص134.

([2]) بونابي : **المرجع السابق**، ص183.

([3]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص161.

([4]) المصدر نفسه، ص 162.

([5]) المصدر نفسه، ص151.

([6]) أنظر عن ذلك ما رآه ابن الطواح من أفعال الفساق المنتشرين ببجاية يشيعون الفساد ويتعاطون الحشيش، يراجع : **سبك المقال**، ص207.

مع الولي الصوفي أبو الحسن الحرالي الذي عرف عنه محاربته للمعاقرين للخمر مستعينا بالدعاء لهدايتهم وتوبتهم عن تعاطيها، ويذكر الغبريني أن رجلين إثنين تابا على يديه وانضما إلى الفقراء الذين كانوا يرتادون على المسجد لسماع دروسه وتحسنت حالتهم بفضل بركة الشيخ[1].

وجدت كرامة واحدة هدفت إلى تسكين الخائفين وطمأنتهم من بطش السلطة وأذاها وأن لا يصلهم بطش الوالي البجائي الذي توعد بالأذى لأحد البجائيين (مسعود بن عمر)[2] الذي استنجد بالصوفي أبي الفضل قاسم بن محمد القرطبي يشكوه خوفه من بطش أمير بجاية، لكن القرطبي بعث فيه الاطمئنان وخلصه من حالة الذعر التي كان يعاني منها بالدعاء له وأنه لن يصله مكروه من صاحب بجاية، وكان له ذلك وانصرف عنه ببال مرتاح ونفس مطمئنة[3]، وتبين هذه القصة البعد النفسي والمعنوي الذي تؤديه الكرامة، بالغور في أعماق النفس واجتثاث الشعور بالرهبة وتحويلها إلى حياة الهدوء والسكينة.

يظهر لنا أن المجتمع البجائي عانى كثيرا جراء غياب السلطة الحفصية لحل مشكلاته على مختلف الأصعدة تاركة الفراغ للصوفية الذين حاولوا ملأه، مستعملين الطرق السلمية والحلول المستندة للقوة الروحية لأجل تخليص الناس من محنهم التي لحقت بهم، وكانت الكرامات سبيلا من السبل التي اتخذوها لدفع الأضرار وجلب المنافع للناس، ويعد تدخلهم لإعانة العامة على فقرهم أو كسب رزقهم أو إعالتهم بالمال والدعاء بنزول الغيث لسقيهم أو النهي عن المنكر وإعادة الكثير من الخارجين عن قيم الدين إلى الطريق بتوبتهم متخذين من الكرامات سبيلهم لتحقيق ذلك. مجالا فسيحا عبروا فيه بطريقة غير مباشرة عن عدم رضاهم عن الدور الغائب للولاة الحفصيين بالمدينة، مما زاد الناس تعلقا بالصوفية وحبهم وتبجيلهم لتتسع الهوة أكثر بينهم وبين السلطة على مستوى الشعور الجمعي للأفراد الذي مال إلى الأولياء المتجردين من الدنيا والزاهدين فيها المتطلعين إلى مجتمع الفضيلة وترك رجال السلطة يتنافسون على الدنيا ناسين هموم الناس.

يظهر جليا من علاقة المتصوفة ببجاية أنهم لم يستطيعوا احتوائهم كليا، ولم تقدر السلطة بدورها على إرغامهم بالقوة للسير في نهجها، بل بالعكس فإن الكثير ممن رفضوا طلباتها بقوا مكرمين معززين ولم تؤذ منهم أحدا، ورغم عدم مسايرتهم لها إلا أنهم لم يخرجوا ضدها ولم يجهروا بعدائهم لها ولم يدعو المريدين والأتباع إلى مجابهتها، مفضلين التغيير الهادئ والمعارضة السلمية التي يبدو أنها لم تزعج السلطة في شيء مما منحهم الحرية في التحرك والراجح أن ذالك راجع إلى أن أغلب الصوفية ببجاية كانوا فقهاء متضلعين مما أعطاهم الرؤية الشمولية لطرق التغيير والدعوة في الإسلام فانتهجوا الحسنى في تعاملهم مع السلطة، كما أن عدم معارضة السلاطين والولاة الحفصيين للمذهب المالكي والعودة السريعة لبجاية إلى حضيرته أفقد الطرفين أسباب التصادم والمواجهة وحدوث الموازنة بين رجال السلطة ورجال المذهب، وشعور الأمراء والموظفين الكبار أن المتصوفة رفعوا

([1]) الغبريني : **المصدر السابق**، ص153.

([2]) على تسمية الغبريني، ص163.

([3]) **المصدر نفسه**، ص163.

عنهم حملا ثقيلا من هموم الناس، ممال شجعهم على التفرغ لنيل طلباتهم من الوظائف والثروة والجاه، واعتبروا في بعض الأحيان خير بديل للسلطة عن الفقهاء المالكية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا : نخبة المجتمع الريفي يحاولون كسر شوكة السلطة

إن تقريب شيوخ وزعماء القبائل والإحسان إليهم وضع كأولوية من أولويات استمرار السلطة ودوام الملك، فحثت كتب مرايا الملوك على إكرامهم[1]، وإجزال العطاء لهم والإحسان إليهم[2], وتقديم الأشياخ منهم على قبائلهم من المخلصين للسلطان والمطيعين له وزيادة العطاء لوجهاء القبائل وأعيانهم أموالا وإقطاعات، صنفتهم بعض المصادر في الصنف الخامس دخولا على السلطان[3].

كان لجوء السلطة إليهم في حالة الشدة وضيق الأحوال السياسية عليها سواء من أعدائها في الداخل أو لدفع خطر خارجي فهؤلاء "أزمة الخلق وبهم يُملك سواهم"[4]، بمدها بالجند وجباية الأموال في حالة الحاجة والذي خلق ردود فعل قوية من القبائل وخروجها ضد السلاطين لجورهم في هذا الجمع أو منع عنهم العطاء.

صعوبة التحكم في القبائل لقوة عصبيتها حسب ابن خلدون فهي"تظن في نفسها منعة وقوة"[5]، وحب شيوخها للتسلط والرئاسة لأن الأنفس جبلت على ذلك، مجتمعة هي الأسباب التي أدت إلى حدوث الثورات على المركز محاولة الانفصال وتكوين كيانات مستقلة، ويضرب الأمثلة ببلاد المغرب لكثرة عصبياته من القبائل, متخذة من جغرافيتها الصعبة حاميا لها من أي نظام سياسي، ويحدث هذا غالبا في نظرية الدولة عند بن خلدون في الطور الأخير لها, عند فقدانها لعصبيتها وانغماسها في حياة الدعة والترف[6], وإذا صار الأمر كذلك ينصح بتسليط القبيل الموالي للسلطة على الخارج عن طاعتها ليضرب بعضهم بعضا ويتضعفهلهم ويزيد ضعفهم[7].

لا يمكن دراسة موضوع علاقة شيوخ القبائل البربرية والعربية التابعة لبجاية الحفصية بمعزل عن فهم دور القبيلة في تاريخ الدولة الحفصية ودول بلاد المغرب في هذه الفترة، كما أن تقلص الفضاء الجغرافي البجائي أحيانا حتى انحصر في المدينة الحضرية وتمدده أحيانا أخرى[8]، بالنظر لقوة وضعف الدولة تسبب في تذبذب هذه العلاقة بين الولاء والطاعة تارة والتوتر تارة أخرى، وقد شجع وجود الكثير من القوى التي تصارعت على بجاية القبائل أن يكون لها الكثير من فرص الاختيار لتقديم خدماتها لطلاب العرش البجائي المنتمين إلى العائلة الحفصية أو من السلطات الدخيلة من الزيانيين والمرينيين، مما صعب علينا تحديد نوع العلاقة بشكل ثابت لتغيرها بين الفينة والأخرى حسب المصالح المتبادلة بين هذه الأطراف. فهل استطاعت السلطة الحفصية ترويض القبائل العربية والبربرية المتوطنة بالجهة وسياستها كيف ما أرادت؟ ما هي أسباب ولائها لها وخروجها عليها؟ ما موقف نخبة

([1]) أبو حمو موسى الزياني : **المصدر السابق**، ص78.

([2]) ابن الأزرق : **المصدر السابق**، ج1، ص383.

([3]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([4]) الطرطوشي : **المصدر السابق**، ص338.

([5]) المقدمة، ص162.

([6]) المقدمة، ص350.

([7]) أبو حمو : **المصدر السابق**، ص86.

([8]) وصل هذا المجال في أقصى اتساعه إلى حدود ورجلان جنوبا بونة شرقا والجزائر غربا.

المجتمع الريفي من التمردات التي حصلت في بجاية من طلاب الحكم؟ كيف كان موقفهم من السيطرة المرينية والتحرشات الزيانية؟

1- شيوخ القبائل نخبة المجتمع الريفي :

لكل قبيلة أو فرع من فروعها شيخا يتزعمها على مدى الحياة من عائلة مرموقة يحظى بالإجماع[1]، يجمع عليه أفرادها لوقاره وإجلاله[2] يتصف برجحان العقل والحلم والهيبة وقوة الشخصية[3]، يكون من أعيان القبيلة وشيوخها ليحصل على رئاستها، وتنتقل آليا هذه الزعامة لأحد أبنائه أو إخوانه إن تعذر الأمر مراعاة لمصالح القبيلة التي توضع فوق المصلحة الشخصية التي تجلبها المشيخة[4]، خاصة وأنه مبجل عند السلطة القائمة ويستقبل من السلاطين والأمراء للمصالح المتبادلة بينهما.

قد يعين في حالات من قبل السلطان نفسه والذي يتخير الشيوخ الذين يلتمس فيهم صفات الطاعة والخدمة، كما جرى مع السلطان أبي يحيى أبي بكر الذي نصب صخر بن موسى شيخا على بني سيلين البربر[5]، وقد وفق إلى حد كبير في هذا الاختيار، شيوخ قبائل البدو الرحل التابعين للمجال البجائي الحفصي من المنظور السياسي والجبائي كان شيخهم يأخذ الموافقة الرسمية لرئاسة القبيلة من السلطة البجائية كنوع من أنواع الوصاية والتبعية، وعدها برونشفيك اندماجا في مؤسسات الدولة الذي سعت له بعض القبائل لأهداف كثيرة[6]، يتوسم فيه الرجل القوي المحنك القادر على قيادتهم والدفاع عن مصالح القبيلة خاصة أن الصراع كان كبيرا بين القبائل لإثبات وجودها.

يضطلع شيخ القبيلة بجباية المال لصالح السلطة القائمة وغالبا ما تعفى قبيلته من هذا الالتزام الضريبي نتيجة الخدمات المقدمة للحكومة المركزية ليسري على القبائل الضعيفة[7]، لهذا فإن الكثير منها تقاتلت من أجل اذ ع لى على أراضي القبائل الأخرى للحصول على هذا الامتياز، ولعبت العصبية وشوكة القبيلة دورا فعالا لحسم نتيجة هذا الصراع، ألقي على عاتق شيخ القبيلة الدعم العسكري الذي يقدمه للسلطة للدفاع عن أراضيها، يجند أفراد القبيلة مكونا بهم جيشا[8]، وغالبا ما كان هذا الدعم يقدم للأمراء والسلاطين لقلب أنظمة قائمة أو لدعم كيانات سياسية دخيلة، والنماذج كثيرة ببجاية من خلال الدعم الذي قدمته هذه القبائل للسلطة المركزية

([1]) وإذا كانت القبيلة بربرية يطلق على رئيسها "أمغار" أي الكبير ويقابله الشيخ عند القبيلة العربية، يراجع : عبد الوهاب بن منصور : **قبائل المغرب**، المطبعة الملكية، الرباط، 1968، ج1، ص281.

([2]) ابن خلدون : **المقدمة**، ص128.

([3]) ابن منصور : **المرجع السابق**، ص281.

([4]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص101.

([5]) ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص198.

([6]) **تاريخ افريقية**، ج2، ص103.

([7]) عبد السلام الشدادي : **المرجع السابق**، ص35.

([8]) بوشامة : **المرجع السابق**، ص82.

بتونس أو ببجاية أو من الخارجين عليها من البيت الحفصي نفسه، أو مساندة الزيانيين والمرينيين الذين ناصبوا العداء وطمعوا في السيطرة على بجاية.

إضافة إلى هذه المهام فإنه يقوم بتنظيم القوة العسكرية للقبيلة وقيادتها في الحروب التي تخوضها ضد القبائل الأخرى أو في الجيش الذي يشارك مع حلفائه، ويقوم بنفسه بجباية الأموال وإرسالها إلى السلطة الموالي لها، ويحاول رفقة أعيان القبيلة فض النزاعات الداخلية بين أفرادها[1].

المقابل الذي يجنيه الشيخ ومن ورائه قبيلته من السلطة جراء خدماته، تمثل في العطاء المتعدد الأشكال والمظاهر، من الأموال سواء كانت من بيت المال أو تعهد له السلطة بجمع الأموال من القبائل الخاضعة لسلطته لصالح قبيلته وهو ما حدث في حالات كثيرة مع عرب الذواوذة في المجال البجائي أو القسنطيني، وأهم هذه الحقوق برأي القبائل وأهمها هي الأراضي أو ما يطلق عليه بالإقطاعات التي توهب لبعض القبائل على حساب أراضي قبائل أخرى، والسبب بمنظور خلدوني (قوة العصبية).

تتدخل السلطة في أحيان كثيرة بسحب المشيخة من أصحابها إذا لم يوافق هذا الشيخ أهدافها ويكون رهن طاعتها، وتحويل القيادة إلى بطن من البطون الأخرى بما يناسب مصالحها، وهو ما فعله السلطان المريني أبي عنان أثناء سيطرته على بجاية، حيث نقل الزعامة من أولاد يوسف البربر المؤيدين للسلطة الحفصية ونقلها إلى أولاد علاوة الموالين له[2]، مما يحدث في أغلب الأحيان الحرب بين هذه البطون على الزعامة وهو ما كانت تنشده السلطة بإذكاء الفرقة بين القبائل كما جرى بشكل مستمر مع مشيخة أولاد مهلل وأولاد أبي الليل العرب، ففي حين كان يقف طرف منهم إلى جانب السلطة وقف الأخر مع من يناصبها العداء.

2- شيوخ القبائل والمساهمة في استقلال بجاية :

أهمية شيوخ القبائل ومن ورائهم جموع البربر والعرب المتصرفين فيهم تكمن في أن السلطة الحفصية حاولت بهم خلق نوع من التوازن الذي كاد أن يفقد داخل نظامها السياسي، مخافة تقوي طرف على أخر فتحدث المشاكل التي يصعب التحكم فيها بين الأندلسيين والموحدين، فالقيادات هم الورقة الرابحة التي استنجد بها النظام السياسي في المركز وفي المدن لأجل ضرب أي طرف يهدد مصالحها.

تعددت صور الولاء والطاعة التي قدمها شيوخ القبائل للسلطة الحفصية ببجاية، من المساهمة في الوصول إلى إمارة المدينة وأعمالها، إلى الإمداد العسكري الممنوح للعديد من الأمراء الثائرين ببجاية على حساب المركز وضد السلطة المحلية، فمن الناحية السياسية فإن الكثير من الشيوخ كانوا سببا في إيصال بعض الأمراء إلى حكم بجاية ودعمهم لإعلان الاستقلال عن السلطة المركزية، فقد ساند عرب بني عامر بقيادة شيخهم داود بن هلال بن

([1]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص102.

([2]) أولاد يوسف وأولاد علاوة بن سواق أبناء عمومة، وهما بطنان من بطون قبيلة سدويكش البربرية، أنظر عنهم : ابن خلدون : **العبر**، ج6، ص197.

عطاف من عرب الزغبة[1] الأمير أبي زكريا بن أبي إسحاق ووفروا له الحماية أثناء مروره بتراب القبيلة طالبا ملك بجاية، ورفض هذا الشيخ تسليمه للسلطان يغمراسن بن زيان[2] المتحالف مع السلطان الحفصي للإيقاع به "فأجازه وأبلغه مأمنه"[3]، ليأتي الدور على شيخ الذواودة عطية بن سليمان بن سباع الذي أكمل المهمة إلى قسنطينة خاصة وأن أبا زكريا كانت ترصده أعين الحفصيين في كل مكان بعد أن وفر له تجار بجاية وأهلها المال لتأميره عليهم، وآوته قبيلة سدويكش البربرية ودعمته مشيختها بالجيش الذي أدخله بجاية أميرا سنة 684هـ/1285م[4].

ويستنتج من أخبار ابن خلدون أن القبيلة كانت لها سيادة على مجالها الجغرافي ولا تتحمل قيادتها مسؤولية ما يجري على أرض القبائل المجاورة، توفر الأمن والسند العسكري للمجير وتبلغه مأمنه مقابل مصالح توفرها السلطة للقبائل، كصنيع أبي زكريا بسخائه عليهم وخصوصا على شيوخهم، فقد أقطع شيخ بني عامر أراضي شاسعة تابعة لسلطة بجاية[5]، وجعل له التصرف في جبايتها وفرض الضرائب على سكانها[6] ، وامتلك بها داران بمنطقة الخميس[7].

هذا الزحف لسكان البدو الذين هم أصلا مرتحلين لقيام حياتهم الرعوية على الضعن كثيرا ما ساهم في خلخلة حياة السكان المستقرين[8] ، ليكون بذلك للإقطاع الحكومي كما يطلق عليه فالريون دورا هاما في استمالة شيوخ القبائل[9] وتقويتها للسلطة التي عانت الضعف في كثير من المرات، وقد شهد على ذلك الرحالة العبدري لما زار تونس سنة 688هـ/1289م فقال أنها وصلت إلى حد التلاشي مما اضطرها للاستنجاد بهم[10]، لتصبح هذه الملكيات وراثية للقبيلة رغم أن الفقيه ابن عرفة أفتى بعدم جواز ملكيتهم لهذه الأراضي[11]، لتضم القبيلة مجالا جغرافيا جديدا تنتقل إليه لتحصيل جبايته من سكانه وفرض وصايتها عليه، مما تسبب في حدوث القتال مع القبيلة الأم التي تكون فاقدة لقوتها وعصبيتها، ووقوع خلط في النظام الاجتماعي للمدن والقرى، هذه القبائل البدوية كثيرا ما تسببت في نشر الفوضى واللاأمن بالمغرب الأوسط، وقد أفتى ابن عرفة في قتالهم لفسادهم في الأرض[12]، ونتيجة لهذا الوضع سنجد الكثير من السكان يرتحلون نحو بجاية المدينة الحضرية وتخومها بحثا عن الأمن المفقود في

([1]) كان أميرا لبدو بني يعقوب من بني عامر التابعين لقبيلة زغبة (الذواودة) العربية، يراجع : ابن خلدن : **العبر**، ج6، ص449، ج7، 121.

([2]) **المصدر نفسه**، ج6، ص449.

([3]) **المصدر نفسه**، ج7، ص121.

([4]) **المصدر نفسه**، ج6، ص449.

([5]) **المصدر نفسه**، ج7، ص122

([6]) Valérian, : *op. cit.*, p. 167.

([7]) حددها ابن خلدون بالقرب من واد الصومام، ج7، ص122.

([8]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص192.

([9]) Valérian : *op. cit.*, p.153.

([10]) **الرحلة المغربية**، ص37.

([11]) أنظر في ما كتبه في الموضوع :

Valérian , *op. cit.*, p.168 .

([12]) المازوني : **المصدر السابق**، ج1، 309-311.

المناطق البعيدة عن السلطة الضعيفة أصلا, مثلا عن ذلك حركة الذواوذة وامتلاكهم البسائط البجائية والقسنطينية، وانجر عن هذا التوسع بالقوة غضب السكان الحضر خاصة والعامة منهم في المدن بسبب الأضرار التي لحقت بهم مقابل الامتيازات الممنوحة للقبائل البدوية وشيوخها من السلطة. ويهدف هذا الامتياز برأي البعض إلى استقرار قبائل عرفت بولائها للسلطة الحفصية بهذه المناطق لأجل استخدامها وقت الحاجة من جهة وردا لجميلها المقدم من جهة أخرى كضمان لمواصلة طاعتها للقائمين على أمر بجاية من الأمراء[1].

يقتصر دعم أبي زكريا بن أبي إسحاق على بني عامر بل أن شيوخ الكثير من القبائل العربية الأخرى ساهموا في توسيع أراضي السلطنة الحفصية الغربية التي أعلنت الانفصال عن المركز، فبسط نفوذه إلى الزاب بفضل شيخ بني مزني منصور بن فضل بن علي (ت 725هـ/1324م)[2]، واستفادة بجاية من أراضي جديدة عادت عليها بالفائدة الجبائية "وفر الأموال و ألهى الخراج"[3]وزيادة الدعم العسكري لتوسيع أراضيها على حساب السلطنة الحفصية الشرقية والوقوف ندا لها[4]، واعترافا بجميل شيخ بني مزني فقد منحه أبو زكريا حق الجباية على تلك المناطق ومحاراة العرب المجاورين له، واتسع شمالا وضم قبيلة سدويكش البربرية إلى أرضه واختص بجبايتها برضا الأمير البجائي[5]، وما ساعد على هذا السخاء أن أمير بجاية اعتبر ذلك جزاءا لنجاح سياسية شيخ بني مزني في إقطاع أراضي جديدة للثغر الغربي كتحدي للسلطة المركزية، لنكون أمام منح أمصار وملكيات عقارية واسعة تابعة أصلا لسلطة الحاضرة لتصبح في يد شيخ من شيوخ العرب الأقوياء، ولعل بعد هذه المناطق عن بجاية وقوة شيوخ بعض القبائل على شاكلة منصور بن فضل ترك السلطة تفوضهم لإدارتها باسمهم، ليزداد تكريس العداء البجائي التونسي.

امتد ولاء بني مزني إلى عهد أبي البقاء خالد وتركيز سلطتهم على المنطقة كلها، ومحاربة القبائل الثائرة والخارجة عن طاعة السلطة البجائية، فقد وقف شيخ بني مزني في وجه بعض شيوخ عرب الذواوذة من أولاد سباع وثلة من شيوخ بطون عرب زغبة بمنطقة طولقة بقيادة الشيخ الصوفي سعادة سنة 703هـ/1303م[6]، وفشلهم في كبح هذا التمرد الذي هدد السلطة البجائية المستقلة عن تونس[7].

([1]) عن دور الإقطاع وتطوره في أوربا والمشرق والمغرب العربيين أنظر : Valérian : *op. cit* ., p. 164-165

وكذلك ما كتبه : claud cahen :« les finances urbaines dans le moyen âge musulman», *Bruxelles correspondace d'orient*, N11,(1970).

([2]) كان مسجونا بتونس بعد اعتقاله من السلطان أبي حفص، ففر من سجنه سنة 691هـ/1291م والتحق بخدمة أبي زكريا انتقاما من السلطة المركزية، أنظر أخباره عند : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص588.

([3]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([4]) ضمت بجاية بفضل شيخ بني مزني وقبيلته كلا من بسكرة وجبل أوراس ومقرة ونقاوس والمسيلة وأمره أبي زكريا عليها، يراجع : **المصدر نفسه**، ج6، ص588.

([5]) **المصدر نفسه**، ج6، 588.

([6]) ثار ضد السلطة الحفصية بعد أن أقنع السكان بعدم شرعية المكوس والضرائب ومنع دفعها لممثلي السلطة الحفصية، وامتدت هذه الثورة ذات الطابع الديني إلى منطقة بسكرة وضواحيها إلى غاية سنة 740هـ/1339 م، يراجع عنها : **المصدر نفسه**، ج6، ص51-53.

([7]) Valérian : *op. cit* ., p.158.

أسهم الاضطهاد والتهميش الذي تعرضت له الكثير من القبائل في بعض البلاطات السياسية في خروجها من ترابها الجغرافي والانتقال إلى مجال جغرافي تابع لسلطة أخرى، بحثا عن تحقيق مصالحها التي انتهكت تحت أنظمتها السابقة، وهو ما حدث لشيخ قبيلة مغراوة البربرية راشد بن محمد الذي نزع إلى الأمير أبي البقاء خالد بعد استحواذ الزيانيين على أراضي قبيلته والدخول تحت سلطة أمير الثغر الغربي الذي بقي منفصلا عن تونس، وقد ساند شيخ مغراوة أمير بجاية بعساكر قبيلته وشاركت في حروبه ضد السلطة المركزية بحسدة الهوة التي صارت أكثر اتساعا بين بجاية وتونس، وكوفئ الشيخ بقطعه أراضي للقبيلة كما أنه أُمِر على جيش زناتة الذي سار معه إلى تونس لما دخلها سلطانا سنة 709هـ/1309م[1].

استطاعت السلطة دمج الكثير من ذوي الأصول البربرية المنحدرين من القبائل في نطاقها الحضري أو في "النخبة الحضرية"[2]، والعينات كثيرة عن الفقهاء والصوفية القادمين من قبائل كثيرة كزواوة وبطونها والذين تقلدوا عدة وظائف دينية وإدارية، ومناصب سياسية وعسكرية كالمزوار الذي جمع بين الوظيفة العسكرية والإدارية، وهي المهمة التي كلف بها زعيم صنهاجة المزوار يعقوب بن خلوف الذي تركه السلطان أبي البقاء خالد قائدا على بجاية لحمايتها بعد انتقاله إلى تونس، وهو مثال آخر عن تعيين شيخ القبيلة من السلطان نفسه ضمانا لولاء بجاية التي عدت ركيزة ملك كل التراب الحفصي، واستطاع شيخ صنهاجة الدفاع عنها ضد أطماع أبي يحيى أبي بكر صاحب قسنطينة[3]، وأرجع فالريون بروز ابن خلوف بشكل بارز لضعف الكتل السياسية داخل القصر البجائي من الأندلسيين والموحدين[4]، وبقاء مدن الأطراف مرتبطة بالمركز بمثل هؤلاء القادة العسكريين ومن شيوخ القبائل.

3- دور العطاء في تنمية الولاء :

أمثلة كثيرة لشيوخ القبائل البجائية البربرية والعربية، رهنت طاعتها لأي سلطة سواء من طلاب إمارة بجاية من البيت الحفصي أو الدخيلة بمدى العطاء الذي تقدمه هذه السلطات للقبيلة والشيخ، فأولاد محمد من الذواوذة سيطروا على حواشي قسنطينة بعد أن أقطعتهم السلطة الحفصية أريافها[5]، واستقر عرب أولاد سباع على بجاية لكن أراضيهم بها قليلة برأي ابن خلدون لقوة السلطة مما أجبرهم على سكن المناطق الجبلية الوعرة التي استصعبت على ولاة بجاية، وكثيرا ماكان منع الإقطاع أو مصادرته أو رفع الجباية وكثرة الضرائب سببا في تنكر شيوخ

([1]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص471.

([2]) Valérian : *op. cit*, p, 157.

([3]) انتهى دوره باغتياله سنة 712هـ/1312م بفرجيوة بعد أن أخلف أبي يحيي الوعد الذي أعطاه للصوفي أبي يعقوب يوسف الملاري بالعفو عنه، وشارك في عملية المؤامرة ضد ابن خلوف شيخ الذواوذة عثمان بن شبل المتواطئ مع صاحب قسنطينة، أنظر عن ذلك : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص473.

- وأنظر عنه كذلك : برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص159.

([4]) *Bougie Port Maghrébin, p, 158.*

([5]) وتشمل الإقطاعات الأراضي الزراعية والمراعي الواسعة، يراجع : العروي : **مجمل تاريخ المغرب**، ص223.

القبائل للحفصيين ببجاية[1]، وفي نفس الوقت ساهمت فترات ضعفهم في منح المشيخة حق الاضطلاع بالتصرف في الجهات البعيدة عن أعينهم والخارجة عن طاعتهم، فقد استمر بنو يزيد من عرب زغبة في جباية منطقة حمزة وبني حسن وجمع الضرائب من سكانها الصنهاجيين والزواويين[2].

دخلت بعض القبائل البربرية التي ارتحلت بعض بطونها إلى تخوم بجاية للضعن بماشيتهم وأنعامهم ثم لستقرت بتلك المناطق في خدمة السلطة الحفصية بالأموال[3] ومنهم لواتة[4]، التي استوطن بعضها أحواز بجاية (تاكرارت)، وكانت المشيخة فيهم لراجح بن صواب الذي داوم على إعطاء أمير بجاية "جباية مفروضة وبعث معلوم"[5]، علما أن دولة العطاء لم تقتصر على الحفصيين فقط[6].

على العكس من ذلك فإن سياسة المرينيين اختلفت عن ما اعتادته القبائل مع الحفصيين، فرغم الإسهام المادي والعسكري لشيوخ القبائل العربية والبربرية على حد سواء والتي رفعت شعار التبعية والانصياع للسلطان المريني أبي الحسن وأغرته بملك افريقية سنة 748هـ/1347م طمعا في حياة جديدة مع القادم من المغرب الأقصى، ومنهم أمير الزاب يوسف بن منصور بن مزني وكبير الذواوذة يعقوب بن علي من مشيخة عرب رياح وغيرهم من الشيوخ الذين خرجوا لملاقاة السلطان بمنطقة بني حسن[7] خارج بجاية والترحيب به، فأوسعهم حبا وتكرمة على تعبير ابن خلدون[8]، ليبرز ذلك أن شيوخ القبائل لا عهد لهم وأنهم ينقلبون بسرعة حتى ولو كانوا في حال حسن بحثا عن الأفضل، وأنهم لا يفرقون بين السلطة الشرعية والسلطة الغازية بقدر ما يفكرون في سلطة المال والعقار، معمقين الصراع المحلي الجهوي والذي زاد حدة مما كان عليه، فكيف كان تعامل الوافد الجديد معهم ومصير سياسته؟

([1]) والإقطاع جزء من ممتلكات العرش، مارسي : **بلاد المغرب**، ص324.

([2]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص55.

([3]) تناول الجابري موضوع استمالة شيوخ القبائل بالأموال في التاريخ الإسلامي، ضاربا مثالا عن الدولة الأموية مع بني هاشم، أنظر : **العقل السياسي العربي**، ص256-258.

([4]) لواتة إحدى قبائل البربر يسكنون برقة وبعضهم بجبل أوراس والآخرين نواحي بجاية، يراجع : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص152، 155.

([5]) **المصدر نفسه**، ج6، ص155.

([6]) فالزيانيون هم كذلك فهموا تركيبة وطبيعة شيوخ القبائل، وأن ولائهم وطاعتهم واحتوائهم مقرونة بمدى سخاء السلاطين، لهذا نجد السلطان الزياني أبا تاشفين يقطع شيوخ أولاد سباع من الذواوذة وهم (سليمان ويحيي ابنا علي بن سباع وعثمان بن سباع وابنه سعيد) بلاد المسيلة وجبال مشنان ووانوغة وجبل عياض، إكراما لهم واعترافا بجميلهم، حيث دعموه بالأموال لأجل دخول بجاية سنة 732هـ/1331م، لكن سرعان ما فقدوا هذا الأراضي بعد فشل مشروع احتلال المدينة وعودة السلطان إلى المسيلة وإجلائهم عنها، المصدر نفسه، ج6، ص498-499.

([7]) المصدر نفسه، ج6، 520.

([8]) المصدر نفسه، ج6، ص521.

الإجراء الأولي المتخذ من أبي الحسن أنه انتزع الجباية من المشيخة وقلدها لوزرائه ورجال دولته[1]، وسحب منهم ضريبة الخفارة التي كانوا يأخذونها من المارة[2]، وهي أول خطوة رأى شيوخ القبائل أنها مضرة بهم وتهدف لسحب القيادة منهم، القشة التي قصمت البعير هي أنه أوقف الإقطاعات عن العرب ومنع التصرف في جمع لهم من الديوان، فقر من المال يقدم لهم من الديوان، فلم يرض شيوخ القبائل بالوضع الجديد ليتحالفوا ضده ويهزموه في واقعة القيروان محرم 749هـ/1348م/[3]، قاضين على أحلامه بتعبير البعض[4]، فأصبح من الصعب إسكات هذه القبائل وتمردها العفوي على كل من يمس امتيازاتها التي أصبحت حقوقا بنظرها، لكن الدرس المريني لم يتكرر مع السلطان أبي عنان[5].

سحب القيادة من الشيوخ وتولية موظفين من رجال دولته كقادة على رأس هذه القبائل من الأساليب الهادفة إلى الحد من نفوذهم، فقد وضع على رأس قبيلة سدويكش البربرية وزيره موسى بن إبراهيم، والهدف من ذلك هو التخفيف من ضغط الشيوخ الممارس على أفراد القبيلة وغياب الرابطة التي توحد مواقفهم في شخصه، كما أنه اتخذ أسلوب الرهائن كوسيلة للإجبار على الولاء المفروض، حيث قبض على الموظفين الكبار ببجاية لما دخلها 754هـ/1353م وأرسلهم إلى المغرب[6]، وكذلك فعل مع القبائل، حيث وضع شيوخ بني مزني والذواودة أبناءهم تحت تصرفه وفي خدمته كوعد قطعوه معه على نصرته وطاعته وعدم الخروج عنه، واجتمع مع شيوخ العرب التابعين لبجاية وقسنطينة وشرح لكل دوره وأعطى أوامره للتنفيذ[7].

كل تلك الإجراءات التي فاجأ بها أبي عنان شيوخ القبائل نجحت إلى حد ما في تجنيبه الكثير مما وقع فيه والده السلطان، ولفهمهم قواعد سياسته بمنعهم العطاء والامتيازات التي تفضل بها الحفصيون عليهم فإن الشيوخ والقيادات وقفت في وجهه أثناء رحلته الثانية لاحتلال المغرب الأوسط والأدنى سنة 758هـ/1356م، وبعضها هرب خوفا من بطشه ورفضت التحالف معه ومساندته انتقاما لمعاملاته السابقة والتي لم تكن في صالحهم، فقد

([1]) المصدر نفسه، ج6، ص 523-524

([2]) بوشامة : المرجع السابق، ص197.

([3]) ابن خلدون : المصدر السابق، ج6، ص 524، وكذلك : ابن أبي دينار : المصدر السابق، ص169، برونشفيك : المرجع السابق، ج2، ص193.

([4]) Valérian : *op. cit.*, p. 163.

([5]) الذي أدرك أن شيوخ القبائل هم المدبرين لشؤون القبائل وأن مكانتهم عند أفرادهم مكفولة بنوع من القداسة والاحترام إلى حد التضحية الطوعية والولاء الجهوي ودورهم في إضعاف أي سلطة مع جيح الصراعات الجهوية ودورهم في إضعاف أي سلطة مع احتفاظه بموقف والده أبي الحسن بمنعهم من هذه العطاءات الكثيرة وإجبارهم على الطاعة دون أن يدفع لهم شيئا، وهو أسلوب جديد في التعامل مع القبائل.

([6]) منهم هلال مولى ابن سيد الناس والقاضي محمد بن عمر وزعماء الغوغاء اعتقلهم وأشخصهم إلى المغرب الأقصى، العودة إلى : ابن خلدون : المصدر السابق، ج6، ص534.

([7]) المصدر نفسه، الصفحة نفسها، وكذلك : - Valérian : *op. cit* ., p .*156* .

جاهر الشيخ يعقوب بن علي بالعداء للسلطان أبي عنان لحيله ومكره وغدره بالقبائل وبلغه أنه يتصف بـ"إرهاف حده بالعرب ومطالبتهم بالرهن وقبض أيديهم عن الإتاوات"[1].

هذه الإجراءات الجديدة في التعامل مع القبائل تنم على أن السلطان المريني أبي عنان رسم خطة تعامله معها حين عزم على اجتياح البلاد، معرضا عن أسلوب الإغراء المادي الذي عهدوه، وتفاجئ شيوخهم بهذه التدابير التي جعلتهم يعيدون النظر في التعامل مع المرينيين.

الإقطاع هدف أولا إلى كسب ولاء القبائل وتشيعها للسلطة التي تبدي سخاءً أكثر من غيرها جراء الخدمات التي تقدمها لها، وكلما كانت القبيلة بعيدة عن المركز زاد تنازل السلطة لها عن إقطاعات أكبر، لنشهد توسعا كبيرا لهذه القبائل على الأراضي التابعة للسلطة البجائية في الربع الأخير من القرن 7هـ/13م، بدءا من عهد ستضر بشكل تدريجي واستفحل على عهد السلطان أبي إسحاق[2]، ثم في النصف الثاني من القرن 8هـ/14م في فترة السلطان أبي إسحاق إبراهيم الثاني (750-770هـ/1350-1369م)[3]، ثم تعرف تقلصا بشق الأنفس مع السلطان أبي العباس أحمد الثاني (772-796هـ/1370-1394م)، حيث "انتزع ما بأيدي العرب من الأمصار"[4]، ويعبر مصطلح الأمصار عن ملكيات عقارية شاسعة تابعة للدولة تملك للقبائل ولشيخ القبيلة حصة الأسد من هذه الأراضي والأموال[5]، وقد تصبح وراثية بشرط الطاعة لواهبها ولمن يخلفه في السلطة، ويقدم الورثة فروض الولاء كلما اقتضت الضرورة وإلا سحب منهم هذا الامتياز[6]، وقد لقيت إجراءات السلطان أبي العباس معارضة شديدة من القيادات والذين اعتبروها إجحافا في حقهم، مما جعل أولاد أبي الليل والذواوذة يتحالفون رغم العداوة التي كانت بينهم للخروج عن السلطان ومحاربته[7].

4- تغذية الصراع المحلي المحلي والمحلي المغاربي :

إن ميول شيوخ القبائل تحكمت فيها المصالح الموفرة لهم دون أخذهم الاعتبارات السياسية أو المذهبية أو الجغرافية لمن يقدمون لهم العون، لهذا سنجد السلطة المحلية التي أعلنت الاستقلال بالثغر الغربي والمتطلعة إلى حكم كل السلطنة الحفصية تستنجد بهم لإعالتها بالجيش والمال، ولم يبخلوا عليهم بما طلب منهم، بل ساندوا الكثير من الولاة الذين تطلعوا للوصول إلى القصبة البجائية دون رضا السلطة المركزية، حتى دعموا المرينين والزيانيين في محاولتهم للسيطرة على المنطقة، مغذين بذلك الصراع المحلي المحلي والمحلي المغاربي.

([1]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص97.

([2]) علما أن السلطان أبي زكريا (حكم 626-647هـ/1229-1249م) لم يمنح الإقطاعات للقبائل واكتفى بالعطاء المالي والسماح لهم بجباية البلاد التابعة لهم.

([3]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج2، ص192.

([4]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص107.

([5]) Valérian : *op. cit.*, p. 168.

([6]) مارسي : **بلاد المغرب**، ص325.

([7]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص107.

- وعن موضوع الإقطاع ودوره في بجاية الحفصية أنظر : Valérian : *op. cit.*, p. *166-167.*

بدأت معارضة شيوخ القبائل للسلطة البجائية تظهر بشكل جلي على عهد السلطان المستنصر (647-675هـ/1249-1277م)[1]، ولفهم موقف هؤلاء الشيوخ من الحكم الحفصي وأشكال معارضتهم وكيفية تعامل السلطة معهم، أخذت نموذجين إثنين، واحد مثلته قيادات قبيلة الذواوذة العربية والثاني مثلته قيادات قبيلة بني سيلين البربرية برزا على طول القرون الثلاثة محل الدراسة، وكانا لشيوخهما الدور في تغيير الكثير من حسابات السلطة المركزية.

ضربت السلطة بيد من حديد شيوخ القبائل الذين رفعوا السلاح في وجهها، وبرزت بشكل ملفت في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م معارضة قوية من شيوخ الذواوذة الذين خرجوا على السلطان المستنصر وولاته على بجاية ومآزرة أخوه إبراهيم الخارج عن طاعته مطالبا بالملك، فقد لجأ إلى شيوخ هذه القبيلة بحكم قوتها وكثرة عددها لنصرته ضد أخيه، وافقوا على المقاتلة في صفه فخرج السلطان من تونس على رأس الجيش لمحاربتهم سنة 664هـ/1265م[2]، ثم عاود الكرة ثانية سنة 666هـ/1267م وقدم على الجيش والي بجاية أبو هلال عياد بن محمد الهنتاتي الذي دعم من عرب بني سليم و اصطنع بعض شيوخ الذواوذة إلى صفه كالشيخ مهدي بن عساكر، فلما أحس شيوخهم بأن الدائرة دارت عليهم وأنهم على وشك الهزيمة راسلوا الهنتاتي بالتوبة ووقف الحرب، فاقترح عليهم تلبية طلب المستنصر برؤيته ولقائه للعفو عنهم، وحينما وصلوا إلى الوالي البجائي ضرب أعناقهم بدءا بزعيمهم يومئذ شبل بن موسى بن مسعود وعددهم ثمانية شيوخ[3]، ونصبت أشلاؤهم بنقاوس وأرسلت رؤوسهم إلى بسكرة للعبرة[4]، وتراجع الذواوذة إثر هذا المصاب من تلال قسنطينة وبجاية إلى الزاب وريغ ووارجلان هربا من ملاحقة السلطة لهم[5]. تعامَل المستنصر إذا مع شيوخ العرب بحد السيف لقوته و ارتفاع شأن الدولة في عهده إضافة لتحالف عرب بني سليم معه، ورغم إجباره للذواوذة على التراجع إلى الخلف إلا أنهم سيعودون في عهد أبي حفص عمر (حكم 683-694هـ/1284-1295م) الذي أقطعهم أراضي الزاب وجبل أوراس واعترف لهم رسميا بحيازتهم للحضنة (نقاوس، مقرة والمسيلة)[6].

يطفو بشكل جلي على التاريخ القبلي لبجاية خلال العهد الحفصي الدور البارز لبني سيلين رغم أنهم بطن فقط من بطون سدويكش البربرية[7]، إلا أنهم صنعوا الكثير من الأحداث التي جعلت ابن خلدون يتتبعها. أما

---

(1) عرف السلطان أبي زكريا بن يحيى (حكم 626-647هـ/1229-1249م) كيف يستثمر هذه القبائل لصالحه بأخف الأضرار، و استطاع بسياسته وصفاته الخلقية احتوائهم بشكل قل نظيره عند السلاطين الحفصيين الذين جاءوا بعده.

(2) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص423.

(3) وهم : شبل بن موسى بن مسعود وأخوه يحيي، سباع بن يحيي بن دريد وابنه، طلحة بن يحيي بن دريد، حداد بن مولاهم بن خنفر، فضل بن ميمون بن دريد بن مسعود، أنظرهم : **المصدر نفسه**، ج6، ص45-46.

(4) **المصدر نفسه**، ج6، 423-424.

(5) تفرق شملهم بعد هذه الضربة القاسية، فمنهم من التحق بخدمة الزيانيين وبعضهم انضم إلى المرينيين، **المصدر نفسه**، ج6، ص46.

(6) **المصدر نفسه**، ج6، ص46، وأنظر كذلك : Valérian : *op. cit.*, p. 166.

(7) ومواطن بطن بني سيلين كما جاء عند ابن خلدون بجبل بابور إلى نواحي بجاية، علما أن البطن يتحكم في مجموعة من الأحياء، أنظر : العبر، ج6، ص198.

مواقفهم من السلطة الحفصية ببجاية فيمكننا تقسيمها إلى دورين إثنين، فالدور الأول والذي عرفه النصف الثاني من القرن 8هـ/14م قدم فيه شيوخ بني سيلين فروض الطاعة والتبعية للأمير البجائي، إلا أن الدور الثاني الذي عرفه القرن 9هـ/15م فقد تميز بتوتر العلاقة بين الطرفين، وقصد فهم هذه العلاقة وفهم دور كل شيخ في تعامله مع السلطة ارتأيت تبويبهم حسب الأدوار بالشكل التالي :

شيخ القبيلة	دوره تجاه السلطة	نهايته	المصادر
صخر بن موسى السليني (ت748هـ/1347م).	خدمة السلطان أبي يحيي أبي بكر.	قتله السلطان المريني أبي الحسن سنة 748 هـ/1347م).	ابن خلدون، ج6، ص198، 521، ج7، ص357.
عبد الله بن صخر بن موسى (ابنه).	خدم أمراء بجاية إلى غاية وفاته في حدود 780هـ/1378م.		ابن خلدون، ج6، ص198.
محمد بن عبد الله بن صخر (ابنه)	الاستمرار في الولاء للحفصيين.		ابن خلدون، ج6، ص198.

هذا الدور كما يبرزه الجدول مثله ثلاثة شيوخ، أولهم صخر بن موسى والذي عاصره ابن خلدون، هو أول من دخل في خدمة الحفصين، فقد عينه السلطان أبي يحيي أبي بكر شيخا على قومه من بني سلين، قَدَم للحاضرة وسلطتها ببجاية كل الإعانة بأنواعها حتى أنه "كان له مقامات في خدمته"[1]، وقد أبلى بلاء حسنا من بعد وفاة أبي يحيي، فقد أعان السلطان أبي حفص عمر الثاني بعد وصوله إلى الحكم سنة 746 هـ/1345م مدافعا عن الحفصيين بإخلاص تام أمام الزحف المريني إلى أن قبض عليه رجال أبي الحسن المريني في واقعة قابس سنة 748هـ/1347م ليُقتل مع السلطان أبي حفص، وكان مصير هذا الشيخ الوفي أن قطع من خلاف جزاء ولائه[2]، وفاء و الطاعة مع ابنه عبد الله بن صخر بن صخر الذي جعل بطن بني سلين رهن إشارة أمراء بني حفص ببجاية الى غاية وفاته في حدود780هـ/1378م، ثم ولي بعده المشيخة ابنه محمد الذي واصل مسيرة والده وجده[3]، ويظهر الجدول التالي شيوخ بني سيلين الذين وقفوا في وجه السلطة الحفصية ببجاية وتحالفهم مع كل من حاربها وعاداها :

شيخ القبيلة	دوره تجاه السلطة	نهايته	المصادر
عبد الله بن عمر بن صخر	تحالف مع أبي الحسن ضد السلطة	اجتز رأسه وأرسل إلى	الزركشي، ص139.

(1) ابن خلدون : المصدر السابق، ج6، ص198.
(2) المصدر نفسه، ج6، ص521-522، ج7، 357.
(3) المصدر نفسه، ج6، ص198.

السليني (ت843هـ/1439م)	الحفصية.	تونس.	
محمد بن يحيى السليني (الابن).	قتل أمير بجاية أبي محمد عبد المؤمن بن أبي العباس سنة 846هـ/1442م.		الزركشي، ص141.
محمد بن سعيد السليني.	استمرار محاربته للحفصيين وقدرة السلطان على استمالته ووقفه للمواجهة سنة 863هـ/1458م.	أكرمه السلطان وأقام بتونس مع أهله إلى ربيع الثاني 867هـ/1462م.	الزركشي، ص151، 153.

يبين الجدول أن ثلاثة شيوخ من بني سيلين واجهوا السلطة الحفصية وساندوا الثائر الحفصي الأمير الأسبق أبي الحسن بن أبي فارس الذي خرج عن الطاعة مطالبا باستعادة إمارته على بجاية سنة 837هـ/1434م، فبعد أن قبض السلطان أبي عمرو عثمان (حكم 839-894هـ/1435-1488م) على أنصاره من شيوخ أولاد أبي الليل من أحفاد حمزة بن عمر واعتقالهم سنة 840هـ/1432م[1]، يتحول للاستنجاد بقوة أخرى تمكنه من تحقيق مبتغاه بسيوفها فترل عند بني سيلين في منطقة القبائل الصغرىعند شيخهم عبد الله بن عمر السليني[2]، الذي بدل كل الجهود العسكرية والمالية للأمير أبي الحسن، فقد منع وصول الجيش الحفصي الذي كان بقيادة السلطان للقضاء على هذه الثورة أواخر عام 840هـ/1437م[3]، ووقف سدا منيعا دون وصولهم لأميره لمدة سنتين كاملتين وهو يحارب و لم تتمكن السلطة المركزية من غريمها[4]، وبقيت بجاية في يد هذا الأمير الثائر إلى أوائل 843هـ/1439م حين قبض على شيخ بني سيلين ليجتز رأسه ويرسل إلى تونس وينصب على باب خالد[5]، عبرة لغيره من قيادات القبائل الذين أعلنوا الحرب على السلطة الحفصية عبر ترابها، وفي غياب بني سيلين فإن الأمير أبي الحسن سيهزم ويخرج من بجاية التي استعادتها السلطة في جمادى الآخرة سنة 843هـ/1439م[6].

تزداد العلاقات أكثر توترا ونشازا بين بني سيلين والسلطة الحفصية ببجاية بعد عودة الوالي البجائي عبد المؤمن بن أبي العباس إلى حكم بجاية في نفس السنة، فوقف بنو سيلين الند للند ضده بتحرشاتهم المستمرة بالمدينة، واستطاع شيخهم محمد بن يحى السليني المعروف بابن حجر من تدبير عملية اغتيال أمير بجاية عبد المؤمن أوائل

([1]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص138.

([2]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص274.

([3]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص139.

([4]) المطوي : **المرجع السابق**، ص620.

([5]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص139.

([6]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

عام 846هـ/1442م[1] انتقاما من قتل شيخهم عبد الله بن عمر من السلطان أبي عمرو عثمان، وربما كانت هذه التصفية لهرم السلطة ببجاية بإيعاز من الأمير السابق أبي الحسن.

يبرهن هذا العمل الجريئ الذي قام به شيخ بني سيلين عن القوة والتنظيم وحسن التخطيط الذي تميز به شيخ بني سيلين وأعوانه، فليس من السهل الوصول إلى أمير بجاية المحاط بمجموعة من العلوج كحراس خاصين، إضافة إلى الإجراءات التي اتخذها الأمراء لحماية أنفسهم، وعلى إثر عملية التصفية يعين أبو محمد عبد الملك أخ الوالي الراحل أميرا على بجاية[2].

استمر بنو سيلين في عدائهم تجاه السلطة البجائية و لم يعترفوا بها، لذلك شمر أمير بجاية أبي فارس عبد العزيز (859-870هـ/1455-1466م) لحربهم دون هوادة وهزموا بقيادة شيخهم محمد بن سعيد بن صخر بعد أن حصروا بمنطقة مكرس أواسط رجب 863هـ/1459م وأُسر الكثير منهم ونجا شيخهم من هذه الواقعة التي كادت أن تقضي عليهم[3]، واعتبر أحد الباحثين أن هذه المعركة بمثابة تصفية للمتبقين من أنصار أبي الحسن[4].

سعى الشيخ محمد بن سعيد لتنظيم جيشه ثانية لأجل مواصلة مناوشاته ضد السلطة، والواضح من هذا الإصرار في محاربتهم للحفصيين أن العداء تجذر عند شيوخ بني سيلين وأصبحت مواجهة السلطة عندهم أمرا تقليديا.

اقتنع السلطان الحفصي أن بنو سيلين وشيوخهم خصم عنيد لا يمكن قهره، ففي مدة ثلاثة وعشرون سنة لم يستطيع الحفصيون محليا مدعمين بقواتهم المركزية من القضاء عليهم، فاضطر أبي عمرو عثمان أن يسلك معهم أسلوب الحوار والمفاوضات لأجل إقرار السلم معهم، فرحل بشخصه إلى بجاية لعقد الصلح مع شيخهم، وأعطى الأمان والعفو للشيخ وقبيلته، ولأجل طمأنته وبعث الثقة فيه أرسل له السلطان ابنه وولي عهده المولى المسعود للتفاوض معه وكسبه فنجح في إبرام الصلح وأكرم الشيخ محمد بن سعيد وأهله وأقام بأمر من السلطان بتونس "فقدم معه راغبا في الطاعة فأكرم، وأتى به وبجميع أهله إلى تونس فأسكن بها وأعطي ما يقوم به"[5]، وبقي على حال من الحظوة والجاه إلى أن عاد إلى بجاية في ربيع الثاني 867هـ/1462م وانضم إلى قبيلته وقومه[6].

استطاعت السلطة أن تربح بالمفاوضات ما خسرته بالسيف، وأدرك شيوخ وأعيان بنو سيلين أن موازين القوى ليست في صالحهم خاصة بعد أن كاد يقضى عليهم نهائيا في آخر مواجهة مع الحفصيين، وأن الحرب المفتوحة مع الجيوش النظامية مآلها الخسارة، وأيقنوا أن التهدئة تخدمهم فجنحوا للسلم الذي عاد عليهم بالأمان من جهة ورعاية السلطة لهم من جهة أخرى.

([1]) **المصدر نفسه**، ص141.

([2]) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

([3]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص151.

([4]) برونشفيك : **المرجع السابق**، ج1، ص287.

([5]) الزركشي : **المصدر السابق**، ص151.

([6]) **المصدر نفسه**، ص153.

عدم الاعتراف بالسلطة القائمة والمشمولة لأراضي شيوخ القبائل اضطرهم الى مصانعة حتى الدخلاء على بجاية من القوى المجاورة، فتحالفوا وقدموا يد العون للزيانين والمرينين في مرات عديدة مقابل الإقطاعات والأموال مساهمين في صنع مصائب بجاية بمشاركتهم في الحروب وزادوا في حدة الصراع المحلي المغاربي والنماذج عن ذلك كثيرة[1].

والملاحظ أن التحالفات بين شيوخ القبائل وبني عبد الواد كثرت على عهد السلطان أبي تاشفين الذي كان يأمل في توحيد المغرب الأوسط تحت سلطته ومن ثم الوصول إلى تونس، لذلك ستتكرر المحاولات على عهده محاولة منه لنيل مطالبه[2]، فقد استصرخ شيخ أبي الليل وكبير بدو افريقية حمزة بن عمر سنة 723هـ/1323م به على السلطان أبي يحيي أبي بكر وانهزامهم أما الجيش النظامي بمرماجنة[3]، وهي المحاولة التي أراد بها القضاء على السلطة الحفصية المركزية، واستمر نخبة المجتمع الريفي في تقديم يد العون لبني عبد الواد[4].

هذه الطواعية التي أبانها شيوخ القبائل تجاه السلطة الزيانية كانت أقل حدة مع المرينيين وهو ما يرجح الرأي السابق، فإذا استثنينا نوعا ما التقارب الذي ظهر من بعض شيوخ بني مزني والذواوذة تجاه السلطان أبي الحسن[5]، ثم أبي عنان الذي حدث بنوع من الخوف والرهبة من القوة المرينية وبطشها، و الأموال المغدقة على بعض الشيوخ[6]، فإننا نجد نظرة القبائل وقياداتها للمرينيين صاحبتها الريبة والشك في أطماع هؤلاء، وتأكد لهم ذلك بعد

([1]) منها أن شيوخ صنهاجة البحائية وانتقاما لقائدهم ابن خلوف المغتال سنة 712هـ/1312م من أبي يحيي أبي بكر صاحب قسنطينة دعوا سنة 713هـ/1313م السلطان الزياني أبي حمو موسى الزياني لدخول بجاية لقلب النظام السياسي وتحويل ملك بجاية لبني عبد الواد، وانضم إلى هذا التحالف أمير الذواوذة عثمان بن سباع بن يحيي وعبر الطريق الصحراوي الذي شقه زاد جيشه قوة بالدعم المقدم من عرب قبيلة زغبة، ورغم القوات الكبيرة التي رصدت لهذا الهجوم إلا أنه فشل في تحقيق الهدف، أنظر : ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص477، ج7، ص137.

([2]) أرجع أحد الباحثين هذا الإصرار إلى التهديد الذي كانت تتعرض له تلمسان كل مرة من قبل المرينيين، ورجح أن الزيانيين كانوا يريدون نقل عاصمتهم إلى بجاية للابتعاد عن ذلك الخطر وهو ترجيح لم نجد له دليلا، بوشامة : **المرجع السابق**، ص 146.

([3]) ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج7، 143.

([4]) كمساندة شيوخ الذواوذة وعلى رأسهم ابراهيم بن الشهيد والمشيخة المتنافسة على قيادة عرب الكعوب حمزة بن عمر قائد قوات البدو من بني سليم وغريمه طالب بن مهلهل وكبير مشيخة حكيم محمد بن مسكين لأبي تاشفين وتحريضه سنة 725هـ/1324م على ملك افريقية ليعين على رأس جيشه المكون من القبائل العربية والبربرية قائده موسى بن علي، وكالعادة فشلت المحاولة حتى في دخول بجاية وقسنطينة وعودة الجيش الزياني إلى تلمسان خائبا، وعاود الكرة سنة 728هـ/1327م و729هـ/1328م مآزرا من القيادات نفسها دون جدوى أنظر عنها : **المصدر نفسه**، ج6، ص144، ج6، ص492.

([5]) رحب شيخ الذواوذة يعقوب بن علي وشيخ بني مزني يوسف بن منصور بالسلطان أبي الحسن وخرجوا إلى ظاهر بجاية (بني حسن) لاستقباله سنة 748هـ/1347م، وكا ن لابن مرزوق الدور الكبير في استمالتهم، كما قام عرب الكعوب وشيوخهم كحمزة بن عمر بدعوته لدخول تونس بعد أن خرج منها السلطان أبي حفص مع أنصاره من أولاد مهلهل، انتقاما من السلطان الحفصي الذي قتل الكثير منهم يراجع في ذلك : **المصدر نفسه**، ج6، ص520-521، ج7، ص356، وأنظر : ابن مرزوق : **المصدر السابق** : 496.

([6]) كان السلطان أبي عنان كريما مع بعض شيوخ العرب فوزع عليهم المال الوفير، ومنهم يعقوب بن علي وعثمان بن موسى، أنظر : يحيي بن خلدون : **المصدر السابق**، ج2، ص113.

إجراءات المنع التي اتخذها السلطان أبي الحسن في حقهم وتقلص امتيازاتهم والتي كانت سببا في الثورة عليه وهزيمته، لهذا نجدهم لا يستجيبون لدعوات أبي عنان ورفضهم التعامل معه لذات الأسباب، وفضلوا مساندة الزيانيين الذين لم يبخلوا عليهم بالإقطاعات ويرون شرعية حروبهم ضد السلطة الحفصية المغتصبة.

لقد ساهم شيوخ القبائل بامتياز في تغذية الصراع المحلي المحلي بكل ما قدموه من عون لطلاب العرش البجائي من البيت الحفصي، أو بدعمهم للأمراء البجائيين الأقوياء الذين وصلوا إلى الحاضرة سلاطين، كما كانت لهم اليد في تدهور أوضاع بجاية أمنيا وإقتصاديا وخلخلة الجانب السياسي بها بمشاركتهم الفعالة مع الدول المجاورة في الإجلاب عليها وحصارها ومحاربة السلطنة الحفصية بها مساهمين بذلك في تنمية العداء المحلي المغاربي وبلورته.

كان لشيوخ البدو وقبائلهم الدور الكبير في إثارة البلبلة وانتشار الفوضى وأثروا بأعمالهم في ضعف الإنتاج الزراعي والمبادلات التجارية بين المدينة والمناطق التابعة لها مستغلين عداءهم للسلطة وضعفها لتعكير الأجواء وفعل ما يريدون، وقد وقفت السلطة الحفصية في وجههم بالقوة خاصة في فترات تعافيها، وضربت بيد من حديد كل المناوئين لها واستعملت أسلوب الحوار في بعض الأحيان والإغراءات بأصنافها أثناء ضعفها، وكانت الملاحقات التي وصلت القبائل من السلطة بالقتل والتعذيب وأخذ الرهائن سببا في تحالف نخبتها مع السلطات المعادية مهما كان اتجاهها لأجل الثأر منها.

إذا فالعلاقة بين شيوخ القبائل والسلطة الحفصية تؤكد على التوتر التي ساد بين الطرفين وعدم استطاعة السلطة لي ذراع الشيوخ وإسكاتهم بالإقطاعات في وجود من كان يدفع لهم أكثر من أراضي وأموال وهبات وجمع المغارم، وأبدوا امتعاضهم من الحفصيين ببجاية مفضلين مد أيديهم إلى الزيانيين في كل مرة يطلبونهم، مع بعض الميل والود للأمراء ذوي النشأة البجائية من الحفصيين والذين كانوا سببا في وصولهم إلى إمارة بجاية، ليؤكد ذلك ما ذهب إليه بن خلدون أن سبب المواجهة بينهما دوما أخذت طبيعة علاقة البدوي بالحضري التي طبعها التوتر دوما.

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة :

النخبة من خلال الموروث التاريخي البجائي سواءً كانت علمية أو صوفية أو تجارية أو عسكرية أو إدارية أو قيادات ريفية أثرت في دواليب السلطة وغيرت في الكثير من مجريات الأحداث، واتسمت علاقة السلطة بهذه الأطياف بالتباين من فئة لأخرى بتطور كرونولوجي ساهمت فيه الكثير من العوامل، فعرف القرن 7هـ/13م فترة الود والتقارب بين تلك النخب والسلطة السياسية ببجاية في ظل قوة سلاطين بني حفص الأوائل وممثليهم من الولاة في حواضر السلطنة وتركيزهم لسلطات الدولة، وعدت بجاية نموذجا حيا عن ذلك الولاء، فطبع الهدوء تلك العلاقة خاصة مع النخبة الفقهية التي عدت أكبر تيارا فاعلا ومؤثرا ببجاية في تلك الفترة بحكم الكم العددي لذلك التيار من جهة وقدرته على توجيه السكان وطاعتهم لأراء الفقهاء من جهة ثانية، والذين توفرت لهم الأجواء السياسية الخالية من التوجه المذهبي والعقائدي الواضح في أداء مهامهم التعليمية والتربوية بأكثر حرية في ظل عودة المذهب المالكي بقوة إلى الفضاء البجائي، وتغليب السلطة لمصالحها السياسية على حساب الموروث الموحدي الذي تراجع ببجاية بشكل واضح على مختلف المستويات، فعادت الأحكام القضائية تسري بموجب هذا المذهب و لم تتدخل السلطة في المؤسسة القضائية إلا بصفة تعيين قضاة متضلعين في الأحكام بهدف ضمانها تلك الفئة من الفقهاء الإداريين ولكسب مصداقيتها بنشر العدل بين أهل بجاية، لنشهد استقلالا متميزا لهذه المؤسسة في أحكامها.

بفضل تلك السياسة استطاعت السلطة ببجاية أن تزاوج بين مختلف العناصر الاجتماعية التي شكلت في مجموعها تلك النخب مع سرعة اندماج العنصر الأندلسي في المجتمع البجائي والذي شكل أغلبية تلك الفئات المستقرة بها، وكانت حاجة السلطنة الفتية لخدمات تلك النخب المؤهلة علميا وإداريا عاملا رئيسا في صفاء العلاقة وتطورها فمدت يد العون لهم خاصة وأنها أعلنت القطيعة مع مراكش لأسباب سياسية ومذهبية وفقدت مخزونها من النخب القادمة من هناك، فالسلطة السياسية البجائية والنخب العلمية وجدت كل واحدة منهما ضالتها في الأخرى، لذلك لم نجد صورا للخصام بين الطرفين في القرن 7هـ/13م، وينطبق الأمر نفسه على التجار الكبار ببجاية، حيث نجحت السلطة بكسبهم فأسهموا في صناعة مجدها وبناء ملكها والدفاع عنه، لأن مصالحهم المالية والتجارية ارتبطت بصاحب الملك ورجال الدولة الكبار.

على عكس ذلك فإن تيار المتصوفة تحاشى تلك السلطة و لم يتعامل معها، فرفض متصوفة بجاية من منطلقات فكرية ومبادئ اعتقاديه كل الدعوات التي وصلتهم من القصبة و لم يقبلوا بالوظائف والإغراءات التي قدمت لهم رغم المساعي المتكررة حتى من قبل السلاطين والتي أخذت بعد القداسة لنيل بركاتهم إلا أنهم رفضوا ذلك بأسلوب هادئ و لم تصلهم السلطة بالأذى للاعتقاد فيهم في بعض الأحيان وقربهم من أهل بجاية.

أما النخبة العسكرية التي تعد ركيزة السلطة وأداة لتنفيذ سياستها فإنها أثبتت ولاءها وإخلاصها، وكان ذلك سببا في الاستقرار الإداري والسياسي الذي عرفته بجاية في القرن 7هـ/13م وأسهمت بشكل بارز في توسع الفضاء الجغرافي البجائي إلى أقصى حدوده لم يبلغ فيما بعد، مع ما قدمته النخب الريفية من دعم عسكري لتلك

السلطة من خلال تحالفاتها المتكررة معها لضمان مصالحها المادية والأمنية و لم يعرف ذلك القرن صراعات مع شيوخ القبائل بالشكل الذي عرفه القرنان 8و9هـ/14و15م.

شهد القرنين 8و9هـ/ 14و15م تغير في تلك العلاقة التي تحولت من الود إلى التوتر مع كثير من أطياف النخب والحالات كثيرة حتى من داخل التركيبة الهرمية للسلطة السياسية البجائية نفسها، وقد أسهم الوضع السياسي المتدهور والنظام الإداري الفاسد والغير مترري للأوضاع الاقتصادية وضاع الاقتصادية والاجتماعية في بروز فئة سياسية وفقهية ونخب ريفية معارضة للنظام السياسي، فقد وقفت السلطة العلمية إلى جانب العامة رفضا للظلم الاجتماعي الذي لحقها، وتحالف بعضهم مع قوى سياسية خارجية ضد السلطة المحلية فوصلتهم ببطشها مما اضطرهم إلى الفرار نحو تلك البلاطات، وأغلبهم فقهاء من أصول بجائية على قلتهم، وقد أسهم إقصاء العناصر المحلية وشيوخ الموحدين من الوظائف وسيطرة العنصر الأندلسي عليها في حدة الصراع بين تلك الأطراف وإثارة القلاقل والنعرات وخلق توتر شبه دائم بين النخب الأندلسية النافذة والعناصر المقصية، ووصل بها الحد إلى التنكيل بالفقهاء مخافة تهديد مصالحها والإبقاء على هيمنة ذلك التيار والذي كان سببا في ضعف السلطة وكثرة الخارجين عليها، خاصة من النخب الريفية التي خرجت ضدها ووقفت في وجهها وتحالفت مع العناصر المطالبة بالحكم من البيت الحفصي أو مع الدول المجاورة، تدفعهم في ذلك الإغراءات المقدمة لقبائلهم مساهمين في تغذية الصراع المحلي المغاربي، مما أجبر النظام السياسي الاستنجاد ببعض الوجوه للتوسط عند تلك القيادات ونجاح الوساطات في كسب بعضهم، واستمرت النخب العسكرية في وفائها للسلطة بحكم تركيبتها البشرية وطبيعة تكوينها وتعاملت معها السلطة على أساس مالي محض، فكانت يدها التي تبطش بها وأداتها في استمرار عمرها، رغم ذلك إلا أن النخبة البجائية بمختلف أصنافها استطاعت أن تبدع وتطور وتنقل الكثير من الأعراف والتقاليد الإدارية والسياسية والعسكرية إلى تونس لما عرف عنها من تفوق، مما جعل السلاطين يحثون على استقطابهم للاستفادة منهم في خدمة الدولة.

عانت السلطة الحفصية كثيرا مع النخبة البجائية بمختلف أصنافها، ويعود ذلك في نظري إلى طبيعة تلك السلطة الهشة والتي لم تستطع السيطرة على مجالها الجغرافي وانتشار الفساد الإداري بين أضلعها، ففقدت هيبتها وتدهور حالها، فثارت عليها القبائل ورفضها الصوفية وخرج عليها الكثير من الفقهاء وراح البعض منهم ضحية مؤامراتها.

وفي الأخير لا يمكن الحديث عن نهاية للموضوع، فدراسته تبقى مفتوحة نظرا للحاجة إلى التدقيق فيه من جهة وحاجة مادته إلى الدراسة والتحليل، ويمكن البحث فيه بتخصيص صنف من النخبة البجائية ودراستها من الجانب الحضاري وعلاقته بالشق السياسي، في حالة ما إذا توفرت لدينا نصوصا تاريخية مصدرية أخرى ومعطيات تمكننا من بناء الموضوع بشكل آخر.

الملاحق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملحق 1 : الفضاء السياسي البجائي في أقصى اتساعه

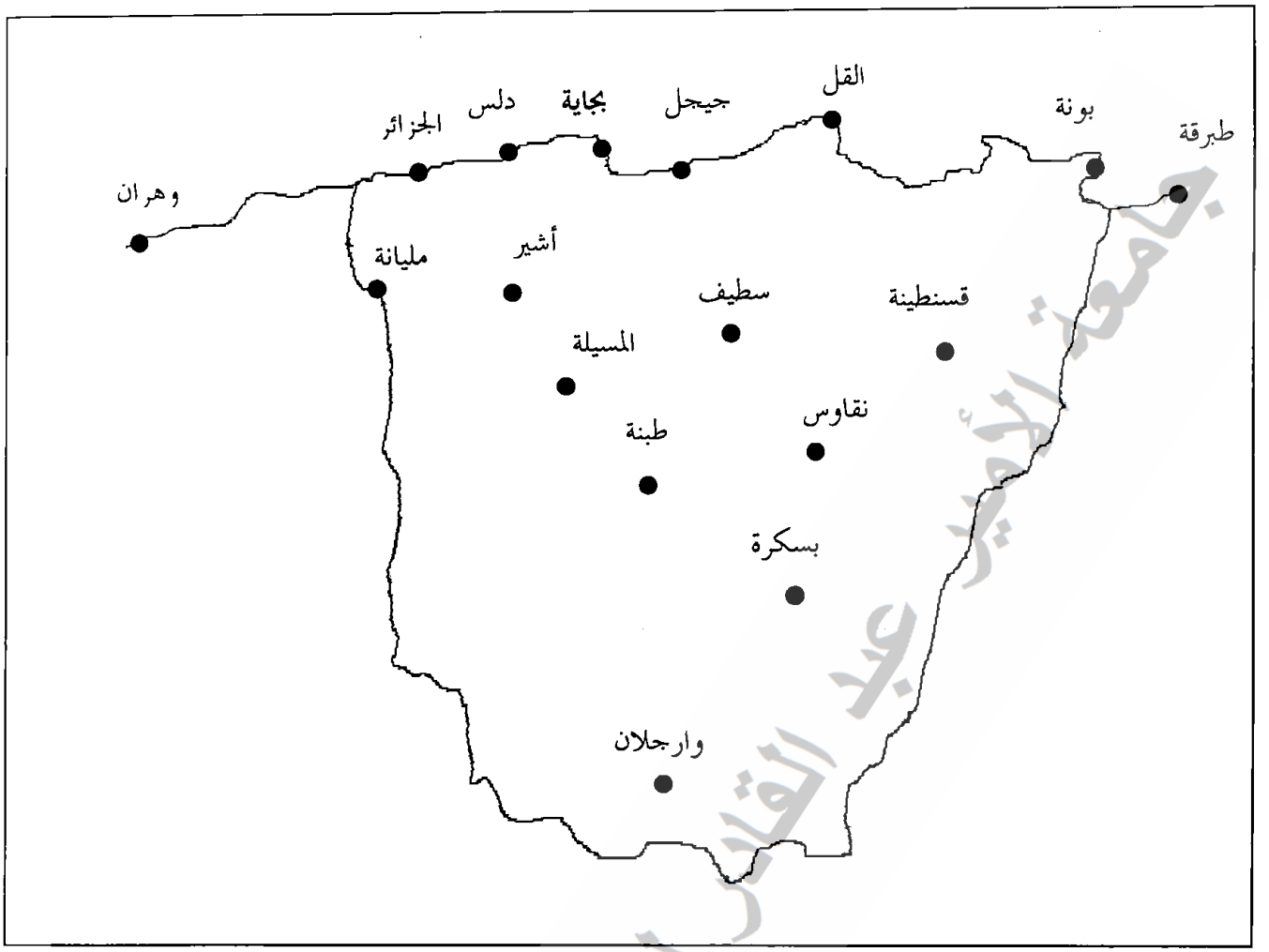

المصدر ابن خلدون : العبر، ج6، ص 398، ص449.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملحق 2 : ولاة بجاية خلال الفترة الحفصية

الوالي	فترة الحكم	طريقة التولية	المصادر
أبو علي عمر بن عيسى بن أبي حفص.	626-633هـ/1228-1235م.		التجاني، ص 294.
أبو يحيى زكريا ابن أبي زكريا.	633-646هـ/1235-1248م.	ولاه والده السلطان أبي زكريا وعهد له بولاية العهد سنة 638هـ/1240م.	ابن قنفد، ص109. الزركشي، ص 29-30 ابن خلدون، ج6، ص، 383،398،
أبو حفص بن أبي زكريا.	646 -660هـ/1248-1261م.	السلطان أبي زكريا.	ابن خلدون، ج6، ص 434.
أبو هلال عياد بن محمد الهنتاتي.	660-673هـ/1261-1274م.	ولاه السلطان المستنصر.	ابن خلدون، ج6، ص406-434
محمد بن أبي هلال الهنتاتي (ابنه)	673-677هـ/1274-1278م.	ولاه السلطان بعد وفاة والده.	ابن خلدون، ج6، ص434
أبو حفص عمر.	677هـ/1278م.	ولاه السلطان.	ابن خلدون، ص، 135-126
أبو إسحاق بن أبي زكريا[والي أصبح سلطانا]	677-678هـ/1278-1279م.	أهل بجاية وأعيانها.	ابن قنفد، ص 136-137
أبو فارس بن أبي إسحاق	679-682هـ/1279-1283م.	ولاه والده السلطان.	ذكر الزركشي أنه تولى ثلاث أشهر: ص48 ابن قنفد، ص138 ابن الشماع، ص78 ابن خلدون، ج6، 438 -439
أبو زكريا بن أبي إسحاق (الإنفصال وإعلان الإستقلال بالثغر الغربي)	683-700هـ/1284-1300م.	دخل بجاية بالقوة عائدا من تلمسان وضم قسنطينة وبسكرة وأتخذ الناصرية عاصمة للحفصية الغربية من سنة 684هـ/1285م.	ابن قنفد، ص، 148 155، ابن خلدون، ص 461،449.
أبو البقاء خالد بن أبي زكريا [استقل ببجاية ثم أصبح سلطانا]	700-709هـ/1300-1309م.	عهد له بها والده أبوزكريا (بقيت بجاية مستقلة وعاصمة للحفصية الغربية)	ابن قنفد، ص 155-157 ابن خلدون، ج6،461 -472

عبد الرحمن بن يعقوب بن مخلوف الملقب بالمزوار	709-712هـ/1309-1312م.	إستخلفه أبو البقاء خالد على بجاية لما ولي سلطانا بالحاضرة 711هـ/1311م	ابن خلدون، ج6/471-477،473.
أبو يحيى أبو بكر [أصبح سلطانا].	712-718هـ/1312-1318م.	ولاه أخاه السلطان أبو البقاء وبويع على قسنطينة ودخل بجاية 712هـ/1312م وأعلن الإستقلال عن الحاضرة إلى718هـ/1318م.	ابن الشماع، ص87- 89، العبر، ج6، ص 474،481.
أبو زكريا ابن أبي يحيى	720-740هـ/1320-1339م.	عينه والده السلطان أبو يحي أبوبكر.	ابن قنفد، ص165 ابن خلدون، ج6، ص 485،515-516
أبو حفص ابن أبي بكر	747هـ/1346م.	عينه السلطان.	الزركشي، ص، 78. ابن خلدون، ج6، ص516-517
أبو عبد الله محمد إبن أبي زكريا (الولاية الأولى)	747-748هـ/1346-1347م.	مشيخة بجاية.	ابن قنفد، 171 ابن خلدون، 6/516-517
أبو العباس الفضل بن أبي يحي (أصبح سلطانا سنة 750هـ/1349م.	748-749هـ/1347-1348م.	يسيطر عليها بعد إخراج أهلها لبني مرين وعودة أميرها السابق.	ابن قنفد، 173 ابن خلدون، 6/528
أبو عبد الله بن أبي زكريا (الولاية الثانية).	749هـ/1348م.	دخلها بدعم من أبي عنان المريني.	ابن خلدون، ج 6، ص527-528،533 الزركشي، ص، 94
الوزير محمد بن النوار[1].	749هـ،1348م.	عينه السلطان المريني	ابن خلدون، ج7، 356
عمر بن علي بن أبي الوطاس (والي مريني).	753هـ/1352م.	السلطان أبي عنان.	الزركشي، 94 ابن خلدون، ج6، ص383، ج7، ص 533.
موسى بن إبراهيم اليزناسي	753-754هـ/1352-1353.	السلطان أبي عنان.	ابن خلدون، ج6، ص534
أبو عبد الله محمد إبن أبي عمر	754هـ 756هـ/1353-1355م	مريني	ابن خلدون، ج6، ص 386-388، ج7، ص534.

(1) وقد كان الولاة المرينيون يختارون من الوزراء أو المرشحين لهذا المنصب، ابن خلدون : العبر، ج7، ص356.

الوزير عبد الله بن علي بن سعيد.	756هـ 758هـ/1355-1356م.	السلطان أبي عنان المريني	تاريخ الدولتين، ص94 ، ابن خلدون، ج6، 535،539
يحيى بن ميمون بن مصمود.	758هـ759هـ/1356-1357م.	السلطان أبي عنان	ابن خلدون، ج6، ص539،542 الزركشي، ص99 ابن خلدون، ص175
أبو إسحاق بن أبي يحيى بن أبي بكر [إتخذ بجاية مقرا له لخمس سنوات يدير منها شؤون الدولة]	761هـ765هـ/1359-1363م.	سلطانا ووالیا إتخذ بجاية مقره بدل تونس.	ابن خلدون، ج6، ص542 ابن قنفد، ص175 الزركشي ، ص 99 ابن الشماع، ص 105
أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا (الولاية الثالثة)	765هـ1363م767هـ/1367	دخلها صلحا مع السلطان أبي إسحاق	ابن خلدون، ج6، ص546-548 ابن قنفد، ص185 الزركشي، ص 99-102.
أبو العباس أحمد (والي قسنطينة) [أصبح سلطانا]	767هـ772هـ/1365-1370م.	دخلها بطلب من أهلها (بقي يتردد بين بجاية وقسنطينة)	ابن خلدون، ج6، ص550 555،556،ج7ص172، ابن قنفد، ص177 الزركشي، ص102-105،103
أبوعبد الله محمد إبن أبي العباس أحمد	772هـ785هـ/1370-1383م.	ولاه والده السلطان أبي العباس	ابن خلدون، 6/560-561، 573-574 الزركشي، ص105 ابن قنفد، ص186
28- أبو العباس أحمد ابن أبي عبد الله (الولاية الأولى)	785هـ 798هـ / 1383-1395م	السلطان أبي فارس	ابن قنفد، ص196 الزركشي، 119
القائد ظافر	قبل 809هـ/1406م	السلطان أبي فارس	الزركشي، 123-124
أبو عبد الله محمد ابن أبي يحيى زكريا	810هـ/1407م.	دخلها بالقوة بعد هزيمته للقائد ظافر.	الزركشي، 124
محمد المنصور بن أبي عبد الله	810هـ/1407م.	عينه والده السابق	الزركشي، ص 124.
أبو يحيى زكريا	810هـ812هـ/1407	السلطان أبي فارس	الزركشي، 123-124.

(1) ذو أصول عربية من المهدية وكان جده من وزراء المستنصر الحفصي، تقلد في المناصب حتى وصل إلى الحجابة،أنظر تاريخه عند : ابن خلدون، : **المصدر السابق**، ج7، ص386-388.

	1409-م.		
أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله (الولاية الثانية)	812هـ/1409م[1].	أعاده السلطان أبي فارس	الزركشي، ص124.
محمد بن أبي عبد الله	بعد812هـ/1409م.	السلطان أبي فارس	تاريخ الدولتين، ص 127.
المعتمد بن أبي فارس	824-834هـ/1421-1430م.	السلطان أبي فارس	تاريخ الدولتين، ص 128-129
القائد إبن نعيم رضوان (قائد عسكري)	834هـ/1430م.	ولاه أبي فارس	تاريخ الدولتين: ص، 128
أبو الحسن علي بن أبي فارس	838- 843هـ/1434-1439م.	ولاه السلطان	تاريخ الدولتين: ص، 137،142-146.
أبو محمد عبد المؤمن بن أبي العباس	843هـ846هـ/1439-1442م.	ولاه السلطان أبو حفص عمرو.	تاريخ الدولتين: 140-141
أبو محمد عبد الملك بن أبي العباس	846هـ856هـ/1442-1452م.	ولاه السلطان	تاريخ الدولتين:141، 146
القائد أبو علي بن منصور	856هـ859هـ/1452-1454م.	ولاه السلطان	تاريخ الدولتين، ص148.
أبو فارس عبد العزيز بن أبي عمر	859هـ إلى ما بعد 870هـ/1455-1466م	من قبل السلطان	تاريخ الدولتين، ص148

(1) أدركته الموت و لم يحكم إلا فترة قصيرة حسب برونشفيك، ج1، 246.

الملحق 5 : حجاب بجاية الذين أمكن حصرهم من المصادر

الحاجب	الفترة والوالي على عهده	إنتماؤه الجغرافي	سلطة التعيين	القرابة أو الفئة للسلطة	المصادر
يحيى بن إبراهيم بن صالح الهنتاتي	633هـ/1235م للوالي أبي يحي زكريا	هنتاتة (المغرب الأقصى)	من السلطان أبي زكريا	من الأشياخ	ابن خلدون، 383/6
محمد بن أبي بكر بن خلدون	679هـ 682هـ/1280-1283م للوالي أبي فارس	تونس	من طرف السلطان أبي إسحاق.	من رجال السلطان أبي إسحاق	ابن خلدون، 439-438/6
أبو الحسين بن سيد الناس.	684هـ690هـ/1285-1291م (للوالي أبي زكريا بن أبي إسحاق)	الأندلس		من رجال السلطان	ابن خلدون، 449،452/6
أبو القاسم بن أبي حيي.	690هـ 705هـ/1291-1305م (لنفس الوالي)	الأندلس	من أبي زكريا	من صنائع السلطة البجائية	ابن خلدون، 452/6 463-453،462
أبو عبد الرحمن يعقوب بن غمر	705-719هـ/1305-1319م.	الأندلس	الوالي	من رجال السلطان	ابن خلدون، 485-464/6
أبو عبد الله محمد بن قالون	720هـ/1320م.	الأندلس	من السلطان أبوبكر	حاجب السلطان بتونس	ابن خلدون، 486/6
محمد بن سيد الناس (الابن)	720هـ727هـ/1320-1336م.	الأندلس	السلطان أبو بكر	سابقة للأسرة في تولي المناصب	ابن خلدون، 486/6
أبو عبد الله محمد بن فرحون (المرة الأولى)	727هـ/1336م	عنصر محلي	السلطان أبو بكر	من رجال السلطان بالحاضرة	ابن خلدون، 515/ 6
أبو إسحاق بن علاق	قبل735هـ/1334م.	الأندلس	نفسه	من رجال السلطان	ابن خلدون، ج6، ص515

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أبو العباس أحمد بن أبي زكريا الرندي	735ـ740هـ/1334-1339م	الأندلس	الوالي أبي زكريا	تربى في القصر ببجاية	ابن خلدون، 515/6
أبومحمد بن تافراجين	740هـ741هـ/1340-1341م	تينملل المشيخة الموحدية	السلطان أبوبكر	من الأشياخ الموحدين	ابن خلدون، 515/6
أبوعبد الله محمد بن فرحون (المرة الثانية)	741هـ/1341م	الأندلس	أعاده الوالي		ابن خلدون، 515 - 516
إبن القشاش	قبل 747هـ/1346م.	الأندلس	الوالي	من صنائع دولة السلطان	ابن خلدون، 516/6
أبو القاسم بن علناس	قبل 747هـ/1346م.	الأندلس	الوالي	من طبقة كتابه	ابن خلدون، 516/6
يحيى بن محمد بن المنت الحضرمي[1]	قبل 747هـ/1346م.	الأندلس	الوالي	من رجال الوالي	ابن خلدون، 516/6
المولى فارح	747هـ/1346م.	من العلوج	الوالي أبي عبد الله	مولى الوالي أبي عبد الله	ابن خلدون، 517/6 384/7
عبد الرحمن بن خلدون	766-767هـ/ 1364-1365م.	تونس	التعيين		ابن خلدون : **الرحلة**، ص 95-96.

(1) أبوه وعمه من الأندلسيين الذين اجتازوا لبجاية، وتولى عمه أبو الحسن الخطابة ببجاية بجامع القصبة، وكان الفضل لإحدى موالي أبي زكريا (أم الحكم) في تقلده الحجابة، ابن خلدون : **المصدر السابق**، ج6، ص 516.

قائمة المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثبت المصادر والمراجع

أ- المخطوطات

* الصباع، أبو زيد عبد الرحمن

عمدة البيان في معرفة فرائض الأحكام، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 596، 195 ورقة.

ب - المصادر المطبوعة

* ابن الأبار، محمد بن عبد الله القضاعي (ت 658 هـ/1259م)

التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، 1995.

الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، (دت).

تحفة القادم، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

* ابن أبي الدم، شهاب الدين أبي إسحاق ابراهيم بن عبد الله (ت 642هـ/1244م)

أدب القضاة، تحقيق، مصطفى الزحيلي، دار دمشق، 1982.

* ابن أبي دينار، محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني.

المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ط 3، مؤسسة سعيدان، تونس ، دار المسيرة، بيروت 1993.

* ابن أبي زرع، علي الفاسي (حيا 762 هـ/1325م)

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب منصور، ط 2، المطبعة الملكية، الرباط، 1420هـ/1999.

* ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني (ت 630 هـ/1232م)

الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفدا عبد الله القاضي، دارالكتب العلمية، بيروت، 1995.

* ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي (ت807هـ/1404م)

مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تحقيق محمد التريكي ومحمد بن تاويت الطنجي، منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط، (دت).

نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق رضوان الداية، بيروت، دار الثقافة، 1967.

* الإدريسي، أبو عبد الله الشريف محمد بن محمد الحمودي (ت 560 بعد هـ/1164م)

نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1994.

* ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد بن علي بن قاسم الأصبحي الغرناطي (ت896هـ/1490م)

بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الدارالعربية للكتاب، ليبيا، تونس، (دت).

* الباجي، أبو الوليد خلف بن سليمان (ت 474هـ/1081م)

فصول الأحكام، تحقيق محمد أبو الأجفان، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

* البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ /869م)

الجامع الصحيح المختصر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دت).

* البرزلي، أبو القاسم بن أحمد (ت 841 هـ/1436م)

جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002.

* البغدادي، عبد القادر بن طاهر (ت 429 هـ/1017م)

كتاب الفقيه والمتفقه، تحقيق عادل يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، المدينة المنورة، 1996.

* ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779 هـ/1377م)

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار، تحقيق محمد عبد الرحيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (دت).

* البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت 487 هـ/1094م)

المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

* البلوي، أبو البقاء خالد بن عيسى الغرناطي (حيا 767هـ/1365م)

تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، أبو ظبي، الرباط، (دت).

* البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (ق 6 هـ/12م)

أخبار المهدي بن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

* التادلي، يوسف بن يحي المعروف بابن الزيات (ت 617 هـ/1220م)

التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد توفيق، ط 2، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1997.

* التجاني، عبد الله بن محمد التونسي (حيا 717هـ/1317م)

رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، الدرا العربية للكتاب، 2005.

* التجيبي، القاسم بن يوسف البلنسي السبتي (ت 730 هـ/1329م)

البرنامج، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.

* ابن تغري بردى، جمال الدين أبو المحاس الأتابكي (ت 874 هـ/1469م)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد مصطفى وعبد القادر عطا ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، 1977.

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد أحمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، 1994.

* التميمي، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفاسي (ت 603 هـ/1206)

المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، دراسة وتحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب، جامعة عبد الملك السعدي، تيطوان، المغرب، 2002.

* التنبكتي، أبو العباس أحمد بن أحمد بابا الصنهاجي السوداني (ت 1036 هـ/1626م)

نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تحقيق علي عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2004.

كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، تحقيق عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت 1422هـ/2002م.

* التنسي، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني (ت 899 هـ/1493م)

نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، (طبع باسم تاريخ بني زيان ملوك تلمسان)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

* ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ/1327م)

الخلافة والملك، تحقيق جمال سلامة ومحمد عويضة، شركة الشهاب، الجزائر (دت).

* الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الجزائري (ت 875 هـ/1470م)

الجواهر الحسان في تفسير آي القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت).

* ابن جبير، أبو الحسن أحمد بن محمد (ت 614هـ/1217م)

الرحلة، تحقيق سامي الدهان، ط2، دار الكتاب العربي، دارالكتاب المصري، 1979.

* الجرجاني، أبو الحسن علي بن عبد العزيز

التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1984.

* الجزري، مبارك بن محمد (ت 606هـ/ 1209م)

النهاية في غريب الأثر، تحقيق طاهر أحمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1979.

* ابن الجزري، أبو الخيرشمس الدين محمد بن محمد (ت 833 هـ/1429م)

غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق، ج. برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت).

* الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفي (ت 331 هـ/742م)

الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وأخرين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004.

* الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله (ت 479 هـ/1085م)

غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق، خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991.

* ابن الحاج النميري، إبراهيم بن عبد الله الغرناطي (ت بعد 774 هـ/1372م)

فيض العباب وإفاضة قداح الأداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.

* أبو الحجاج، يوسف بن عبد الرحمن المزي (ت 742هـ/1341م)

تهذيب الكمال، دار الفكر، بيروت، (دت).

* ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت 852 هـ/1442م)

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق، محمد عبد المعيد خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، (دت).

* ابن حزم، علي بن أحمد الظاهري الأندلسي (ت 456 هـ/1063م)

جمهرة أنساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة: دار المعارف، 1948.

* أبو حمو، موسى الزياني التلمساني (ت 791 هـ/1388م)

واسطة السلوك في سياسة الملوك، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1862.

* الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626 هـ/1228م)

معجم البلدان، ط2 ، دار صادر ، بيروت، 1995.

المشترك وضعا والمفترق صقعا، مكتبة المثنى، بغداد، دار الكتاب، اللبناني، بيروت، (دت).

* الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر (ت 488هـ/1075م)

الذهب المسبوك في وعظ الملوك، تحقيق عبد الرحمن الظاهري وعبد الحليم عويس، دار عالم الكتب، الرياض،1982.

* الحميري، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (القرن 8 هـ/14م)

الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.

* ابن حنبل، الإمام أحمد الشيباني البغدادي (ت 241 هـ/855م)

المسند، القاهرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دت).

* ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي البغدادي (ت بعد 367 هـ/ 1006م)

صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996.

* ابن الخطيب، لسان الدين السلماني الغرناطي (ت 776 هـ/1374م)

الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973.

أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

أوصاف الناس في التواريخ والصلات، تحقيق محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002.

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق البشير الفورتي، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، 1911.

الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1963.

* ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808 هـ/1405م)

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، (طبع بعنوان: **رحلة ابن خلدون**)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.

شفاء السائل لتهذيب المسائل، تحقيق، أبو يعرب المرزوقي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1991.

العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 2001.

المقدمة، تحقيق محمد الأسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005.

* ابن خلدون، أبو زكرياء يحيى بن محمد الحضرمي (ت 780 هـ/1378م)

بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد.

الجزء 1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، المكتبة الوطنية، 1980.

الجزء 2، تحقيق ألفرد بيل، الجزائر: مطبعة فونطانة، 1910.

* ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681 هـ/1282م).

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968.

ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي (ت 633 هـ/12351)

المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار العلم للجميع، بيروت، (دت).

* الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي (ق6هـ/12م)

الإشارة إلى محاسن التجارة،، محمود الأرنؤوط، دوط، دار صادر، بيروت، 1999.

* الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ/1347م)

سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط 9، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992.

العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط2، مطبعة حكومة الكويت، (دت).

* الرازي، محمد بن أبي بكر (ت721هـ1321م)

مختار الصحاح، تحقيق، محمود خاطر بك، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1981.

* الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين البكري الطبرستاني (ت606 هـ/1209م)

التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، تحقيق خليل محي الدين الميس، بيروت: دار الفكر، 1993.

* ابن رشد الجد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد القرطبي (ت 520 هـ/1126م)

فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1407- 1987.

* الرصاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت 894 هـ/1488م)

الفهرست، تحقيق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، **1967**.

* ابن رضوان، أبو القاسم عبد الله بن يوسف المالقي (ت 784 هـ/1382م)

الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق، علي سامي النشار، دار الثقافة، 1404هـ/1984م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* ابن الزبير، أبو جعفر أحمد العاصمي الغرناطي (ت 708 هـ/1308م)

صلة الصلة، تحقيق، ليفي بروفنسال، المطبعة الإقتصادية، الرباط، (دت)،القسم الأخير.

صلة الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، المغرب : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1995.

صلة الصلة، جزء ملحق بكتاب **الذيل والتكملة**، السفر الثامن، القسم الأول، تحقيق محمد بنشريفة، المغرب، أكاديمية المملكة المغربية، 1984.

* الزركشي، محمد بن إبراهيم (ت بعد 894هـ/1488م).

العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 2001.

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط 2، المكتبة العتيقة، تونس، 1996.

* ابن سحنون، محمد بن سعيد التنوخي (ت 250هـ/869م)

آداب المعلمين، تحقيق محمد عبد المولى، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

* السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 902 هـ/1496م)

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، (دت).

التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، تحقيق، عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1993.

* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت 911 هـ/1505م)

الدر المنثور (تفسير القرآن)، دار الفكر، (دت).

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، دار الفكر، بيروت، 1399هـ/1979.

نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فليب حتي، دار المعارف، تونس ، 1999.

طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، 1996.

* الشاطبي. أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي (ت 790هـ/1388م)

فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق محمد أبو الأجفان، ط2، مطبعة الكواكب، تونس، 1985.

* الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت330هـ/941م)

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1990.

* ابن الشماع، أبو عبد الله محمد بن أحمد التونسي (حيا سنة 861هـ/1456م)

الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس 1984.

* الشهرستاني، تاج الدين محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ/ 1153م)
الملل والنحل، تحقيق جميل العطار، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2002.
* الشيرازي، ابراهيم بن علي (ت 476هـ/1083م)
الوصول إلى مسائل الأصول، تحقيق، عبد المجيد التركي، (دون دار النشر والتاريخ).
* ابن صاحب الصلاة، عبد الملك (ت 594 هـ/1196م)
المن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق عبد الهادي التازي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.
* الأصبحي، أبو عبد الله مالك بن أنس (ت179هـ/795م)
المدونة الكبرى، ضبط نصها وأخرج أحاديثها، محمد محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004.
الموطأ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، 2003.
* ابن صعد، محمد بن سعيد الأندلسي التلمساني (ت901 هـ/1495م)
روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقيق يحيى بوعزيز، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، 2004.
* الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764 هـ/1362م)
الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000.
* ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن (ت 643هـ/1245م)
أدب الفتوى وشروط المفتي وصفة المستفتي وأحكامه وكيفية الفتوى والاستفتاء، تحقيق رفعت فوزي عبد المطلب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1992.
* الضبي، أحمد بن يحيى بن عميرة الأندلسي (ت 599 هـ/1202م)
بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق روحية السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997.
* ابن طاهر، المطهر المقدسي (ت 355هـ/1063م)
البدء والتاريخ، تحقيق كلمان هوار، باريس، 1916.
* ابن طباطبا، أبو جعفر محمد بن علي العلوي الطقطقي (ت 709 هـ/1309م)
الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، ط1، دار القلم العربي، حلب، 1418هـ/ 1997.
* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي (ت 310 هـ/922م)
تاريخ الأمم والملوك، تحقيق إحسان عباس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986.
* الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري (ت 520هـ/ 1620م)
سراج الملوك، تحقيق جعفر البياتي، رياض الريس للكتب والنشر، 1990.
* ابن الطواح، عبد الواحد (بعد 718 هـ/1318م)

سبك المقال وفك العقال، تحقيق محمد مسعود جبران، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

* العبدري، محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود الحاحي (حيا 688هـ/1289م)

ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب، الجزائر، (دت).

* ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد الأوسي (ت 703 هـ/1303م).

الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة.

* **السفر الأول**، تحقيق محمد بنشريفة، دار الثقافة، بيروت.
* **بقية السفر الرابع والسفر الخامس**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت
* **السفر السادس**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973.
* **السفر الثامن** ، تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984.

* ابن عذاري، المراكشي (بعد 712 هـ/1312م)

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

الجزء 1 و 2 و 3 : تحقيق، ج. س كولان وليفي بروفنسال، ط 3، دار الثقافة، بيروت 1983.

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرين، دار الثقافة، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

* العقباني، أبو عبد الله محمد بن الحسن بن قاسم بن سعيد (ت871هـ/1466م)

تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، حققه ونشره علي الشنوفي في مجلة ***Bulletin d'études orientales*** ، العدد 19 سنة (1965-1966).

* ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت 1089 هـ/1678م)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دت).

* الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد البجائي (ت 704 هـ/1304م)

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971.

برنامج مشيخة الغبريني، طبع مع "**عنوان الدراية**".

* الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت 505 هـ/1111م)

إحياء علوم الدين، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 2005.

* الفاكهي، محمد بن إسحاق بن عباس (ت279هـ/892م)

أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق د لله المهيش، ، ط2، دار الخضر، بيروت، 1993.

* أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن شاهنشاه (ت 732 هـ/1331م)

المختصر في أخبار البشر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417 هـ/1997.

* الفراء، أبو يعلى عبيد الله بن علي الحنبلي (ت 585 هـ/1189م)

الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ/ 1983م.

* ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمري المدني (ت 799 هـ/1396م)

تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1406- 1986.

الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417-1996.

* ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت 749 هـ/1348م).

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة أبو العباس، المجمع الثقافي للإمارات، أبو ظبي، 2002.

* الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817 هـ/1414م)

البلغة في تاريخ أئمة اللغة، تحقيق محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، 1986.

القاموس المحيط، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، 2005.

* القابسي، أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري (ت 403هـ/1012م)

الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق، أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، 1986.

* ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن أبي العافية المكناسي (ت 1025 هـ/1616م)

درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1423هـ/2002م.

جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1973.

* ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ/889م)

الإمامة والسياسة، موفم للنشر، الجزائر، (دت)

أدب الكاتب، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، 1419هـ/1999م.

* القرافي، بدر الدين محمد بن يحيى (ت 1008 هـ/1599م)

لإ بـ تهـ ا الديباج وحلية الإبتهاج، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004.

القرطبي، أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد (ت 671هـ/1272م)

الجامع لأحكام القرآن، ط4، مكتبة رحاب, الجزائر، 1990.

الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت).

* ابن القطان، حسن بن علي الكتامي المراكشي (كان حيا سنة 650هـ/1252م)
نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.
إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البشر، تحقيق الصمدي، دار إحياء العلوم، بيروت، 1995.
* القلصادي، أبو الحسن علي القرشي البسطي (ت 891 هـ/1486م)
تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، 1978، تونس (طبعة بعنوان : **رحلة القلصادي**).
* القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي الفزاري (ت821هـ/1418م)
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق، يوسف علي طويل، دارالفكر، دمشق،1987.
مآثر الأناقة في معالم الخلافة، ط2، مطبعة حكومة الكويت، 1985.
* ابن قنفد، أحمد بن الحسن القسنطيني (ت 810 هـ/ 1407م)
أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق نجاح عوض صيام، ط1، دار المقطم، القاهرة، 1422هـ/ 2002.
أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق أودولف فور ومحمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، الرباط، 1965.
الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.
الوفيات، تحقيق عادل نويهض، ط 4، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1982.
شرف الطالب في أسنى المطالب، تحقيق، عبد العزيز صغير دخان، مكتبة الرشد، الرياض، 2003.
* ابن القيم، محمد بن أبي بكر الجوزية (ت 751هـ/1350م)
* **أعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق، طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (دت).
* ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي (ت 774 هـ/1372م)
البداية والنهاية، تحقيق، محمد بيومي وآخرون، مكتبة الإيمان، مصر، (دت).
تفسير القرآن العظيم، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، (دت).
* المازوني، أبو زكريا يحيى المغيلي التلمساني (ت 883 هـ/1478م)
الدرر المكنونة في نوازل مازونة، نشر مختار حساني، منشورات مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، الجزائر 2004.
* الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البغدادي (ت 450 هـ/1058م)
الأحكام السلطانية والولايات الدينية، نشر نبيل عبد الرحمن حياوي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت.

قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق الهادي حسين، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994.

نصيحة الملوك، تحقيق فؤاد عبد المنعم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1988.

التحفة الملوكية في الآداب السلطانية، تحقيق فؤاد عبد المنعم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993.

* مجهول، (حيا أواخر القرن 6 هـ/12م).

الإستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، وزارة الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (دت).

* مجهول، (حيا سنة 712 هـ/1312م).

مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي الراقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2005.

* مجهول، (ق 9 هـ/15م)

نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق رضوان الداية، ط 2، دار الفكر، دمشق، 2002.

* المراكشي، عبد الواحد (ت 647 هـ/1249م)

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشر، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، 2006.

* ابن مرزوق الخطيب، أبو عبد الله محمد التلمساني (ت 781 هـ/1379م)

المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

* ابن مريم، محمد بن محمد المليتي التلمساني (ق 11 هـ/17م)

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

* المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 345 هـ/ 956م)

مروج الذهب ومعادن الجوهر، موفم للنشر، الجزائر، (دت).

* ابن المقفع، أبو عبد الله روزبه بن داذويه (ت 145هـ/762م)

كليلة ودمنة، دار النفيس، الجزائر، (دت).

الأدب الكبير والأدب الصغير، دار الجيل، بيروت، (دت).

* المقري، أبو العباس أحمد القرشي التلمساني (ت 1041 هـ/1631م)

نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1986.

أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، الإمارات العربية، المغرب.

* **الجزء 1 – 2 – 3**، تحقيق مصفى السقا وآخرون، 1978.
* **الجزء 4**، تحقيق سعيد أعراب ومحمد بن تاويت.
* **الجزء 5**، تحقيق سعيد أعراب وعبد السلام الهراس. 1400- 1980.

المرادي، أبو بكر محمد بن الحسن الحضري القيرواني (ت 489هـ/1095م)
كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة، تحقيق، رضوان السيد، دار الطباعة للنشر والتوزيع، بيروت، 1989.
* المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت 380 هـ/990هـ)
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
المالطي، ط خليل بن خليل بن شاهين الشيخي الحنفي (ت 920 هـ/1514م).
الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرنكفورت، ألمانيا ، 1994.
* ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي (ت 711 هـ/1311م)
لسان العرب، تحقيق عبد الستار أحمد الفراج، ط1، دار صادر، بيروت، 1992.
* ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمربن علي بن أحمد (ت 804هـ/1401م)
طبقات الأولياء، تحقيق، نورالدين شريبان، ط2، مكتبة الخانجي ، القاهرة، 1994.
* النباهي، أبو الحسن بن عبد الله المالقي (حيا سنة 793هـ/1390م)
المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق، مريم قاسم الطويل، ط2، ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ/1995م.
* النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733 هـ/1331م)
نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة.
* **الجزء 24**، تحقيق حسين نصار، عبد العزيز الأهواني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1403هـ/ 1983.
* **الجزء 28**، تحقيق محمد محمد أمين محمد حلمي، 1992.
* الهروي، علي بن أبي بكر
التذكرة الهروية في الحيل الحربية، نشر ضمن : ***- Bulletin d`études orientales, Tom XVII , (1961-1962).***
* الوادي آشي، محمد بن جابر التونسي (ت 749 هـ/1348م)
برنامج الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، ط 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.
* الوزان، الحسن بن محمد (حيا سنة 957هـ/1550م)
وصف أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
* الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي (ت 914 هـ/1508م)
المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس المغرب، تحقيق محمد الحجي وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1401هـ/ 1981.

أسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، تحقيق، أبي يعلى البيضاوي، نشر ضمن سلسلة كشف خبايا الزوايا من تراث السلف وكنوز الخلف، (دت).

اليعقوبي. أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284 هـ/891م)

163* **تاريخ اليعقوبي**، دار صادر، بيروت، 1407هـ/ 1986م.

ج - المراجع والدراسات والمقالات العربية

* ابن أبي الضياف، أحمد

اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1976.

* أبراش، ابراهيم

الإجماع الملي السياسي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1988.

* أبو الأجفان، محمد.

الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني، الدار العربية للكتاب، تونس، 1988.

* بن أحمد، الصالح

بجاية في العهد الحفصي (628-748هـ/1230-1347م)، بحث في المنهجية لنيل دبلوم الدراسات المعمقة، جامعة قسنطينة، 1978.

* أحمد، علي

الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار طلاس، دمشق، 1989.

* الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين محمد البغدادي (ت1270هـ/1853م)

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (دت).

* أمزيان، محمد

« العقد السياسي وضوابط الممارسة السياسية قراءة من منظور فقهي »، **مجلة التجديد**، السنة السادسة، 12، (2002)، ص61-65.

* أومليل، علي

السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998.

* أيبش، أحمد

نصوص الفكر السياسي الإسلامي، منشورات دار الطليعة، بيروت، 1966.

* إيرفنغ، واشنطن

أخبار سقوط غرناطة، ترجمة الدكتور هلالي يحي نصري، مؤسسة الإنتشار العربي، لندن، 2002.

* باتسييفا، سفيتلانا

العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمة رضوان إبراهيم، الدار العربية لليبيا، تونس، (دت).

* بن حمادي، عمر

الفقهاء في عصر المرابطين، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس، 1987.

* بال، ألفرد

الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

* بن خوجة، محمد الحبيب

الحياة الثقافية بإفريقية صدر الدولة الحفصية، بحث مرقون، مكتبة جامعة الزيتونة، تحت رقم : 18599، 18754.

* بروكلمان، كارل

تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط3، دار المعارف، القاهرة.

* برونشفيك، روبار

تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 10 إلى القرن 13م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

* بن ساسي، جميلة بنت محمد

الحياة الإجتماعية في تونس من خلال فتاوى البرزلي، رسالة بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة، جامعة الزيتونة، تونس، 1999-2000م.

* بعيزيق، صالح

بجاية في العهد الحفصي : دراسة اقتصادية واجتماعية ، منشورات كلية الآداب، جامعة تونس، تونس، 2006.

الحياة الثقافية في بجاية في العهد الحفصي ، رسالة ماجستير، كلية 9 أفريل، تونس، **1988**.

« الإندماج القبلي في مجتمع المدينة : مثال قبيلة زواوة ومدينة بجاية في العهد الحفصي »، **المجلة التونسية للعلوم الإجتماعية**، عدد خاص 127، (2004)، ص115-136.

* البغدادي، إسماعيل باشا

هدية العارفين وأسماء المؤلفين وأثار المصنفين، وكالة المعارف الجليلة، استانبول ، 1955.

* بغورة، الزواوي

« مشكلة المعرفة والسلطة في التراث العربي الإسلامي من خلال سيرة بن خلدون »، **مجلة سيرتا**، 12، (1999)، ص75-85.

* بلغيث، محمد الأمين

النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في المغرب والأندلس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1998م.

فصول في التاريخ والعمران في الغرب الإسلامي، انتيرسنيي، الجزائر،

* بلغراد، محمد

« أعلام أقاموا ببجاية في القرن السابع الهجري »، **مجلة الأصالة**، 19، (1974)، ص173-180.

* بلميهوب، حفيظة

الإمام أبو زيد عبد الرحمن الوغليسي آثاره وآراؤه الفقهية مع تحقيق المقدمة الوغليسية في الفقه، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007 .

* بلنثيا، أنجل جنثالث

تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

* البنا، محمد إبراهيم

أبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي، دار البيان الغربي للنشر والتوزيع، جدة، 1985م.

2007.

* بوتشيش، إبراهيم القادري

المغرب والأندلس في عصر المرابطين : المجتمع، الذهنيات، الأولياء، ط 2، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تيطوان، المغرب، 2004.

بوداود، عبيد

ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين 7 و 9 : دراسة في التاريخ السوسيو- ثقافي-، دار الغرب، وهران.

تاريخ الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، 1994.

* بوشامة، عاشور

علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، 1991.

* البوعبدلي، المهدي

« الحياة الفكرية ببجاية على عهد الدولتين الحفصية والتركية وآثارها »، **مجلة الأصالة**، 19، (1994)، ص133-148.

* بوعزيز، يحيى

مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب، وهران، 2004.

« أعلام و شيوخ المنطقة الجرجرية ودورهم في مقاومة الغزو الثقافي الأجنبي »، **ملتقى أعلام البويرة**، 2005.

* بولطيف،لخضر

فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي (510-668 هـ/1116-1269)، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2002.

* بونابي، الطاهر

التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين/ 12 و13 الميلاديين، دار الهدى، عين مليلة، 2004.

* بونار، رابح

المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1986.

« عبد الحق الإشبيلي البجائي : محدث القرن السادس الهجري »، **مجلة الأصالة**، 19، (1974)، ص 259- 271

* تدميري، عمر عبد السلام

« مشاهدات وأخبار عبد الباسط الطاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط" الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" 866- 871 هـ»، **مجلة التاريخ العربي**، 17، ص111.

* الجابري، محمد عابد

فكر ابن خلدون : العصبية والدولة، ط 5، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992.

العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته، ط4، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000.

* جاد الرب، عبد القادر

« حركة المقاومة للدولة الموحدية - حركة بني غانية نموذجا-»، **مجلة التاريخ العربي**، 20، ص175-198.

* جدلة، إبراهيم

« السكان الحضر بإفريقية من ق13إلى ق16 م » : **الديموغرافية التاريخية بتونس**، دار سراس، تونس، ص85-100.

* جيدل، عمار

« التأليف في درس العقيدة الإسلامية في الجزائر خلال الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري –المدرسة السنية نموذجا- »، **مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان**، العدد الثاني، 2005، ص241-250.

* الجيلالي، عبد الرحمن

« لمحة عن زحف علي بن غانية الميورقي علي بجاية »، **مجلة الأصالة**، 19، (1974)، ص 31-37.

* حاجيات، عبد الحميد

أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

« ابن خلدون في بجاية »، **مجلة الأصالة**، 19، (1974)، ص 191-203.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* حدادي، أحمد

رحلة ابن رشيد السبتي أبي عبد الله محمد عمر : دراسة وتحليل، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2003.

* حركات، إبراهيم

مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9 هـ/ 15م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000.

النظام السياسي والحزبي في عهد المرابطين، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، (دت).

* الحريري، محمد عيسى

تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (618- 869 هـ)، دار القلم، الكويت، 1985.

* حسن، أحمد

نظرية الأجور في الفقه الإسلامي، دار إقرأ، (دت).

* حسن، علي حسن

الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980.

* حسن، محمد

المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، منشورات جامعة تونس الأولى، تونس، 1999.

الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول الى القرن التاسع الهجري، دار الكتاب الجديد، طرابلس، ليبيا، 2004.

القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح، تونس، 1986.

* الحسيسن عبد الهادي أحمد

مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي، اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي، المغرب- الإمارات، 1983.

« عبد الحق الإشبيلي البجائي الأزدي »، **مجلة دعوة الحق**، 7، السنة 24، 1983، ص 47- 53.

الحفناوي، أبو القاسم

تعريف الخلف برجال السلف، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت المكتبة العتيقة، تونس، 1985.

* حمادة، فاروق

« النهضة الفقهية في ظلال الدولة الموحدية »، **مجلة التاريخ العربي**، 4، ص 149 وما بعدها.

* حميش، سالم

الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت، 1998.

* حنفي، حسن

التراث والتجديد، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، 1980.

* الخالدي، محمود

قواعد نظام الحكم في الإسلام، مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع، الجزائر، 1991.

* خرماش، محمد

« دور المراكز التقليدية في الإشعاع الثقافي بالمغرب »، **مجلة الحضارة الإسلامية**، وهران، 2، 1416هـ/ 1996، ص165-176.

* الخضيري، صالح

« النشاط الثقافي لعلماء بجاية الأفريقية من خلال كتاب عنوان الدراية لأبي العباس الغبريني »، **مجلة آفاق الثقافة والتراث**، 38، (2002)، ص39 – 50.

* الخطيب، عبد الكريم

الخلافة والإمامة ديانة وسياسة، دار الفكر العربي، بيروت، 1963.

* خطيف، صابرة

فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية (633-791هـ/1235-1388م)، ، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2004 .

* خليل، أحمد خليل

المفاهيم الأساسية في علم الإجتماع، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، 1994.

* خليل، فوزي

دور أهل الحل والعقد في النموذج الإسلامي لنظام الحكم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1969.

* دحروج، إلهام حسين

مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية (حوالي 442-665هـ/1051-1247م)، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة، 2000.

* الدريني، محمد فتحي

« الفكر السياسي عند الغزالي والماوردي وابن خلدون »، **مجلة التراث العربي**، 22، جمادى الأولى 1406هـ/ 1986.

* الدولاتي، عبد العزيز

مدينة تونس في العهد الحفصي، تعريب محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتي، دار سراس، تونس، 1981.

* رزوق، محمد

الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17م، ط3، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1998.

* رضا، رشيد

الخلافة، موفم للنشر، الجزائر، 1992.

* رعد، محمد سعيد

« إقامة بن خلدون في بجاية ودوره فيها »، **مجلة الأصالة**، 19، (1974)، ص 205-226.

* روجي، الهادي إدريس

الدولة الصنهاجية : تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، ترجمة حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.

* زنيبر، محمد

« التبادل الثقافي بين الأندلس والمغرب وأثره في التطور العلمي بين البلدين »، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، جامعة محمد الخامس، الرباط، 16، (1991)، ص19-41.

* أبو زيد، أحمد

« فضل الأوقاف في بناء الحضارة الإسلامية »، **مجلة التاريخ العربي**، العدد 13، ص329.

* سالم محمد عزيز ظممي

الفكر السياسي والحكم في الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (دت).

* السراج، محمد بن محمد الوزير الأندلسي

الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1985.

* سعد الله، أبو القاسم

تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1995.

* السعيد، محمد

القبائل الهلالية والسليمية وعلاقاتها بالدولة الحفصية، تونس، 1987.

* بن سعيد، سعيد

دولة الخلافة دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ، مطبعة دار النشر العربية، الدار البيضاء، (دت).

* سعيدوني، ناصر الدين

« التجربة الأندلسية بالجزائر : مدرسة بجاية الأندلسية ومكانتها في الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط »، **الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات**، الرياض : مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1996، ص 79-104.

* السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997.

* السويدي، محمد

علم الإجتماع السياسي ميدانه وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (دت).

* السيد، رضوان

الجماعة والمجتمع والدولة، دار الكتاب العربي، بيروت،1997.

الأمة والجماعة والسلطة، إقرأ للنشر والتوزيع، بيروت، 1984.

* سيدي موسى، محمد الشريف

الحياة الفكرية في بجاية ما بين القرنين 7و10 الهجريين الموافق للقرن 13و16 الميلاديين، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2002.

* الشدادي، عبد السلام

ابن خلدون من منظور آخر، ترجمة محمد الهلالي وبشرى الفكيكي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2000.

* الشطشاط، علي حسين

نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 2001.

* شلق، الفضل

«**الفقيه والدولة الإسلامية**» ضمن : **الوعي بالعالم مراجعات ومتابعات**،دار الكتاب العربي، بيروت، 2000.

* شعبان، جمال

« قراءة جديدة في فكر ابن خلدون » : **مجلة المستقبل العربي**، 329، يوليو 2006، ص87-106.

* الشناوي، أحمد

دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشناوي وآخرون،دار المعرفة، بيروت.

* أبو الشوك، أحمد بن إبراهيم

« السلطة في الإسلام (قراءة نقدية للكتاب) »، **مجلة التجديد**، 11،(2001)، ص215-238.

* الشوكاني، محمدبن علي

البدرالطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق، علي محمدالبجاوي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1992.

* شيخ الأرض، تيسير

« علم الإجتماع السياسي عند ابن خلدون »، **مجلة التراث العربي**، 29، السنة الثامنة، دمشق، صفر 1408هـ/1978م.

جمعية العلماء عبد القادر للعلوم الإسلامية

* الصديق، حسين

الإنسان والسلطة إشكالية العلاقة وأصولها الإشكالية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

* الصغير، عبد المجيد

الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية، دار المنتخب، بيروت، 1415هـ/1994م.

« إشكالية السلطة والمعرفة في الإسلام (قراءة نقدية في كتاب السلطة الثقافية والسلطة السياسية) »، **مجلة التاريخ العربي**، 11، ص243 .

ضيف، شوقي

تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)، دار المعارف، القاهرة (دت).

* طالبي، عمار

« الحياة العقلية في بجاية : الفلسفة والكلام والتصوف »، **مجلة الأصالة**، 19، (1974)، ص 153-172.

* طالبي، محمد

« الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين »، **منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، تونس، 1928، ص165-206.

* الطمار، محمد بن عمرو

الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

* طه دنون عبد الواحد وآخرون

تاريخ المغرب العربي، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2004.

* الطوخي، أحمد محمد

« العلاقات الأندلسية الحفصية »، **الأندلس الدرس والتاريخ**، دار المعرفة الجامعية، 1995، ص65 وما بعدها

* الطويلي، أحمد

مراكز الثقافة والتعليم بمدينة تونس في العهد الحفصي (الجوامع والمدارس والمكتبات)، تونس، 2000 (دون دار الطبع).

عابد، يوسف

العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية 648-694هـ/ 1250-1296م، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 1995.

* العامري، نللي سلامة

الولاية والمجتمع : مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لإفريقية في العهد الحفصي،منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، 2001.

* بن عامر، أحمد

الدولة الحفصية، دار الكتب للنشر، تونس، (دت).

* بن عبد الله، حسين

علاقة العلماء بالسلطة الحفصية في إفريقية في العهد الحفصي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس، 1987.

* عبد العزيز، محمد عادل

التربية الإسلامية في المغرب أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1978.

* عبد الرؤوف، هاشم

رسالة ووصية من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشرالهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994.

* عبد الوهاب، حسن حسني

كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة وإكمال محمد العروسى المطوي وبشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، جمع وإشراف : محمد العروسي المطوي، مكتبة المنار، تونس، 1972.

* العربى، إسماعيل

عواصم بني زيري ملوك أشير– القلعة – بجاية –باطرناطة– المهدية، دار الرائد العربي، بيروت 1984.

* العروي، عبد الله

مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000.

* العريني، ابراهيم

الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، مطبوعات مكتبة عبد العزيز العامة، الرياض، 1995م.

* عطية، محي الدين

« حول التراث والعلوم السياسية »، **مجلة المسلم المعاصر**، 44، (1985)، ص94.

العلواني، طه جابر

إصلاح الفكر الإسلامي، دار الهدى للطباعة، الجزائر، (دت).

* العلوي، سعيد بنسعيد

« أبو الحسن الماوردي : المشرع القانوني والمفكر السياسي »، **مجلة التاريخ العربي**، عدد 4، ص41.

* عمارة، علاوة

« الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط : قراءة في نقاش تاريخي »، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية**، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 4، (2004)، ص 31- 75.

« مكانة الفكر العقدي في إنتاج العلوم والمعارف في الجزائر الحمادية (395-547هـ/1004-1152م) مقاربة سوسيولوجية »، **مجلة الدراسات العقدية ومقارنة الأديان**، 2، (2005)، ص211-239.

* عنان، محمد عبد الله

دولة الإسلام في الأندلس، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990.

« ابن خلدون في بجاية »، **مجلة الأصالة**، 19، (1974)، ص181-189.

* عون، عبد الرحمن

أبوعبد الله الأبي وكتابه الإكمال، الدار العربية للكتاب، 1983.

* عويس، عبد الحليم.

دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط 2، دار الصحوة للطباعة والنشر، القاهرة 1991.

« نماذج من التلاقي بين السياسي والدعوي في سياق الحضارة الإسلامية »، **مجلة الرسالة**، 10، (2004)، ص74-77.

* فتحة، محمد

النوازل الفقهية : أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى القرن 9هـ/12-15م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1999.، ص32

* فيلالي، بلقاسم

التعليم والدعوة الموحدية (510-524هـ/1116-1129م)، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2004.

* فيلالي، عبد العزيز

تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر، 2002.

« الزاوية الملارية مظهر من مظاهر التصوف السني وأثره في فج مزالة »، **أعمال الملتقى الأول لكتامة**، المنعقد بفرجيوة أيام 23-24 ماي، 2005.

* القابسي، نجاح صلاح الدين

« رحلة ابن رشيد »، **مجلة التاريخ العربي**، عدد 3، ص301 وما بعدها.

* القاسمي، جمال الدين

الفتوى في الإسلام، تحقيق، محمد عبد الحكيم القاضي، قصر الكتاب، الجزائر، 1988.

* القونجي، صديق بن حسن

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978.

* قلقيلة، عبد العزيز

من التراث الأدبي للمغرب العربي، عالم الكتب، القاهرة، 1979.

* الكبيسي، خليل إبراهيم

دور الفقهاء في الحياة السياسية والإجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة، جامعة بغداد، 1980.

* الكتاني، عبد الحي

فهرس الفهارس، دار الغرب الإسلامي، تحقيق، إحسان عباس، 1986.

* كحالة، رضا

معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.

* لدرع، آمال

الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني (633-962 هـ/1236-1555م)، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2006 .

*وتي ، دلال

عامة القيروان في العصر الأغلبي (184-296هـ/800- 909م)، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2002.

* لومبار، موريس

الإسلام في مجده الأول ق 8- 11 م، ترجمة إسماعيل العربي، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.

* مارسي، جورج

بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، مصر (دت).

تلمسان، ترجمة سعيد دحماني، ط2، دار النشر التل، 2004.

* بن مامي، محمد الباجي

« التعليم بجامع الزيتونة وبمدارس العلم في العهد الحفصي »، **مجلة التاريخ العربي**، عدد 17، ص 253 وما بعدها.

« أوجه من الحضور الأندلسي بمدينة تونس » ، **مجلة التاريخ العربي**، عدد 3، ص133 وما بعدها.

* مجاني، بوبة

أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، منشورات جامعة قسنطينة، 2003.

« تحفة الوارد في إختصاص الشرف من الوالد لأبي العباس أحمد بن علي بن حسن بن الخطيب المعروف بابن القنفد القسنطيني (ت 810 هـ/ 1407م) مقاربة أولية »، **مجلة سيرتا**،11، (1998)، ص151-159.

« المدارس الحفصية : نظامها ومواردها »، **مجلة العلوم الإنسانية**، 12، (1995)، ص157-164.

* محمود، عبد الحليم

شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث ومعراجه إلى الله، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (دت).

* بن مخلوف، محمد بن محمد

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، بيروت، (دت).

* المراكشي، عباس بن إبراهيم

الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، **الجزء 1و 2** (1974)، **الجزء 3** : (1975)، **الجزء 4و 5** : (1976)، **الجزء 6و7و 8** : (1977)، **الجزء 9** : (1980)، **الجزء 10** : (1983).

* المريني، نجاة

« وصايا وتوقيعات أندلسية من خلال مخطوط رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير »، **مجلة التاريخ العربي**، الرباط، العدد 3، ص227 وما بعدها.

* المسعودي، محمد مهدي

العلماء والمعلمون بالمجتمع المغربي في القرون الإسلامية الأولى، مركز الدراسات والأبحاث الإقتصادية والإجتماعية، جامعة تونس 1، تونس، 1993.

* أبو مصطفى، كمال السيد

جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1996.

* مصطفاوي، رشيد

« بجاية في عهد الحماديين »، **مجلة الأصالة**، 1، (1971).

* المطوي، محمد العروسي

السلطنة الحفصية : تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

* المغراوي،محمد

« تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي إلى عهد يعقوب المنصور »، **مجلة آفاق الثقافة والتراث**، الإمارات العربية المتحدة، 31، 2000م، ص24-33.

* مغربي، عبد الغني

سوسيولوجية الفكر الخلدوني، تقديم وتعريب محمد الشريف بن دالي حسين، الجزائر: دار القصبة، 2006.

* المناعي، عائشة يوسف

أبو حفص عمر السهروردي حياته وتصوفه، دار الثقافة، الدوحة، 1991.

* المنوني،محمد

ورقات عن حضارة المرينيين، ط2، كليةالآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1996.

* بن منصور، عبد الوهاب

قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط ، 1388هـ/ 1968.

أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، 2004.

* موسى، عزالدين عمر

الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991.

* مؤنس، حسين

تاريخ المغرب وحضارته، العصرالحديث للنشر والتوزيع ، بيروت، 1992.

* ميراندا، هوشي

التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد أكمير، منشورات الزمن، الرباط 2004.

* نخبة من أساتذة علم الإجتماع

المرجع في المصطلحات الإجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (دت).

* نوري، موفق سالم

العامة والسلطة في بغداد، دار الكتاب الثقافي، الأردن، 2002.

* نويهض، عادل

معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980.

* النيفر، محمد

عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب، المطبعة التونسية، تونس، 1932م.

* هلال، عمار

« العلماء الجزائريون في الأندلس فيما بين القرنين (10و14م/4و8 هجرية) » **مجلة الدراسات التاريخية**, 8, (1993-1994).

* ولد دادة، محمد

مفهوم الملك في المغرب، مفهوم الملك في المغرب من النصف الأول الى منتصف القرن السابع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة،1977.

* ياسين، عبد الجواد

السلطة في الإسلام العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998.

د- المراجع والمقالات باللغات الأجنبية

* Amara, Allaoua, *Pouvoir, économie et société dans le Maghreb hammadide (395-547/1004-1152)*, Thèse de doctorat, Université Paris I - Sorbonne, 2000.

- id., «Quelques aspects de la vie économique au Maghreb central d'aprés les consultations juridiques rendues par AI-Waglisi», *Journal des Sciences*, 4 (2005), p. 23-30.

Baizig, Salah, «Individu ordinaire et pouvoir réligieux à Bidjaya à l'époque médiévale : Typologie des comportements», séminaire Hammamet, 4-6 Mai, Tunis, 2000.

- id., «L'élite andalouse à Tunis et à Bougie et le pouvoir hafside», *Mélanges de l'Ecole française de Rome*, 2003, p, 523-542.

* Balleto, Laura, « Bougie nei manuali toscani di mercatura del due –trecento », *Italia et Algeria*, Milano, 1982, p, 81-95.

Beylié, Général de, *La Kalaa des Beni Hammad, une capitale berbère de L'Afrique du Nord auXI e siécle*, Paris, 1909.

* Bouali, Sidi Ahmed, *Les deux grands sièges de TLemcen*, Entreprise Nationale du Livre, Alger,1984.

* Bourouiba, Rachid, *L'art religieux musulman en Algerie*, rééd. SNED, Alger,1983.

- id., *Ibn Tumart*, rééd. SNED,Alger, 1982.

* Bottomore, Thomas, *Elites and Society*,Watts, London, 1964.

* Bourdieu, Pierre, *La noblesse d'Etat*, Minuit, Paris, 1989.

* Cahen, Claude, « Les finances urbaines dans le moyen âge musulman », Bruxelles, *Correspondance d'Orient*, 1970.

* Carl, Petry

- *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages : Social Autonomy and Political Adversity in Mamluk Egypt*, Princeton, University Press (Princeton Studies in the Near East) 1982.

- "The Military Institution and Innovation in the Late Mamluk Period," *The Cambridge History of Egypt* vol. 1,(Cambridge, 1998).

* Cherbonneau, (A), «Aicha. Poète de Bougie, au Vll[e] siècle de l'hégrie», *Revue Africaine*, 19 (1859), p.34.

* Daghfous, Radhi, « Hilaliens et pouvoir politique en Ifriqiya », *Mélanges de l'Ecole française de Rome*, 2003.

* Féraud, Laurent Charles, *Histoire de Bougie*,rééd., Bouchenés, Paris, 2001.

- id., «Conquête de Bougie par Ies Espagnols d`après un manuscrit arabe d`Abou Ali Ibrahim el-Merini», *Revue Africaine*, 12 (1968), p. 245-276.
* Gaid, Mouloud , *Histoire de Béjaia et de sa région depuis L'Antiquité jusqu'à 1954*,SNED, Alger, Avril,1976.
* Geaneto, Mosca, *Histoire des doctrines politiques*, tra. de l'talien par G. Bouthoul, Paris, 1966.
* Makdisi,George, *History and Politics in Eleventh-Century Baghdad* (Collected Studies Series, No 336) Hardcover, Mar 1991.
-id., Rise of Colleges : *Institutions of Learning in Islam and the West*, Hardcover , Aug 1981.
- id., *Religion, Law & Learning in Classical Islam* (Collected Studies Series Cs347), Hardcover, Oct 1991.
- id., *Ibn Qudama's Censure of Speculative Theology: An edition and translation of Ibn Qudama's Tahrim an-nazar fi kutub ahl al-kalam, with introduction and notes; a contribution to Islamic religious History*, Hardcover – 1962.
- id., *The Rise of Humanism in Classical Islam and the Christian West*, Scotland: Edinburgh, University Press, 1990.
- id., « Ibn 'Aqīl et la résurgence de l'Islam traditionaliste au XI[e] siècle (Ve siècle de l'Hégire) », *Arabica*, vol. 12-2, (1965), p. 200-204.
* Mas, Latrie, *Traité de paix et de commerce concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge*, Paris, 1886.
* Robert, Michles, Les partis politiques, Essai sur les tendances oligarchiques des démocratie politiques, éd. originale en italien 1911.
* Urvoy, Dominique
- « La stucturation du monde des ulamas à Bougie au Vll-Xlll[e] siècle », *Studia Islamica*, Xllll, (1979), p. 87-107.
- id., *Pensers d'al-Andalus. La Vie intellectuelle à Cordoue et Séville au temps des Empires berbères (fin XIe siècle-début XIIIe siècle)*, Flammarion, Paris, 1990.
* Valérian, Dominique, *Bougie port maghrébin,1067-1510*, Ecole française de Rome,2006.
* Vilfredo, Pareto
Traité de sociologie générale, Traduit de l'italien par Franc. Payot, Lausanne, Paris, 1917-1919.

فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوع

المقدمة : ص1

الفصل الأول

النخبة والسلطة بين الرؤية التراثية الحديثة والنظرية السوسيولوجية الغربية

أولا : النخبة مقاربة بين الرؤية السوسيولوجية الغربية والرؤية التراثية ص16

ثانيا : النخبة والسلطة في الآداب السلطانية (مرايا الملوك) ص28

الفصل الثاني :

ولاة بجاية ونخبها وتشكل الفضاء السياسي والعلمي للمدينة

أولا : بجاية من التأسيس إلى قيام الدولة الحفصية ص41

تأسيس المدينة ص41

بجاية الموحدية ص44

بجاية تحت النفوذ الحفصي ص46

ثانيا : ولاة بجاية بين الولاء للمركز والرغبة في تشكيل فضاء سياسي مستقل ص49

والي حفصي بإرث موحدي.....ص50

قراءة إحصائية للولاة ص51

الولاة طرق التعيين والمهام والانتماءات الأسرية.....ص54

تشكل الفضاء السياسي للمدينة ص64

ثالثا : النخبة العلمية وتشكل الفضاء العلمي للمدينة ص71

1- الأصول الإثنية للنخب البجائية ص71

2- الأصول الجغرافية ص73

3- نخبة نسوية نادرة ص87

4- توسع الفضاء العلمي البجائي ص88

5- تخصصات النخب العلمية ص103

الفصل الثالث :

النخبة والسلطة في بجاية من خلال الجهاز الديني

أولا : السلطة والخطط الدينية نجاح مقرون بالفشل ص112

1- المساجد ببجاية بين الموروث القبلي والعناية الحفصية ص112

2- الخطط الدينية ورقابة السلطة ص114

ثانيا : التدريس بين وصاية السلطة والفضاء الحر للمدرسين ص132

1- هيئة التدريس أية وصاية للسلطة عليها؟ ص132

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2- المدرسون بين الإعراض عن الخطط وعصا السلطة (عينات ونماذج) ص137
ثالثا : المؤسسة القضائية تجسد الاستقلالية عن السلطة ص143
1- قاضي المدينة أم قاضي الجماعة ببجاية؟ ص143
2- قضاة بجاية سلطة التعيين والشروط المطلوبة ص144
3- انتماءاتهم الجغرافية 147
4- القضاة البجائيين قراءة في دورهم وعلاقتهم بالسلطة ص148
5- العدالة ص155

الفصل الرابع :

النخبة والسلطة من خلال الجهاز الإداري والعسكري والتجاري

أولا : الجهاز الإداري والتمردات المتكررة على الأمراء ص158
1- الحجابة بين نفوذ الأشياخ وسلطة الأندلسيين ص158
2- الهيمنة الأندلسية على المالية (صاحب لأشغال) ص178
3- الكتاب المحليون ينافسون الأندلسيون ص181
ثانيا : النخب العسكرية بين ولاء القادة المحليين وهيمنة الموالي ص190
1- الأسر المحلية تتفوق قيادة وولاءً ص194
2- هيمنة الموالي على قيادة الجيش ص197
ثالثا : التجار الكبار يساهمون في صنع ملك بجاية ص202
1- نخبة فقهية وتجارية 202
2- دور المال في صناعة الملك مقابل تحصيل الجاه ص203

الفصل الخامس :

تبلـــور المعـــــارضـــــة الحـــضـــرية

أولا : المتصوفة و المعارضة الصامتة للسلطة ص211
1- محاولات التقريب والاحتواء ص212
2- المعارضة الصامتة ص217
3- أزمة مجتمع والصوفية بديلا لغياب السلطة ص221
ثانيا : نخبة المجتمع الريفي يحاولون كسر شوكة السلطة..... 228
1- شيوخ القبائل نخبة المجتمع الريفي.....ص229
2- شيوخ القبائل والمساهمة في استقلال بجاية ص230
3- دور العطاء في تنمية الولاء ص233
4- تغذية الصراع المحلي المحلي والمحلي المغاربي ص236

الخاتمة ص244
الملاحق ص247
قائمة المصادر والمراجع ص255
فهرس الموضوعات ص284

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية